http://www.shamela.ws

تم إعداد هذا الملف آليا بواسطة المكتبة الشاملة

الكتاب : تفسير الشعراوي

قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (4)

هذا هو النداء ، أو الدعاء الذي دعا به زكريا عليه السلام : { رَبِّ إِنِّي وَهَنَ العظم مِنِّي } [مريم : 4] ويرد في الدعاء أن نقول : يا رب . أو نقول : يا الله ، فقال زكريا (رب) أي : يا رب؛ لأنه يدعو بأمر يتعلق بعطاء الربوبية الذي يشمل المؤمن والكافر ، إنه يطلب الولد ، وهذا أمر يتعلق ببنية الحياة وصلاحها للإنجاب ، وهذه من عطاء الرب سبحانه وتعالى ، وإن كانت العلقة في طلب الولد إلهية ، وهي أنْ يحمل المنهج من بعد أبيه .

فكأن زكريا عليه السلام دعا ربه : يا ربّ يا مَنْ تعطي مَنْ آمن بك ، وتعطي مَنْ كفر ، يا مَنْ تعطي مَنْ أطاع ، وتعطي مَنْ عصى ، حاشاك أن تمنع عطاءك عمَّن أطاعك ويدعو الناس إلى طاعتك .

أما الدعاء بالله ففي أمور العبادة والتكليف .

ثم يُقدِّم زكريا عليه السلام حيثيات هذا المطلب : { رَبِّ إِنِّي وَهَنَ العظم مِنِّي } [مريم : 4] والوَهَن هو الضعف ، وقال : { وَهَنَ العظم } [مريم : 4] لأن لكل شيء قواماً في الصلابة والقوة ، فمثلاً الماء له قوام معروف والدُّهْن له قوام ، واللحم له قوام ، والعصب والعظم وكل عناصر تكوين الإنسان ، والعَظْم هو أقوى هذه الأشياء ، والعَظْم في بناء الجسم البشري مثل (الشاسيه) في لغة العصر الحديث ، وعلى العظم يبنى جسم الإنسان من لحم ودم وعصب ، فإذا أصاب العظام وهي أقوى العناصر ضعفٌ ووهنٌ فغيرها من باب أَوْلى .

لذلك ، فإن الرجل العربي حينما شكا الجدب والقحط ماذا قال؟ قال : مرَّتْ بنا سنون صعبة : فَسنة أذابتْ الشحم أي : بعد الجوع وعدم الطعام وسنة أذهبت اللحم أي : بعد أن أنهت الشحم وسنة محَّت العظم .

فكأن العَظْم هو آخر مخزن من مخازن القوت في جسم الإنسان ساعة أن ينقطع عنه الطعام والشراب . والعظم في هذه الحالة يُوجِّه غذاءه للمخ خاصة؛ لأنه ما دام في المخ بقية قبول حياة فما حدث للجسم من تلف قابل للإصلاح والعودة إلى طبيعته ، إذن : فسلامة الإنسان مرتبطة بسلامة المخ .

لذلك نجد الأطباء في الحالات الحرجة يُركّزون اهتمامهم على سلامة المخ ، ويرتبون عليه حياة الإنسان أو موته ، حتى إن توقف القلب فيمكنهم بالتدليك إعادته إلى حالته الطبيعية ، أما إنْ توقف المخ فهذا يعني الموت .

فكأن نبي الله زكريا عليه السلام يقول : يا رب ضعف عظمي ، ولم يَعُدْ لديَّ إلا المصدر الأخير لاستقباء الحياة .

ولما كان العظم شيئاً باطناً مدفوناً تحت الجلد ، فهوحيثية باطنة ، فأراد زكريا عليه السلام أنْ يأتيَ بحيثية أخرى ظاهرة بينة ، فأتى بأمر واضح : { واشتعل الرأس شَيْباً } [مريم : 4] فشبّه انتشار الشيب في رَأْسه باشتعال النار ، فالشعر الأبيض الذي يعلوه واضح كالنار .

والمتأمل في هذا التشبيه يجد أن النار أيضاً تتغذى على الحطب وتظل مشتعلة لها لهب يعلو طالما في الحطب الحيوية النباتية التي تمد النار ، فإذا ما انتهتْ هذه الحيوية النباتية في الحطب أخذت النار في التضاؤل ، حتى تصير جَذْوة لا لَهَبَ لها ثم تنطفىء .

واشتعال الرأس بالشيب أيضاً دليل على ضعف الجسم ووَهَن قُوته؛ لأن الشعر يكتسب لونه من مادة مُلوّنة سوداء أو حمراء أو صفراء توجد في بُصَيْلة الشعرة ، وتُمد الشعرة بهذا اللون ، وضعْفُ الجسم يُضعِف هذه المادة تدريجياً ، حتى تختفي ، وبالتالي تخرج الشعرة بيضاء ، والبياض ليس لوناً ، إنما البياض عدم اللون نتيجة ضَعْف الجسم وضَعْف الغُدَد التي تفرز هذا اللون .

لذلك ، نجد المترفين الذين يعنون كثيراً بشعرهم ويضعُون عليه المواد المختلفة أول ما يظهر الشيب عندهم تبيض سوالفهم؛ لأن السوالف عادة بعد أنْ يُهذِّبها الحلاق تأخذ أكبر قدر من المواد الكاوية التي تؤثر على بُصيْلات الشعر وعلى هذه المادة الملونة ، والشعرة مثل الأنبوبة يسهل توصيل هذه المواد منها خاصة بعد الحلاقة مباشرة وما تزال الشعرة مفتوحة .

ثم يقول : { وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّاً } [مريم : 4] أي : لم أكُنْ فيما مضى بسبب دعائي لك شقياً؛ لأني مُستجَابُ الدعوة عندك ، فكما أكرمتني سابقاً بالإجابة فلم أكُنْ شقياً بدعائك ، بل كنتُ سعيداً بالإجابة ، فلا تُخلِف عادتك معي هذه المرة ، واجعلني سعيداً بأنْ تُجيبني ، خاصة وأن طلبي منك طاعة لك ، فأنا لا أريد أنْ أخرج من الدنيا إلاَّ وأنا مطمئن على مَنْ يحمل المنهج ، ويقوم بهذه المهمة من بعدي .

وأنت قد تدعو الله لأمر تحبه ، فإذا لم يأْتِ ما تحبه ولم تحب حزنت وكأنك شقيت بدعائك ، وقد يكون شقاءَ كذب ، لأنك لا تدري الحكمة من المنع وعدم الإجابة ، لا تدري أن الله تعالى يتحكم في تصرفاتك .

وربما دعوْت بأمر تراه الخير من وجهة نظرك وفي علم الله أنه لا خَيْرَ لك فيه ، فمنعه عنك وعدَّل لك ما أخطأتَ فيه من تقدير الخير ، فأعطاك ربك من حيث ترى أنه منعك ، وأحسن إليك من

حيث ترى أنه حرمك ، لأنك طلبتَ الخير من حيث تعلم أنت أنه خير ومنع الله من حيث يعلم أن الخير ليس في ذلك .

ثم يذكر زكريا عليه السلام عِلَّة أخرى هي علة العِلَل ولُبّ هذه المسألة ، فيقول : { وَإِنِّي خِفْتُ الموالي }

وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (5)

(المَوَالِي) من الولاء ، وهم أقاربه من أبناء عمومته ، فهم الجيل الثاني الذي سيأتي بعده ، ويخاف أنْ يحملوا المنهج ودين الله من بعده؛ لأنه رأى من سلوكياتهم في الحياة عدم أهليتهم لحمْل هذه المهمة .

{ مِن وَرَآئِي } [مريم : 5] سبق أن أوضحنا في سورة (الكهف) أن كلمة وراء تأتي بمعنى : خلف ، أو أمام ، أو بعد ، أو غير . وهنا جاءت بمعنى : من بعدي .

ثم يقول : { وَكَانَتِ امرأتي عَاقِراً } [مريم : 5] والعاقر هي التي لا تلد بطبيعتها بداية ، أو صارت عاقراً بسبب بلوغها سِنَّ اليأس مثلاً . ونحن نعلم أن التكاثر والإنجاب في الجنس البشري ينشأ من رجل وامرأة ، وقد سبق أنْ وصفَ زكريا حاله من الضعف والكبر ، ثم يخبر عن زوجته بأنها عاقرٌ لا تلد ، إذن : فأسباب الإنجاب جميعها مُعطلَّة .

وقوله : { وَكَانَتِ امرأتي عَاقِراً } [مريم : 5] أي : هي بطبيعتها عاقر ، وهذا أمر مصاحب لها ليس طارئاً عليها ، فلم يسبق لها الإنجاب قبل ذلك .

ثم يقول : { فَهَبْ لِي } [مريم : 5] والهِبَة هي العطاء بلا مقابل ، فالأسباب هنا مُعطَّلة ، والمقدمات تقول : لا يوجد إنجاب؛ لذلك لم يقُلْ مثلاً : أعطني؛ لأن العطاء قد يكون عن مقابل ، أما في هذه الحالة فالعطاء بلا مقابل وبلا مقدمات ، فكأنه قال : يارب إنْ كنتَ ستعطيني الولد فهو هِبَة منك لا أملك أسبابها؛ لذلك قال في آية أخرى عن إبراهيم عليه السلام : { الحمد للَّهِ الذي وَهَبَ لِي عَلَى الكبر إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ } [إبراهيم : 39] .

ولنا وَقْفة ومَلْحظ في قوله تعالى { عَلَى الكبر } [إبراهيم : 39] حيث قال المفسرون : (على) هنا بمعنى (مع) و (على) ثلاثة أحرف و (مع) حرفان ، فلماذا عدل الحق تبارك وتعالى عن الخفيف إلى الثقيل؟ لا بد أن وراء هذه اللفظ إضافةً جديدة ، وهي أن (مع) تفيد المعية فقط ، أما (على) فتفيد المعية والاستعلاء ، فكأنه قال : إن الكِبَر يا رب يقتضي ألاَّ يوجد الولد ، لكن طلاقة قدرتك أعلى من الكِبَر .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : { وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ على ظُلْمِهِمْ } [الرعد : 6] كأن الظلم يقتضي أن يُعاقبوا ، لكن رحمة الله بهم ومغفرته لهم عَلَتْ على استحقاق العقاب .

وقوله : { مِن لَّدُنْكَ } [مريم : 5] أي : من عندك أنت لا بالأسباب (وَلِياً) أي : ولداً

صالحاً يليني في حَمْل أمانة تبليغ منهجك إلى الناس لِتسْلَم لهم حركة الحياة .
ثم يقول : { يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ }

يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (6)

سبق أن أوضحنا أن الميراث هنا لا يُراد به ميراث المال؛ لأن الأنبياء لا يورثون ، وما تركوه من مال فهو صدقة من بعدهم ، إنما المراد هنا ميراث العلم والنبوة والمُلْك ، وحَمْل منهج الله إلى الناس ، ونلحظ أنه لم يكتَفِ بقوله (يَرِثُنِي) بل قال : { يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ } [مريم : 6] فلستُ أنا القمة في الطاعة في آل يعقوب ، فهناك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، وهذا تواضع منه ومراعاة لأقدار الرجال وإنزالهم منازلهم .
وقوله : { واجعله رَبِّ رَضِيّاً } [مريم : 6] أي : مرضياً عنه منك .
ثم يقول الحق سبحانه : { يازكريآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ }

يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (7)

المتأمل لهذه القصة يجد هذه الآية قد اختصرت من القصة ما يفهم من سياقها ثقةً في نباهة السامع ، وأنه قادر على إكمال المعنى ، فكأن معنى الآية : سمع الله دعاء زكريا وحيثيات طلبه ، فأجابه بقوله : { يازكريآ } [مريم : 7] .
وتوجيه الكلام إلى زكريا عليه السلام هكذا مباشرة دليلٌ على سرعة الاستجابة لدعائه ، فجاءت الإجابة مباشِرة دون مُقدّمات .
ومثال ذلك : ما حكاه القرآن من قصة سليمان عليه السلام وبلقيس ، قال سليمان : { أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِّن الجن أَنَاْ آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الذي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الكتاب أَنَاْ آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ قَالَ هذا مِن فَضْلِ رَبِّي ليبلوني أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ } [النمل : 3840] فبيْنَ قوله : { قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ } [النمل : 40] وقوله : { رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ } [النمل : 40] كلام يقتضيه سياق القصة ، كأن نقول : فأذِن له فذهب وأتى بالعرش ، لكن جاء الأسلوب سريعاً ليتناسب مع سرعة الحدث في إحضار عرش بلقيس من مكانه .
وقوله : { إِنَّا نُبَشِّرُكَ } [مريم : 7] البشارة : هي الإخبار بما يسرُّك قبل أن يجيء ليستطيل أمدَ الفرح بالشيء السَّار ، وقد يُبشرك مُساويك ويكذب في البُشْرى ، وقد تأتي الظروف والأحداث مُخالفة لما يظنه ، فكيف بك إذا بشّرك الله تعالى؟ ساعة أن تكون البشارة من الله فاعلم أنها حَقٌّ وواقعٌ لا شكَّ فيه .

وقوله : { بِغُلاَمٍ اسمه يحيى } [مريم : 7] أي : وسماه أيضاً . ونحن نعلم أن للبشر اختيارات في وَضْع الأسماء للمسميات ، ولهم الحرية في ذلك ، فواحدة تُسمى ولدها (حرنكش) هي حرة ، والأخرى تسمى ابنتها الزنجية (قمر) هي أيضاً حرة .

إلا أن الناس حين يُسمُّون يتمنون في المسمّى مواصفات تَسرُّ النفس وتقرُّ العين ، فحين نُسمِّي سعيداً تفاؤلاً بأن يكون سعيداً فعلاً ، والاسم وُضِع للدلالة على المسمى ، لكن ، أيملك هذا المتفائل أن يأتي المسمى على وَفْق ما يحب ويتمنى؟ لا ، لا يملك ذلك ولا يضمنه؛ لأن هناك قوة أعلى منه تتحكم في هذه المسألة ، وقد يأتي المسمَّى على غير مُراده .

أما إذا كان الذي سمّى هو الله تعالى فلابد أن يتحقق الاسم في المسمَّى ، وينطبق عليه ، ولابُدَّ أنْ يتحقَّق مراده تعالى في مَنْ سَمَّاه ، وقد سَمَّى الحق تبارك وتعالى ابن زكريا يحيى فلا بُدَّ أن تنطبق عليه هذه الصفة ، ويحيى فعل ضده يموت ، إذن : فهو سبحانه القادر على أن يُحييه ، لكن يحييه إلى متى؟ وكم عاماً؟ الحياة هنا والعيش يتحقق ولو بمتوسط الأعمار مثلاً ، فقد أحياه وتحققت فيه صفة الحياة .

ولذلك استدل أهل المعرفة من تسميته يحيى على أن ابن زكريا سيموت شهيداً ليظل حياً كما سماه الله وقد كان .

وقوله : { لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً } [مريم : 7] السميُّ : اختلف العلماء في معناها فقالوا : تأتي بمعنى : نظير أو مثيل أو شبيه وإما سمياً يعني : اسمه كاسمه .

ومن ذلك قوله تعالى : { رَّبُّ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فاعبده واصطبر لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً } [مريم : 65] فقالوا : سمياً هنا تحمل المعنيين : هل تعلم له نظيراً أو شبيهاً؛ لأنه سبحانه { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } [الشورى : 11] { وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ } [الإخلاص : 4] .

ويمكن أن نقول بهذا المعنى أيضاً في قصة يحيى عليه السلام ، إلا أنه يقع فيه شيء وهو : أن الله تعالى حينما قال في مسألة يحيى : { لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً } [مريم : 7] واعتبرناها بمعنى المِثْل أو النظير والشبيه ، فهذا يعني أنه لم يسبق يحيى واحد مثله في الصلاح والتقوى ، فأين إذن أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام؟ وأين إسماعيل وإسحق؟

فهذا المعنى وإن كان السياق يحتمله في غير هذا الموضع إلا أنه لا يستقيم هنا؛ لأن الله تعالى جعل من قَبْل يحيى مَنْ هو أفضل من يحيى ، أو مثله على الأقل .

أما المعنى الآخر فيكون : { هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً } [مريم : 65] أي : هل هناك مَنْ تسمى باسمه تعالى؟ وهذا هو المعنى الذي يستقيم في قصة يحيى عليه السلام؛ لأنه أول اسم وضعه الحق سبحانه على ابن زكريا ، ولم يكن أحدٌ تسمى به من قبل ، أما بعده فقد انتشر هذا الاسم ، حتى

قال الشاعر :

وسَمَّيتُه يَحْيى ليحيى فلم يكُنْ ... لِردِّ قَضَاءِ اللهِ فِيهِ سَبِيلُ

ونقف هنا على آية من آيات الله في التسمية ، حيث لم يجرؤ أحد حتى من الكفرة والملاحدة الذين يجاهرون بإلحادهم ويعلنون إنكارهم للخالق سبحانه ، لم يجرؤ أحدهم أن يسمى ولده (الله) ، وحرية اختيار الأسماء مكفولة ، وهذا إنْ دَلَّ فإنما يدلُّ على أن كفرهم عناد ولَجَجٌ ، وأنهم غير صادقين في كُفْرهم ، ويعلمون أن الله موجود؛ لذلك يخافون على أنفسهم وعلى أولادهم أنْ يُسمّوا بهذا الاسم .

إذن : كلمة (سَمِياً) في مسألة الألوهية تُؤخَذ على المعنيين ، أما في مسألة يحيى فلا تحتمل إلا المعنى الثاني .

وَهبْ أن الحق سبحانه وتعالى استعرض الأسماء السابقة فلم يجد في الماضي من سُمِّي (الله) فأعلنها تحدياً : { هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً } [مريم : 65] ؟ فلم يحدث بعد هذا التحدي أنْ يُسمَّى أحد بهذا الاسم .

قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (8)

لما سمع زكريا عليه السلام البشارة من ربه ، واطمأن إلى حصولها أغراه ذلك في أنْ يُوغل في معرفة الوسيلة ، وكيف سيتم ذلك ، وتتحقق هذه البشارة حالَ كوْنه قد بلغ من الكبر عتياً وامرأته عاقر؟

لكن ماذا يقصد زكريا من سؤاله ، وهو يعلم تماماً أن الله تعالى عالم بحاله وحال زوجه؟ الواقع أن زكريا عليه السلام لا يستنكر حدوث هذه البشرى ، ولا يستدرك على الله ، وحاشاه أنْ يقصد ذلك ، وإنما أطمعته البُشْرى في أنْ يعرف الكيفية ، كما حدث في قصة موسى عليه السلام حينما كلَّمه ربه واختاره ، وأفرده بهذه الميزة فأغراه الكلام في أنْ يطلب الرؤيا ، فقال : { رَبِّ أرني أَنظُرْ إِلَيْكَ } [الأعراف : 143] .

وكما حدث في قصة إبراهيم عليه السلام لما قال لربه : { رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الموتى } [البقرة : 260] وأبو الأنبياء لا يشكّ في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى ، ولكنه يريد أنْ يعرف هذه الطريقة العجيبة ، فالكلام ليس في الحقيقة وجوداً وعدماً ، إنما في كيفية وجود الحقيقة ، والكلام في الكيفية لا دخْلَ له بالوجود .

فأخبره الحق سبحانه أن هذه المسألة لا تُقال إنما تُباشَر عملياً ، فأمره بما نعلم من هذه القصة : وهو أن يحضر أربعة من الطير بنفسه ، ثم يضمهنّ إليه ليتأكد بنفسه من حقيقتها ، ثم أمره أنْ يُقطِّعهن أجزاء ، ثم يُفرِّق هذه الأجزاء على قمم الجبال ، ثم بعد ذلك ترك له الخالق سبحانه أنْ يدْعُوَهُن بنفسه ، وأن يصدر الأمر منه فتتجمع هذه القطع المبعثرة وتدبّ فيها الحياة من جديد

، وهذا من مظاهر عظمته سبحانه وتعالى أنه لم يفعل ، بل جعل مَنْ لا يستطيع ذلك يفعله . ويقدر عليه .

فإنْ كان البشر يُعَدُّون أثر قدرتهم إلى الضعفاء ، فمَنْ لا يقدر على حَمْل شيء يأتي بمَنْ يحمله له ، ومَنْ يعجز عن عمل شيء يأتي بمَنْ يقوم به ، ويظل هو ضعيفاً لا يقدر على شيء ، أما الحق سبحانه وتعالى فيُعدِّي قوته بنفسه إلى الضعيف فيصير قوياً قادراً على الفعل .

فقوله : { أنى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ } [مريم : 8] ؟ سؤال عن الكيفية ، كما أن إبراهيم عليه السلام لما قال له ربه : { أَوَلَمْ تُؤْمِن } [البقرة : 260] ؟ أي : بقدرتي على إحياء الموتى ، قال (بَلَى) أي : نعم أومن { وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي } [البقرة : 260] أي : الكيفية التي يتم بها الإحياء .

أو : أن زكريا عليه السلام بقوله : { أنى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ } [مريم : 8] يريد أن يُوثِّق هذه البشرى ويُسجِّلها ، كما تَعِد ولدك بأنْ تشتري له هدية فيُلِحّ عليك في هذه المسألة ليؤكد وَعْدك له ، ويستلذ بأنه وَعْد مُحقَّق لا شكَّ فيه ، ثم يذكر زكريا حيثيات تعجُّبه من هذا الأمر فيقول : { وَكَانَتِ امرأتي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكبر عِتِيّاً } [مريم : 8] .

عتياً : من عَتَا يعني طغى وتجبر وأفسد كثيراً ، والعُتُو : الكفر ، والعَتِيّ : هو القوي الذي لا يُغالب؛ لذلك وصف الكِبَر الذي هو رمز للضعف بأنه عَتِيّ؛ لأن ضعف الشيب والشيخوخة ضَعْف لا يقدر أحد على مقاومته ، أو دفعه أبداً ، مهما احتال عليه بالأدوية والعقاقير (والفيتامينات) .

ويبدو أن مسألة الولد هذه كانت تشغل زكريا عليه السلام؛ وتُلِح عليه؛ لأنه دعا الله كثيراً أنْ يرزقه الولد ، ففي موضع آخر يقول : { رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنتَ خَيْرُ الوارثين } [الأنبياء : 89] . فزكريا عليه السلام يريد الولد الذي يَرِثه وهو موروث؛ لأن الله تعالى خير الوارثين .

لكن يأتي الرد : { فاستجبنا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يحيى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ } [الأنبياء : 90] ونلاحظ أنه تعالى قبل أن يقول : { وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ } [الأنبياء : 90] التي ستنجب هذا الولد ، قال : { وَوَهَبْنَا لَهُ يحيى } [الأنبياء : 90] فصلاح الزوجَة ليس شرطاً في تحقُّق هذه البشرى وحدوث هذه الهبة .

وهنا مظهر من مظاهر طلاقة القدرة الإلهية التي لا يُعجِزها شيء ، فهو سبحانه قادر على إصلاح هذه الزوجة العاقر ، فالصنعة الإلهية لا تقف عند حَدٍّ ، كما لو تعطَّل عندك أحد الأجهزة مثلاً فذهبتَ به إلى الكهربائي لإصلاحه فوجد التلفَ به كبيراً ، فينصحك بتركه وشراء آخر جديد ، فلا حيلةَ في إصلاحه .

لذلك أصلح الله تعالى لزكريا زوجه حتى لا نظنَّ أن يحيى جاء بطريقة أخرى ، والزوجة ما تزال

على حالها .

ثم يقول الحق : { قَالَ كذلك قَالَ رَبُّكَ }

قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (9)

(قَالَ) أي : الحق تبارك وتعالى { كذلك قَالَ رَبُّكَ } [مريم : 9] أي : أنه تعالى قال ذلك وقضى به ، فلا تناقش في هذه المسألة ، فنحن أعلَم بك وما أنتَ فيه من كِبَر ، وأن زوجتك عاقر ، ومع ذلك سأهبك الولد .

وقوله تعالى : { هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ } [مريم : 9] وفي آية أخرى يقول في آية البعث : { وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ } [الروم : 27] فلا تظن أن الأمر بالنسبة لله تعالى فيه شيء هَيِّن وشيء أَهْوَن ، وشيء شاقّ ، فالمراد بهذه الألفاظ تقريب المعنى إلى أذهاننا .

والحق سبحانه يخاطبنا على كلامنا نحن وعلى منطقنا ، فالخَلْق من موجود أهون في نظرنا من الخلق من غير موجود ، كما قال الحق سبحانه تعالى : { أَفَعَيِينَا بالخلق الأول بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ } [ق : 15] .

إذن : فمسألة الإيجاد بالنسبة له تعالى ليس فيها سَهْل وأسْهَل أو صَعْب وأصعب ، لأن هذه تُقال لمَنْ يعمل الأعمال علاجاً ، ويُزوالها مُزَاولة ، وهذا في إعمالنا نحن البشر ، أما الحق تبارك وتعالى فإنه لا يعالج الأفعال ، بل يقول للشيء كُنْ فيكون : { إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ } [يس : 82] .

ثم يُدلّل الحق سبحانه وتعالى بالأَقْوى ، فيقول : { وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً } [مريم : 9] فلأن يوجد يحيى من شيء أقلّ غرابة من أن أوجد من لاشيء . ثم يقول الحق سبحانه : { قَالَ رَبِّ اجعل لي آيَةً }

قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (10)

(آية) أي : علامة على أن امرأته قد حملتْ في يحيى ، وكأن زكريا عليه السلام يتعجل الأمور ولا صبرَ له طوال تسعة أشهر ، بل يريد أن يعيش في ظِلّ هذه النعمة ، وكأنها واقع لا ينفكّ لسانه حامداً شاكراً عليها ، وتظل النعمة في باله رغم أن ولده ما يزال جنيناً في بطن أمه .

فيجيبه ربه : { آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ الناس ثَلاَثَ لَيَالٍ سَوِيّاً } [مريم : 10] علامتك أَلاَّ تُكَلِّم الناس ثلاث ليال و (أَلاَّ) ليست للنهي عن الكلام ، بل هي إخبار عن حالة ستحدث له دون إرادته ، فلا يكلم الناس مع سلامة جوارحه ودون عِلَّة تمنعه من الكلام ، كخرس أو غيره .

لذلك قال : { ثَلاَثَ لَيَالٍ سَوِيّاً } [مريم : 10] أي : سليماً مُعافىً ، سويّ التكوين ، لا نقص

فيك ، ولا قصور في جارحة من جوارحك . وهكذا لا يكون عدم الكلام عَيْباً ، بل آية من آيات الله .

وهناك فَرْق بين أمر كونيّ وأمر شرعي ، الأمر الكونيُّ هو ما يكون وليس لك فيه اختيار في ألاَّ يكون ، والأمر الشرعيّ ما لك فيه اختيار من الممكن أن تطعيه فتكون طائعاً ، أو تعصيه فتكون عاصياً .

وهذا الذي حدث لزكريا أمر كوني ، وآية من الله لا اختيار له فيها ، وكأن الحق سبحانه يعطينا الدليل على أنه يوجد مِنْ لا مظنّة أسباب ، وقد يبقي الأسباب سليمة صالحة ولا يظهر المسبِّب ، فاللسان هنا موجود ، وآلات النطق سليمة ، ولكنه لا يقدر على الكلام .

فتأمل طلاقة القدرة ، فقد شاء سبحانه لزكريا الولد بغير أسباب ، وهنا منع مع وجود الأسباب ، فكلا الآيتين سواء في قدرته تعالى ومشيئته .

ثم يقول الحق سبحانه : { فَخَرَجَ على قَوْمِهِ }

فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (11)

إذن : حدثتْ هذه المسألة لزكريا وهو في (المحرَابِ) أي : مكان العبادة والصلاة ، وعادةً ما يكون مرتفعاً على شرف عما حوله ، وكان مصلى الأنبياء والصالحين ، وسُمي محراباً لأنه يحارب فيه الشيطان بكيْده ووسوسته . وقد ذُكر المحراب أيضاً في قصة داود عليه السلام : { وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الخصم إِذْ تَسَوَّرُواْ المحراب } [ص : 21] .

وقد وردتْ هذه اللقطة من قصة زكريا عليه السلام في آية أخرى دَلَّتْ أيضاً على أن البشارة بيحيى كانت وهو في محرابه ، حيث قال تعالى : { فَنَادَتْهُ الملائكة وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي المحراب أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بيحيى مُصَدِّقاً } [آل عمران : 39] .

وقوله تعالى : { فأوحى إِلَيْهِمْ } [مريم : 11] قلنا : إن الوَحْي له معنى لُغَويّ ومعنى شرعي ، الوحي لُغةً : الإخبار بطريق خفيٍّ . وعلى هذا المعنى يأتي الوحي بطرق متعددة ، فالله تعالى يُوحِي للرسل والأنبياء ، ويُوحي لغير الرسل من المصطفين ، كما في قوله تعالى : { وَأَوْحَيْنَآ إلى أُمِّ موسى أَنْ أَرْضِعِيهِ } [القصص : 7] أي : أخبرها بطريق خفيٍّ ، هو طريق الإلهام .

ويُوحِي إلى الملائكة : { إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الملائكة أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الذين آمَنُواْ } [الأنفال : 12] .

ويُوحِي للصالحين من أتباع الرسل : { وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحواريين أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي } [المائدة : 111] .

ويتعدَّى الإعلام بخفاء إلى الحشرات : { وأوحى رَبُّكَ إلى النحل أَنِ اتخذي مِنَ الجبال بُيُوتاً وَمِنَ الشجر وَمِمَّا يَعْرِشُونَ } [النحل : 68] .

بل يتعدَّى الوحي إلى الجماد في قوله تعالى : { إِذَا زُلْزِلَتِ الأرض زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الأرض أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الإنسان مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أوحى لَهَا } [الزلزلة : 15] .

وقد يُوحي الشياطين بعضهم إلى بعض : { يُوحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القول غُرُوراً } [الأنعام : 112] .

ويُوحون إلى أوليائهم : { وَإِنَّ الشياطين لَيُوحُونَ إلى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ } [الأنعام : 121] لأن الشيطان لا يأتي الإنسان إلا بطريق خفيٍّ ، ووسوسة في خواطره .

أما الوحي الشرعي فهو إعلام من الله وحده إلى نبي يدَّعي النبوة ومعه معجزة ، إذن فالوحي : إعلام خفيّ من الله للرسول .

فقوله تعالى : { فأوحى إِلَيْهِمْ } [مريم : 11] أي : قال لهم بطريق الإشارة؛ لأنه لا يتكلم { أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيّاً } [مريم : 11] بُكرة : أول النهار ، وعَشياً : آخره ، يعني : طوِّقوا النهار بالتسبيح بداية ونهاية . وكأن زكريا عليه السلام قد بدتْ عليه علامات الفرح والإنبساط بالبُشْرى ، ورأى أن شُكْره لله وتسبيحه لا ينهض بهذه النعمة ، فأمر قومه أنْ يُسبِّحوا الله معه ، ويشكروه معه على هذه النعمة؛ لأنها لا تخصُّه وحده ، بل هي عامة لكل القوم .

ثم يقول تعالى : { يايحيى خُذِ الكتاب }

يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (12)

نلحظ أن الآية الكريمة انتقلتْ بنا نَقْلة واسعة ، وطوَتْ فترة طويلة من حياة يحيى عليه السلام فقد كان السياق يتحدث عنه وهو بُشْرى لوالده ، وهو ما يزال في بطن أمه جنيناً ، وفجأة يخاطبه وكأنه أصبح أمراً واقعاً : { يايحيى خُذِ الكتاب بِقُوَّةٍ } [مريم : 12] فقد بلغ مبلغ النُّضْج ، وأصبح أهْلاً لحمْل مهمة الدعوة ، إذن : المسألة مأخوذة مأخَذ الجدِّ ، وهي حقيقة واقعة .

وقوله : { خُذِ الكتاب } [مريم : 12] أي : التوراة ، وفيها منهج الله الذي يُنظِّم لهم حركة حياتهم { بِقُوَّةٍ } [مريم : 12] أي : بأخلاص في حِفْظه وحِرْص على العمل به؛ لأن العلم السماوي والمنهج الإلهي الذي جاءكم في التوراة ليس المراد أن تعلمه فقط بل وتعمل به .

وإلا فقد قال تعالى في بني إسرائيل : { مَثَلُ الذين حُمِّلُواْ التوراة ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحمار يَحْمِلُ أَسْفَاراً } [الجمعة : 5] فقد حَمَّلهم الله التوراة ، فلم يحملوها ولم يعملوا بها .

والقوة : هي الطاقة الفاعلة التي تدير دولاب الحياة حركةً وسكوناً ، وخُذْ مثلاً سفينة الفضاء التي تنطلق إلى الفضاء الخارجي ، وتظل تدور فيه عدة سنوات وتتساءل : من أين لها بالوقود الذي يُحرِّكها طوال هذه المدة؟ والحقيقة أنها لا تحتاج : إلى وقود إلا بمقدار ما يُخرِجها من مدار الجاذبية الأرضية ، فإذا ما خرجت من نطاق الجاذبية وهي متحركة تظل متحركة ولا تتوقف إلا

بقوة توقفها ، وكذلك الساكن يظل ساكناً إلى أنْ تأتيَ قوة تحركه .

إذن : القوة إمّا أنْ تُحرِّك الساكن أو تُسْكِن المتحرك وتصده ، ومن ذلك ما نراه في السكك الحديدية من مصدَّات تُوقِف القطارات؛ لأنك إنْ أردتَ أن توقف القطار تمنع عنه الوقود ، لكن يظل به قوة دفع تحركه تحتاج إلى قوة معاكسة توقفه ، وهذا ما يسمونه قانون العطالة . يعني : إن كان الشيء متحركاً فيحتاج إلى قوة توقفه ، وإن كان ساكناً يحتاج إلى قوة تحركه .

ومن ذلك قانون القصور الذاتي الذي تعلمناه في المدارس ، وتلاحظه إذا تحركتْ بك السيارة تجد أن جسمك يندفع للخلف؛ لأنها تحركتْ للأمام وأنت ساكن ، فإنْ توقفتْ السيارة تحرَّك جسمك للأمام لأنها توقفت وأنت متحرك . إذن : هذه الأشياء التي تتحرك في الكون أو الساكنة نتيجة قوة .

فقوله تعالى : { خُذِ الكتاب بِقُوَّةٍ } [مريم : 12] لأن الكتاب فيه أوامر وفيه نَوَاهٍ ، يأمر بالخير وينهاك عن الشر ، فإنْ أمركَ بالخير وأنت لا تفعله تحتاج إلى قوة دَفْع تدفعك إلى الخير ، وكأنك كنتَ ساكناً تحتاج إلى قوة تحركك ، وإنْ نهاك عن الشر وأنت تفعله فأنت في حاجة إلى قوة تمنعك وتوقف حركتك في الشر . والمنهج هو هذه القوة التي تُحرِّكك إلى الخير وأنت ساكن ، وتُسكنك عن الشر وأنت متحرك .

ثم يقول تعالى : { وَآتَيْنَاهُ الحكم صَبِيّاً } [مريم : 12] الحكم : العلم والفهم للتوراة ، أو الطاعة والعبادة ، { صَبِيّاً } [مريم : 12] في سِنٍّ مبكرة؛ لأن المسألة عطاء من الله لا يخضع للأسباب ، فجاء يحيى عليه السلام مُبكِّر النضج والذكاء ، يفوق أقرانه ، ويسبق زمانه ، وقد أُثِر عنه وهو صغير أنْ دعاه أقرانه للعب فقال لهم : « ما للعب خُلِقْنا » .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : { وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا }

وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (13)

ولأن يحيى جاء إلى الدنيا حال كِبَر وضعف والديه ، وهو كطفل يحتاج مَنْ يشمله بالعطف والحنان ، ويُعوِّضه حنان الوالدين ، ويحتاج إلى مَنْ يُعلِّمه ويُربِّيه؛ لذلك تولّى الحق سبحانه وتعالى هذه المهمة ، فهو سبحانه خالقه ومُسمِّيه ومُتولّيه فوهبه حناناً منه سبحانه { مِّن لَّدُنَّا } [مريم : 13] من عندنا؛ لأن طاقة الحنان عند الوالدين قد نضبتْ .

وقوله : { وَزَكَاةً } [مريم : 13] أي : طهارة من الذنوب وصفاءَ نفْسٍ وبركة ، وهذه كلها نتيجة التربية الإلهية بمنهج الله الذي يرسم له حركته في الحياة : افعل كذا ولا تفعل كذا .

{ وَكَانَ تَقِيّاً } [مريم : 13] أي : استجاب لهذا الحنان ، وأثمرت فيه هذه التربية فكان تقياً ، أي : مُنفذاً لأوامر الله مُجتنباً لنواهيه ، وبذلك وقَى نفسه من صفات الجلال من الله تعالى .

وقلنا : إن التقوى أنْ تجعل بينك وبين ما تتقيه مانعاً يحميك ويبعدك عن إيذائه ، فنقول : اتقِ الله

واتقِ النار ، كيف ذلك ونحن نريد أن نصل إلى معيته سبحانه؟
نقول : اتق الله أي : اجعل بينك وبين صفات جلاله وجبروته وقايةً تحميك من جبروته وجباريته وقهره ، فلسْت مطيقاً لأدنى شيء من العذاب ، والنار من جنود الله ومظهر من مظاهر قهره ، فاتقاء النار جزء من اتقاء الله ، والوقاية التي تحميك من صفات الجبروت والجلال هي الطاعة بامتثال الأوامر والنواهي .
ثم يقول تعالى : { وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن }

وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا (14)

فرغم أن يحيى عليه السلام جاء أبويْه في حال كِبَرهما وضعفهما ، ولم يجد منهما الحنان الكافي والتربية المناسبة ، ولم يشعر معهما بالأُبوة الكاملة ، فكان دورهما في حياته ثانوياً ، وحمايلهم عليه باهتة متواضعة ، مع هذا كله كان باراً بهما حانياً عليهما . وقال عنه أيضاً : { وَلَمْ يَكُن جَبَّاراً عَصِيّاً } [مريم : 14] .
وصفة الجبروت وصفة العصيان لا يُتصوَّران من الولد على والديه ، إلا حين يرى من أبيه شروداً عنه وانصرافاً عن رعايته ، وحين يرى من أمه انشغالاً عن تربيته ، فهي تاركة له غير مُراعية لحقه .
لذلك نرى صوراً من هذا الجبروت ومن هذا العصيان ، ونسمع مَنْ يقسو على أمه وعلى أبيه؛ لأنه لم يجد منهما العطف والحنان والرعاية ، فتقعطتْ بينهما أواصر الأبوة . ويبدو أن زكريا حكى لولده ما حدث ، وقصَّ عليه قِصّته ، فتفهَّم الولد دور والديه ونفى عنهما أيّ تقصير ، فكان بهما باراً رحيماً ، ولهما طائعاً متواضعاً .
ثم يقول الحق سبحانه : { وَسَلاَمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ }

وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (15)

هذه مسائل ثلاث تُعَدُّ أعلام حياة للإنسان : الميلاد ، والموت ، والبعث . وقد خَصَّه الله بالسلام يوم مولده؛ لأنه وُلِد على غير العادة في الميلاد فأُمّه عاقر أسنتْ ، ومع ذلك لم تتعرض لألسنة الناس ولم يعترض أحد على ولادتها ، وهي على هذا الوصف ، فلم يتجرأ أحد عليها؛ لأن ما حدث لها كان آيةً من آيات الله وقد بشّر الله بها زكريا لتكون البُشْرى إعداداً ومقدمة لهذا الحدث العجيب .
وخَصَّه بالسلام يوم يموت؛ لأنه سيموت شهيداً ، والشهادة غير الموت ، الشهادة تعطيه حياة

موصولةً بالحياة الأبدية الخالدة . وكذلك خَصَّه بالسلام يوم القيامة يوم يُبعث حيّاً .
ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : { واذكر فِي الكتاب }

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (16)

وقصة مريم في واقع الأمر كانت قبل قصة زكريا ويحيى؛ لأن طلب زكريا للولد جاء نتيجة لما سمعه من مريم حين سألها عن طعام عندها لم يأْتِ به ، وهو كافلها ومُتولّي أمرها ، فتعجب أنْ يرى عندها رِزْقاً لم يحمله إليها ، وهي مقيمة على عبادتها في محرابها ، فقال لها : { يامريم أنى لَكِ هذا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ الله إِنَّ الله يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [آل عمران : 37] .
وكأن هذا أول بداية قانون : من أين لك هذا؟ لكن عطاءه تعالى لا يخضع للأسباب ، بل هو سبحانه يرزق مَنْ يشاء متى شاء وبغير حساب .
وشاءتْ إرادة الله أن تنطِقَ مريم بهذه المقولة : { إِنَّ الله يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [آل عمران : 37] لأنها ستُنبِّه زكريا إلى شيء ، وستحتاجها أيضاً مريم فيما بعد حينما تشعر بالحَمْل من غير زَوْج ، فلن تعترض على هذا الوضع ، وستعلم أنه عطاءٌ من الله .
وكذلك نبَّهتْ هذه الآية زكريا عليه السلام إلى فَضْل الله وسِعَة رحمته ، وهذا أمر لا يغيب عن نبي الله ، ولكن هناك قضايا في النفس البشرية إلا أنها بعيدة عن بُؤْرة الشعور وبعيدة عن الاهتمام ، فإذا ما ذُكِّر بها انتبه إليها؛ لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : { هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ } [آل عمران : 38] .
فما دام أن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب ، فلماذا لا أدعو الله بولد صالح يحمل أمر الدعوة من بعدي ، وطالما أن الرزق بغير حساب فلن يمنعه كِبَر السِّنّ أو العُقْم أو خلافه .
إذن : فمريم هي التي أوحَتْ لزكريا بهذا الدعاء ، واستجاب الله لزكريا ورزقه يحيى؛ ليكون ذلك مقدمة وتمهيداً لمريم ، فلا تنزعج من حَمْلها ، وتردّ هذه المسألة إلىأن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب ، وليكون ذلك إيناساً لنفسها واطمئناناً ، وإلاَّ فمن الممكن أن تلعبَ بها الظنون وتنتابها الشكوك ، وتتصور أن هذا الحمْل نتيجة شيء حدث لم تشعر به ، أو كانت نائمة مثلاً .
لكن الحق تبارك وتعالى يقطع عنها كل هذه الشكوك ، ويعطيها مقدمة تراها وتعايشها بنفسها في طعام لم يأْتِ به أحد إليها ، وفي حَمْل زوجة زكريا وهي عاقر لا تلِد .
قوله تعالى : { واذكر فِي الكتاب مَرْيَمَ } [مريم : 16] الكتاب هو القرآن الكريم ، أي : اذكُر يا محمد في كتاب الله الذي أوحاه إليك مما تذكر قصة مريم ، وقد سبق الحديث عن هذه القصة في سورة (آل عمران) لما تكلم الحق سبحانه وتعالى عن نَذْر أمها لما في بطنها لخدمة بيت المقدس ، ولم يكن يصلح لخدمة بيت المقدس إلا الذكْران الذين يتحمَّلون مشقة هذا العمل ، فلما وضعْتها أنثى لم يوافق ظنّها إرادة الله ، ولم تستطع مريم خدمة البيت مكاناً أفرغتْ نفسها

لخدمته قِيماً ، وديناً حملتْ نفسها عليه حَمْلاً ، حتى إنها هجرتْ أهلها وذهبت إلى هذا المكان الذي اتخذته خُلْوة لها لعبادة الله بعيداً عن أعيُنِ الناس .

ومريم هي ابنة عمران ، وقد قال القرآن في خطابها : { ياأخت هَارُونَ } [مريم : 28] ولذلك حدث لَبْسٌ عند كثير من الناس ، فظنوها أخت نبي الله موسى بن عمران وأخت هارون أخي موسى عليهما السلام .

والحقيقة أن هذه المسألة جاءتْ مصادفة اتفقتْ فيها الأسماء؛ لذلك لما ذهب بعض الصحابة إلى اليمن قال لهم أهلها : إنكم تقولون : إن مريم هي أخت موسى وهارون ، مع أن بين مريم وعمران أبي موسى أحد عشر جيلاً!!

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما ذكرتُمْ لهم أن الناس كانوا يتفاءلون بذكِرِ الأسماء خاصة الأنبياء فيُسمّون على أسمائهم عمران ويسمون على أسمائهم هارون » .

حتى ذكروا أنهم في جنازة بعض العلماء سار فيها أربعة آلاف رجل اسمهم هارون . إذن : فالأسماء هنا مصادفة ، فهي ابنة عمران ، لكن ليس أبا موسى ، وأخت هارون ، لكن ليس هو أخو موسى .

وقد أفرد القرآن سورة كاملة باسم مريم وخصَّها وشخَّصها باسمها واسم أبيها ، وسبق أنْ أوضحنا أن التشخيص في قصة مريم جاء لأنها فذَّة ومُفردة بين نساء العالم بشيء لا يحدث ولن يحدث إلا لها ، فهذا أمر شخصي لن يتكرر في واحدة أخرى من بنات حواء .

أما إنْ كان الأمر عاماً يصح أنْ يتكرّر فتأتي القصة دون تشخيص ، كما في حديث القرآن عن زوجة نوح وزوجة لوط كمثال للكفر ، وهما زوجتان لنبيين كريمين ، وعن زوجة فرعون كمثال للإيمان الذي قام في بيت الكفر وفي عُقْر داره ، فالمراد هنا ليس الأشخاص ، بل المراد بيان حرية العقيدة ، وأن المرأة لها في الإسلام حريةٌ عقدية مستقلة ذاتية ، وأنها غيرُ تابعة في عقيدتها لأحد ، سواء أكانت زوجة نبي أم زوجة إمام من أئمة الكفر .

وقوله تعالى : { إِذِ انتبذت مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِياً } [مريم : 16] .

{ انتبذت مِنْ أَهْلِهَا } [مريم : 16] أي : ابتعدتْ عنهم ، من نبذ الشيء عنه أي أبعده ، فكأن أُنْسها لا بالأهل ، ولكن أُنْسها كان برب الأهل ، والقرآن يقول : { مِنْ أَهْلِهَا } [مريم : 16] ولم يقُلْ : من الناس ، فقد تركتْ مريم أقرب الناس إليها وأحبّهم عندها وذهبت ، إلى هذا المكان .

{ مَكَاناً شَرْقِياً } [مريم : 16] لكن شرقيّ أيّ شيء؟ فكل مكان يصح أن يكون شرقياً ، ويصح أن يكون غربياً ، فهي إذن كلمة دائرة في كل مكان . لكن هناك عَلَم بارز في هذا المكان ، هو بيت المقدس ، فالمراد إذن : شرقي بيت المقدس ، وقد جاء ابتعادها عن أهلها إلى هذا

المكان المقدس لتتفرغ للعبادة ولخدمة هذا المكان .

لكن ، لماذا اختارتْ الجهة الشرقية من بيت المقدس بالذات دون غيرها من الجهات؟ قالوا : لأنهم كانوا يتفاءلون بشروق الشمس ، لأنها سِمَة النور المادىْ الذي يسير الناس على هُدَاه فلا يتعثرون ، وللإنسان في سَيْره نوران : نور مادىّ من الشمس أو القمر أو النجوم والمصابيح ، وهو النور الذي يظهر له الأشياء من حوله ، فلا تصطدم بما هو أقوى منه فيحطمك ولا بأضعف منه فتحطمه .

وكذلك له نور من منهج الله يهديه في مسائل القيم ، حتى لا يتخبّط تائهاً بين دُروبها ، ومن ذلك قوله تعالى : { الله نُورُ السماوات والأرض } [النور : 35] ثم يقول بعدها : { نُّورٌ على نُورٍ } [النور : 35] .

أي : نور السماء الذي ينزل بالوحي لهداية الناس .

فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (17)

الحجاب : هو الساتر الذي يحجب الإنسان عن غيره ويحجب غيره عنه ، فما فائدة أنْ تتخذ بينها وبين أهلها سِتْراً بعد أن ابتعدتْ عنهم؟ نقول : انتبذتْ من أهلها مكاناً بعيداً ، هذا في المكان ، إنما لا يمنع أنْ يكونَ هناك مكينٌ آخر يسترها حتى لا يطّلع عليها أحد ، فهناك إذن مكان ومكين .

والحجاب قد يكون حجاباً مُفْرداً فهو ساتر فقط ، وقد يكون حجاباً مستوراً بحجاب غيره ، فهو حجاب مُركّب ، كما يصنع أهل الترف الآن الستائر من طبقتين ، إحداهما تستر الأخرى ، فيكون الحجاب نفسه مَسْتوراً ، ومن ذلك قوله تعالى : { وَإِذَا قَرَأْتَ القرآن جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة حِجَاباً مَّسْتُوراً } [الإسراء : 45] .

وقوله تعالى : { فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَآ رُوحَنَا } [مريم : 17] .

كلمة الروح في القرآن الكريم لها إطلاقات مُتعدّدة ، أولها الروح التي بها قِوام حياتنا المادية ، فإذا نفخَ الله الروح في المادة دبَّتْ فيها الحياة والحِسّ والحركة ، ودارت كل أجهزة الجسم ، وهذا المعنى في قوله تعالى :

{ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ } [الحجر : 29] .

لكن ، هل هذه الحياة التي تسري في المادة بروح من الله هي الحياة المقصودة من خَلْق الله للخَلْق؟ قالوا : إنْ كانت هذه الحياة هي المقصودة فما أهونها؛ لأن الإنسان قد يمرُّ بها ويموت بعد ساعة ، أو بعد يوم ، أو بعد سنة ، أو عدة سنوات .

إذن : هي حياة قصيرة حقيرة هيّنة ، هي أقرب إلى حياة الديدان والهوام ، أما الإنسان الذي كرّمه الله وخلق الكون من أجله فلا بُدَّ أن تكون له حياة أخرى تناسب تكريمَ الله له ، هذه

الحياة الأخرى الدائمة الباقية يقول عنها القرآن : { وَإِنَّ الدار الآخرة لَهِيَ الحيوان لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ } [العنكبوت : 64] .

{ لَهِيَ الحيوان } أي : الحياة الحقيقية ، أما حياتك الدنيا فهي مُهدّدة بالموت حتى لو بلغتَ من الكبر عتياً ، فنهايتك إلى الموت ، فإنْ أردتَ الحياة الحقيقية التي لا يُهدِّدها موت فهي في الآخرة .

فإذا كان الخالق تبارك وتعالى جعل لك روحاً في الدنيا تتحرك بها وتناسب مُدّة بقائك فيها ، ألاَ يجعل لك في الآخرة رُوحاً تناسبها ، تناسب بقاءها وسَرْمديتها ، والقرآن حينما يتحدث عن هذه الروح يقول للناس : { ياأيها الذين آمَنُواْ استجيبوا للَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ } [الأنفال : 24] فكيف يدعوهم لما يُحييهم ويُخاطبهم وهم أحياء؟ نعم ، هم أحياء الحياة الدنيا ، لكنه يدعوهم إلى حياة أخرى دائمة باقية ، أما مَنْ لم يستجب لهذا النداء ويسعى لهذه الحياة فلن يأخذ إلا هذه الحياة القصيرة الفانية التي لا بقاءَ لها .

وكما سمَّى الله السِّرَّ الذي ينفخه في المادة فتدبّ فيها الحركة والحياة « روحاً » ، كذلك سمَّى القيم التي تحيا بها النفوس حياة سعيدة « روحاً » ، كما قال تعالى :

{ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا } [الشورى : 52] أي : القرآن الكريم .

كما سَمَّى الملَك الذي ينزل بالروح رُوحاً : { نَزَلَ بِهِ الروح الأمين } [الشعراء : 193] وهو جبريل عليه السلام .

إذن : فقوله تعالى : { فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَآ رُوحَنَا } [مريم : 17] أي : جبريل عليه السلام . { فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً } [مريم : 17] معنى تمثَّل : أي : ليستْ هذه حقيقته ، إنه تمثَّل بها ، أما حقيقته فنورانية ذات صفات أخرى ، وذات أجنحة مَثْنى وثُلاَث ورُبَاع ، فلماذا إذن جاء الملَكُ مريمَ في صورة بشرية؟

لأنهما سيلتقيان ، ولا يمكن أنْ يتمّ هذا اللقاء خُفْية ، وكذلك يستحيل أنْ يلتقيَ الملَكُ بملكتيه مع البشر ببشريته ، فلكل منهما قانونه الخاص الذي لا يناسب الآخر ، ولابُدَّ في لقائهما أنْ يتصوَّر الملَك في صورة بشر ، أو يُرقَّى البشر إلى صفات الملائكة ، كما رُقي محمد صلى الله عليه وسلم إلى صفات الملائكة في حادثة الإسراء والمعراج ، ولا يتم الالتقاء بين الجنسين إلا بهذا التقارب .

لذلك ، لما طلب الكفار أن يكون الرسول ملَكاً رَدَّ عليهم الحق تبارك وتعالى : { قُل لَوْ كَانَ فِي الأرض ملائكة يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السمآء مَلَكاً رَّسُولاً } [الإسراء : 95] .

وقال : { وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ } [الأنعام : 9] إذن : لا يمكن أن يلتقي الملَكُ بالبشر إلا بهذا التقارب .

جاء جبريل عليه السلام إلى مريم في صورة بشرية لتأنس به ، ولا تفزع إنْ رأتْه على صورته الملائكية { فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً } [مريم : 17] أي : من جنسها { سَوِيّاً } [مريم : 17] .
أي : سويّ الخِلْقة والتكوين ، وسيماً ، قد انسجمتْ أعضاؤه وتناسقتْ على أجمل ما يكون البشر ، فلا يعيبه كِبَر جبهته أو أنفه أو فمه ، كما نرى في بعض الناس .
وهذا كله لإيناس مريم وطمأنينتها ، وأيضاً ليثبت أنها العذراء العفيفة؛ لأنها لما رأت هذا الفتى الوسيم القَسِيم ما أبدتْ له إعجاباً ولا تلطفتْ إليه في الحديث ، ولا نطقتْ بكلمة واحدة يُفهَم منها مَيْل إليه ، بل قالت كما حكى القرآن : { قَالَتْ إِنِي أَعُوذُ بالرحمن }

قَالَتْ إِنِّيَ أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (18)

فلم تُظهِر له إعجاباً ، ولا مالتْ إليه بكلمة واحدة ، وهذا دليل على عِفّتها وطهارتها واستقامتها والتزامها .
وقولها : { أَعُوذُ } [مريم : 18] أي : ألجأ وأعتصم بالله منك؛ لأنني أخاف أنْ تفتك بي ، أو تعتدي عليَّ وأنا ضعيفة لا حَوْلَ لي ولا قوة إلا بالله ، فأستعيذ به منك . والمؤمن هو الذي يحترم الاستعاذة بالله ويُقدِّرها ، فإنْ استعذتَ بالله أعاذك ، وإن استجرتَ بالله أجارك .
« ولما خطب النبي صلى الله عليه وسلم امرأة ، كانت على شيء من الحسن أثار غَيْرة نسائه ، فخشينَ أنْ تغلبهن على قلب رسول الله ، فدبَّرْنَ لها أمراً يبعدها من أمامهن ، فقُلْنَ لها وكانت غِرَّة ساذجة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب إذا اقترب منه إنسان أن يقول له : أعوذ بالله منك ، فما كان من المرأة إلا أنْ قالت هكذا لرسول الله عندما دخلت عليه ، فقال لها : » لقد استعذت بمعيذ ، الحقي بأهلك « .
فقول مريم : { إِنِي أَعُوذُ بالرحمن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً } [مريم : 18] لأن المؤمن التقيّ هو الذي يخاف الله ، ويحترم الاستعاذة به ، وكأنها قالتْ : إنْ كنت تقياً فابتعد عني ، واختارت الاستعاذة بالرحمن لما عندها من الأمل إنْ لم يكُنْ تقياً مؤمناً أن يبتعد عنها رحمةً بها وبضعفها ، ولجأتْ إلى الرحمن الرحيم الذي يحميها ويحرسها منه .

قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (19)

قال : { رَسُولُ رَبِّكِ } [مريم : 19] ولم يقلْ رسول الله؛ لأن الربّ هو المتولّي للتربية الذي يُحسِنها ويصونها من الفساد ، فعطاء الربوبية عطاء ماديّ ، أما عطاء الألوهية فهو عطاء معنوي قِيَمي هو العبادة ، فأنا رسول ربك الذي يتولاَّك ويرعاك ويحرسك فلا تخافي .
وقوله : { لأَهَبَ لَكِ } [مريم : 19] يفهم منه أن ما سيحدث لمريم هبة من الله غير خاضعة

للأسباب التكوينية ، فالهبة في هذه الحالة هبة حقيقية مَحْضَة ، فقد قلنا في قصة زكريا ويحيى أن الله تعالى وهب يحيى لزكريا حال كونه كبير السِّن وامرأته عاقر ، لكن على أية حال فالجهازان موجودان : الذكورة والأنوثة ، لكن في حالة مريم فهي أنثى بلا ذكر ، فهنا الهِبَة المحضة ، والمعجزة الحقيقية .

وقوله : { غُلاَماً زَكِيّاً } [مريم : 19] أي مُنقَّى مُطهّر صافي الخِلْقة .

ثم يقول الحق سبحانه عن مريم : { قَالَتْ أنى يَكُونُ لِي }

قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (20)

(أَنَّى) استفهام عن الكيفيات التي يمكن أن تتم بها هذه المسألة ، وتعجُّب كيف يحدث ذلك .

وقوله : { يَمْسَسْنِي } [مريم : 20] المسّ هنا كناية وتعبير مُهذَّب عن النكاح ، وقد نفتْ السيدة مريم كل صور اللقاء بين الذكر والأنثى حين قالت : { وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً } [مريم : 20] فالتقاء الذكر بالأنثى له وسائل : الوسيلة الأولى : هي الزواج الشرعي الذي شرعه الله لعباده للتكاثر وحِفْظ النسل ، وهو إيجاب وقبول ، وعقد وشهادة ، وهذا هو المسّ الحلال .

الوسيلة الثانية : أنْ يتم هذه اللقاء بصورة محرمة بموافقة الأنثى أو غَصْباً عنها . وقد نفتْ مريم عن نفسها كل هذه الوسائل فقالت : { وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ } [مريم : 20] لا في الحلال ، ولا في الحرام ، وأنا بذاتي { لَمْ أَكُ بَغِيّاً } [مريم : 20] إذن : فمن أين لي بالغلام؟

وكلمة : مسَّ جاءتْ في القرآن للدلالة على الجماع ، كما في قوله تعالى : { لاَّ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النسآء مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ } [البقرة : 236] فالمراد بالمسّ هنا الجماع ، لذلك فقد فسر الإمام أبو حنيفة قوله تعالى : { لاَمَسْتُمُ النسآء } [النساء : 43] بأنه الجماع؛ لأن القرآن أطلق المسَّ ، وأراد به النكاح ، والمسُّ فعل من طرف واحد ، أما الملامسة فهي مُفَاعلة بين اثنين ، فهي من باب أَوْلَى تعني : جامعتم .

وقولها : { وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً } [مريم : 20] البغِيُّ : هي المرأة التي تبغي الرجال . والبِغَاء : هو الزنا ، والبَغِيّ : التي تعرض نفسها على الرجال وتدعوهم ، وربما تُكرههم على هذه الجريمة .

وقولها : { بَغِيّاً } [مريم : 20] مبالغة في البَغْي وهو الظلم ، واختارتْ صيغة المبالغة بَغِيّ ولم تقُلْ باغية؛ لأن باغية تتعلق بحقوق ما حول العِرْض ، أما الاعتداء على العِرْض ذاته فيناسبه المبالغة في هذا الفعل .

ثم يقول الحق سبحانه : { قَالَ كذلك قَالَ رَبُّكَ }

قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (21)

كما قال الحق سبحانه لزكريا حينما تعجب أن يكون له ولد : { قَالَ كذلك قَالَ رَبُّكَ } [مريم : 9] أي : أنا أعرف ما أنت فيه من كِبَر السن ، وأن امرأتك عاقر لا تلِد ، لكن الأمر جاء من الله وصدر حكمه ، وهو وحده الذي يملك التنفيذ ، فَلِمَ التعجب إذن؟

وهنا نجد بعض المتورِّكين على القرآن يعترضون على قوله تعالى : (كَذَلِكَ) بالفتح في قصة زكريا وبالكسر في قصة مريم (كذلكِ) ، والسياق والمعنى واحد ، وأيُّهما أبلغ من الأخرى ، وإنْ كانت أحدهما بليغة فالأخرى غير بليغة؟

وهذا الاعتراض منهم ناتج عن قصور فَهْمهم لكلام الله ، فكلمة (كذلك) عبارة عن ذا اسم إشارة ، وكاف الخطاب التي تُفتح في خطاب المذكر ، وتُكسر في خطاب المؤنث .

وهنا أيضاً قال : (ربك) أي : الذي يتولى تربيتك ورعايتك ، والذي يُربيه ربُّه يربيه تربية كاملة تعينه على أداء مهمته المرادة للمربِّي .

وقوله : { هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ } [مريم : 21] كما قال في مسألة البعث بعد الموت : { وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ } [الروم : 27] فكلمة هيّن وأَهْوَن بالنسبة للحق تبارك وتعالى لا تُؤخَذ على حقيقتها؛ لأن هَيِّن وأهوَنَ تقتضي صعب وأصعب ، وهذه مسائل تناسب فِعْلَ الإنسان في معالجته للأشياء على قَدْر طاقته وإمكاناته ، أما بالنسبة للخالق سبحانه فليس عنده هَيِّن وأهون منه؛ لأنه سبحانه لا يفعل الأفعال مُعَالجةً ، ولا يزاولها ، وإنما بقوله تعالى (كُنْ) .

فالحق سبحانه يخاطبنا على قَدْر عقولنا ، فقوله : { هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ } [مريم : 21] أي : بمنطقكم أنتم إنْ كنت قد خَلقْتكم من غير شيء ، فإعادتكم من شيء موجود أمر هَيِّن .

ثم يقول تعالى : { وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلْنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا } [مريم : 21] .

هل كان الغرض من خَلْق عيسى عليه السلام على هذه الصورة أن يُظهِر الحق سبحانه قدرته في الخلق وطلاقة قدرته فقط؟ لا ، بل هناك هدف آخر { وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلْنَّاسِ } [مريم : 21] أي : أمراً عجيباً ، يخرج عن مألوف العادة والأسباب ، كما نقول : هذا آية في الحُسْن ، آية في الذكاء ، فالآية لا تُقال إلا للشيء الذي يخرج عن معتاد التناول .

والآية هنا أن الخالق تبارك وتعالى كما خلق آدم عليه السلام من غير أب أو أم ، وخلق حواء من غير أم ، خلق عيسى عليه السلام من أم دون أب ، ثم يخلقكم جميعاً من أب وأم ، وقد يوجد الأب والأم ولا يريد الله لهما فيجعل مَنْ يشاء عقيماً .

إذن : فهذا الأمر لا يحكمه إلا إرادة المكوِّن سبحانه . فالآية للناس في إنْ يعلموا طلاقة قدرته تعالى في الخَلْق ، وأنها غير خاضعة للأسباب ، وليستْ عملية ميكانيكية ، بل إرادة للخالق سبحانه أن يريد أو لا يريد .

لكن ، أكانتْ الآية في خَلْق عيسى عليه السلام أَمْ في أمه؟ كان من الممكن أنْ يوجد عيسى من

أب وأم ، فالآية إذن في أمه ، إنما هو السبب الأصيل في هذه الآية؛ لذلك يقول تعالى في آية أخرى :

{ وَجَعَلْنَا ابن مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً } [المؤمنون : 50] فعيسى ومريم آية واحدة ، وليسا آيتين؛ لأنهما لا ينفصلان .

ثم يقول تعالى : { وَرَحْمَةً مِّنَّا } [مريم : 21] ووجْه الرحمة في خَلْق عيسى عليه السلام على هذه الصورة ، أنه سبحانه يرحم الناس من أنْ يشكُّوا في أن قدرة الله منوطة بالأسباب ومتوقفة عليها ، ولو كان هذا الشكُّ مجرد خاطر ، فإنه لا يجوز ولا يصحّ بالنسبة للخالق سبحانه ، وكأنه تبارك وتعالى يرحمنا من مجرد الخواطر بواقع يؤكد أن طلاقة القدرة تأتي في الخَلْق من شيء ، ومن بعض شيء ، ومن لا شيء .

وقوله تعالى : { وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِيّاً } [مريم : 21] أي : مسألة منتهية لا تقبل المناقشة ، فإياك أن تناقش في كيفيتها؛ لأن الكلام عن شيء في المستقبل إنْ كان من متكلم لا يملك إنفاذ ما يقول فيمكن ألاَّ يتم مراده لأيِّ سبب من الأسباب كأن تقول : سأفعل غداً كذا وكذا ، ويأتي غد ويحول بينك وبين ما تريد أشياء كثيرة ربما تكون خارجة عن إرادتك ، إذن : فأنت لا تملك كُلَّ عناصر الفعل .

أما إذا كان الكلام من الله تعالى الذي يملك كل عناصر الفعل فإن قوله حَقٌّ وواقع ، فقال تعالى : { وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِيّاً } [مريم : 21] .

ولما تكلمنا عن تقسيمات الأفعال بين الماضي الذي حدث قبل الكلام ، والمضارع الذي يحدث في الحال ، أو في الاستقبال قلنا : إن هذه الأفعال بالنسبة للحق سبحانه تنحل عنها الماضوية والحالية والاستقبالية .

فإذا قال تعالى : { وَكَانَ الله غَفُوراً رَّحِيماً } [الفتح : 14] فهل كان الحق سبحانه غفوراً رحيماً في الماضي ، وليس كذلك في الحاضر والمستقبل؟ لا ، لأن الحق سبحانه كان ولا يزال غفوراً رحيماً ، فرحمتُه ومغفرتُه أزلية حتى قبل أنْ يوجدَ مَنْ يغفر له ومَنْ يرحمه .

لذلك جاء الفعل بصيغة الماضي ، فالصفة موجودة فيه سبحانه أزلاً ، فهو سبحانه خالق قبل أن يخلق الخَلْق وبصفة الخَلْق خَلَقَ ، كما ضربنا مثلاً لذلك : نقول فلان شاعر ، فهل هو شاعر لأنه قال قصيدة؟ أم قال القصيدة لأنه شاعر ، وبالشعر صنع القصيدة؟ إذن : فهو شاعر قبل أن يقول القصيدة ، ولولا وجود الصفة فيه ما قال .

فالصفة إذن أزلية في الحق سبحانه ، فإذا قلت : { وَكَانَ الله غَفُوراً رَّحِيماً } [الفتح : 14] فقد ثبتتْ له هذه الصفة أزلاً ، ولأنه سبحانه لا يتغير ، ولا يعارضه أحد فقد بقيتْ له ، هذا معنى : كان ولا يزال .

وهذه المسألة واضحة في استهلال سورة النحل : { أتى أَمْرُ الله فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ } [النحل : 1] لذلك وقف بعض المستشرقين أمام هذه الآية ، كيف يقول سبحانه (أَتَى) بصيغة الماضي ، ثم يقول : { فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ } [النحل : 1] أي : في المستقبل؟ نقول : لأن قوله تعالى : (أتَى) فهذه قضية منتهية لا شكّ فيها ولا جدالَ ، فليس هناك قوة أخرى تعارضها أو تمنع حدوثها؛ لذلك جاءت بصيغة الماضي وهي في الواقع أمر مستقبل .

ثم يقول الحق سبحانه : { فَحَمَلَتْهُ فانتبذت بِهِ }

فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (22)

(فَحَملتْهُ) أي : حملتْ به على الحذف والإيصال ، والحمل يقتضي حاملاً ومحمولاً . { فانتبذت بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً } [مريم : 22] لا تظن أن هذه اللقطة من القصة لقطةٌ مُعَادة ، فالانتباذ الأول كان للخلوة للعبادة ، وهنا { فانتبذت بِهِ } [مريم : 22] أي : ابتعدتْ عن القوم لما أحسَّتْ بالحمل ، وخشيت أعيُنَ الناس وفضولهم فخرجتْ إلى مكان بعيد .

فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا (23)

{ فَأَجَآءَهَا } [مريم : 23] الفعل جاء فلان . أي : باختياره ورِضَاه ، إنما إجاءه فلان أي جاء به رغماً عنه ودون إرادته ، فكأن المخاض هو الذي ألجأها إلى جِذْع النخلة وحملها على الذهاب إلى هذا المكان رَغْماً عنها { فَأَجَآءَهَا } [مريم : 23] أي : جاء بها ، فكأن هناك قوة خارجة عنها تشدُّها إلى هذا المكان .

والمخاض : هو الألم الذي ينتاب المرأة قبل الولادة ، وليس هو الطَّلْق الذي يسبق نزول الجنين .

وقوله : { فَأَجَآءَهَا المخاض إلى جِذْعِ النخلة } [مريم : 23] أوضح لنا عِلَّة مجيئها إلى جِذْع النخلة؛ لأن المرأة حينما يأتي وقت ولادتها تحتاج إلى ما تستند إليه ، وتتشبث به ليخفف عنها ألم الوضع ، أو رفيقة لها تفزع إليها وتقاسمها هذه المعاناة ، فألجأها المخاض إذن إلى جذع (النخلة) ، وجاءت النخلة مُعرَّفة لأنها نخلة معلومة معروفة .

وجذع النخلة : ساقها الذي يبدأ من الجذر إلى بداية الجريد ، فهل ستتشبث مريم عند وضعها بكل هذه الساق؟ بالطبع ستأخذ الجزء القريب منها فقط ، وأُطلق الجذع على سبيل المبالغة ، كما في قوله تعالى : { يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصواعق حَذَرَ الموت } [البقرة : 19] .

ومعلوم أن الإنسان يسدّ أذنه بأطراف الأصابع لا بأصابعه كلها ، فعبَّر عن المعنى بالأصابع مبالغةً في كَتْم الصوت المزعج والصواعق التي تنزل بهم .

إذن : فالسيدة مريم أصبحت أمام أمر واقع وحمل ظاهر لا تستطيع إخفاءه ، ولا تقدر على ستره ، فقد قبلتْ قبل ذلك أنْ يُبشِّرها الملَك بغلام زَكيٍّ ، وقبلتْ أنْ تحمل به ، فكيف بها الآن وقد تحوّل الأمر من الكلام إلى الواقع الفعلي ، وها هو الوليد في أحشائها ، وقد حان موعد ولادته؟

لابُدَّ أن ينتابها نزوع انفعالي فالأمر قد خرج عن نطاق السَّتْر والتكتّم ، فإذا بها تقول : { ياليتني مِتُّ قَبْلَ هذا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً } [مريم : 23] أي : تمنتْ لو ماتت قبل أن تقف هذا الموقف العصيب ، مع أن الملك حين أخبرها من قبل بأن الله تعالى سيهَبُ لها غلاماً زَكياً تعجبتْ قائلة : { أنى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً } [مريم : 20] .

مجرد تعجُّب وانفعال هادىء ، أما وقد أصبح الأمر ولادة حقيقية فلا بُدَّ من فعل نزوعي شديد يُعبِّر عما هي فيه من حَيْرة ، لذلك تمنتْ الموتْ ، مع أن الله تعالى نهانا عن تمني الموت ، كما ورد في الحديث الشريف الذي يرشدنا إذا ضاقتْ بنا الحياة ألاَّ نتمنى الموت ، بل نقول : « اللهم أحْيني ما كانت الحياة خيراً لي ، وتوفَّني ما كانت الوفاة خيراً لي » .

وقلنا : إن تمني الموت المنهيّ عنه ما كان فيه اعتراض على قَدَر الله ، وتمرد على إرادته سبحانه ، كأنْ تكره الحياة والعيش إذا ضاق بك فتتمنى الموت ، أما أن تتمنى الموت لعلمك أنك ستصبر إلى خير مما تركت فهذا أمر آخر .

وقد ورد في القرآن مسألة تمني الموت هذه في الكلام عن بني إسرائيل الذين قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه ، وقالوا : لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة ، وأن الدار الآخرة لنا خالصة عند الله ، فبماذا رَدّ عليهم القرآن الكريم؟

والله طالما أن الأمر كما تقولون ، والآخرة لكم { فَتَمَنَّوُاْ الموت إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [البقرة : 94] ثم قرَّر الحق سبحانه ما سيكون منهم فقال : { وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ } [البقرة : 95] .

وقال عنهم : { وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ الناس على حَيَاةٍ } [البقرة : 96] .

وما داما لن يتمنوا الموت ، وما داموا أحرصَ الناس على الحياة ، فلا بُدَّ أن حياتهم هذه التي يعيشونها أفضل لديهم من الحياة الأخرى .

فالمؤمن إذن لا يجوز أن يتمنى الموت هَرباً من بلاء أصابه أو اعتراض على قَدَرِ الله ، ويجوز له ذلك إنْ علم أنه صائر إلى أفضل ممّا هو فيه .

وقولها : { نَسْياً مَّنسِيّاً } [مريم : 23] النسيّ : هو الشيء التافه الذي لا يُؤْبَه به ، وهذا عادةً ما يُنْسَي لعدم أهميته ، كالرجل الذي نسى عند صاحبه علبة كبريت بها عودان اثنان ، وفي الطريق تذكرها فعاد إلى صاحبه يطلب ما نسيه ، وهكذا تمنتْ مريم أن تكون نسياً منسياً حتى لا

يذكرها أحد .

ولم تكتفِ بهذا ، بل قالت : { نَسْياً مَّنسِيّاً } [مريم : 23] لأن النسيّ : الشيء التافه الذي يُنسَي في ذاته ، لكن رغم تفاهته فربما يجد مَنْ يتذكره ويعرفه ، فأكدت النسيّ بقولها (منسياً) أي : لا يذكره أحد ، ولا يفكر فيه أحد .

ثم يقول الحق سبحانه : { فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَآ }

فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (24)

{ مِن تَحْتِهَآ } [مريم : 24] فيها قراءتان (مِنْ ، مَنْ) صحيح أن جبريل عليه السلام ما زال موجوداً معها لكنه ليس تحتها ، فدلّ ذلك على أن الذي ناداها هو الوليد { أَلاَّ تَحْزَنِي } [مريم : 24] ، وحزن مريم منشؤه الانقطاع عن الناس ، وأنها في حالة ولادة ، وليس معها مَنْ يسندها ويساعدها ، وليس معها مَنْ يَحضِر لها لوازم هذه المسألة من طعام وشراب ونحوه .

لذلك تعهّدها ربها تبارك وتعالى فوفّر لها ما يُقيتها من الطعام والشراب ، فقال : { قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً } [مريم : 24] والسريّ : هو النهر الذي يجري بالماء العَذْب الزُّلال ، وثم يعطيها الطعام المناسب لحالتها ، فيقول تعالى : { وهزى إِلَيْكِ بِجِذْعِ }

وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (25)

وهكذا وفّر الحق سبحانه وتعالى لمريم مقوّمات الحياة وعناصر استبقائها ، وهي مُرتَّبة على حَسْب أهميتها للإنسان : الهواء والشراب والطعام ، والإنسان يصبر على الطعام شهراً دون أنْ يأكلَ ، ويمكنه أنْ يقتاتَ على ما هو مخزون في جسمه من غذاء ، لكنه لا يصبر على الماء أكثر من ثلاثة أيام إلى عشرة أيام حسب ما في جسمه من مائية ، في حين لا يصبر على الهواء لحظة واحدة ، ويمكن أنْ يموتَ من كَتْم نفَسٍ واحد .

لذلك ، من حكمة الخالق سبحانه وتعالى أن يُمَلِّك الطعام كثيراً ، ويُملك الماء قليلاً ، ولا يُمَلِّك الهواء لأحد أبداً ، لأنك لو غضبتَ على أحد فمنعتَ عنه الهواء لمات قبل أنْ ترضى عنه ، إذن : فعناصر استبقاء الحياة مرتبة حَسْب أهميتها في حياة الإنسان ، وقد ضمنها الحق سبحانه لمريم وجعلها في متناول يدها وأغناها عن أنْ يخدمها أحد .

فالهواء موجود وهي في الخلاء ، ثم الماء فأجري تحتها نهراً عذباً زلالاً ، ثم الطعام فقال : { وهزى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النخلة تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً } [مريم : 25] وكأن الحق تبارك وتعالى يريد أنْ يُظهِر لمريم آية أخرى من آياته ، فأمرها أنْ تَهزَّ جذع النخلة اليابس الذي لا يستطيع هَزَّه الرجل القويّ ، فما بالها وهي الضعيفة التي تعاني ألم الولادة ومشاقها؟

كما أن الحق سبحانه قادر على أنْ يُنزِل لها طعامها دون جَهْد منها ودون هَزّها ، إنما أراد سبحانه أن يجمع لها بين شيئين : طلب الأسباب والاعتماد على المسبب ، والأخذ بالأسباب في هَزّ النخلة ، رغم أنها متعبة قد أرهقها الحمل والولادة ، وجاء بها إلى النخلة لتستند إليها وتتشبث بها في وحدتها لنعلم أن الإنسان في سعيه مُطَالب بالأخذ بالأسباب مهما كان ضعيفاً .

لذلك أبقى لمريم اتخاذ الأسباب مع ضَعْفها وعدم قدرتها ، ثم تعتمد على المسبِّب سبحانه الذي أنزل لها الرُّطَب مُسْتوياً ناضجاً ، وهل استطاعت مريم أنْ تَهزَّ الجذع الكبير اليابس؟

إنها مجرد إشارة إليه تدلُّ على امتثال الأمر ، والله تعالى يتولى إنزال الطعام لها ، وقد صَوَّر الشاعر هذا الموقف بقوله :

أَلَمْ تَرَ أنَّ الله قَالَ لمَرْيَمَ ... وَهُزِّي إليك الجذْعَ يَسَّاقَط الرُّطبْ

وَإنْ شَاءَ أعطَاهَا ومِنْ غير هَزَّة ... ولكن كُلّ شَيءٍ لَهُ سَبَبْ

وقوله : { تُسَاقِطْ } مريم : 25] أي : تتساقط عليك { رُطَباً جَنِيّاً } [مريم : 25] أي : استوى واستحق أن يُجنى ، وليس مُبْتسراً قبل موعده ، ومن الرُّطَب ما يتساقط قبل نُضْجه فلا يكون صالحاً للأكل .

وقوله : { تُسَاقِطْ عَلَيْكِ } [مريم : 25] فيه دليل على استجابة الجماد وانفعاله ، وإلا فالبلحة لم تخرج عن طَوْع أمها ، إذن : فقد ألقتْها طواعيةً واستجابة حين تَمَّ نضجها .

ثم يقول الحق سبحانه : { فَكُلِي واشربي وَقَرِّي }

فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (26)

ونلحظ هنا أن الحق تبارك وتعالى عند إيجاد القُوت لمريم جاء بالماء أولاً ، فقال : { قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً } [مريم : 24] ، ثم أتى بالطعام فقال : { وهزى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النخلة تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً } [مريم : 25] لأن الماء أوْلى من الطعام في احتياج الإنسان ، أما عند الأمر بالانتفاع قال : { فَكُلِي واشربي } [مريم : 26] فبدأ بالطعام قبل الشراب ، لماذا؟ لأن الإنسان عادةً يأكل أولاً ، ثم يشرب ، فالماء مع أهميته ، إلا أنه يأتي في العادة بعد الطعام ، فسبحان مَنْ هذا كلامه .

وقوله : { وَقَرِّي عَيْناً } [مريم : 26] بعد أن وفَّر لها الحق سبحانه الطعام والشراب الذي هو قِوَام المادة ، وبه يتم استبقاء الحياة ، لكن بعد الطعام والشراب يبقى لديها حُزْن عميق وألم وحَيْرة مِمَّا هي فيه؛ لذلك يعطيها ربها تبارك وتعالى بعد القوت الذي هو قوام المادة يعطيها السكينة والطمأنينة ويُخفِّف عنها ألم النفس وحَيْرة الفؤاد .

{ وَقَرِّي عَيْناً } [مريم : 26] قرّي : أي : اسكني . وهذا التعبير عند العرب كناية عن السرور

، ومنه قوله تعالى على لسان امرأة فرعون : { قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ } [القصص : 9] .
والعرب تعبر بِقُرَّة العين وسكونها عن السرور؛ لأن سكون العين على مَرأىً واحد لا تتحول عنه دليلٌ على أن العين صادفت مرأى جميلاً تسعد به وتُسَرُّ فلا يُغني عنه مَرأْىً آخر ، فتظل ساكنة عليه لا تتحرك عنه .
وقد يستعمل هذه التعبير في المقابل أي : في الشر والدعاء على إنسان وتمني الشر له ، كالمرأة التي دخلتْ على أحد الخلفاء فنهرَها فقالت له : أتمَّ الله عليك نعمته وأقرَّ عينك . فظنَّ الحضور أنها تدعو له ، لكنه فَطِن لمرادها ، فقال لجلسائه : ما فهمتم ما تقول ، إنها تقصد أتمَّ الله عليك نعمته أي : أزالها ، أما سمعتم قول الشاعر :
إذَا تَمَّ شَيءٌ بَدَا نَقْصُه ... ترقَّبْ زَوَالاً إذَا قِيلَ تَمْ
ذلك لأن الإنسان بطبيعته ابن أغيار ، لا يثبت على حال ، فإذا ما وصل إلى القمة وتمتْ له النعمة ، وهو ابن أغيار فلا بُدَّ أنْ يتحوَّل عنها .
وقولها : أقرَّ الله عينك ، أي : أسْكَنَها بالعمى .
فقوله تعالى لمريم : { وَقَرِّي عَيْناً } [مريم : 26] أي : كوني سعيدة باصطفاء الله لك مسرورة بما أعطاك ، فما تهتمين به وتحزنين هو عَيْن النعمة التي ليستْ لأحد غيرك من نساء العالمين .
ثم يقول تعالى : { فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ البشر أَحَداً فقولي إِنِّي نَذَرْتُ للرحمن صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ اليوم إِنسِيّاً } [مريم : 26] .
وهنا يتولَّى الحق سبحانه وتعالى الدفاع عن مريم وتبرير موقفها الذي لا تجد له هي مبرراً في أعراف الناس ، فَمنْ يلتمس عُذْراً لامرأة تحمل وتلد دون أن يكون لها زوج؟ ومهما قالت فلن تُصدَّق ولن تسْلَم من ألسنة القوم وتجريحهم .
إذن : فجواب ما يكره السكوت ، فأمرها سبحانه أنْ تلزم الصمت ولا تجادل أحداً في أمرها : { فقولي إِنِّي نَذَرْتُ للرحمن صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ اليوم إِنسِيّاً } [مريم : 26] والصوم هنا أي : عن الكلام ، كما حدث مثل هذا في قصة زكريا؛ لأن المعجزات قريبة من بعضها ، فقد أعطى الله زكريا مع عَطَب الآلات ، وأعطى مريم بنقص الآلات ، ولا يبرر هذه المعجزات ولا يدافع عنها إلا صانعها تبارك وتعالى .

وهذه المسألة اعترض عليها بعض الذين يحبون أنْ ينتقموا على القرآن ، فقالوا : كيف يأمرها بالصوم عن الكلام ، وفي نفس الوقت يأمرها أن تقول : نذرت للرحمن صوماً؟
يجوز أنها قالت هذه العبارة أولاً لأول بشر رأته ليتم بذلك إعلان صومها ، ثم انقطعت عن الكلام ، ويجوز أن يكون المراد بالكلام هنا الإشارة ، والدلالة بالإشارات أقوى الدلالات وأعمّها ، فإن اختلفت اللغات بين البشر لأن كل جماعة تواضعوا على لغة خاصة بهم ، فإن لغة الإشارة

تظل لغة عامة يتفق عليها الجميع ، فمثلاً حين تُومىء برأسك هكذا تعني نعم في كل اللغات ، وحين تُشير بأصبعك هكذا تعني لا ، إذن : فالدلالة لغة عالمية وعامّة .

وقد تعرَّضَ القرآن الكريم في موضع آخر لهذه المسألة في قوله تعالى : { حتى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْماً لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً } [الكهف : 93] .

أي : لا يقربون من الفهم ، فَهُمْ يفهمون من باب أَوْلى ، ومع ذلك كان بينهم كلام وإشارة ولغة ، وفَهِم كل منهم عن الآخر : { قَالُواْ ياذا القرنين إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ } [الكهف : 94] .

ونلحظ في قولها : { فَلَنْ أُكَلِّمَ اليوم إِنسِيّاً } [مريم : 26] أن النهي عن الكلام مع البشر خاصة فلم تَقُل : لن أتكلم ، وإلاّ فمعها جبريل عليه السلام يُكلّمها وبينهما تفاهم ، لعلَّه يرى لها مَخْرجاً ، وقد كانت مريم واثقة مطمئنة إلى هذا المخرج ، فإذا كان ربها تبارك وتعالى أمرها بالصوم عن الكلام ، فإنه سينطق الوليد ليتكلم هو ويدافع عن أمه أمام اتهامات القوم .

ولما تكلّمنا في قوله تعالى : { فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَآ أَلاَّ تَحْزَنِي } [مريم : 24] استبعدنا أنْ يكون هذا النداء من جبريل ، وقلنا : إنه نداء الوليد؛ لذلك اطمأنتْ مريم وعَلِمتْ أنها أمام معجزة عُظْمى ، ووثقتْ تمام الثقة أنها حين تُشير إليه سيتكلم هو ويردُّ عنها الحَرج مع قومها؛ لأن الكلام ممَّنْ يقدر على الكلام لا يأتي بحجة تُقنع الناس عن خلاف العادة ، أما حين يتكلم وهو في المهد ، فهذا يعني أنه معجزة خارقة للعادة ، فإذا كان الوليد معجزةً فالمعجزة في أُمِّه من باب أَوْلَى .

ثم يقول الحق سبحانه : { فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ }

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (27)

ونعجب للسيدة مريم ، فبدلَ أن تخجل مما حدث وتستتر بوليدها عن أعيُن الناس ، أو تنتقل به إلى مكان آخر في فيافي الأرض إذا بها تحمله ، وتذهب به ، وتبادر به قومها ، وما كانت لتفعل ذلك وتتجرأ عليه إلا لثقتها في الحجة التي معها ، والتي ستوافيها على يد وليدها .

لذلك لما سأل بعض المستشرقين الإمام محمد عبده رحمه الله في باريس : بأيّ وجه قابلتْ عائشة قومها بعد حديث الإفْكِ؟ سبحان الله إنهم يعلمون أنه إفْكٌ وباطل ، لكنهم يرددونه كأنهم لا يفهمون .

فأجاب الشيخ رحمه الله ببساطة : بالوجه الذي قابلتْ به مريم قومها وهي تحمل وليدها . أي : بوجه الواثق من البراءة ، المطمئن إلى تأييد الله ، وأنه سبحانه لن يُسْلِمها أبداً؛ لذلك لما نزلتْ براءة عائشة في كتاب الله قالوا لها : اشكري النبي ، فقالت : بل أشكر الله الذي برأني من فوق سبع سموات .

فلما رآها القوم على هذه الحال قالوا فيها قولاً غليظاً : { يامريم لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً } [مريم :

27] فرياً : الفَرْيُ للجلد : تقطيعه ، والأمر الفري : الذي يقطع معتاداً عند الناس فليس له مثيل ، أو من الفِرْية وهو تعمد الكذب .

ثم قالوا لها : { ياأخت هَارُونَ مَا كَانَ }

يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (28)

قولهم لمريم : { ياأخت هَارُونَ } [مريم : 28] هذا كلام جارح وتقريع ومبالغة منهم في تعييرها ، فنسبوها إلى هارون الذي سُمِّي على اسم النبي ، فأنتِ من بيت صلاح ونشأت في طاعة الله ، فكيف يصدر منك هذا الفعل؟ كما ترى أنت سيدة محجبة يصدر منها في الشارع عمل لا يتناسب ومظهرها فتلومها على هذا السلوك الذي لا يُتصوّر من مثلها .

وقوله : { مَا كَانَ أَبُوكِ امرأ سَوْءٍ } [مريم : 28] الرجل السوء هو الذي إنْ صحبْتَه أصابك منه سوء ، ونالك بالأذى { وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً } [مريم : 28] قلنا : إن البَغيَّ : هي المرأة التي تبغي الرجال وتدعوهم إليها ، فالمراد : من أين لك هذه الصفة ، وأنت من أسرة خَيِّرة صالحة؟

وفي هذا دليل على أن نَضْج الأُسَرِ يؤثر في الأبناء ، فحين نُكوِّن الأسرة المؤمنة والبيت الملتزم بشرع الله ، وحين نحتضن الأبناء ونحوطهم بالعناية والرعاية ، فسوف نستقبل جيلاً مؤمناً واعياً نافعاً لنفسه ولمجتمعه .

إذن : فقولهم : { مَا كَانَ أَبُوكِ امرأ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً } [مريم : 28] اتهام صريح لمريم ، وتأكيد على أنها وقعتْ في محظور وكأنهم مصرون على رَمْيها بالفاحشة .

ثم يقول الحق سبحانه : { فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ }

فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (29)

أي : حين قال القوم ما قالوا أشارتْ إلى الوليد وهي واثقة أنه سيتكلم ، مطمئنة إلى أنها لا تحمل دليل الجريمة ، بل دليل البراءة .

فلما أشارتْ إليه تقول لقومها : اسألوه ، تعجَّبُوا : { قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي المهد صَبِيّاً } [مريم : 29] ونلاحظ في قولهم أنهم لم يستبعدوا أنْ يتكلّمَ الوليد ، فلم يقولوا : كيف يتكلم مَنْ كان في المهد صبياً؟ بل قالوا : { كَيْفَ نُكَلِّمُ } [مريم : 29] أي : نحن ، فاستبعدوا أنْ يكلموه ، فكأنهم يطعنون في أنفسهم وفي قدرتهم على فَهْم الوليد إنْ كلَّمهم .

والمهد : هو المكان الممهد المعَدّ لنوم الطفل ، لأن الوليد لا يقدر أن يبعد الأذى عن نفسه ، فالكبير مثلاً يستطيع أنْ يُمهد لنفسه مكان نومه ، وأن يُخرِج منه ما يُؤرِّق نومه وراحته ، وعنده

وَعْي ، فإذا آلمه شيء في نومه يستطيع أنْ يتحلَّل من الحالة التي هو عليها ، وينظر ماذا يؤلمه .
ثم يقول الحق سبحانه : { قَالَ إِنِّيۤ عَبْدُ الله }

قَالَ إِنِّيۤ عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30)

وكأنه قال للقوم : لا تتكلموا أنتم ، أنا الذي سأتكلم . ثم بادرهم بالكلام : { قَالَ إِنِّيۤ عَبْدُ الله } [مريم : 30] وهكذا استهلّ عيسى عليه السلام كلامه بإظهار عبوديته لله تعالى ، وفي هذه دليل على أنه قد يُقال فيه أنه ليس عبداً ، وأنه إله أو شريك للإله .
لذلك كانت أو كلمة نطق بها { قَالَ إِنِّيۤ عَبْدُ الله } [مريم : 30] فالمعجزة التي جاءتْ بي لا تمنع كَوْني عبداً لله؛ لذلك لو سألتَ الذين يعتقدون في عيسى عليه السلام أنه إله أو شريك للإله : إنكم تقولون أنه تكلّم في المهد ، فماذا قال؟ فلا يعترفون بقوله أبداً؛ لأن قوله ونُطْقه : { إِنِّيۤ عَبْدُ الله } [مريم : 30] ينفي معتقدهم من أساسه .
ليس هذا وفقط ، بل : { آتَانِيَ الكتاب } [مريم : 30] لكن كيف آتاه الكتاب وهو ما يزال وليداً في مَهْده؟ قالوا : على اعتبار أنه أمرٌ مفروغ منه ، وحادث لا شَكَّ فيه ، كأنه يقول : أنا أَهْل لأنْ أتحملَ أمانةَ السماء إلى أهل الأرض . مع أن الكتاب لم يأتِ بعد ، إلا أنه مُلقَّن لقَّنه ربه الكتاب بالفعل ، وإنْ لم يأت الوقت الذي يُبلّغ فيه هذا الكتاب .
{ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً } [مريم : 30] فسلوكي سلوك قويم ، ولا يمكن أن يكون فيَّ مطعَنٌ بعد ذلك ، وإنْ كان هناك مطعن فهو بعيد عني ، ولا ذنبَ لي فيه .
ثم يقول : { وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ }

وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (31)

أي : وشرَّع لي أيضاً ما دُمْت حياً . . وقد قال عيسى عليه السلام في المهد هذه الكلمات ليبرِّىء أمه الصِّدِّيقة ، ذلك أنهم اتهموها في أعزِّ شيء لديْها؛ ولذلك لم يكُنْ ليُجدي أيّ كلام منها ، وإنقاذاً لها أبلغها الحق عن طريق جبريل أو عيسى عليهما السلام أن تقول : { إِنِّيۤ نَذَرْتُ للرحمن صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ اليوم إِنسِيّاً } [مريم : 26] .
ثم يقول : { وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي }

وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (32)

فلِمَ ذكر والدته هنا؟ ولِمَ حرص على تقرير بِرِّه بها؟ قالوا : لأن البعض قد يظن أن عيسى عليه السلام حينما يكبر ويعرف قصة خَلْقه ، وأن أمه أتَتْ به من غير أب ، ودون أنْ يمسسْها بشر

قد تترك هذه المسألة ظلالاً فلي نفسه وتُساوِره الشكوك في أمه ، فأراد أنْ يقطع كل هذه الظنون .

ذلك لأنه هو نفسه الدليل ، وهو نفسه الشاهد على براءة أمه ، والدليل لا يُشكِّك في المدلول ، فكأنه يقول للقوم : إياكم أنْ تظنوا أني سأتجرأ على أمي ، أو يخطر ببالي خاطر سوء نحوها .

ثم يقول : { وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً } [مريم : 32] فنفى عن نفسه صفة الجبروت والقسوة والتعاظم؛ لأن الرسول لابُدَّ أنْ يكون ليِّنَ الجانب رفيقاً بقومه؛ لأنه أتى ليُخرِج الناس مِمَّا أَلِفُوه من الفساد إلى ما يثقل عليهم من الطاعة .

والإنسان بطبعه حين يألَف الفساد يكره مَنْ يُخرِجه عن فساده ، فمن الطبيعي أن يتعرّض النبي لاستفزاز القوم وعنَادهم ومكابرتهم ، فلو لم يكُنْ ليِّن الجانب ، رقيق الكلمة ، يستميل الأذن لتسمع والقلوب لتعي ما صلح لهذه المهمة .

لذلك يخاطب الحق تبارك وتعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بقوله : { وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ القلب لاَنْفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ } [آل عمران : 159] .

ومعنى { شَقِيّاً } [مريم : 32] أي : عاصياً ، وما أبعدَ مَنْ هذه صفاته عن معصية الله التي يشقى بسببها الإنسان .

ثم يقول تعالى عن عيسى عليه السلام أنه قال : { والسلام عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُّ }

وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (33)

سبق أن قلنا في قصة يحيى عليه السلام : إن هذه الأحداث أعلام ثلاثة في حياة الإنسان : يوم مولده ، ويوم موته ، ويوم أنْ يُبعث يوم القيامة . فما وجه السلامة في هذه الأحداث بالنسبة لعيسى عليه السلام؟

قوله : { والسلام عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُّ } [مريم : 33] لأن يوم مولده مَرَّ بسلام ، رغم ما فيه من عجائب ، فلم يتعرَّض له أحد بسوء ، وهو الوليد الذي جاء من دون أب ، وكان من الممكن أنْ يتعرّض له ولأمه بعض المتحمسين الغيورين بالإيذاء ، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، ومَرَّ الميلاد بسلام عليه وعلى أمه .

{ وَيَوْمَ أَمُوتُ } [مريم : 33] لأنهم أخذوه ليصلبوه ، فنجّاه الله من أيديهم ، وألقى شبهه على شخص آخر ، ورفعه الله تعالى إلى السماء .

{ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً } [مريم : 33] فليس هناك من الرسل مَنْ سيسأل هذه الأسئلة ، ويناقش هذه المناقشة التي نُوقِشها عيسى في الدنيا :

{ وَإِذْ قَالَ الله ياعيسى ابن مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذوني وَأُمِّيَ إلهين مِن دُونِ الله قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي

نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الغيوب * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَآ أَمَرْتَنِي بِهِ } [المائدة : 116117] .
وليس هذا قَدْحاً في مكانة عيسى عليه السلام؛ لأن ربَّه تبارك وتعالى يعلم أنه ما قال لقومه إلا ما أُمِرَ به ، ولكن أراد سبحانه توبيخ القوم الذين اتخذوه وأمه إلهين من دون الله ، فوجْه السلام في يوم { أُبْعَثُ حَيّاً } [مريم : 33] أنه نُوقِش في الدنيا وبُرّئتْ ساحته .
ثم يقول الحق سبحانه : { ذلك عِيسَى ابن مَرْيَمَ }

ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (34)

{ ذلك } [مريم : 34] أي : ما تقدّم من قصة عيسى عليه السلام { قَوْلَ الحق } [مريم : 34] أي : يقولها الله تعالى قَوْلَة حَقٍّ ، والحق هو الله ، فالذي قَصّ عليك هذا القَصَص هو الله ، وقوله الحق الذي لا باطلَ فيه ، فيكون الحق الذي هو ضد الباطل ، فالمعنيان ملتقيان .
أو : يكون المراد بقول الحق كلمة (كُنْ) التي بها يتمّ الخَلْق .
ثم يقول تعالى : { الذي فِيهِ يَمْتَرُونَ } [مريم : 34] من المراء : وهو الاختلاف والجدال بالباطل ، فالحق سبحانه يعلم أنهم سيشكُّون فيه ، ويتجادلون بالباطل ، وأنهم سيقولون فيه الأقاويل ، وكأن الله تعالى يقول لهم : اتركوا هذه الأقاويل والأباطيل في شأن عيسى وخُذُوا بما أخبرتُكم به من خبره ، فهو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خَلْفه .
ثم يقول الحق تبارك وتعالى : { مَا كَانَ للَّهِ أَن يَتَّخِذَ }

مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (35)

لماذا تكلم الحق سبحانه هنا عن نفي الولد بالذات؟
قالوا : لأن مسألة الشريك لله تعالى تُنفَى بأولية العقل ، فإنْ كان كُلُّ إ له صالحاً للفعل وللترك ، فهذه صورة مُكرّرة لا تناسب الإله ، وإنْ كان هذا إلهاً لكذا وهذا إله لكذا ، فما عند أحدهما نقص في الآخر ، وهذا محال في الإله ، ولو أن هناك إلهاً آخر لذهب كل منهما بجزء ، كما قال سبحانه : { إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إله بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ } [المؤمنون : 91] .
لذلك نفى مسألة الولد؛ لأنها ذات أهمية خاصة بالنسبة لقصة عيسى عليه السلام؛ لأن الولد من الممكن أنْ يُستبعَد فيه الدليل ، لماذا؟ لأن دليله اتخاذُ الولد أو حُبُّ الولد ، والإنسان يحب الولد ويسعى إليه ، لماذا؟
قالوا : لأن الإنسان ابْنُ دنياه ، وهو يعلم أنه ميت ميت ، فيحبّ أن يكون له امتداد في الدنيا وذِكْر من بعده ، فالإنسان يتمسّح في الدنيا حتى بعد موته ، وهو لا يدري أن ذِكْر الإنسان لا يأتي بعده ، بل ذِكْره يسبقه إلى الآخرة بالعمل الصالح .

إذن : فحبُّ الولد هنا لاستدامة استبقاء الحياة ، وهذا مُحَال في حَقِّ الله تبارك وتعالى؛ لأنه الباقي الذي لا يزول .

وقد يتخذ الولد ليكون عِزْوة لأبيه وسَنداً ومُعِيناً ، وهذا دليل الضَّعْف ، والحق سبحانه هو القويّ الذي لا يحتاج إلى معونة أحد . إذن : فاتخاذ الولد أمر منفيّ عنه تبارك وتعالى ، فهو أمر لا يليق بمقام الألوهية ، ويجب أنْ تُنزِّه الله تعالى أن يكون له ولد؛ لذلك يقول تعالى بعدها : { سُبْحَانَهُ } [مريم : 35] .

وسبحان تدل على التنزيه المطلق لله تعالى تنزيهاً له في ذاته ، وفي صفاته ، وفي أفعاله ، فهو سبحانه ليس كمثله شيء ، وإنْ وجدتَ صفة مشتركة بينك وبين الله كأنْ يكونَ لله تعالى وجه ويد ، ولكَ وجه ويد ، فإياك أنْ تنزل بالمستوى الأعلى فتقول : وجهه كوجهي ، أو يده كيدي ، لأن لك وجوداً ولله تعالى وجود ، فهل وجودك كوجود الله؟

وجودك مسبوق بعدم ويلحقه العدم ، ووجوده تعالى لم يُسبَق بعدم ولا يلحقه العدم ، فعليك إذن أن تقول في مثل هذه المسائل : { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السميع البصير } [الشورى : 11] .

والمتتبع لمادة (سَبَّح) في القرآن الكريم يجد أنها جاءت بكل الصِّيَغ :

الماضي : { سَبَّحَ للَّهِ مَا فِي السماوات والأرض } [الحديد : 1] .

والمضارع : { يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض } [الجمعة : 1] .

والأمر في : { سَبِّحِ اسم رَبِّكَ الأعلى } [الأعلى : 1] .

فما دام الكون كله سبَّح لله ، ولم ينقطع عن تسبيحه ، بل ما زال مُسبِّحاً ، فلما خلق الخلق أمرهم بالتسبيح؛ لأنهم جزء من منظومة الكون المسبّح ، وعليهم أنْ ينتظموا معه ، ولا يكونوا نشازاً في كون الله .

أما المصدر (سبحان) فقد جاء ليدل على التنزيه المطلق لله تعالى ، حتى قبل أن يخلق الخَلْق ، التنزيه ثابت له تعالى قبل أنْ يخلق مَنْ يُنزِّهه كما في قوله تعالى :

{ سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بَارَكْنَا حَوْلَهُ } [الإسراء : 1] .

لأن المسألة عجيبة وفوق إدراك العقل ، فقد جاء بالمصدر (سبحان) الدالّ على التنزيه المطلَق لله ، كأنه تعالى يُحذّر الذين يُحكِّمون عقولهم ، ولا يُحكِّمون قدرة الله الذي خلقهم بقانون الزمان والمكان والبُعْد والمسافة ، فكُلٌّ فعل يتناسب قوةً وقدرةً مع فاعله .

ثم يقول تعالى : { إِذَا قضى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ } [مريم : 35] ذلك لأن الآية في خَلْق عيسى عليه السلام مخالفة للنواميس كلها ، وخارقة للعادة التي أَلِفها الناس ، فإياك أنْ تتعجب من فِعْل الله تعالى في يحيى ، حيث جاء به مع عطب الآلات ، أو تتعجب من خَلْق

عيسى حيث جاء به مع نقص الآلات .

وإياك أنْ تتعَجَّب من كلام عيسى وهو في المهد صَبِياً ، فهي أمور نعم خارقة للعادة وللنواميس ، فخُذْها في إطار (سبحانه) وتنزيهاً له؛ لأنه تعالى إذا أراد شيئاً لا يعالجه بعمل ومُزاولة ، وإنما يعالجه (بكُنْ) فيكون .

ولا تظن أن خَلْق الأشياء متوقف على هذا الأمر (كُنْ) ، فإن كان الفعل مُكوّناً من (كاف) و (نون) فقبل أن تنطق النون يكون الشيء موجوداً ، لكن (كُنْ) هو أقصر ما يمكن تصوّره لنا ، والحق سبحانه يخاطبنا بما يُقرّب هذه المسألة إلى عقولنا ، وإلا فإرادته سبحانه ليستْ في حاجة إلى قول (كُنْ) فما يريده الله يكون بمجرد إرادته .

كما أنك لو أمعنتَ النظر في قوله تعالى : { إِذَا قضى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ } [مريم : 35] تجد (يقُولُ لَهُ) أي : للشيء ، فكأن الشيء موجود بالفعل ، موجود أزلاً ، فالأمر بكُنْ ليس لإيجاده من العدم ، بل لمجرد إظهاره في عالم الواقع .

ثم يقول : { وَإِنَّ الله رَبِّي وَرَبُّكُمْ }

وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (36)

الرب : هو المتولّي للتربية والرعاية . والتربية تعني أن يأخذ المربّي المربَّى بالرياضة إلى مَا يصلحه لأداء مهمته والقيام بها ، كما لو أردتَ مهندساً تُربّيه تربيه مهندس ، وإن أردت طبيباً تربية تربية طبيب . ونحن هنا أمام قوم أشركوا بالله ، ونحتاج لداعية يُخرِجهم من الشرك إلى الإيمان ، ومن المعصية إلى الطاعة .

فالمعنى : ما دام أن الله تعالى ربي وربكم ، والمتولّي لتربيتنا جميعاً ، فلا بُدَّ أن يُربّي لكم مَنْ يصلحكم؛ لأنه تعالى لا يخاطبكم مباشرة ، بل سيبعثني إليكم أبلغكم رسالته ، وأدعوكم إلى عبادته وحده لا شريك له ، وما دام الله ربي وربكم فمن الواجب أنْ تُطيعوه { فاعبدوه } [مريم : 36] والعبادة أنْ يطيعَ العابدُ معبوده في أوامره وفي نواهيه . كما قال تعالى : { وَمَآ أمروا إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ الله } [البينة : 5] .

ثم يقول تعالى : { هذا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ } [مريم : 36] أي : الذي لا التواءَ فيه ولا اعوجاجَ ، وهو الطريق الذي يُوصِّلك لمقصودك من أقرب طريق ، وبأقلّ مجهود ، ومعلوم أن الخط المستقيم هو أقرب طريق بين نقطتين .

ثم يقول الحق سبحانه : { فاختلف الأحزاب مِن بَيْنِهِمْ }

فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (37)

الأحزاب : أي الذين اختلفوا في عيسى عليه السلام من قومه ، فمنهم مَنْ قال : هو إله ، ومنهم مَن قال : ابن إله . وآخر قال : هو ثالث ثلاثة . ومنهم مَنْ رماه بالسحر وقال عنه بعضهم : ابن زنى نستغفر الله مما يقوله الظالمون والكافرون .

والأحزاب : جمع حِزْب ، وهم طائفة من الناس اجتمعوا حول مبدأ من المبادىء ، ورأْي مَن الآراء يدافعون عنه ويعتقدونه ، ويسيرون في حياتهم على وفقه ، ويُخضِعون حركة حياتهم لخدمته .

ومعنى : { مِن بَيْنِهِمْ } [مريم : 37] يعني من داخل المؤمنين به ومن أتباع عيسى أنفسهم ، فالذين قالوا عنه هذه الأباطيل ليسو من أعدائه ، بل من المؤمنين به .

وهكذا اختلف القوم في أمر عيسى ، وكان لكل منهم رَأْي ، وجميعها مُنَافِية للصواب بعيدة عن الحقيقة؛ لذلك توعّدهم الخالق سبحانه بقوله : { فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ } [مريم : 37] .

فقد قلتم في عيسى ما قُلْتم في الدنيا ، وخُضْتم فيه بما أحببتُمْ من القول؛ لأن الله تعالى جعل إرادتكم نافذة على جوارحكم ، وأعطاكم حرية الفعل والاختيار ، فوجَّهتم جوارحكم واخترتم ما يُغضب الله ، فكأن عقوبة الدنيا لا تناسب ما فعلوه ، ولابُدَّ لهم من عقوبة آجلة في الآخرة تناسب ما حدث منهم في حَقِّ نبيهم وفي حَقِّ ربهم تبارك وتعالى .

{ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ } [مريم : 37] ومشهد يوم عظيم هو يوم القيامة ، يوم تُبْلَى السرائر ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله .

وسماه المشهد العظيم؛ لأنه يوم مشهود يشهده الجميع؛ لأن العذاب في الدنيا مثلاً لا يشهده إلا الحاضرون المعاصرون ، ولا يشهده السابقون ولا اللاحقون ، أما عذاب الآخرة فهو المشهد العظيم الذي يراه كل الخَلْق .

وربما كان بعض العذاب أهونَ من رؤية الغير للإنسان وهو يُعذِّب ، فربما تحمَّل هو العذاب في نفسه أما كونه يُعذَّب على مرأىً من الناس جمعياً ، ويرونه في هذه المهانة وهذه الذلة وقد كان في الدنيا عظيماً أو جباراً أو عاتياً أو ظالماً ، لا شكَّ أن رؤيتهم له في هذه الحالة تكون أنكَى له وأبلغ .

لذلك يقول الحق تبارك وتعالى عنهم في آية أخرى : { وَلَوْ ترى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النار فَقَالُواْ ياليتنا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ المؤمنين } [الأنعام : 27] هذا منهم مجرد كلام : { بَلْ بَدَا لَهُمْ مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ } [الأنعام : 28] أي : ظهر لهم ما كانوا يخفون ولم يقُلْ يخفَى عنهم ، كأنهم كانوا يعلمون عنه شيئاً ولكنهم أخفوْه .

وقال عنهم : { وَلَوْ ترى إِذِ المجرمون نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فارجعنا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ } [السجدة : 12] .

فلماذا أبصروا وسمعوا الآن؟ لأنهم كانوا يسمعون في الدنيا عن غير وَعْي ، فينكرون ويُبصرون آيات الله في الكون ولا يؤمنون ، أما في الآخرة فقد انكشفتْ لهم الحقائق التي طالما أنكَروها ، ولم يَعُدْ هناك مجال للمكابرة أو الإنكار؛ لذلك يقول تعالى بعدها : { أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ }

أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (38)

قوله : { أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ } [مريم : 38] أي : أسمع بهم وأبْصِر بهم ، وهذه من صِيَغ التعجُّب على وزن (أفعل به) يعني ما أشدّ سمعهم ، وما أشدّ بصرهم ، فهم الآن يُرهِفون السمع ويُدقِّقون النظر حتى إن الإنسان ليتعجب من سمعهم الدقيق ، وبصرهم المحيط بعد أن كانوا في الدنيا يضعون أصابعهم في آذانهم فلا يسمعون ، ويستغشون ثيابهم فلا يبصرون ، كانوا في عَمىً عن آيات الله الواضحات التي تثبت صِدْق الرسل ، وعن الآيات التي تحمل الأحكام ، وعن الآيات الكونية التي تدلُّ على قدرة الصانع الحكيم .

وقوله : { يَوْمَ يَأْتُونَنَا } [مريم : 38] أي : أسمع بهم وأبصر بهم في هذا اليوم يوم القيامة ، والإنسان بحكم خَلْق الله تعالى له ، واستخلافه في الأرض جعل له السيطرة على جوارحه فهو يأمرها فتطيعه ، فجوارح الإنسان وطاقاته مُسخّرة لإرادته ، فلسانك تستطيع أنْ تنطقَ ب لا إله إلا الله . كما تستطيع أن تقول : لا إله أو تقول : الله ثالث ثلاثة . واللسان مِطْواع لك لا يعصاك في هذه أو تلك ، وما أعطاك الله هذه الحرية وكفَل لَك الاختيار إلا لأنه سيحاسبك عليها يوم القيامة : أأردتَ الخير الذي وجَّهك إليه أم أردتَ الشر الذي نهاك عنه؟

أما يوم القيامة فتنحلّ هذه الأرادة ، ويبطل سلطانها على الجوارح في يوم يُنادِي فيه الحق تبارك وتعالى : { لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار } [غافر : 16] يومها ستشهد الجوارح على صاحبها ، وكما قال الحق سبحانه تعالى : { يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } [النور : 24] .

ويقول تعالى : { وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قالوا أَنطَقَنَا الله الذي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ } [فصلت : 21] .

لم لا؟ وقد تحررتْ الجوارح من قَيْد الإرادة ، وجاء الوقت لتشتكي إلى الله ، وتنطق بكلمة الحق التي كتمتْها تحت وطأة الإرادة وقهْرها .

وسبق أن ضربنا مثالاً لذلك بمجموعة من الجنود يسيرون تحت إمْرة قائدهم المباشر ، ويأتمرون بأمره ، ويطيعونه طاعة عمياء ، فإذا ما عادوا إلى القائد الأعلى انطلقتْ ألسنتُهم بالشكوى من تعسُّف قائدهم وغَطْرسته .

ثم يقول تعالى : { لكن الظالمون اليوم فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ } [مريم : 38] فيا ليتهم فهموا هذه المسألة ، لكنهم ظلموا ، وما ظلموا إلا أنفسهم ، فالله تبارك وتعالى لا يضره كفر الكافرين ، ولا

ينقص من مُلْكه تعالى وسلطانه ، لكن كيف يظلم الإنسان نفسه؟
يظلم الإنسان نفسه؛ لأنه صاحب عَقْل واعٍ يستقبل الأشياء ويميزها ، وصاحب نفس شهوانية تصادم بشهواتها العاجلة هذا العقل الواعي ، وتصادم المنهج الربّاني الذي يأمرها بالخير وينهاها عن الشر ، هذه النفس بشهواتها تدعو الإنسان إلى مرادها وتوُقِعه في المتعة الوقتية واللذة الفانية التي تستوجب العذاب وتُفوّت عليه الخير الباقي والنعيم الدائم .
لذلك يقول تعالى : { ولكن الناس أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [يونس : 44] .
ثم يقول الحق سبحانه : { وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الحسرة }

وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (39)

قوله تعالى : { وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الحسرة } [مريم : 39] الإنذار : هو التحذير من شر قادم .
والحسرة : هي الندم البالغ الذي يصيب النفس الإنسانية حينما يفوتها خير لا يمكن تداركه ، وحينما تلقى شيئاً لا تستطيع دفعه أما الندم فيكون حزناً على خير فاتَكَ ، لكن يمكن تداركه ، كالتلميذ الذي يخفق في امتحان شهر من الشهور فيندم ، لكنه يمكنه تدارك هذا الإخفاق في الشهر التالي ، أما إذا أخفق في امتحان آخر العام فإنه يندم ندماً شديداً ، ويتحسَّر على عام فات لا يمكن تداركُ الخسارة فيه .
لذلك سيقول الكفار يوم القيامة : { ياحسرتنا على مَا فَرَّطْنَا فِيهَا } [الأنعام : 31] .
والمعنى : يا حسرتنا تعالَيْ فهذا أوانك ، واحضري فقد فاتتْ الفرصة إلى غير رجعة . إذن : فيوم الحسرة هو يوم القيامة ، حيث لن يعود أحدٌ ليتدارك ما فاته من الخير في الدنيا ، وليتَ العقول تعي هذه الحقيقة ، وتعمل لها وهي ما تزال في سَعَة الدنيا .
ومعنى : { إِذْ قُضِيَ الأمر } [مريم : 39] أي : وقع وحدث ، ولا يمكن تلافيه ، ولم يَعُدْ هناك مجال لتدارُكِ ما فات؛ لأن الذي قضى هذا الأمر وحكم به هو الله تبارك وتعالى الذي لا يملك أحدٌ ردَّ أمرِه أو تأخيره عن موعده أو مناقشته فيه ، فسبحانه ، الأمر أمره ، والقضاء قضاؤه ، ولا إله إلا هو .
وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أن الله حينما يُدخل أهلَ الجنةِ الجنةَ ، ويُدخِل أهلَ النارِ النار يأتي بالموت على هيئة كبش ، فيقول للمؤمنين : أتعرفون هذا؟ قالوا : نعم هو الموت جاءنا وعرفناه ، ويقول للكفار : أتعرفون هذا؟ يقولون : عرفناه ، فيميت الله الموت ويقول لأهل الجنة : خلود بلا موت . ولأهل النار : خلود بلا موت » .
وهكذا قضى اللهُ الأمرَ ليقطع الأمل على الكفار الذين قد يظنُّون أن الموت سيأتي ليُخرجهم مما هُمْ فيه من العذاب ويريحهم ، فقطع الله عليهم هذا الأمل وآيسهم منه ، حيث جاء بالموت مُشخّصاً وذبحه أمامهم ، فلا موتَ بعد الآن فقد مات الموت .

لذلك يخبر عنهم الحق تبارك وتعالى : { وَنَادَوْاْ ياملك لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَّاكِثُونَ } [الزخرف : 77] .

ثم يقول تعالى : { وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ } [مريم : 39] .

الغفلة : أن يصرف الإنسان ذِهْنه عن الفكر في شيء واضح الدليل على صحته؛ لأن الحق تبارك وتعالى ما كان لِيُعذّب خَلْقه إلا وقد أظهر لهم الأدلة التي يستقبلها العقل الطبيعي فيؤمن بها .

فالذي لا يؤمن إذن : إما غافل عن هذه الأدلة أو متغافل عنها أو جاحد لها ، كما قال سبحانه : { وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً } [النمل : 14] .

ومن الغفلة غفلتهم عن الموت ، وقد قالوا : من مات قامت قيامته .

ومن حكمة الله أنْ أبهم الموت ، أبهمه وقتاً ، وأبهمه سبباً ، وأبهمه مكاناً ، فكان إبهام الموت هو عَيْن البيان للموت؛ لأن إبهامه يجعل الإنسان على استعداد للقائه في أيّ وقت ، وبأيّ سبب ، وفي أيّ مكان ، فالموت يأتي غفلة؛ لأنه لا يتوقف على وقت أو سبب أو مكان .

فالطفل يموت وهو في بطن أمه ، ويموت بعد يوم ، أو أيام من ولادته ، ويموت بعد مائة عام ، ويموت بسبب وبدون سبب ، وقد نتعجَّب من موت أحدنا فجأة دون سبب ظاهر ، فلم تصدمه سيارة ، ولم يقع عليه جدار أو حجر ، ولم يداهمه مرض ، فما السبب؟ السبب هو الموت ، إنه سيموت ، أي أنه مات لأنه يموت ، كما يقال : والموت من دون أسباب هو السبب .

ثم يقول الحق سبحانه : { إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأرض }

إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (40)

كيف يقول الحق سبحانه : { نَرِثُ الأرض } [مريم : 40] وهي والكون كله مِلْك له تعالى؟ قالوا : لأنه تبارك وتعالى هو المالك الأعلى ، وقد ملَّك من خَلْقه من ملَّك ، هذا في الدنيا ، أما في الآخرة فليس لأحد ملك على شيء ، ليس للإنسان سيطرة حتى على جوارحه وأعضائه ، فالأمر كله يومئذ لله تعَالى ، فيُرَدّ المُلْك إلى صاحبه الأعلى ، ولا أحدَ يرث هذا المُلْكَ إلا الله تعالى .

لذلك ، فالذين اغترُّوا بنعم الله في الدنيا فظنوا أن لهم مثْلها في الآخرة ، فقال أحدهم : { وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنْقَلَباً } [الكهف : 36] نقول له : لا ، صحيح ستُرَدّ إلى ربك ، لكن لن يكون لك عنده شيء؛ لأن الذي ملّكك في الدنيا ملّكك من باطن مِلكيته تعالى ، فإذا ما جاءت الآخرة كان هو الوارث الوحيد .

وقوله : { وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ } [مريم : 40] أي : أن الأمر لا يتوقف على أنْ نرث مُلْكهم ، ويذهبوا هم لحال سبيلهم ، بل سنرث مُلْكهم ، ثم يرجعون إلينا لنحاسبهم فلن يخرجوا هم أيضاً

من قبضة الملكية .

ثم يقول الحق سبحانه : { واذكر فِي الكتاب إِبْرَاهِيمَ }

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (41)

بعد أن تكلم الحق سبحانه وتعالى في استهلال سورة مريم عن ميلاد سيدنا يحيى لزكريا ، وعن ميلاد سيدنا المسيح بن مريم ، أراد أن يعرض لنا موكباً من مواكب الرسالات التي أرسلها الله نوراً من السماء لهداية الأرض ، فقال :

{ واذكر فِي الكتاب إِبْرَاهِيمَ } [مريم : 41] .

فهو أبو الأنبياء وقمتهم؛ لأن الله تعالى مدحه بقوله :

{ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً } [النحل : 120] .

فليس هناك فرد يحتوي على خصال الكمال ومواهب الفضل كلها ، لكن المجموع يحتويها فهذا شجاع قوي البنية ، وهذا ذكي ، وهذا حادّ البصر ، وهذا نابغ في الطب ، وهذا في الزراعة ، مواهب متفرقة بين البشر ، لا يجمعها واحد منه ، فلا طاقته ولا حياته ولا مجهوده يستطيع أن يكون موهوباً في كل شيء ، فالكمال كله مُوزّع في الخَلْق ، إلا إبراهيم ، فقد كان عليه السلام يساوي في مواهبه أمةً بأكملها .

وقوله : { إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً } [مريم : 41] صِدّيق : من مادة صدق ، ومعناها : تكلّم بواقع؛ لأن الكذب أنْ يتكلّم بغير واقع . وهذا يُسمَّى : صادق في ذاته ، أما قولنا : صِدِّيق أي : مبالغة في الصدق ، فقد بلغ الغاية في تصديق ما يأتي من الحق تبارك وتعالى ، فهو يطيع ويُذعِن ولا يناقش ، كما رأينا من أم موسى عليه السلام لما قال لها الحق سبحانه : { فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليم وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تحزني } [القصص : 7] .

بالله ، أي أم يمكن أن تُصدِّق هذا الكلام ، وتنصاع لهذا الأمر؟ وكيف تُنجِّي ولدها من شر أو موت مظنون بموت مُحقَّق؟

إذن : فهذا كلام لا يُصدَّق ، وفوق نطاق العقل عند عامة الناس ، أما في موكب الرسالات فالأمر مختلف ، فساعة أنْ سمعتْ أم موسى هذا النداء لم يساورها خاطر مخالف لأمر الله ، ولم يراودها شَكٌّ فيه؛ لأن وارد الله عند هؤلاء القوم لا يُعارض بوارد الشيطان أبداً ، وهذه قضية مُسلَّمة عند الرسل .

إذن : الصِّدِّيق هو الذي بلغ الغاية في تصديق الحق ، فيورثه الله شفافية وإشراقاً بحيث يهتدي إلى الحق ويُميّزه عن الباطل من أول نظرة في الأمر ودون بحث وتدقيق في المسألة؛ لأن الله تعالى يهبُكَ النور الذي يُبدّد عندك غيامات الشك ، ويهبك الميزان الدقيق الذي تزنُ به الأشياء ، كما قال سبحانه : { يا أَيُّهَا الذين آمنوا إِن تَتَّقُواْ الله يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً } [الأنفال : 29] .

ومن هنا سُمِّي أبو بكر رضي الله عنه صِدّيقاً ، ليس لأنه صادق في ذاته ، بل لأنه يُصدِّق كل ما جاءه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لذلك لما أخبروه خبر الإسراء والمعراج الذي كذَّب به كثيرون ، ماذا قال؟ قال : « إنْ كان قال فقد صدق » .

فالأمر عنده متوقف على مجرد قول رسول الله ، فهذا هو الميزان عنده ، وطالما أن رسول الله قد قال فهو صادق ، هكذا دون جدال ، ودون مناقشة ، ودون بَحْث في ملابسات هذه المسألة؛ لذلك من يومها وهو صِدّيق عن جدارة .

والسيدة مريم قال عنها الحق تبارك وتعالى : { وَأُمُّهُ صِدّيقَةٌ } [المائدة : 75] فسماها صديقة؛ لأنها صدَّقتْ ساعة أنْ قال لها الملَك : { قَالَ إِنَّمَآ أَنَاْ رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلاَماً زَكِيّاً } [مريم : 19] .

فوثقتْ بهذه البشارة ، وأخذتْها على أنها حقيقة واقعة ، فلما جاء الوليد أشارت إليه وهي على ثقة كاملة ويقين تام أنه سينطق ويتكلم .

إذن : فالصِّديق ليس هو الذي يَصدُق ، بل الذي يُصدِّق . وهكذا كان خليل الله إبراهيم (صديقاً) وكان أيضاً (نبياً) لأن الإنسان قد يكون صديقاً يعطيه الله شفافية خاصة ، وليس من الضروري أن يكون نبياً ، كما كانت مريم صِدّيقة وأبو بكر صِدّيقاً ، فهذه إذن صفة ذاتية إشراقية من الله ، أما النبوة فهي عطاء وتشريع يأتي من أعلى ، وهُدى يأتي من السماء يحمل النبي مسئوليته؟ .

ثم يقول الحق سبحانه : { إِذْ قَالَ لأَبِيهِ ياأبت }

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (42)

هذا الحديث من إبراهيم عليه السلام لأبيه على اعتبار أنه نبي جاء ليُعدِّل سلوك الناس على وَفْق منهج الله ، وأوّلهم أبوه ، وقد ذكره القرآن هكذا بأبوته لإبراهيم دون أن يذكر اسمه ، إلا في آية واحدة قال فيها : { لأَبِيهِ آزَرَ } [الأنعام : 74] .

وهذه الآية أحدثتْ إشكالاً فظنَّ البعض أن آزر هو أبو إبراهيم الحقيقي الصُّلبي ، وهذا القول يتعارض مع الحديث النبوي الشريف الذي يُوضّح طهارة أصْل النبي محمد صلى الله عليه وسلم حيث قال : « أنا خيار من خيار ، ما زِلت أنتقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات » .

إذن : فأصول النبي إلى آدم « طاهر متزوج طاهرة » ، فلو قلنا : إن آزر الذي قال الله في حقه : { فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ } [التوبة : 114] هو أبو إبراهيم ، لكَانَ في ذلك تعارض مع الحديث النبوي ، فكيف يكون من آباء محمد صلى الله عليه وسلم مثل هذا الكافر؟ ولو تأملنا إطلاقات الأُبوّة في القرآن الكريم لخرجنا من هذا الإشكال ، فالقرآن تكلم عن الأبوة

الصُّلْبية المباشرة ، وتكلم عن الأُبوة غير المباشرة في الجد وفي العم ، فسمَّى الجد أباً ، والعم أباً؛ لأنه يشترك مع أبي في جدي ، فله واسطة استحق بها أن يُسمَّى أباً . وفي القرآن نصَّان : أحدهما : يُطلِق على الجد أباً ، والآخر يُطلِق على العم أباً .

فالأول في قوله تعالى من قصة يوسف عليه السلام :

{ وَدَخَلَ مَعَهُ السجن فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إني أراني أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخر إِنِّي أراني أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطير مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ المحسنين } [يوسف : 36] .

فاختاروا يوسف لتأويل رؤياهم؛ لأنهم رأوه من المحسنين ، فكأن الإحسان له مقاييس معروفة حتى عند غير المحسن ، فلما تعرَّضوا لأمر يُهمهم لم يلجئوا إلا لهذا الرجل الطيب ، فمقاييس الكمال محترمة ومعتبرة حتى عند فاقد الكمال .

فلما قالوا له { إِنَّا نَرَاكَ مِنَ المحسنين } [يوسف : 36] علم أنهم متتبعون حركاته وتصرفاته ، وكيف سلوكه بينهم ، فأراد أنْ يزيدهم مما عنده من إشراقات ، فأمْره ليس مجرد سلوك طيب وسيرة حسنة بينهم ، بل عنده أشياء أخرى ، فقال : { لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا } [يوسف : 37] .

ثم ترك الإجابة عن سؤالهم ، وأخذ في الحديث فيما يخصّه كنبيّ وداعية إلى الله ، فأخبرهم أن ما عنده من مواهب هو عطاء من الله ، وليس هو بأذكى منهم ، فقال : { ذلكما مِمَّا عَلَّمَنِي ربي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بالله وَهُمْ بالآخرة هُمْ كَافِرُونَ * واتبعت مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ } [يوسف : 3738] .

ثم يلفت نظر رفاقه إلى بطلان ما هم عليه من عبادة أرباب متفرقين لم ينفعوهم بشيء ، فهاهم يتركونهم ويلجئون إلى يوسف الذي له رَبٌّ واحد :

{ ياصاحبي السجن ءَأَرْبَابٌ مُّتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ الله الواحد القهار } [يوسف : 39] .

وهكذا كان يوسف النبي الداعية حريصاً على نَشْر دعوته وهداية مَنْ حوله ، حتى وهو في سجنه ما نسِيَ مهمته ، وما قصَّر في دعوته ، فلما فرغ من موعظته واستطاع بلباقة أنْ يُسمعِهم ما يريد ، وإلاّ لو أجابهم عن سؤالهم من بداية الأمر لانصرفوا عن هذه الموعظة ، وما أعاروها اهتماماً .

والآن يعود إلى سؤالهم وتفسير رؤياهم : { أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الآخر فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطير مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأمر الذي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ } [يوسف : 41] .

شَاهِدُنا في هذه القصة هو قوله تعالى : { واتبعت مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ } [يوسف : 38] ويوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم ، فسمَّى الأجداد آباءً .

وقد يُسمَّى العَمُّ أباً ، كما جاء في قوله تعالى : { أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الموت إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إلهك وإله آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ } [البقرة :

133] فعَدَّ إسماعيلَ في آباء يعقوب ، وهو عَمَّه .

إذن : لو أن القرآن الكريم حينما تحدث عن أبي إبراهيم فقال (لأبيه) في كل الآيات لا نصرف المعنى إلى الأُبوة الصُّلْبية الحقيقية ، أما أنْ يقول ولو مرة واحدة { لأَبِيهِ آزَرَ } [الأنعام : 74] فهذا يعني أن المراد عمه؛ لأنه لا يُؤتي بالعَلَم بعد الأبوة إلا إذا أردنا العم ، كما نقول نحن الآن حين نريد الأبوة الحقيقية : جاء أبوك هكذا مبهمة دون تسمية ، وفي الأبوة غير الحقيقية نقول : جاء أبوك فلان .

وبناءً عليه فقد ورد قوله تعالى : { لأَبِيهِ آزَرَ } [الأنعام : 74] مرة واحدة ، ليثبت لنا أن آزر ليس هو الأب الصُّلْبي لإبراهيم ، وإنما هو عَمَّه ، وبذلك يسْلَم لرسول الله صلى الله عليه وسلم طهارة نسبه ونقاء سِلْسلته إلى آدم عليه السلام .

وقوله : { ياأبت } [مريم : 42] وكان التركيب العربي يقتضي أن يقول : يا أبي ، إلا أنهم يحذفون ياء المتكلم ويُعوِّضون عنها بالتاء ، فلماذا؟ قالوا : لأن (أبت) لها مَلْحظ دقيق ، فهو يريد أنْ يُثبت أنه وإنْ كان أباً إلا أن فيه حنان الأبوين : الأب والأم . فجاء بالتاء التي تشير إلى الجانب الآخر؛ لذلك نجدها لا تُقال إلا في الحنانية المطلقة (يَا أَبَتِ) كما لو ماتتْ الأم مثلاً ، فقام الأب بالمهمتين معاً ، وعوض الأبناء حنان الأم المفقود .

وقوله : { لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً } [مريم : 42] يبدو من أسلوب إبراهيم عليه السلام مع أبيه أدَبُ الدعوة ، حيث قدَّم الموعظة على سبيل الاستفهام حتى لا يُشعِر أباه بالنقص ، أو يُظهِر له أنه أعلم منه .

{ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً } [مريم : 42] نلحظ أنه لم يقُلْ من البداية : لِمَ تعبد الشيطان ، بل أخّر هذه الحقيقة إلى نهاية المناقشة ، وبدل أنْ يقولَ الشيطان حلّل شخصيته ، وأبان عناصره ، وكشف عن حقيقته : لا يسمع ولا يبصر ، ولا يُغني عنك شيئاً ، فهذه الصفات لا تكون في المعبود ، وهي العِلَّة في أنْ نتجنبَ عبادة ما دون الله من شجر أو حجر أو شيطان ، وخصوصاً في بيئة إبراهيم عليه السلام وكانت مليئة بالأوثان والأصنام .

لأن العبادة ماذا تعني؟ تعني طاعةَ عابدٍ لمعبود في أَمْره ونَهْيه ، فالذين يعبدون ما دون الله من صنم أو وَثَنٍ أو شمس أو قمر ، بماذا أمرتْهم هذه المعبودات؟ وعن أيِّ شيء نهتْهُم؟ وماذا أعدَّتْ هذه المعبودات لمنْ عبدها؟ وماذا أعدَّتْ لمَنْ عصاها؟ ما المنهج الذي جاءتْ به حتى تستحقَّ العبادة؟ لا يوجد شيء من هذا كله ، إذن : فعبادتهم باطلة .

ثم يقول : { ياأبت إِنِّي قَدْ جَآءَنِي }

يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43)

يُكرِّر نبي الله إبراهيم هذا النداء الحنون مرة أخرى ، وكأنه يريد أنْ يثير في أبيه غريزة الحنان ، ويُوقِظ عنده أواصر الرحم ، كأنه يقول له : إن كلامي معك كلام الابن لأبيه ، كما نفعل نحن الآن إنْ أراد أحدنا أنْ يُحنّن إليه قلب أبيه يقول : يا والدي كذا وكذا . . يا أبي اسمع لي .

وكذلك حال إبراهيم عليه السلام حيث نادى أباه هذا النداء في هذه الآيات أربع مرات متتاليات ، وما ذلك إلا لحرصه على هدايته ، والأخْذ بيده إلى الطريق المستقيم .

وقوله : { إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ العلم مَا لَمْ يَأْتِكَ } [مريم : 43] أي : لا تظن يا أبي أنِّي متعالم عليك ، أو أَنِّي أفضل ، أو أذكى منك ، فهذا الكلام ليس من عندي ، بل من أعلى مني ومنك ، فلا غضاضةَ في سماعه والانصياع له ، وهو رسالة كُلِّفْتُ بإبلاغك إياها ، وهذا الذي جاءني من العلم لم يأتِكَ أنت ، وهذا اعتذار رقيق من خليل الله ، فالمسألة ليستْ ذاتية بين ولد وعمه ، أو ولد وأبيه ، إنها مسألة عامة تعدَّتْ حدود الأُبُوة والعمومة .

ولذلك لما تحدَّثْنا في سورة الكهف عن قصة موسى والخضر عليهما السلام ، قلنا : إن العبد الصالح التمس لموسى عُذْراً؛ لأنه تصرَّف بناءً على علم عنده ، ليس عند موسى مثله ، فقال له : { وَكَيْفَ تَصْبِرُ على مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً } [الكهف : 68] وكذلك قال إبراهيم لأبيه حتى لا تأخذه العِزّة ، ويأنف من الاستماع لولده .

ثم يقول : { فاتبعني أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً } [مريم : 43] لأن هذا المنهج الذي أدعوك إليه ليس من عندي ، بل من أعلى مني ومنك ، والصراط السَّويّ : هو الطريق المستقيم الذي يُوصِّلك للغاية بأيسر مشقة ، وفي أقصر وقت .

ثم يقول : { ياأبت لاَ تَعْبُدِ الشيطان }

يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44)

نلحظ أن إبراهيم في بداية محاورته لأبيه قال : { لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً } [مريم : 42] وهنا يقول : { لاَ تَعْبُدِ الشيطان } [مريم : 44] مع أن الشيطان يمكن أن يسمع ويبصر ، فكيف يكون ذلك؟

قالوا : لأن الشيطان هو الذي يُسوِّل عبادة الصنم أو الشجر أو الشمس أو القمر ، فالأمر مردود إليه وهو سببه ، إلا أن إبراهيم عليه السلام حَلَّل المسألة المباشرة؛ لأن أباه يعبد صنماً لا يسمع ولا يُبصر ، ولا يُغني عنه شيئاً ، وهذا بشهادتهم أنفسهم ، كما جاء في قوله تبارك وتعالى : { هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ } [الشعراء : 7273] .

فهذا استفهام ، ولا يستفهم مُستفهِم مجادل ممَّن يجادله عن شيء ، إلا وقد عَلِم أن الجواب لا بُدَّ أن يكون في صالحه؛ لأنه ائتمنه على الجواب . إذن : فعبادة ما دون الله مردُّها إلى إغواء الشيطان .

ثم يستطرد إبراهيم قائلاً : { إِنَّ الشيطان كَانَ للرحمن عَصِيّاً } [مريم : 44] عصياً : مبالغة في العصيان ، فالشيطان ليس عاصياً ، بل عَصِياً يعصي أوامر الله بلَدَدٍ وعناد .

ثم يقول : { ياأبت إني أَخَافُ }

يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45)

مازال خليل الله يتلطف في دعوة أبيه فيقول : { يَمَسَّكَ عَذَابٌ } [مريم : 45] ولم يقُلْ مثلاً : يصيبك . فهو لا يريد أنْ يصدمه بهذه الحقيقة ، والمسُّ : هو الالتصاق الخفيف ، وكأنه يقول له : إن أمرك يُهمني ، وأخاف عليك مجرد هبو التراب أن ينالك . وهذا منتهى الشفقة عليه والحرص على نجاته .

ثم يقول : { فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً } [مريم : 45] أي : قريباً منه ، وتابعاً له يصيبك من العذاب مَا يصيبه ، وتُعذّب كما يُعذّب .

وهكذا انتهتْ هذه المحاورة التي احتوتْ أربعة نداءات حانية ، وجاءت نموذجاً فريداً للدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة؛ فراعتْ مشاعر الأب الذي يدعوه ولده ويُقدِّم له النُّصْح ، ورتبت الأمور ترتيباً طبيعياً ، وسَلْسَلَتْها تسلْسُلاً لطيفاً لا يثير حفيظة السامع ولا يصدمه .

وقد راعى الحق تبارك وتعالى جوانب النفس البشرية فأمر أنْ تكونَ الدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة حتى لا تجمع على المدعو قسوة الدعوة ، وقسوة أنْ يترك ما أَلِف ، ويخرج منه إلى ما لم يألف .

فأنت حين تدعو شخصاً إلى الله فإنما تُخرِجه عن الفساد الذي أَلِفه ، وهو لم يألف الفساد إلا بعد أن اشتهاه أولاً ، ثم اعتاده بالفعل والممارسة ثانياً ، وهاتان مصيبتان آخذتان بزمامه ، فما أحوجه لأسلوب لَيِّن يستميل مشاعره ويعطفه نحوك فيستجيب لك .

وما أشبه الداعية في هذا الموقف بالذي يحتال ليخلص الثوب الحرير من الأشواك ، أما إنْ نهرته وقسوْتَ عليه فسوف يُعرض عنك وينصرف عن دعوتك ، ويظلّ على ما هو عليه من الفساد؛ لذلك قال تعالى : { ادع إلى سَبِيلِ رَبّكَ بالحكمة والموعظة الحسنة وَجَادِلْهُم بالتي هِيَ أَحْسَنُ } [النحل : 125] .

ويقولون : النصح ثقيل فلا تُرسِلْه جبلاً ، ولا تجعله جدلاً ، وقالوا : الحقائق مُرّة فاستعيروا لها خِفّة البيان .

وبعد أنْ أنهى إبراهيم مقالته يرد الأب قائلاً : { قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي }

قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46)

الفعل (رغب) يحمل المعنى وضده حَسْب حرف الجر بعده ، نقول : رغب في كذا . أي : أحبه وذهب إليه ، ورَغب عن كذا أي : كرهه واعتزله ، فمعنى { أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي ياإبراهيم } [إبراهيم : 46] أي : تاركها إلى غيرها ، كما جاء في قوله تعالى : { وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ } [البقرة : 130] أي : تركها إلى مِلَّة أخرى .

ونلاحظ أن الفعل رَغِب لم يأْتِ مقترناً بعده بفي إلا مرة واحدة ، وإنْ كانت (في) مُقدَّرة بعد الفعل ، وهذا في قوله تعالى عن نكاح يتامى النساء : { وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ } [النساء : 127] .

والرغبة في الشيء تعني حُبه وعِشْقه ، والرغبة في الطريق الموصّل إليه ، إلا أنك لم تسلك هذا الطريق بالفعل ، ولم تأخذ بالأسباب التي تُوصّلك إلى ما ترغب فيه ، وهذا المعنى واضح في قصة أصحاب الجنة في سورة (ن) حيث يقول تعالى :

{ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَابَ الجنة إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلاَ يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كالصريم } [القلم : 1720] .

فقد اتفقوا على قَطْف ثمار بستانهم في الصباح ، ولم يقولوا : إن شاء الله ، فدمّرها الله وأهلكها وهم نائمون ، وفي الصباح انطلقوا إلى جنتهم وهم يقولون فيما بينهم :

{ لاَّ يَدْخُلَنَّهَا اليوم عَلَيْكُمْ مِّسْكِينٌ } [القلم : 24] .

وهكذا قطعوا الطريق على أنفسهم حينما حَرَمُوا المسكين { فَلَمَّا رَأَوْهَا قالوا إِنَّا لَضَآلُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ } [القلم : 2627] ثم تنبهوا إلى ما وقعوا فيه من خطأ ، وعادوا إلى صوابهم فقالو : { عسى رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْراً مِّنْهَآ إِنَّآ إلى رَبِّنَا رَاغِبُونَ } [القلم : 32] .

أي : راغبون في الطريق الموصّل إليه تعالى ، فقبل أنْ تقول : أنا راغب في الله . قل : أنا راغب إلى الله ، فالمسألة ليست حُباً فقط بل حُباً بثمن وسَعْي وعَمل يُوصِّلك إلى ما تحب . إذن : قبل أنْ تكونوا راغبين في ربكم ارغبوا إليه أولاً .

وفي موضع آخر يقول تعالى : { وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصدقات } [التوبة : 58] أي : يعيبك في توزيعها { فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ } [التوبة : 58] فهم إذن لا يحبون الله ، وإنما يحبون العطاء والعَرَض الزائل ، بدليل أنهم لما مُنِعُوا سخطوا وصرفوا نظرهم عن دين الله كمَنْ قال الله فيهم :

{ وَمِنَ الناس مَن يَعْبُدُ الله على حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطمأن بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقلب على وَجْهِهِ } [الحج : 11] .

لذلك يُعدِّل لهم الحق سبحانه سلوكهم ، ويرشدهم إلى المنهج القويم : { وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْاْ مَآ آتَاهُمُ الله وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا الله سَيُؤْتِينَا الله مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّآ إِلَى الله رَاغِبُونَ } [التوبة : 59] أي : آخذين الوسيلة الموصِّلة إليه ، فالذي يرغب في حب الله عليه أنْ يرغبَ في الطريق الموصّل

إليه .

ثم يقول أبو إبراهيم : { لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ } [مريم : 46] أي : تترك هذه المسألة التي تدعو إليها . والرجْم : هو الرمي بالحجارة ، ويبدو أن عملية الرجم كانت طريقة للتعذيب الشديد ، كما في قوله تعالى : { إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ } [الكهف : 20] .

{ واهجرني مَلِيّاً } [مريم : 46] أي : ابتعد عني وفارقني { مَلِيّاً } [مريم : 46] المليّ : البُرْهة الطويلة من الزمن . ومنها الملاوة : الفترة الطويلة من الزمن ، والملوَان : الليل والنهار .

فماذا قال نبي الله إبراهيم لعمه بعد هذه القسوة؟ لم يخرج إبراهيم عن سَمْته العادل ، ولم يتعدَّ أدب الحوار والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة . قال : { قَالَ سَلاَمٌ عَلَيْكَ }

قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47)

وكأن إبراهيم عليه السلام يريد أنْ يَلفِتَ نظر عمه ، ويؤكد له أنه في خطر عظيم يستوجب العذاب من الله ، وهذا أمر يُحزِنه ولا يُرضيه ، وكيف يترك عمه دون أنْ يأخذَ بيده؟ فقال له أولاً : { سَلاَمٌ عَلَيْكَ } [مريم : 47] أي : سلام مني أنا ، سلام أقابل به ما بدر منك فأمْري معك سلام ، فلن أقابلَك بمثل ما قُلْت ، ولن أُغلِظ لك ، ولن ينالك مني أذىً ، ولن أقول لك : أُفٍّ .

لكن السلام منّي أنا لا يكفي ، فلا بُدَّ أنْ يكونَ لك سلاماً أيضاً من الله تعالى؛ لأنك وقعت في أمر خطير لا يُغفر ويستوجب العذاب ، وأخشى ألاّ يكونَ لك سلام من الله .

لذلك قال بعدها : { سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ ربي } [مريم : 47] كأنه يعتذر عن قوله : { سَلاَمٌ عَلَيْكَ } [مريم : 47] فأنا ما قُلْتُ لك : سلام عليك إلا وأنا أنوي أن أستغفرَ لك ربي ، حتى يتمّ لك السلام إنْ رجعتَ عن عقيدتك في عبادة الأصنام ، وهو بذلك يريد أنْ يُحَنِّنه ويستميل قلبه .

ثم أخبر عن الاستغفار في المستقبل فلم يقُلْ استغفرتُ ، بل { سَأَسْتَغْفِرُ } [مريم : 47] يريد أنْ يُبرىء استغفاره لعمه من المجاملة والنفاق والخداع ، وربما لو استغفرتُ لك الآن لظننتُ أنّي أجاملك ، أما { سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ } [مريم : 47] أي : بعيداً عنك ليكون دعاءً عن ظَهْر غيب ، وهو أَرْجَى للقبول عند الله .

ثم يقول : { إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً } [مريم : 47] يريد أنْ يُطمئِن عمه إلى أن له منزلة عند الله ، فإذا استغفر له ربه فإنه تعالى سيقبل منه .

وحَفياً : من الفعل حَفِيَ يَحْفيَ كرَضِي يرضى ، ويأتي بعده حرف جر يُحدِّد معناها . تقول : حفيٌّ به : أي بالغٍ في إكرامه إكراماً يستوعب متطلبات سعادته ، وقابله بالحفاوة : أي بالإكرام الذي

يتناسب مع ما يُحقِّق له السعادة .

وهذا أمر نسبيّ يختلف باختلاف الناس ، فمنهم مَنْ تكون الحفاوة به مجرد أنْ تستقبلَه ولو على حصيرة ، وتُقدِّم له ولو كوباً من الشاي ، ومن الناس مَنْ يحتاج إلى الزينات والفُرُش الفاخرة والموائد الفخمة ليشعر بالحفاوة به .

ونقول : حَفِيٌّ عنه : أي بالغ في البحث عنه ليعرف أخباره ، وبلغ من ذلك مبلغاً شَقَّ عليه وأضناه ، وبالعامية يقولون : وصلتُ له بعدما حفيتُ ، ومن ذلك قوله تعالى عن الساعة : { يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ الله ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ } [الأعراف : 187] أي : كأنك معنيٌّ بالساعة ، مُغْرم بالبحث عنها ، دائم الكلام في شأنها .

إذن : المعنى : { إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً } [مريم : 47] أي : أن ربي يبالغ في إكرامي إكراماً يُحقِّق سعادتي ، ومن سعادتي أن الله يغفر لك الذنب الكبير الذي تُصِرّ عليه ، وكأنه عليه السلام يُضخِّم أمرينْ : يُضخِّم الذنب الذي وقع فيه عمه ، وهو الكفر بالله ، ويُعظِّم الرب الذي سيستغفر لعمه عنده { إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً } [مريم : 47] .

وما دام ربي حَفِيّاً بي فلن يخذلني ، كيف وقد جعلني نبياً واحتفى بي ، فكُنْ مطمئناً إنْ أنت تُبْتَ مما أنت عليه من المعتقدات الباطلة ، إنه سيغفر لك . وكأن إبراهيم عليه السلام يؤكد لعمه على منزلته عند ربه ، وما على عمه إلا أنْ يسمع كلامه ، ويستجيب لدعوته .

وظَلَّ إبراهيم عليه السلام يستغفر لعمه كما وعده ، إلى أنْ تبيَّن له أنه عدو لله فانصرف عند ذلك ، وتبرأ منه ، كما قال تعالى : { وَمَا كَانَ استغفار إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ } [التوبة : 114] .

ثم يقول الحق سبحانه عن إبراهيم عليه السلام أنه قال لقومه : { وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ الله }

وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (48)

اعتزل : ترك صحبة إلى خير منها ولو في اعتقاده ، وهنا يلفتنا الحق سبحانه إلى إن الإنسان حين يجادل في قضية ، ويرى عند خَصْمه لدداً وعناداً في الباطل ، لا يطيل معه الكلام حتى لا يُؤصِّل فيه العناد ، ويدعوه إلى كبرياء الغَلَبة ولو بالباطل .

لذلك ، فالحق تبارك وتعالى يُعلِّم المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنْ أرادوا البحث في أمره صِدْقاً أو كذباً والعياذ بالله ، أنْ يبحثوه مَثْنى أو فُرَادى ، ولا يبحثوه بَحْثاً جماهيرياً غوغائياً؛ لأن العمل الغوغائي بعيد عن الموضوعية يستتر فيه الواحد في الجماعة ، وقد يحدث ما لا تُحمد عُقباه ولا يعرفه أحد .

والغوغائية لا يحكمها عقل ولا منطق ، والجمهور كما يقولون : عقله في أذنيه . وسبق أن قلنا : إن كليوباترا حين هُزِمت وحليفها صَوّروا هذه الهزيمة على أنها نصر ، كما حدث كثيراً على مَرِّ التاريخ ، وفيها يقول الشاعر :

أسْمَعُ الشَّعْب دُيُونُ ... كيْفَ يُوحُونَ إليْه

مَلأَ الجوَّ هِتافاً ... بحياتيْ قاتِليْه

أثَّر البُهتانُ فيه ... وَانْطلَي الزُّورُ عليْه

يَالَهُ مِنْ بَبَّغَاءٍ ... عقلُه في أُذُنيْه

إذن : فالجمهرة لا تُبدي رأياً ، ولا تصل إلى صواب .

يقول الحق سبحانه للمعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

{ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مثنى وفرادى ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّن جِنَّةٍ } [سبأ : 46] .

فبَحْث مثل هذا الأمر يحتاج إلى فرديْن يتبادلان النظر والفِكْر والدليل ويتقصيَّان المسألة ، فإنْ تغلّب أحدهما على الآخر كان الأمر بينهما دون ثالث يمكن أنْ يشمتَ في المغلوب ، أو يبحثه فرد واحد بينه وبين نفسه فينظر في شخص رسول الله ، وما هو عليه من أدب وخُلق ، وكيف يكون مع هذا مجنوناً؟ وهل رأينا عليه أمارات الجنون؟ والذين قالوا عنه : ساحر لماذا لم يسحرهم كما سحر التابعين له؟

إذن : لو أدار الشخص الواحد هذه الحقائق على ذِهْنه ، واستعرض الآراء المختلفة لاهتدى وحده إلى الصواب ، فالاعتزال أمر مطلوب إنْ وجد الإنسان البيئة غير صالحة لنقاش الباطل مع الحق لا نُؤصِّل الجدل والعناد في نفس الخَصْم .

لذلك يقول تعالى : { إِنَّ الذين تَوَفَّاهُمُ الملائكة ظالمي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأرض قالوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ الله وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا } [النساء : 97] .

أي : كانت الفرصة أمامكم لتتركوا هذه البُقْعة إلى غيرها من أرض الله الواسعة ، وكأن الحق تبارك وتعالى يُلفت نظرنا إلى أن الأرض كلها أرض الله ، فأرض الله الواسعة ليست هي مصر أو سوريا أو ألمانيا ، بل الأرض كلها بلا حواجز هي أرض الله ، فمَنْ ضاق به مكانٌ ذهب إلى غيره لا يمنعه مانع ، وهل يوجد هذا الآن؟ هل تستطيع أن تخترق هذه الحواجز ودونها نظم وقوانين ما أنزل الله بها من سلطان .

لذلك يقول الحق تبارك وتعالى : { والأرض وَضَعَهَا لِلأَنَامِ } [الرحمن : 10] .

أي : الأرض كل الأرض للأنام كل الأنام وهذا من المبادىء التي جعلها الخالق سبحانه للإنسانية ، فلما استحدثَ الإنسانُ الحواجز والحدود ، وأقام الأسوار والأسلاك ومنع الأنام من الحركة في

أرض الله نشأ في الكون فساد كبير ، فإنْ ضاق بك موضع لا تجد بديلاً عنه في غيره ، وإنْ عِشْتَ في بيئة غير مستقيمة التكوين كتب عليك أنْ تشقى بها طوال حياتك .

وقلنا : إن هذه الحدود وتلك الحواجز أفرزتْ أرضاً بلا رجال ، ورجالاً بلا أرض ، ولو تكاملتْ هذه الطاقات لا ستقامتْ الدنيا .

ومسألة الاعتزال هذه ، أو الهجرة من أرض الباطل ، أو من بيئة لا ينتصر فيها الحق وردتْ في نصوص عِدَّة بالنسبة لسيدنا إبراهيم عليه السلام منها قوله تعالى :

{ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وانصروا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا ياناركُونِي بَرْداً وسلاما على إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُواْ بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأخسرين * وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأرض التي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ } [الأنبياء : 6871] .

فترك إبراهيم الأرض التي استعصتْ على منهج الله إلى أرض أخرى ، وهاجر بدعوته إلى بيئة صالحة لها من أرض الشام .

نعود إلى اعتزال إبراهيم عليه السلام للقوم ، لا لطلب الرزق وسَعة العيش ، بل الاعتزال من أجل الله وفي سبيل مبدأ إيماني يدعو إليه : { وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ الله } [مريم : 48] وأول ما نلحظ أن في هذه النص عدولاً ، حيث كان الكلام عن العبادة : { ياأبت لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ } [مريم : 42] ، { ياأبت لاَ تَعْبُدِ الشيطان } [مريم : 44] .

والقياس يقتضي أن يقول : وأعتزلكم وما تعبدون . . وأدعو ربي . أي : أعبده ، إلا أنه عدل عن العبادة هنا وقال : { وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ } [مريم : 48] فلماذا؟

قالوا : لأن الإنسان لا ينصرف عن ربه وعن وحدانيته تعالى إلا حين يستغني ، فإنْ ألجأتْهُ الأحداث واضطرته الظروف لا يجد ملجأ إلا إلى الله فيدعو . إذن : فالعبادة ستصل قَطْعاً إلى الدعاء ، وما دُمْتَ ستضطر إلى الدعاء فليكُنْ من بداية الأمر :

{ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ الله } [مريم : 48] .

إذن : استخدم الدعاء بدل العبادة؛ لأنني أعبد الله في الرخاء ، فإنْ حدثتْ لي شِدَّةٌ لا أجد إلا هو أدعوه .

وقوله : { وَأَدْعُو رَبِّي عسى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّاً } [مريم : 48] أي : عسى ألاَّ أكون شقياً بسبب دعائي لربي؛ لأنه تبارك وتعالى لا يُشقي مَنْ عبده ودعاه ، فإنْ أردتَ المقابل فَقُلْ : الشقيُّ مَنْ لا يعبد الله ولا يدعوه .

ثم يقول الحق سبحانه : { فَلَمَّا اعتزلهم وَمَا يَعْبُدُونَ }

فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (49)

قوله : { وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ } [مريم : 49] لم يذكر هنا إسماعيل؛ لأن إسحق جاء جزاءً من الله لإبراهيم على صبره في مسألة ذَبْح إسماعيل ، وما حدث من تفويضهما الأمر لله تعالى ، والتسليم لقضائه وقَدرِهِ ، كما قال تعالى : { فَلَمَّا أَسْلَمَا } [الصافات : 103] أي : إبراهيم وإسماعيل { وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَن ياإبراهيم * قَدْ صَدَّقْتَ الرؤيآ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين * إِنَّ هذا لَهُوَ البلاء المبين * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ } [الصافات : 103107] .

ولم يقتصر الأمر على الفداء ، بل { وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ } [الصافات : 112] فلما امتثل لأمر الله في الولد الأول وهبنا له الثاني .

وفي آية أخرى يقول تعالى : { وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ } [الأنبياء : 72] .

كأن الحفيد نافلة وزيادة في عطاء الذرية ، ومبالغة في الإكرام .

ثم يتمنُّ الله على الجميع بأن يجعلَهم أنبياء { وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيّاً } [مريم : 49] فليس الامتنان بأنْ وهب له إسحاق ومن بعده يعقوب ، بل بأنْ جعلهم أنبياء ، وهذه جاءت بشرى لإبراهيم ، وكان حظّه أنْ يرعى دعوة الله حياً ، ويطمع أنْ تكونَ في ذريته من بعده ، وكانت هذه هي فكرة زكريا عليه السلام فكلهم يحرصون على الذرية لا للعزوة والتكاثر وميراث عَرَضِ الدنيا ، بل لحمل منهج الله وامتداد الدعوة فيهم والقيام بواجبها .

انظر إلى قوله تعالى في حق إبراهيم عليه السلام : { وَإِذِ ابتلى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ } [البقرة : 124] أي : حَمَّله تشريعات فقام بها على أتمّ وجه وأدّاها على وجهها الصحيح ، فلما علم الله منه عِشْقه للتكليف أتمها عليه : { إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً } [البقرة : 124] فتثور مسألة الإمامة في نفس إبراهيم ، ويطمع أنْ تكونَ في ذريته من بعده فيقول : { وَمِن ذُرِّيَّتِي } [البقرة : 124] لذلك يُعدِّل الحق سبحانه فكرة إبراهيم عن الإمامة ، ويضع المبدأ العام لها ، فهي ليستْ ميراثاً ، إنها تكليف له شروط .

{ قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالمين } [البقرة : 124] .

فالظالمون لا يصلحون لهذه المهمة . فوعي إبراهيم عليه السلام هذا الدرس ، وأخذ هذا المبدأ ، وأراد أنْ يحتاط به في سؤاله لربه بعد ذلك ، فلما دعا ربه : { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجعل هذا بَلَداً آمِناً وارزق أَهْلَهُ مِنَ الثمرات } [البقرة : 126] فاحتاط لأنْ يكونَ في بلده ظالمون ، فقال : { مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بالله واليوم الآخر } [البقرة : 126] .

لكن جاء قياس إبراهيم هنا في غير محله ، فعدَّل الله له المسألة؛ لأنه يتكلم في أمر خاص بعطاء الربوبية الذي يشمل المؤمنَ والكافر ، والطائعَ والعاصي ، فقد ضمن الله الرزق للجميع فلا داعي للاحتياط في عطاء الربوبية؛ لذلك أجابه ربه : { قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إلى عَذَابِ النار وَبِئْسَ المصير } [البقرة : 126] .

إذن : فهناك فارق بين العطاءين : عطاء الربوبية وعطاء الألوهية ، والإمامية في منهج الله ، فعطاء الربوبية رِزْق يُسَاق للجميع وخاضع للأسباب ، فمَنْ أخذ بأسبابه نال منه مَا يريد ، أما عطاء الألوهية فتكليف وطاعة وعبادة .

يقول تعالى : { مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِن نَّصِيبٍ } [الشورى : 20] .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا }

وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (50)

قوله تعالى : { مِّن رَّحْمَتِنَا } [مريم : 50] المراد بالرحمة النبوة؛ لذلك لما قال أهل العظمة والجاه المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : { لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ } [الزخرف : 31] وكأنهم استقلُّوا رسول الله أن يكون في هذه المنزلة ، رَدَّ عليهم القرآن : { أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ } [الزخرف : 32] .

إذن : فعطاؤه تعالى في النبوات رحمةٌ أشاعها الله في ذرية إبراهيم .

وقوله : { وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً } [مريم : 50] أي : كلمة صدق وحق ثابت مطابق للواقع ، ولسان الصِّدْق يعني مَدْحاً في موضعه ، وثناءً بحق لا مجاملةَ فيه ، والثناء يكون باللسان ، وها نحن نذكر هذا الرَّكب من الأنبياء إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب بالثناء الحسَن والسيرة الطيبة ، ونأخذهم قدوة ، وهذا كله من لسان الصدق ، ويبدو أنها دعوةُ إبراهيم حين قال :

{ رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بالصالحين * واجعل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخرين } [الشعراء : 8384] .

ثم يقول الحق سبحانه : { واذكر فِي الكتاب موسى }

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (51)

وهذا أيضاً رَكْب من ركْب النبوات ، وقد أخذ قصة موسى عليه السلام حَيِّزاً كبيراً من كتاب الله لم تأخذه قصة نبي آخر ، مما دعا الناس إلى التساؤل عن سبب ذلك ، حتى بنو إسرائيل يُفضّلون أنفسهم على الناس بأنهم أكثر الأمم أنبياءً ، وهذا من غبائهم؛ لأن هذه تُحسَب عليهم لا لهم ، فكثرة الأنبياء فيهم دليل على عنادهم وغطرستهم مع أنبيائهم .

فما من أمة حيَّرتْ الأنبياء ، وآذتْهم كبني إسرائيل؛ لذلك كَثُرَ أنبياؤهم ، والأنبياء أطباء القِيَم وأُسَاة أمراضها ، فكثرتهم دليل تفشِّي المرض ، وأنه أصبح مرضاً عُضَالاً يحتاج في علاجه لا

لطبيب واحد ، بل لفريق من الأطباء .

والبعض يظن أن قصة موسى في القرآن مجرد حكاية تاريخ ، كما نقول نحن ونقصُّ : كان يا ما كان حدث كذا وكذا ، ولو كانت قصة موسى في القرآن مجرد حكاية تاريخ لجاءتْ مرة واحدة . لكنها ليست كذلك؛ لأن الحكمة من قَصِّها على رسول الله كما قال تعالى : { وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرسل مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ } [هود : 120] .

إذن : فالهدف من هذا القَصَص تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته لقومه؛ لأنه سيتعرض لمواقف وشدائد كثيرة يحتاج فيها إلى تثبيت ومواساة وتسلية ، فكلما جَدَّ بينه وبين قومه أمر قال له ربه : اذكر موسى حين فعل كذا وكذا ، وأنت خاتم الرسل ، وأنت التاج بينهم ، فلا بُدَّ لك أنْ تتحمَّل وتصبر .

أما لو نزلت مثل هذه القصة مرة واحدة لكان التثبيت بها مرة واحدة ، وما أكثر الأحداث التي تحتاج إلى تثبيت في حياة الدعوة .

لذلك نجد خصوم الإسلام يتهمون القرآن بالتكرار في قصة موسى عليه السلام ، وهذا دليلٌ على قصورهم في فَهْم القرآن ، فهذه المواضع التي يرونَ فيها تكراراً ما هي إلا لقطات مختلفة لموضوع واحد ، لكن لكل لقطة منها موقع وميلاد ، فإذا جاء موقعها وحان ميلادها نزلتْ .

ومما رأوا فيه تكراراً ، وليس كذلك قوله تعالى عن موسى عليه السلام طفلاً : { عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ } [طه : 39] ونتساءل : متى تستعر العداوة بين عدوين؟ إنْ كانت العداوة من طرف واحد فإن الطرف الآخر يقابلها بموضوعية ودون لَدَدٍ في الخصومة إلى أنْ تهدأ العداوة بينهما ، فهو عدو دون عداوة ، فحينما يراه صاحب العداوة على هذا الخُلق يصرف ما في نفسه من عداوة له ، كما قال تعالى :

{ ادفع بالتي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ } [فصلت : 34] .

أمّا إنْ كانت العداوة بين عدوَّيْن حقيقيين : هذا عدو وهذا عدو ، هنا تستعر العداوة ، وتزكو نارها ، ويحتدم بينهما صراع ، ولا بُدَّ أنْ يصرَع أحدهما الآخر .

والحق تبارك وتعالى حينما تكلّم عن موسى وفرعون ، جعل العداوة مرة من موسى في قوله تعالى :

{ فالتقطه آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً } [القصص : 8] .

فالعداوة هنا من موسى ليفضح الله أمر فرعون ، فها هو يأخذ موسى ويُربّيه ، وهو لا يعلم أنه عدو له ، وعلى يديْه ستكون نهايته غريقاً ، فالمقاييس عنده خاطئة ، وهو يدَّعِي الألوهية .

ومرة أخرى يُثبت العداوة من فرعون في قوله تعالى :

{ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ } [طه : 39] .

فالعداوة هنا من فرعون : إذن : فالعداوة من الطرفين ، لذلك فالمعركة بينهما كانت حامية .

كذلك من المواضع التي ظنوا بها تكراراً قوله تعالى : { وَأَوْحَيْنَآ إلى أُمِّ موسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليم وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تحزني إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ المرسلين } [القصص : 7] .

وفي آية أخرى يقول تبارك وتعالى : { إِذْ أَوْحَيْنَآ إلى أُمِّكَ مَا يوحى * أَنِ اقذفيه فِي التابوت فاقذفيه فِي اليم فَلْيُلْقِهِ اليم بالساحل يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ } [طه : 3839] .

والمستشرقون أحدثوا ضجة حول هذه الآيات : لأنهم لا يفهمون أسلوب القرآن ، وليست لديهم الملَكَة العربية للتلقّي عن الله ، فهناك فَرْق بين السياقين ، فالكلام الأول : { فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليم } [القصص : 7] هذه أحداث لم تقع بعد ، إنها ستحدث في المستقبل ، والكلام مجرد إعداد أم موسى للأحداث قبل أنْ تقعَ .

أمّا المعنى الثاني فهو مباشر للأحداث وقت وقوعها؛ لذلك جاء في عبارات مختصرة كأنها برقيات حاسمة لتناسب واقع الأحداث :

{ أَنِ اقذفيه فِي التابوت فاقذفيه فِي اليم } [طه : 39] .

كما أن الآية الأولى ذكرت : { فَأَلْقِيهِ فِي اليم } [القصص : 7] ولم تذكر التابوت كما في الآية الأخرى : { أَنِ اقذفيه فِي التابوت فاقذفيه فِي اليم } [طه : 39] .

إذن : ليس في المسألة تكرار كما يدَّعي المغرضون؛ فكل منهما تتحدث عن حال معين ومرحلة من مراحل القصة .

ثم يقول تعالى : { واذكر فِي الكتاب موسى إِنَّهُ كَانَ مُخْلِصاً } [مريم : 51] من خَلّصَ شيئا من أشياء ، أي : استخرج شيئاً من أشياء كانت مختلطة به ، كما نستخلص مثلاً العطور من الزهور ، فقد أخذت الجيد وتركت الرديء ، وبالنسبة للإنسان نقول : فلان مُخلص لأن الإنسان مركب من ملكات متعددة لتخدم كل حركة في الحياة ، وكل مَلَكَة من ملَكَاته ، أو جهاز من أجهزته له مهمة يؤديها ، إلا أنها قد تدخل عليها أشياء ليست من مهمته ، أو تخرج عن غاياتها فتحدث فيه بعض الشوائب ، فيحتاج الإنسان لأنْ يُخَلِّص نفسه من هذه الشوائب .

فمثلاً ، الحق تبارك وتعالى جعل التقاء الرجل والمرأة لهدف محدد ، وهو بقاء النوع؛ لذلك تجد الحيوان المحكوم بالغريزة لا بالعقل والاختيار إذا أدى كُلُّ من الذكر والأنثى هذه المهمة لا يمكن أنْ تُمكِّن الأنثى الذكر منها ، وكذلك الذكر لا يأتي الأنثى إذا علم من رائحتها أنها حامل .

إذن : وقف الحيوان بهذه الغريزة عند مهمتها ، وهي حفظ النوع ، لكن الإنسان لم يقف بهذه الغريزة عند حدودها ، بل جعلها مُتعةً شخصية يأتي حِفْظ النوع تابعاً لها .

وكذلك الحال في غريزة الطعام ، فالإنسان إذا جاع يحتاج بغريزته إلى أنْ يأكلَ ، والحكمة من ذلك استبقاء الحياة ، لا الامتلاء باللحم والشحم . فالحيوان يقف بهذه الغريزة عند حَدِّها ، فإذا

شبع لا يمكن أنْ تُجبره على عود برسيم واحد فوق ما أكل .
أما في الإنسان فالأمر مختلف تماماً ، فيأكل الإنسان حتى الشِّبَع ، ثم حتى التُّخْمة ، ولا مانع بعد ذلك من الحلو والمشروبات وخلافه؛ لذلك وضع لنا الخالق سبحانه وتعالى المنهج الذي يُنظّم لنا هذه الغريزة ، فقال تعالى : { وَكُلُواْ واشربوا وَلاَ تسرفوا } [الأعراف : 31] .
وفي الحديث الشريف : « بحسب ابن آدم لقيمات يُقِمْنَ صُلْبه ، فإن كان ولا بُدَّ فاعلاً ، فثُلث لطعامه ، وثُلث لشرابه ، وثُلث لنفَسِه » .
ومن الغرائز أيضاً غريزة حب الاستطلاع ، فالإنسان يحب أن يعرف ما عند الآخر ليحدث بين الناس الترقي اللازم لحركة الحياة ، ومعرفة أسرار الله في الكون ، وهذا هو الحد المقبول أما أن يتحول حب الاستطلاع إلى التجسس وتتبّع عورات الآخرين ، فهذا لا يُقبل ويُعَدُّ من شوائب النفوس ، يحتاج إلى أنْ نُخلِّص أنفسنا منه .
إذن : لكل غريزة حكمة ومهمة يجب ألاَّ نخرج عنها ، والمُخْلَص هو الذي يقف بغرائزه عند حَدِّها لا يتعدَّاها ويخلصها من الشوائب التي تحوط بها . وهذه الصفة إمّا أنْ يكرم الله بها العبد فيُخلِّصه من البداية من هذه الشوائب ، أو يجتهد هو ليُخلّص نفسه من شوائبها باتباعه لمنهج الله . هذا هو المُخْلَص : أي الذي خلص نفسه .
لذلك ، يقولون : من الناس مَنْ يصِل بطاعة الله إلى كرامة الله ، ومن الناس مَنْ يصل بكرامة الله إلى طاعة الله . وقد جعل الله تعالى الأنبياء مخْلَصين من بدايتهم ، ليكونوا جاهزين لهداية الناس ، ولا يُضيِّعون أوقاتهم في تخليص أنفسهم من شوائب الحياة وتجاربها .
ألم يستمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثاً وعشرين سنة يُعلِّم الناس كيف يُخلصون أنفسهم؟ فكيف إنْ كان النبي نفسه في حاجة لأنْ يُخلص نفسه؟
ولمكانة هؤلاء المخْلَصين ومنزلتهم تأدَّب إبليس وراعى هذه المنزلة حين قال : { فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين } [ص : 8283] .
لأن هؤلاء لا يقدر إبليس على غوايتهم .
ثم يقول تعالى : { وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً } [مريم : 51] لأن من عباد الله مَنْ يكون مخْلَصاً دون أن يكون نبياً أو رسولاً كالعبد الصالح مثلاً؛ لذلك أخبر تعالى عن موسى عليه السلام أنه جمع له كل هذه الصفات .
والرسول : مَنْ أُوحي إليه بشرع يعمل به ويُؤْمَر بتبليغه لقومه ، أما النبي ، فهو مَنْ أُوحِي إليه بشرع يعمل به لكن لم يُؤْمَر بتبليغه . إذن : فكل رسول نبي ، وليس كل نبي رسولاً؛ لأن النبي يعيش على منهج الرسول الذي يعاصره أو يسبقه .
ثم يقول الحق سبحانه : { وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطور }

وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (52)

قوله تعالى : { مِن جَانِبِ الطور الأيمن } [مريم : 52] أيمن الطور ، أَمْ أيمن موسى؟ أيّ مكان لا يُقال له أيمن ولا أيسر ، إنما الأيمن والأيسر بالنسبة لك أو لغيرك ، فالذي تعتبره أنت يميناً يعتبره غيرُك يساراً ، ولا يُقال للمكان أيمن ولا أيسر إلا إذا قِسْته إلى شيء ثابت كالقِبْلة مثلاً فتقول : أيمن القبلة ، وأيسر القبلة ، وخلف القِبْلة ، وأمام القِبْلة .

إذن : فقوله : { مِن جَانِبِ الطور الأيمن } [مريم : 52] أي : أيمن موسى ، وهو مُقبل على الجبل ، وهذه لقطة مختصرة من القصة جاءت مُفصَّلة في قوله تعالى : { فَلَمَّا قضى مُوسَى الأجل وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطور نَاراً } [القصص : 29] .

وقوله : { وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً } [مريم : 52] أي : قرَّبْناه لِنُنَاجيه بكلام . والنجيّ : هو المنَاجِي الذي يُسِرُّ القول إلى صاحبه ، كما جاء في الحديث الشريف : « إذا كنتم ثلاثة فلا ينتاجَ اثنان دون الآخر ، فإن ذلك يُحزِنه » .

وقد قرَّب الله تعالى موسى ليناجيه؛ لأن هذه خصوصية لموسى عليه السلام ، فكلام الله لموسى خاصٌّ به وحده لا يسمعه أحد غيره ، فإنْ قلتَ : فكيف يكلّمه الله بكلام ، ويسمى مناجاة؟ قالوا : لأنه تعالى أسمعه موسى ، وأخفاه عن غيره ، فصار مناجاة كما يتناجى اثنان سِراً . وهذا من طلاقة قدرته تعالى أن يُسمع هذا ، ولا يُسمع ذاك .

وبعض المفسرين يرى أن (الأيمن) ليس من اليمين ، ولكن من اليُمْن والبركة . و { وَقَرَّبْنَاهُ } [مريم : 52] أي : من حضرة الحق تبارك وتعالى . لكن هل حضرة الحق قُرْب منه ، أم موسى هو الذي قَرُب من حضرة الحق سبحانه؟ كيف نقول إن الله قرب منه وهو سبحانه أقرب إليه من حبل الوريد ، فالتقريب إذن لموسى عليه السلام .

وهكذا جمع الحق تبارك وتعالى لموسى عدةٍ خصال ، حيث جعله مخلَصاً ورسولاً ونبياً ، وخَصَّه بالكلام والمناجاة ، ثم يزيده هِبةً أخرى في قوله : { وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَآ }

وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (53)

وهب الله لموسى أخاه هارون رحمةً بموسى؛ لأن هارون كان مُعيناً لأخيه ومسانداً له في مسألة الدعوة ، وهذه لم تحدث مع نبي آخر أن يجعل الله له معيناً في حمل هذه المهمة؛ لذلك قال موسى عليه السلام : { وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ } [القصص : 34] .

والرِّدْء : هو المعين . وهكذا أعطانا الحق تبارك وتعالى لقطة سريعة من موكب النبوة في قصة

موسى ، ولمحة مُوجَزة هنا أتى تفصيلها في موضع آخر .
ثم يقول الحق سبحانه : { واذكر فِي الكتاب }

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (54)

قوله تعالى : { إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الوعد } [مريم : 54] ما الميزة هنا وكل الرسل كانوا صادقي الوعد؟ قالوا : لأن هناك صفة تبرز في شخص ويتميز بها ، وإن كانت موجودة في غيره ، فالذي يصدُق في وعد أعطاه ، أو كلمة قالها صدق في أمر يملكه ويتعلق به .
أما إسماعيل عليه السلام فكان صادق الوعد في أمر حياة أو موت ، أمر يتعلق بنفسه ، حين قال لأبيه : { ياأبت افعل مَا تُؤمَرُ ستجدني إِن شَآءَ الله مِنَ الصابرين } [الصافات : 102] . وليت الأمر جاء مباشرة ، إنما رآه غيره ، وربما كانت المسألة أيسَر لو أن الولد هو الذي رأى أباه يذبحه ، لكنها رُؤْيا رآها الأب ، والرؤيا لا يثبت بها حكم إلا عند الأنبياء . فكان إسماعيل دقيقاً في إجابته حينما أخبره أبوه كأنه يأخذ رأيه في هذا الأمر : { إِني أرى فِي المنام أَنِّيۤ أَذْبَحُكَ فانظر مَاذَا ترى } [الصافات : 102] .
فخاف إبراهيم عليه السلام أن يُقبل على ذَبْح ولده دون أن يخبره حتى لا تأتي عليه فترة يمتلىء غيظاً من أبيه إذا كان لا يعرف السبب ، فأحبَّ إبراهيم أن يكون استسلامُ ولده للذبح قُرْبَى منه لله ، له أجْرُها وثوابها .
قال إسماعيل عليه السلام لأبيه إبراهيم : { ياأبت افعل مَا تُؤمَرُ } [الصافات : 102] .
والوعد الذي صدق فيه قوله : { ستجدني إِن شَآءَ الله مِنَ الصابرين } [الصافات : 102] وصدق إسماعيل في وعده ، واستسلم للذبح ، ولم يتردد ولم يتراجع؛ لذلك استحق أنْ يميزه ربه بهذه الصفة { إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الوعد } [مريم : 54] .
فلما رأى الحق تبارك وتعالى استسلام إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لقضاء الله رفع عنه قضاءه وناداه : { وَنَادَيْنَاهُ أَن ياإبراهيم * قَدْ صَدَّقْتَ الرؤيآ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين * إِنَّ هذا لَهُوَ البلاء المبين * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ } [الصافات : 104107] فكانت نتيجة الصبر على هذا الابتلاء أنْ فدى الله الذبيح ، وخلَّصه من الذبح ، ثم أكرم إبراهيم فوق الولد بولد آخر : { وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ } [الأنعام : 84] .
وهذه لقطة قرآنية تُعلِّمنا أن المسلم إذا استسلم لقضاء الله ، ورَضِي بقدره فسوف يجني ثمار هذا الاستسلام ، والذي يطيل أمد القضاء على الناس أنهم لا يرضون به ، والحق تبارك وتعالى لا يجبره أحد ، فالقضاء نافذ نافذ ، رضيتَ به أم لم تَرْضَ .
وحين تسلم لله وترضى بقضائه يرفعه عنك ، أو يُبيّن لك وجه الخير فيه . إذن : عليك أن تحترم القدر وترضى به؛ لأنه من ربك الخالق الحكيم ، ولا يُرفع قضاء الله عن الخلق حتى يرضوا به .

وكثيراً ما نرى اعتراض الناس على قضاء الله خاصة عند موت الطفل الصغير ، فنراهم يُكثِرون عليه البكاء والعويل ، يقول أحدهم : إنه لم يتمتع بشبابه .

ونعجب من مثل هذه الجهالات : أيّ شباب؟ وأيَّة متعة هذه؟ وقد فارق في صِغَره دنيا باطلة زائلة ، ومتعة موقوتة إلى دار باقية ومتعة دائمة؟ كيف وقد فارق العيش مع المخلوق ، وذهب إلى رحاب الخالق سبحانه؟

إنه في نعيم لو عرفتَه لتمنيتَ أن تكون مكانه ، ويكفي أن هؤلاء الأطفال لا يُسألون ولا يُحاسبون ، وليس لهم مسكن خاص في الجنة؛ لأنهم طلقاء فيها يمرحون كما يشاؤون؛ لذلك يسمونهم (دعاميص الجنة) .

وآخر يعترض لأن زميله في العمل رُقّي حتى صار رئيساً له ، فإذا به يحقد عليه ويحقره ، وتشتعل نفسه عليه غضباً ، وكان عليه أن يتساءل قبل هذا كله : أأخذ زميله شيئاً من مُلْك الله دون قضائه وقدره ، إذن : فعليك إذا لم تحترم هذا الزميل أن تحترم قدر الله فيه ، فما أخذَ شيئاً غصباً عن الله .

لذلك فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول : « اسمعوا وأطيعوا ، ولو وُلِّي عليكم عبد حبشيّ ، كأنّ رأسَه زبيبة » .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بالصلاة }

وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (55)

أي : من خصال إسماعيل العظيمة التي ذكرها الله تعالى له : { وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بالصلاة والزكاة } [مريم : 55] أي : زوجته . والحق تبارك وتعالى لا يهتم بخَصْلة ولا يذكرها إلا إنْ كانت كبيرة عنده ، تساوي كونه صادقَ الوعد وكونه رسولاً ونبياً ، فمَنْ أراد أنْ يتصفَ بصفة من صفات النبوة ، فعليه أنْ يأمرَ أهله بالصلاة والزكاة .

لكن ، لماذا اختص أهله بالذات؟ اختص أهله لأنهم البيئة المباشرة التي إنْ صَلُحتْ للرجل صَلُحَ له بيته ، وصَلُحَتْ له ذريته ، إذا كان الرجل يلفت أهله إلى ذكر الله والصلاة خمس مرات في اليوم والليلة فإنه بذلك يسدُّ الطريق على الشيطان ، فليس له مجال في بيت يصلي أهله الخمس صلوات .

لذلك فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول : « رحم الله امرأ استيقظ من الليل ، فصلَّى ركعتين ثم أيقظ أهله فإن امتنعتْ نضح في وجهها الماء ، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلَّتْ ركعتين ، ثم أيقظتْ زوجها ، فإنِ امتنع نضحتْ في وجهه الماء » .

إذن : فكل رجل وكل امراة يستطيع في كل ليلة أن يكون رسولاً لأهله ولبيئته يقوم فيها بمهمة

الرسول؛ لأن محمداً صلى الله عليه وسلم هو خاتم الأنبياء والرسل ، فليس بعد تشريعه تشريع ، وليس بعد كتابه كتاب؛ لأن أمته ستحمل رسالته من بعده ، وكل مؤمن منهم يعلم من الإسلام حُكْماً فهو خليفة لرسول الله في تبليغه .

كما قال تعالى : { لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى الناس وَيَكُونَ الرسول عَلَيْكُمْ شَهِيداً } [البقرة : 143] فالرسول يشهد أنه بلَّغكم ، وعليكم أنْ تشهدوا أنكم بلّغتُم الناس ، وما دُمْتم بلَّغتم الناس مَنْطِقاً ولفظاً فلا بُدَّ أنْ يكون سلوكاً أيضاً ، لأن لكم في رسول الله أسوة حسنة .

ودائماً ما يقرن الحق تبارك وتعالى بين الصلاة والزكاة ، والصلاة تأخذ بعض الوقت ، والزكاة تأخذ المال الذي هو فرع العمل الذي هو فرع الوقت ، فإنْ كانت الزكاة تأخذ نتيجة الوقت ، فالصلاة تأخذ الوقت نفسه . إذن : ففي الصلاة زكاة أبلغ من الزكاة .

وإنْ كان في الزكاة نماء المال وبركته وإنْ كانت في ظاهرها نقصاً ففي الصلاة نماء الوقت وبركته ، فإياك أنْ تقول : أنا مشغول ، ولا أجد وقتاً للصلاة؛ لأن الدقائق التي ستصلي فيها فَرْض ربك هي التي ستُشِيع البركة في وقتك كله .

كما أنك حين تقف بين يَدَيْ ربك في الصلاة تأخذ شحنة إيمانية نوارنية تُعينك على أداء مهمتك في الحياة ، وتعرض نفسك على ربِّك وخالقك وصانعك ، ولن تُعدم خيراً ينالك من هذا اللقاء .

ولك أنْ تتصوّر صنعةً تُعرَض على صانعها خمس مرات كل يوم ، هل يصيبها عُطْل أو عَطَب؟!

وإنْ كان المهندس الصانع يعالج بأشياء مادية فلأنه حِسّيٌّ مشهود ، أما الخالق سبحانه فهو غَيْب يصلحك من حيث لا تدري .

وإنْ كان إسماعيل عليه السلام يأمر أهله بالصلاة والزكاة فهو حريص عليها من باب أَوْلَى .

وقوله تعالى : { وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً } [مريم : 55] أي : رضي الله عنه ، ليس لخصال الخير التي وصفه بها ، بل من بدايته ، فقد رضي عنه فاختاره رسولاً ونبياً .

ثم يقول الحق سبحانه : { واذكر فِي الكتاب إِدْرِيسَ }

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (56)

ما زال القرآن يعطينا لقطاتٍ من موكب الرسالات والنبوات . وإدريس عليه السلام أوّل نبي بعد آدم عليه السلام ، فهو إدريس بن شيث بن آدم . وبعد إدريس جاء نوح ثم إبراهيم ، ومنه جاءت سلسلة النبوات المختلفة .

وقوله : { إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً } [مريم : 56] .

تحدثنا عن معنى الصِّدِّيق في الكلام عن إبراهيم عليه السلام ، والصِّدِّيق هو الذي يبالغ في تصديق ما جاءه من الحق ، فيجعل الله له بذلك فُرْقاناً وإشراقاً يُميّز به الحق فلا يتصادم معه شيطان؛ لأن الشيطان قد ينفذ إلى عقلي وعقلك .

أما الوارد من الحق سبحانه وتعالى فلا يستطيع الشيطان أن يعارضه أو يدخل فيه ، لذلك فالصِّدِّيق وإن لم يكُنْ نبياً فهو مُلْحقٍ بالأنبياء والشهداء ، كما قال تعالى : { وَمَن يُطِعِ الله والرسول فأولئك مَعَ الذين أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم مِّنَ النبيين والصديقين والشهدآء والصالحين وَحَسُنَ أولئك رَفِيقاً } [النساء : 69] .

وكذلك كان إدريس عليه السلام (نبياً) ولم يقُلْ : رسولاً نبياً ، لأن بينه وبين آدم عليه السلام جيلين ، فكانت الرسالة لآدم ما زالت قائمة .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً }

وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (57)

مكاناً عالياً في السماء ، رِفْعه معنوية ، أو رِفْعة حِسّية ، خُذْها كما شئتَ ، لكن إياك أنْ تجادل : كيف رفعه؟ لأن الرِّفْعة من الله تعالى ، والذي خلقه هو الذي رفعه .

ثم يقول الحق سبحانه : { أولئك الذين أَنْعَمَ الله عَلَيْهِم }

أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (58)

قوله تعالى : { أولئك } [مريم : 58] أي : الذين تقدَّموا وسبق الحديث عنهم من الأنبياء والرسل { مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ } [مريم : 58] أي : مباشرة مثل إدريس عليه السلام { وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ } [مريم : 58] الذين جاءوا بعد إدريس مباشرة { وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ } [مريم : 58] أي : الذين جاءوا بعد نوح .

وقد انقسموا إلى فرعين من ذرية إبراهيم .

الأول : فرع إسحق الذي جاء منه جمهرة النبوة ، بداية من يعقوب ، ثم يوسف ، ثم موسى وهارون ، ثم داود وسليمان ، ثم زكريا ويحيى ، ثم ذو الكفل ، ثم أيوب ، ثم النون .

والفرع الآخر : فرع إسماعيل عليه السلام الذي جاء منه جماع جواهر النبوة ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم .

{ وَإِسْرَائِيلَ } [مريم : 58] هو نبيّ الله يعقوب { وَمِمَّنْ هَدَيْنَا واجتبينآ } [مريم : 58] الذي هديناهم واجتبيناهم . أي : اخترناهم واصطفيناهم للنبوة { إِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرحمن خَرُّواْ سُجَّداً وَبُكِيّاً } [مريم : 58] .

لماذا قال { آيَاتُ الرحمن } [مريم : 58] ولم يقُلْ : آيات الله؟ قالوا : لأن آيات الله تحمل منهجاً وتكليفاً ، وهذا يشقُّ على الناس ، فكأنه يقول لنا : إياكم أنْ تفهموا أن الله يُكلّفكم

بالمشقة ، وإنما يُكلّفكم بما يُسعِد حركة حياتكم وتتساندون ، ثم يسعدكم به في الآخرة؛ لذلك اختار هنا صفة الرحمانية .

وقوله : { خَرُّواْ سُجَّداً وَبُكِيّاً } [مريم : 58] لم يقُل : سجدوا ، بل سقطوا بوجوههم سريعاً إلى الأرض . وهذا انفعال قَسْري طبيعي ، لا دَخْلَ للعقل فيه ولا للتفكير ، فالساجد يستطيع أنْ يسجدَ بهدوء ونظام ، أما الذي يخرُّ فلا يفكر في ذلك ، وهذا أشبه بقوله تعالى : { فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السقف مِن فَوْقِهِمْ } [النحل : 26] أي : سقط عليهم فجأة .

وهذا الانفعال يُسمُّونه « انفعال نزوعي » ناتج عن الوجدان ، والوجدان ناتج عن الإدراك ، وهذه مظاهر الشعور الثلاثة : الإدراك ، ثم الوجدان ، ثم النزوع . والإنسان له حواس يُدرِك بها : العين والأذن والأنف واللسان . . الخ .

فهذه وسائل إدراك المحسّات ، فإذا أدركتَ شيئاً بحواسِّك تجد له تأثيراً في نفسك ، إما حُباً وإماً بُغْضاً ، إما إعجاباً وإما انصرافاً ، وهذا الأثر في نفسك هو الوجدان ، ثم يصدر عن هذا الوجدان حركة هي « النزوع » .

فمثلاً ، لو رأيتَ وردة جميلة فهذه الرؤيا « إدراك » ، فإنْ أُعجبْتَ بها وسُ رِرْتَ فهذا « وجدان » ، فإنْ مددْتَ يدك لتقطفها فهذا « نزوع » . والشرع لا يحاسبك على الإدراك ولا على الوجدان ، لكن حين تمد يدك لقطف هذه الوردة نقول لك : قفْ فهذه ليست لك ، ولا يمنعك الشارع ويتركك ، إنما يمنعك ويوحي لك بالحلِّ المناسب لنزوعك ، فعليك أنْ تزرع مثلها ، فتكون مِلْكاً لك أو على الأقل تستأذن صاحبها .

كذلك الحال فيمن تسمّع لكلام الله وقرآنه يدرك القرآن بسمعه فينشأ عنه حلاوة ومواجيد في نفسه ، وهذا هو الوجدان الذي ينشأ عنه انفعال نُزوعي ، فلا يجد إلا أنْ يخر ساجداً لله تعالى .

والنزوع هنا لم يُكنْ نزوعاً ظاهرياً بل وأيضاً داخلياً ، ففاضت أعينهم بالدمع { سُجَّداً وَبُكِيّاً } [مريم : 58] .

وقد عُولج هذا المعنى في عِدّة مواضع أُخَر ، كما في قوله تعالى : { قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تؤمنوا إِنَّ الذين أُوتُواْ العلم مِن قَبْلِهِ إِذَا يتلى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً } [الإسراء : 107] .

ومعنى : للأذقان : مبالغة في الخضوع والخشوع واستيفاء السجود؛ لأن السجود يكون أولاً على الجبهة ثم الأنف لكن على الأذقان ، فهذا سجود على حَقٍّ ، وليس كنقْر الديكَة كما يقولون .

إذن : فأهل الكتاب كانوا على علم ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه سيأتي بالقرآن على فَتْرة من الرسل ، وها هم الآن يسمعون القرآن؛ لذلك يقولون : { سُبْحَانَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً } [الإسراء : 108] .

ومن النزوع الانفعالي أيضاً قوله تعالى عن أهل الكتاب : { وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى الرسول ترى

أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدمع مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الحق } [المائدة : 83] .

وقوله تعالى : { الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ الله } [الزمر : 23] .

فلماذا يُؤثِّر الانفعال بالقرآن في كُلِّ هذه الحواس والأعضاء من جسم الإنسان؟ قالوا : لأن الذي خلق التكوين الإنساني هو الذي يتكلم ، والخالق سبحانه حينما يتكلم وحينما تفهم عنه وتعي ، فإنه سبحانه لا يخاطب عقلك فقط ، بل يخاطب كل ذرة من ذرّات تكوينك؛ لذلك تخِرُّ الأعضاء ساجدة ، وتدمع العيون ، وتقشعر الجلود ، وتلين القلوب ، كيف لا والمتكلم هو الله؟

ثم يقول الحق سبحانه : { فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ }

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (59)

قوله تعالى : { فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ } [مريم : 59] أي : أن المسائل لم تستمر على ما هي عليه من الكلام السابق ذِكْره ، بل خَلفَ هؤلاء القوم (خَلْفٌ) والخَلْف : هم القوم الذين يخلُفون الإنسان : أي : يأتون بعده أو من ورائهم .

وهناك فَرْق بين خَلْف وخَلَف : الأولى : بسكون اللام ويُراد بها الأشرار من عَقِب الإنسان وأولاده ، والأخرى : بفتح اللام ويُراد بها الأخيار . لذل ، فالشاعر حينما أراد أنْ يتحسَّر على أهل الخير الذي مَضَوْا قال :

ذَهَبَ الذِينَ يُعاشُ فِي أكنَافِهِمْ ... وبَقِيتُ في خَلْف كجِلْدِ الأجْرَبِ

فماذا تنتظر من هؤلاء الأشرار؟ لا بُدّ أنْ يأتي بعدهم صفات سوء { أَضَاعُواْ الصلاة واتبعوا الشهوات } [مريم : 59] إذن : هم خَلْف فاسد ، فأول ما أضاعوا أضاعوا الصلاة التي هي عماد الدين ، وأَوْلَى أركانه بالأداء .

صحيح أن الإسلام بُني على عِدّة أركان ، لكن بعض هذه الأركان قد يسقط عن المسلم ، ولا يُطْلب منه كالزكاة والحج والصيام ، فيبقى ركنان أساسيان لا يسقطان عن المسلم بحال من الأحوال ، هما : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقامة الصلاة .

وسُئِلْنَا مرة من بعض إخواننا في الجزائر : لماذا نقول لمن يؤدي فريضة الحج : الحاج فلان ، ولا نقول للمصلى : المصلى فلان ، أو المزكَّى فلان ، أو الصائم فلان؟

فقلت للسائل : لأن الحج تتم نعمة الله على العبد ، وحين نقول : الحاج فلان . فهذا إشعار وإعلام أن الله أتمَّ له النعمة ، واستوفى كل أركان الإسلام ، فمعنى أنه أدَّى فريضة الحج أنه مستطيع مالاً وصحة ، وما دام عنده مال فهو يُزكِّي ، وما دام عنده صحة فهو يصوم ، وهو بالطبع يشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويؤدي الصلاة ، وهكذا تمَّتْ له بالحج جميع أركان الإسلام .

ثم يقول تعالى : { فَسَوْفَ يَلْقُونَ غَيّاً } [مريم : 59] هذه العبارة أخذها المتمحّكون الذين يريدون أنْ يدخلوا على القرآن بنقد ، فقالوا : الغَيُّ هو الشر والضلال والعقائد الفاسدة ، وهذه حدثتْ منهم بالفعل في الدنيا فأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، فكيف يقول : فسوف يلقوْنه في المستقبل؟

لكن المراد بالغيّ هنا أي : جزاء الغي وعاقبته . كما لو قُلْت : أمْطرتْ السماء نباتاً ، فالسماء لم تُمطر النبات ، وإنما الماء الذي يُخرِج النبات ، كذلك غيّهم وفسادهم في الدنيا هو الذي جَرَّ عليهم العذاب في الآخرة .

إذن : المعنى : فسوفَ يلقْونَ عذاباً وهلاكاً في الآخرة .

ومع ذلك ، فالحق تبارك وتعالى لرحمته بخَلْقه شرع لهم التوبة ، وفتح لهم بابها ، ويفرح بهم إنْ تابوا؛ لذلك فالذين اتصفُوا بهذه الصفات السيئة فأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات لا ييأسون من رحمة الله ، مادام بابُ التوبة مفتوحاً .

وفَتْح باب التوبة أمام العاصين رحمة يرحم الله بها المجتمع كله من أصحاب الشهوات والانحرافات ، وإلاَّ لو أغقلنا الباب في وجوههم لَشقِيَ بهم المجتمع ، حيث سيتمادَوْن في باطلهم وغَيِّهم ، فليس أمامهم ما يستقيمون من أجله .

والتوبة تكون من العبد ، وتكون من الرب تبارك وتعالى ، فتشريع التوبة وقبولها من الله وإحداث التوبة من العبد؛ لذلك قال تعالى : { ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ليتوبوا } [التوبة : 118] أي : شرعها لهم ليتوبوا فيقبل توبتهم ، فهي من الله أولاً وأخيراً؛ لذلك يأتي هذا الاستثناء . { إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً }

إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (60)

وللتوبة شروط يجب مراعاتها ، وهي : أن تُقلِع عن الذنب الذي تقع فيه ، وأن تندم على ما بدر منك ، وإنْ تنوي وتعزم عدم العودة إليه مرة أخرى . وليس معنى ذلك أنك إنْ عُدْتَ فلن تُقْبلَ منك التوبة ، فقد تتعرض لظروف تُوقِعك في الذنب مرة أخرى .

لكن المراد أنْ تعزم صادقاً عند التوبة عدم العَوْد ، فإنْ وقعت فيه مرة أخرى تكون عن غير قَصْد ودون إصرار . وإلاّ لو دبرتَ لهذه المسألة فقُلْت : أذنب ثم أتوب ، فمن يُدرِيك أن الله تعالى سيمهلك إلى أن تتوبَ؟ إذن : فبادر بها قبل فَوات أوانها .

هذه إذن شروط التوبة إنْ كانت في أمر بين العبد وربه ، فإنْ كانت تتعلق بالعباد فلا بُدَّ أنْ يتوفّر لها شرط آخر وهو رَدُّ المظالم إلى أهلها إنْ كانت ترد ، أو التبرع بها في وجوه الخير على أنْ ينويَ ثوابها لأصحابها ، إنْ كانت مظالم لا تُردُّ .

ثم يقول تعالى بعدها : { وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً } [مريم : 60] معنى : وآمن بعد أنْ تاب ، تعني

أن ما أحدثه من معصية خدش إيمانه ، فيحتاج إلى تجديده . وهذا واضح في الحديث الشريف : « لايزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » .

فساعةَ مباشرة هذه المعاصي تنتفي عن الإنسان صفة الإيمان؛ لأن إيمانه غاب في هذه اللحظة؛ لأنه لو استحضر الإيمان وما يلزمه من عقوبات الدنيا والآخرة ما وقع في هذه المعاصي .

لذلك قال : (وَآمَنَ) أي : جدَّد إيمانه ، وأعاده بعد توبته ، ثم { وَعَمِلَ صَالِحاً } [مريم : 60] ليصلح به ما أفسده بفعل المعاصي .

والنتيجة : { فأولئك يَدْخُلُونَ الجنة وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئاً } [مريم : 60] وفي موضع آخر ، كان جزاء مَنْ تاب وآمن وعمل صالحاً : { فأولئك يُبَدِّلُ الله سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ } [الفرقان : 70] .

فلماذا كُلُّ هذا الكرم من الله تعالى لأهل المعاصي الذين تابوا؟ قالوا : لأن الذي أَلِفَ الشهوة واعتاد المعصية ، وأدرك لذَّته فيها يحتاج إلى مجهود كبير في مجاهدة نفسه وكَبْحها ، على خلاف مَنْ لم يتعوّد عليها ، لذلك احتاج العاصون إلى حافز يدفعهم ليعودوا إلى ساحة ربهم .

لذلك قال سبحانه : { فأولئك يَدْخُلُونَ الجنة } [مريم : 60] دون أنْ يُعيَّروا بما فعلوه؛ لأنهم صَدَقُوا التوبة إلى الله { وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئاً } [مريم : 60] وبقدر ما تكون التوبة صادقة ، والندم عليها عظيماً ، وبقدر ما تلوم نفسَك ، وتسكب الدمْع على معصيتك بقدر ما يكون لك من الأجر والثواب ، وبقدر ما تُبدَّل سيئاتك حسناتٍ . وكُلُّ هذا بفضل الله وبرحمته .

ثم يقول الحق سبحانه : { جَنَّاتِ عَدْنٍ التي وَعَدَ الرحمن }

جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (61)

قوله : { جَنَّاتِ عَدْنٍ } [مريم : 61] أي : إقامة دائمة؛ لانك قد تجد في الدنيا جنات ، وتجد أسباب النعيم ، لكنه نعيم زائل ، إمّا أنْ تتركه أو يتركك . إذن : فكُلُّ نعيم الدنيا لا ضامنَ له .

وجنات عَدْن ليست هي مساكن أهل الجنة ، بل هي بساتين عمومية يتمتع بها الجميع ، بدليل أن الله تعالى عطف عليها في آية أخرى (وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً) في قوله تعالى : { وَعَدَ الله المؤمنين والمؤمنات جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ } [التوبة : 72] .

وقوله : { التي وَعَدَ الرحمن عِبَادَهُ بالغيب } [مريم : 61] والوعْد : إخبار بخير قبل أوانه؛ ليشجع الموعود على العمل لينالَ هذا الخير ، وضِدّه الوعيد : إخبار بشَرٍّ قبل أوانه ليحذره المتوعد ، ويتفادى الوقوع في أسبابه .

واختبار هنا اسم الرحمن ليُطمئِنَ الذين أسرفوا على أنفسهم بالمعاصي أن ربهم رحمن رحيم ، إنْ

تابوا إليه قبلهم ، وإنْ وعدهم وَعْداً وَفَى . وقد وعدنا الله تعالى في قرآن فآمنّا بوعده غيْباً { وَعَدَ الرحمن عِبَادَهُ بالغيب } [مريم : 61] .

وحجة الإيمان بالغيب فيما لم يوجد بعد المشهد الذي نراه الآن ، فالكون الذي نشاهده قد خُلِق على هيئة مُهندسةٍ هندسةً لا يوجد أبدعُ منها ، فالذي خلق لنا هذا الكون العجيب المتناسق إذا أخبرنا عن نعيم آخر دائم في الآخرة ، فلا بُدَّ أن نُصدِّق ، ونأخذ من المشاهدَ لنا دليلاً على ما غاب عَنَّا؛ لذلك نؤمن بالآخرة إيماناً غيبياً ثقةً مِنَّا في قدرته تعالى التي رأينا طَرَفاً منها في الدنيا .

ثم يقول تعالى : { إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً } [مريم : 61] فما دام الرحمن تبارك وتعالى هو الذي وعد ، فلا بُدَّ أن يكون وعدُه (مَأْتِياً) أي : مُحقّقاً وواقعاً لا شَكَّ فيه ، ووعْده تعالى لا يتخلَّف و (مَأْتِياً) أى نأتيه نحن ، فهي اسم مفعول .

وبعض العلماء يرى أن (مَأتِياً) بمعنى آتياً ، فجاء باسم المفعول ، وأراد اسم الفاعل ، لكن المعنى هنا واضح لا يحتاج إلى هذا التأويل؛ لأن وعد الله تعالى مُحقَّق ، والموعود به ثابت في مكانه ، والماهر هو الذي يسعى إليه ويسلك طريقه بالعمل الصالح حتى يصل إليه .

ثم يقول الحق سبحانه عن أهل الجنة في الجنة : { لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً }

لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (62)

اللغو : هو الكلام الفُضولي الذي لا فائدة منه ، فهو يضيع الوقت ويُهْدِر طاقة المتكلم وطاقة المستمع ، وبعد ذلك لا طائلَ من ورائه ولا معنى له .

والكلام هنا عن الآخرة { لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً } [مريم : 62] فإن كانوا قد سمعوا لَغْواً كثيراً في الدنيا فلا مجالَ للغو في الآخرة . ثم يستثني من عدم السماع { إِلاَّ سَلاَماً } [مريم : 62] و السلام ليس من اللغو ، وهو تحية أهل الجنة وتحية الملائكة : { تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ } [يونس : 10] .

وقد يُرَادُ بالسلام السلامة من الآفات التي عاينوها في الدنيا ، وهم في الآخرة سالمون منها ، فلا عاهة ولا مرضَ ولا كَدَّ ولا نصبَ . لكن نرجح هنا المعنى الأول أي : التحية؛ لأن السلام في الآية مما يُسْمَع .

فإنْ قُلْتَ : فكيف يستثنى السلام من اللَّغْو؟ نقول : من أساليب اللغة : تأكيد المدح بما يشبه الذم ،كأن نقول : لا عيبَ في فلان إلا أنه شجاع ، وكنت تنتظر أنْ نستثني من العيب عَيْباً ، لكن المعنى هنا : إنْ عددتَ الشجاعة عيباً ، ففي هذا الشخص عَيْب ، فقد نظرنا في هذا الشخص فلم نجد به عَيْباً ، إلا إذا ارتكبنا مُحَالاً وعددنا الشجاعة عيباً . وهكذا نؤكد مدحه بما يشبه الذم .

ومن ذلك قول الشاعر :

ولاَ عَيْبَ فِيهِم غَيْرَ أنَّ سُيُوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ

ثم يقول تعالى : { وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً } [مريم : 62] لم يقُل الحق سبحانه وتعالى : وعلينا رزقهم ، بل : ولهم زرقهم : أي أنه أمر قد تقرّر له وخُصِّص لهم ، فهو أمر مفروغ منه .

والرزق : كُلُّ ما يُنتفع به ، وهو في الآخرة على قَدْر عمل صاحبه من خير في الدنيا .

ومن رحمة الله تعالى بعباده من أهل الجنة أنْ نزعَ ما في صدورهم من غِلٍّ ومن حسد ومن حقد ، فلا يحقد أحدٌ على أحد أفضل مرتبة منه ، ولا يشتهي من نعيم الجنة إلا على قَدْر عمله ودرجته ، فإنْ رأى مَنْ هو أفضل منه درجةً لا يجد في نفسه غِلاً منه ، أو حِقْداً عليه؛ لأن موجب الغِلِّ في الدنيا أنْ ترى مَنْ هو أفضل منك .

أما في الآخرة فسوف ترى هذه المسألة بمنظار آخر ، منظار النفس الصافية التي لا تعرف الغلَّ ، قال تعالى : { وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً على سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ } [الحجر : 47] .

فإنْ رأيت مَنْ هو أعلى منك درجةً فسوف تقول : إنه يستحق ما نال من الخير والنعيم ، فقد كان يجاهد نفسه وهواه في الدنيا . ويكفي في وَصْف ما في الجنة من الرزق والنعيم قوله تعالى : { فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأنفس وَتَلَذُّ الأعين } [الزخرف : 71] .

وقول النبي صلى الله عليه وسلم : « فيها ما لا عَيْن رأت ، ولا إذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر » .

إذن : ففي الجنة أشياء لا تقع تحت إدراكنا؛ لذلك ليس في لغتنا ألفاظ تُعبِّر عن هذا النعيم؛ لأنك تضع في اللغة اللفظ الذي أدركتَ معناه ، وفي الجنة أشياء لا تدركها ولا عِلْمَ لك بها؛ لذلك حينما يريد الحق تبارك وتعالى أن يصِفَ لنا نعيم الجنة بصفة بما نعرف من نعيم الدينا : نخل وفاكهة ورمان ولحم طير وريحان .

ويقول : { مَّثَلُ الجنة التي وُعِدَ المتقون فِيهَآ أَنْهَارٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى } [محمد : 15] .

مع الفارق بين هذه الأشياء في الدنيا والآخرة . ويكفي أن تعرف الفرق بين خمر الدنيا وما فيها من سوء في طعمها ورائحتها واغتيالها للعقل ، وبين خمر الآخرة التي نفى الله عنها السوء ، فقال : { لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ } [الصافات : 47] .

وقوله : { بُكْرَةً وَعَشِيّاً } [مريم : 62] فكيف يأتيهم رزقهم بُكْرة وعشياً ، وليس في الجنة وقت لا بُكْرة ولا عَشِياً ، لا لَيْل ولا نهار؟ نقول : إن الحق تبارك وتعالى يخاطبنا على قَدْر عقولنا ، وما نعرف نحن من مقاييس في الدنيا ، وإلاّ فنعيم الجنة دائم لا يرتبط بوقت ، كما قال سبحانه : { أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا } [الرعد : 35] .

وفي آية أخرى قال تعالى : { أولئك هُمُ الوارثون * الذين يَرِثُونَ الفردوس هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [

المؤمنون : 1011] .

ثم يقول الحق سبحانه : { تِلْكَ الجنة التي نُورِثُ }

تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (63)

قوله : { تِلْكَ الجنة } [مريم : 63] أي : التي يعطينا صور لها هي : { التي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّاً } [مريم : 63] أ ي : يرثونها ، فهل كان في الجنة أحد قبل هؤلاء ، فَهُم يرثونه؟ الحق تبارك وتعالى قبل أن يخلق الخَلْق عرف منهم مَنْ سيؤمن باختياره ، ومَنْ سيكفر باختياره ، علم مَنْ سيطيع ومَنْ سيعصي ، فلم يُرغِم سبحانه عباده على شيء ، إنما علم ما سيكون منهم بطلاقة علمه تعالى ، إلا أنه تعالى أعدَّ الجنة لتسع جميع الخَلْق إنْ أطاعوا ، وأعدَّ النار لتسع جميع الخَلْق إنْ عَصَوْا ، فلن يكون هناك إذن زحام ولا أزمة إسكان ، إنْ دخل الناس جميعاً الجنة ، أو دخلوا جميعاً النار .

إذن : حينما يدخل أهلُ النارِ النارَ ، أين تذهب أماكنهم التي أُعِدَّتْ لهم في الجنة؟ تذهب إلى أهل الجنة ، فيرثونها بعد أنْ حُرم منها هؤلاء .

ثم يقول رب العزة سبحانه : { وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ }

وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (64)

هنا ينتقل السياق إلى موضوع آخر ، فبعد أنْ تحدَّث عن الجنة وأهلها عرض لأمر حدث لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو ما يحدث له حين ينزل عليه الوحي ، وقلنا : إن الوحي ينزل بواسطة جبريل عليه السلام ، وهو مَلَكٌ ، على محمد صلى الله عليه وسلم وهو بشر .

ولقاء جبريل بقانون ملكيته بمحمد صلى الله عليه وسلم بقانون بشريته لا يمكن أن يتم إلاَّ بتقارب هذيْن الجنسين وعملية تغيير لا بُدَّ أنْ تطرأ على أحدهما ، إما أَنْ ينزل المَلَكُ على صورة بشرية ، وإما أن يرتفع ببشرية الرسول إلى درجة تقرب من المَلك ليأخذ عنه ، وذلك ما كان يحدث لرسول الله حين يأتيه الوحي .

وقد وصف النبي صلى الله عليه وسلم هذا التغيير فقال : « . . . فغطَّني حتى بلغ مني الجهْد . . . » وكان صلى الله عليه وسلم يتفصَّد جبينه عرقاً لما يحدث في جسمه من تفاعل وعمليات كيماوية ، ثم حينما يُسرّي عنه تذهب هذه الأعراض .

وقد أخبر بعض الصحابة ، وكان يجلس بجوار رسول الله ، والرسول صلى الله عليه وسلم يضع رُكْبته على رُكْبته ، فلما نزل على رسول الله الوحي قال الصحابي : شعرتُ برُكْبة رسول الله وكأنها جبل .

وإذا أتاه الوحي وهودابة كانت الدابة تئط أي : تنخ من ثِقَل الوحي ، وقد قال تعالى : { إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً } [المزمل : 5] .

إذن : كان النبي صلى الله عليه وسلم يتعب بعد هذا اللقاء ويشقُّ عليه ، حتى يذهب إلى السيدة خديجة رضي الله عنها يقول : « زَمِّلوني زَمِّلوني » أو « دَثِّروني دَثِّروني » كأن به حمى مما لاقى من لقاء الملَك ومباشرة الوحي أولاً .

ثم أراد الحق سبحانه وتعالى أن يجعل الوحي يفتر عن رسوله ليرتاح من تعبه ومشقته ، فإذا ما ارتاح وذهب عنه التعب بقيتْ له حلاوة ما نزل من الوحي ، فيتشوق إليه من جديد ، كما يشتاق الإنسان لمكانٍ يحبه دونه الأشواك ومصاعب الطريق ، فالحب للشيء يحدث علمية كالتخدير ، فلا تشعر في سبيله بالتعب .

وقلنا : لما فتر الوحي عن رسول الله شمت فيه الكفار وقالوا : إن رَبَّ محمد قد قلاه يعني : أبغضه وتركه .

وهذا القول دليل على غبائهم وحماقتهم ، كيف وقد كانوا بالأمس يقولون عنه : ساحر وكذاب؟ ففي البغض يتذكرون أنه له رباً منع عنه الوحي ، وحين دعاهم إلى الإيمان بهذا الرب قالوا : من أين جاء بهذا الكلام؟

لذلك ، فالحق تبارك وتعالى يخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً : { أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الذي أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ } [الشرح : 14]

إذن : كانت مسألة الوحي شاقة على رسول الله .

فأراد الحق سبحانه أن يعطي هؤلاء درساً من خلال درس كونيّ مشاهد يشهد به المؤمن والكافر ، هذا الأمر الكونيّ هو الزمن ، وهو ينقسم إلى ليل ونهار ، ولكل منهما مهمته التي خلقه الله من أجلها ، كما قال سبحانه :

{ والليل إِذَا يغشى * والنهار إِذَا تجلى } [الليل : 12] .

فإياك أنْ تُغيّر مهمة الليل إلى النهار ، أو مهمة النهار إلى الليل .

ثم يرد عليهم قائلاً : { والضحى * والليل إِذَا سجى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى * وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأولى } [الضحى : 14] .

والمعنى : إنْ كان النهار لحركة الحياة واستبقائها ، والليل للراحة والسكون ، فهما آيتان متكاملتان لا مُتضادتان ، وليس معنى أن يأتي الليل بسكونه أن النهار لن يأتي من بعد ، بل سيأتي نهار آخر ، وستستمر حركة الحياة .

وكذلك الأمر إنْ فترَ الوحي عن رسول الله ، فلا تظنوا أنه انقطع إلىغير رَجْعة ، بل هي فترة ليرتاح فيها رسول الله ، كالليل الذي ترتاحون فيه من عناء العمل في النهار ، ومن هنا كانت

الحكمة في أنْ يُقسم سبحانه وتعالى بالضحى والليل إذا سجى على { مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى } [الضحى : 3] .

ونلحظ في هذا التعبير دِقّة الإعجاز في أداء القرآن ، حيث قال : { مَا وَدَّعَكَ } [ضحى : 3] بكاف الخطاب؛ لأن التوديع يكون لمَنْ تحب ولمَنْ تكره ، أما في القِلَى فلم يقُلْ : قَلاَك . لأن القِلَى لا يكون إلا لمَنْ تكره .

ومعنى : { وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأولى } الضحى : 4] الآخرة أي : الفترة الأخيرة من نزول الوحي خَيْر لك من الفترة الأولى؛ لأنها ستكون أوسع ، وستأتيك بلا تَعَب ولا مشقة ، وفعلاً نزلت جمهرة القرآن بعد ذلك في يُسْر على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهكذا كان الأمر في الآية التي نحن بصددها : { وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ } [مريم : 64] فيقال : إنها نزلت حينما قال الكفار : إن ربَّ محمد قد قلاه ، أو أنها نزلت بعد أن سأل كفار مكة الأسئلة الثلاثة التي تحدثنا عنها في سورة الكهف . وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : « سأخبركم غداً » لكن الوحي لم يأته مدة خمسة عشر يوماً ، فشقَّ ذلك عليه وحزِنَ له فنزلت : { وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ } [مريم : 64] أي : الملائكة لا تنزل إلا بأمر ، ولا تغيب إلا بأمر .

ثم يقول الحق سبحانه تعالى : { لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذلك } [مريم : 64] .

قوله تعالى : { مَا بَيْنَ أَيْدِينَا } [مريم : 64] أي : الذي أمامنا { وَمَا خَلْفَنَا } [مريم : 64] أي : في الخلف { وَمَا بَيْنَ ذلك } [مريم : 64] أي : ما بين الأمام والخلف ، فماذا بين الأمام والخلف؟ ليس بين الأمام والخلف إلا أنت . فسبحانه وتعالى المالك ، الذي له الملك والمملوك ، وله المكان والمكين ، وله الزمان والزمين .

وقوله : { وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً } [مريم : 64] هل يرسل الحق تبارك وتعالى رسولاً ، ثم ينساه هكذا دون إمداد وتأييد؟ فسبحانه تنزَّه عن الغفلة وعن النيسان .

ثم يقول الحق سبحانه : { رَّبُّ السماوات والأرض }

رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (65)

أولاً : ما علاقة قوله تعالى : { وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً } [مريم : 64] بقوله تعالى في هذه الآية : { رَّبُّ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا } [مريم : 65] ؟

قالوا : لأن هذا الكون العظيم بسمائه وأرضه ، وما فيه من هندسة التكوين وإبداع الخلق قائم بقيومية الله تعالى عليه ، كما قال سبحانه : { إِنَّ الله يُمْسِكُ السماوات والأرض أَن تَزُولاَ } [فاطر : 41] .

فلا تظن أن الكون قائم على قانون يُديره ، بل على القيومية القائمة على كل أمر من أمور

الكون ، والحق تبارك وتعالى لا تأخذه سنة ولا نوم . فما دام الأمر كذلك ، وأنه تعالى يعلم ما بين أيدينا وما خلفنا ، وما بين ذلك ، وأنه تعالى قيُّوم لا ينسى ولا يغفل وبه يقوم الكون . فهو إذن يستحق العبادة والطاعة فيما أمر ، وقد أعطاك قبل أن يُكلّفك عطاء لا تستطيع أنت أن تفعله لنفسك ، ثم تركك تربع في هذا النعيم خمس عشرة سنة دون أنْ يُكلِّفك بشيء من العبادات .

لذلك هنا يقول تعالى : { رَّبُّ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا فاعبده واصطبر لِعِبَادَتِهِ } [مريم : 65] وقد أكّد القرآن الكريم في آيات كثيرة مسألة الوحدانية ، وأنه رَبٌّ واحد فقال : { رَّبُّ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا } [مريم : 65] .

وقال : { رَبِّ العالمين } [الفاتحة : 2] .

وقال : { رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَآئِكُمُ الأولين } [الشعراء : 26] .

لأن القدماء ، ومنهم مثلاً قدماء المصريين كانوا يجعلون رباً للسماء ، ورباً للأرض ، ورباً للجو ، ورباً للأموات ، ورباً للزرع . . إلخ وما دام هو سبحانه رب كل شيء فقد رتب العبادة على الربوبية . والعبادة : طاعة معبود فيما أمر وفيما نهى ، وكيف لا نطيع الله ونحن خَلْقه وصَنْعته ، ونأكل رزقه ، ونتقلب في نعمه؟ وفي ريفنا يقول الرجل لولده المتمرد عليه : (مَنْ يأكل لقمتي يسمع كلمتي) .

ولا بُدَّ أن نعلم أن الله تعالى له الكمال المطلق قبل أنْ يخلق الخَلْق وبصفات الكمال خلق ، فلا تنفعه طاعة ، ولا تضره معصية . فإن قلتَ : فلماذا إذن يُكلِّف الخَلْق بالأمر والنهي؟ نقول : كلَّف الله الخَلْق لتستمر حركة الحياة وتتساند الجهود ولا تتصادم ، فيحدث في حياتهم الارتقاء ويسعدوا بها ، إنما لو تركهم وأهواءهم لَفسدتِ الحياة ، فأنت تبني وغيرك يهدم .

لذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » .

والحق تبارك وتعالى يقول : { وَلَوِ اتبع الحق أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ السماوات والأرض } [المؤمنون : 71] .

إذن : التشريعات جُعلَتْ لصالحنا نحن : { فاعبده واصطبر لِعِبَادَتِهِ } [مريم : 65] لأن العبادة فيها مشقة ، فلا بُدَّ لها من صبر؛ لأنها تأمرك بأشياء يشقُّ عليك أنْ تفعلها ، وينهاك عَنْ أشياء يشقُّ عليك أن تتركها لأنك أَلِفْتها .

والصبر يكون منا جميعاً ، يصبر كُلٌّ مِنَّا على الآخر؛ لأننا أبناء أغيار ، فإن صبرتَ على الأذى صبر الناس عليك إنْ حدث منك إيذاء لهم؛ لذلك يقول تعالى :

{ وَتَوَاصَوْاْ بالحق وَتَوَاصَوْاْ بالصبر } [العصر : 3] .

والحق سبحانه وتعالى يُعلِّمنا : إن أذنب أحد في حَقّك ، أو أساء إليك فاغفر له كما تحب أن

أغفر لك ذنبك ، واعفوَ عن سيئتك .

يقول تعالى : { وَلاَ يَأْتَلِ أُوْلُواْ الفضل مِنكُمْ والسعة أَن يؤتوا أُوْلِي القربى والمساكين والمهاجرين فِي سَبِيلِ الله وَلْيَعْفُواْ وليصفحوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ الله لَكُمْ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ } [النور : 22] .

ولا تظن أن صبرك على أذى الآخرين أو غفرانك لهم تطوُّع من عندك؛ لأنه لن يضيع عليك عند الله ، وستُرَدُّ لك في سيئة تُغفَر لك . حتى مَنْ فُضِح مثلاً أو ادُعي عليه ظُلْماً لا يضيعها الله ، بل يدّخرها له في فضيحة سترها عليه ، فمَنْ فُضِح بما لم يفعل ، سُتر عليه ما فعل .

وقوله تعالى : { هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً } [مريم : 65] ؟ سبق أن تكلمنا في معنى (السَّميّ) وقد اختلف العلماء في معناها ، قالوا : السَّميُّ : الذي يُساميك ، أي : أنت تسمو وهو يسمو عليك ، أو السَّميّ : النظير والمثيل .

والحق سبحانه وتعالى ليس له سميٌّ يُساميه في صفات الكمال ، وليس له نظير أو مثيل أو شبيه ، بدليل قوله تعالى : { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } [الشورى : 11] .

وقوله تعالى : { قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ * الله الصمد * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ } [الإخلاص : 14] .

وللسميّ معنى آخر أوضحناه في قصة يحيى ، حيث قال تعالى : { لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً } [مريم : 7] أي : لم يسبق أنْ تسمَّى أحد بهذا الاسم . وكذلك الحق تبارك وتعالى لم يتسمَّ أحدٌ باسمه ، لا قبل هذه الآية ، ولا بعد أنْ أطلقها رسول الله تحدّياً بين الكفار والملاحدة الذين يتجرؤون على الله . فلماذا لم يجرؤ أحد من هؤلاء أنْ يُسمي ولده الله؟

الحقيقة أن هؤلاء وإنْ كانوا كفاراً وملاحدة إلا أنهم في قرارة أنفسهم يؤمنون بالله ، ويعترفون بوجوده ، ويخافون من عاقبة هذه التسمية ، ولا يأمنون أنْ يصيبهم السوء بسببها .

إذن : لم تحدث ، ولم يجرؤ أحد عليها؛ لأن الله تعالى قالها وأعلنها تحدياً ، وإذا قال الله تعالى ، ملَكَ اختيار الخَلْق ، وعلم أنهم لن يجرؤوا على هذه الفعلة .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَيَقُولُ الإنسان أَإِذَا مَا مِتُّ }

وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (66)

ما المراد بالإنسان؟ الإنسان تُطلق ويُراد بها عموم أي إنسان مثل : { إِنَّ الإنسان خُلِقَ هَلُوعاً } [المعارج : 19] ويُراد بها خصوصية لبعض الناس ، كما في قوله تعالى : { أَمْ يَحْسُدُونَ الناس على مَآ آتَاهُمُ الله مِن فَضْلِهِ } [النساء : 54] فالمراد بالناس هنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أو قوله تعالى : { الذين قَالَ لَهُمُ الناس إِنَّ الناس قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فاخشوهم فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الوكيل } [آل عمران : 173] فالمراد : ناسٌ مخصوصون .

والمعنى هنا : { وَيَقُولُ الإنسان } [مريم : 66] أي : الكافر الذي لا يؤمن بالآخرة ، ويستبعد الحياة بعد الموت : { أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً } [مريم : 66] والاستفهام هنا للإنكار ، لكن هذه مسألة الردُّ عليها سَهْل مَيْسور ، فيقول تعالى : { أَوَلاَ يَذْكُرُ الإنسان }

أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (67)

فلأنْ يُعادَ الإنسانُ من شيء أهونُ من إنْ يعاد من لا شيء؛ لذلك قال تعالى في توضيح هذه المسألة : { وَهُوَ الذي يَبْدَؤُاْ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ } [الروم : 27] مع أن الخالق سبحانه وتعالى لا يُقال في حقه تعالى هَيِّن وأهون ، أو صعب وأصعب ، ولكنه يحدثنا بما نفهم وبما نعلم في أعرافنا .

ففي عُرْفنا نحن أن تنشيء من موجود أسهل من أنْ تنشيء من عدم ، وإنْ كان فعل العبد يقوم على المعالجة ومزاولة الأسباب ، ففِعْل الخالق سبحانه إنما يكون بقوله للشيء « كُنْ فيكون » .

وفي آية أخرى يقول تعالى : { مَّا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ } [لقمان : 28] .

ولما سُئِل الإمام علي كرَّم الله وجهه : كيف يُحاسِب اللهُ الناسَ جميعاً في وقت واحد؟ قال : كما يرزقهم جميعاً في وقت واحد .

فقوله : { أَوَلاَ يَذْكُرُ الإنسان } [مريم : 67] أي : لو تذكّر هذه الحقيقة ما كذَّب بالبعث ، وقد عولجت هذه المسألة أيضاً في قوله تعالى : { وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحِيِي العظام وَهِيَ رَمِيمٌ } [يس : 78] .

فلو تذكَّر خَلْقه الأول ما ضرب لنا هذا المثل . ثم يأتي الجواب منطقياً : { قُلْ يُحْيِيهَا الذي أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ } [يس : 79] .

وهنا أيضاً يكون الدليل : { أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً } [مريم : 67] .

ثم يقول الحق سبحانه : { فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ والشياطين }

فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (68)

قوله تعالى : { فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ والشياطين } [مريم : 68] الحشر : أن يبعثهم الله من قبورهم ، ثم يسوقهم مجتمعين إلى النار هم والشياطين الذين كانوا يُغْروهم بالمعصية ويُزينونها لهم .

{ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً } [مريم : 68] يقال : جثا يجثو فهو جَاثٍ . أي : ينزل على ركبتيه ، وهي دلالة على الذِّلَّة والانكسار والمهانة التي لا يَقْوى معها على القيام .

ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (69)

النزع : خَلْع الشيء من أصله بشدة ، ولا يقال : نزع إلا إذا كان المنزوع متماسكاً مع المنزوع منه ، ومن ذلك قوله تعالى : { قُلِ اللهم مَالِكَ الملك تُؤْتِي الملك مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الملك مِمَّنْ تَشَآءُ } [آل عمران : 26] كأنهم كانوا مُتمسّكين به حريصين عليه .

وقوله : { مِن كُلِّ شِيعَةٍ } [مريم : 69] أي : جماعة متشايعون على رأي باطل ، ويقتنعون به ، ويسايرون أصحابه : { أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرحمن عِتِيّاً } [مريم : 69] العتي : وهو الذي بلغ القمة في الجبروت والطغيان ، بحيث لا يقف أحد في وجهه ، كما قلنا كذلك في صفة الكِبَر { وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكبر عِتِيّاً } [مريم : 8] لأنه إذا جاء الكبر لا حيلةَ فيه ، ولا يقدر عليه أحد .

ومعلوم أن رسالات السماء لما نزلتْ على أهل الأرض كان هناك أناس يُضارون من هذه الرسالات في أنفسهم ، وفي أموالهم ، وفي مكانتهم وسيادتهم ، فرسالات الله جاءتْ لتؤكد حَقّاً ، وتثبت وحدانية الله ، وسواسية الخَلْق بالنسبة لمنهج الله .

وهناك طغاة وجَبَّارون وسادة لهم عبيد ، وفي الدنيا القوى والضعيف ، والغني والفقير ، والسليم والمريض ، فجاءت رسالات السماء لِتُحدِث استطراقاً للعبودية .

فَمن الذي يُضَار ويَغْضَب ويعادي رسالات السماء؟ إنهم هؤلاء الطغاة الجبارون ، أصحاب السلطة والمال والنفوذ ، ولا بُدَّ أن لهؤلاء أتباعاً يتبعونهم ويشايعونهم على باطلهم .

فإذا كان يوم القيامة ويوم الحساب ، فبمَنْ نبدأ؟ الأنكَى أن نبدا بهؤلاء الطغاة الجبابرة ، ونقدم هؤلاء السادة أمام تابعيهم حتى يروهم أذلاء صاغرين ، وقد كانوا في الدنيا طغاةً متكبرين ، كذلك لنقطع أمل التابعين في النجاة .

فربما ظَنُّوا أن هؤلاء الطغاة الجبابرة سيتدخلون ويدافعون عنهم ، فقد كانوا في الدنيا خدمهم ، وكانوا تابعين لهم ومناصرين ، فإذا ما أخذناهم أولاً وبدأنا بهم ، فقد قطعنا أمل التابعين في النجاة .

وقد ورد هذا المعنى أيضاً في قوله تعالى : { وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ } [النمل : 83] أي : من كبارهم وطُغَاتهم ، ليرى التابعون مصارع المتبوعين ، ويشهد الضعفاء مصارع الأقوياء ، فينقطع أملهم في النجاة .

وفي حديث القرآن عن فرعون ، وقد بلغ قمة الطغيان والجبروت حيث ادَّعى الألوهية ، فقال عنه : { يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ القيامة فَأَوْرَدَهُمُ النار وَبِئْسَ الورد المورود } [هود : 98] فهو قائدهم ومقدمتهم إلى جهنم ، كما كان قائدهم إلى الضلال في الدنيا ، فهو المعلم وهم المقلّدون .

فعليه إذن وِزْران : ضلاله في نفسه ، ووِزْر إضلاله لقومه ، كما جاء في قوله تعالى : { فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكتاب بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ الله لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً } [البقرة : 79

] .

ثم يقول الحق سبحانه : { ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بالذين }

ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا (70)

صلياً : اصطلاء واحتراقاً في النار من صَلِيَ يصْلَى : أي دخل النار وذاق حرَّها . أما : اصطلى أي : طلب هو النار ، كما في قوله تعالى : { لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ } [النمل : 7] .

والمعنى : أننا نعرف مَنْ هو أَوْلى بدخول النار أولاً ، وكأن لهم في ذلك أولويات معروفة؛ لأنهم سيتجادلون في الآخرة ويتناقشون ويتلاومون وسيدور بينهم مشهد فظيع رَهيب يفضح ما اقترفوه .

فالتابع والمتبوع ، والعابد والمعبود ، كُلٌّ يُلقي باللائمة على الآخر ، اسمعهم وهم يقولون : { رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا السبيلا * رَبَّنَآ آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ العذاب والعنهم لَعْناً كَبِيراً } [الأحزاب : 6768] .

وفي آية أخرى : { إِذْ تَبَرَّأَ الذين اتبعوا مِنَ الذين اتبعوا وَرَأَوُاْ العذاب وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأسباب } [البقرة : 166] .

وصدق الله العظيم حين قال : { الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المتقين } [الزخرف : 67] .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : { وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا }

وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (71)

وهذا خطاب عام لجميع الخلْق دون استثناء ، بدليل قوله تعالى بعدها : { ثُمَّ نُنَجِّي الذين اتقوا } [مريم : 72] إذن : فالورود هنا يشمل الأتقياء وغيرهم .

فما معنى الورود هنا؟ الورود أن تذهب إلى مصدر الماء للسقيا أي : أخْذ الماء دون أنْ تشرب منه ، كما في قوله تعالى : { وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ الناس يَسْقُونَ } [القصص : 23] أي : وصل إلى الماء .

إذن : معنى : { وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا } [مريم : 71] أي : أنكم جميعاً مُتقون ومجرمون ، سترِدُون النار وتروْنها؛ لأن الصراط الذي يمرُّ عليه الجميع مضروب على مَتْن جهنم .

وقد ورد في ذلك حديث أبي سعيد الخدري قال قال صلى الله عليه وسلم : « يوضع الصراط بين ظهراني جهنم ، عليه حسك كحسك السعدان ، ثم يستجيز الناس ، فنَاجٍ مُسلَّم ، ومخدوش به ، ثم ناج ومحتبس به ، ومنكوس ومكدوس فيها » .

فإذا ما رأى المؤمن النار التي نجاه الله منها يحمد الله ويعلم نعمته ورحمته به .
ومن العلماء مَنْ يرى أن ورد أي : أتى وشرب منه ويستدلون بقوله تعالى : { يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ القيامة فَأَوْرَدَهُمُ النار } [هود : 98] أي : أدخلهم . لكن هذا يخالف النسق العربي الذي نزل القرآن به ، حيث يقول الشاعر :
وَلَمَّا وَرَدْنَ الماءَ زُرْقاً جِمامُه ... وَضَعْنَا عِصِيَّ الحاضِرِ المتَخَيِّمِ
أي : حينما وصلوا إلى الماء ضربوا عنده خيامهم ، فساعةَ أنْ وصلوا إليه وضربوا عنده خيامهم لم يكونوا شَرِبوا منه ، أو أخذوا من مائه ، فمعنى الورود أي : الوصول إليه دون الشُّرب من مائه .
وأصحاب هذه الرأي الذين يقولون { وَارِدُهَا } [مريم : 71] أي : داخلها يستدلون كذلك بقوله تعالى : { ثُمَّ نُنَجِّي الذين اتقوا وَّنَذَرُ الظالمين فِيهَا جِثِيّاً } [مريم : 72] يقولون : لو أن الورود مجرد الوصول إلى موضع الماء دون الشرب منه أو الدخول فيه ما قال تعالى : { وَّنَذَرُ الظالمين فِيهَا } [مريم : 72] ولِقَال : ثم يُنجِّي اللهُ الذين اتقوا ويُدخِل الظالمين . . لكن { وَّنَذَرُ الظالمين } [مريم : 72] فيها الدليل على دخولهم جميعاً النار .
فعلى الرأي الأول : الورود بمعنى رؤية النار دون دخولها ، تكون الحكمة منه أن الله تعالى يمتُّ على عباده المؤمنين فيُريهم النار وتسعيرها؛ ليعلموا فضل الله عليهم ، وماذا قدَّم لهم الإيمان بالله من النجاة من هذه النار ، كما قال تعالى : { فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النار وَأُدْخِلَ الجنة فَقَدْ فَازَ } [آل عمران : 185] .
ويمكن فَهْم الآية على المعنى الآخر : الورود بمعنى الدخول؛ لأن الخالق سبحانه وتعالى خلق الأشياء ، وخلق لكل شيء طبيعةً تحكمه ، وهو سبحانه وحده القادر على تعطيل هذه الطبيعة وسلبها خصائصها .
كما رأينا في قصة إبراهيم عليه السلام ، فيكون دخول المؤمنين النارَ كما حدث مع إبراهيم ، وجَعْلها الله تعالى عليه بَرْداً وسلاماً ، وقد مكَّنكم الله منه ، فألقوه في النار ، وهي على طبيعتها بقانون الإحراق فيها ، ولم يُنزِل مثلاً على النار مطراً يُطفِئها ليوفر لهم كل أسباب الإحراق ، ومع ذلك ينجيه منها لتكون المعجزة ماثلةً أمام أعينهم .

وكما سلب الله طبيعة الماء في قصة موسى عليه السلام فتجمد وتوقفت سيولته ، حتى صار كل فِرْقٍ كالطوْد العظيم ، فهو سبحانه القادر على تغيير طبائع الأشياء . إذن : لا مانع من دخول المؤمنين النارَ على طريقة إبراهيم عليه السلام { قُلْنَا يانار كُونِي بَرْداً وسلاما على إِبْرَاهِيمَ } [الأنبياء : 69] .
ثم يُنجِّي الله المؤمنين ، ويترك فيها الكافرين ، فيكون ذلك أنْكَى لهم وأغيظ .

ثم يقول تعالى : { كَانَ على رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً } [مريم : 71] الحتْم : هي الشيء الذي يقع لا محالةَ ، والعبد لا يستطيع أنْ يحكم بالحتمية على أيّ شيء؛ لأنه لا يملك المحتوم ولا المحتوم عليه . فقد تقول لصديقك : أحتم عليك أنْ تزورني غداً ، وأنت لا تملك من أسباب تحقيق هذه الزيارة شيئاً ، فمَنْ يدريك أن تعيشَ لغد؟ ومَنْ يدريك أن الظروف لن تتغير وتحُول دون حضور هذا الصديق؟

إذن : أنت لا تحتم على شيء ، إنما الذي يُحتِّم هو القادر على السيطرة على الأشياء بحيث لا يخرج شيء عن موارده .

فإنْ قلتَ : فمَنِ الذي حتَّم على الله؟ حتَّم الله على نفسه تعالى ، وليست هناك قوة أخرى حتَّمتْ عليه ، كما في قوله تعالى : { كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِهِ الرحمة } [الأنعام : 54] .

ثم يؤكد هذا الحتم بقوله : { مَّقْضِيّاً } [مريم : 71] أي : حكم لا رجعةَ فيه ، وحُكْم الله لا يُعدِّله أحد ، فهو حكم قاطع . فمثلاً : حينما قال كفار مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : نعبد إلهك سنة وتعبد إلهنا سنة ، يريدون أنْ يتعايش الإيمان والكفر .

لكن الحق تبارك وتعالى يريد قَطْع العلاقات معهم بصورة نهائية قطعية ، لا تعرف هذه الحلول الوسط ، فقال سبحانه :

{ قُلْ ياأيها الكافرون * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * وَلاَ أَنَآ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ } [الكفارون : 16] .

وقَطْع العلاقات هنا ليس كالذي نراه مثلاً بين دولتين ، تقطع كل منهما علاقتها سياسياً بالأخرى ، وقد تحكم الأوضاع بعد ذلك بالتصالح بينهما والعودة إلى ما كانا عليه ، إنما قَطْع العلاقات مع الكفار قَطْعاً حتمياً ودون رجعة ، وكأنه يقول لهم : إياكم أنْ تظنوا أننا قد نعيد العلاقات معكم مرة أخرى؛ لذلك تكرَّر النفي في هذه السورة ، حتى ظنّ البعض أنه تكرار؛ ذلك لأنهم يستقبلون القرآن بدون تدبُّر .

فالمراد الآن : لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، وكذلك في المستقبل : ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد . فلن يُرغمنا أحد على تعديل هذا القرار أو العودة إلى المصالحة .

لذلك أتى بعد سورة (الكافرين) سورة الحكم : { قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ } [الإخلاص : 1] فلا ثانيَ له يُعدِّل عليه ، فكلامه تعالى وحكمه نهائي وحَتْماً مقضياً لا رجعةَ فيه ولا تعديل .

ثم يقول الحق سبحانه : { ثُمَّ نُنَجِّي الذين اتقوا }

ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (72)

جِثياً : من جَثَا يجثُو أي : قعد على رُكَبه دلالة على المهانة والتنكيل . ثم ينقلنا الحق سبحانه إلى لقطة أخرى ، فيقول : { وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا }

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (73)

هذا حوار دار بين المؤمنين والكافرين ، المؤمنين وكانوا عادةً هم الضعفاء الذين لا يقدرون حتى على حماية أنفسهم ، وليس لهم جاه ولا سيادة يحافظون عليها ، وجاء منهج الله في صالحهم يُسوِّي بين الناس جميعاً : السادة والعبيد ، والقوي والضعيف .

فطبيعي أنْ يُقابلَ هذا الدين بالتكذيب من كفار مكة ، أهل الجاه والسيادة ، وأهل القوة الذين يأخذون خَيْر الناس من حولهم ، أما الضعفاء فقد آمنُوا بدين الله في وقت لم يكن لديهم القوة الكافية لحماية أنفسهم ، فعندما نزل قَوْل الحق تبارك وتعالى : { سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر } [القمر : 45] .

قال عمر رضي الله عنه وما أدراك مَنْ هو عمر؟ قال : أيّ جمع هذا؟ وأيُّ هزيمة ، ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا؟

وفي هذه الآونة ، يأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمنين المستضعفين بالهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة . فلما جاء نصر الله للمؤمنين ، وتأييده لهم في بدر . قال عمر : صدق الله : { سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر } [القمر : 45] .

وفي هذا الحوار يُعيِّر الكفار المؤمنين بالله : ماذا أفادكم الإيمان بالله وها أنتم على حال من الضعف والهوان والذِّلَّة وضيق العيش؟ أيرضي رَبٌّ أن يكون المؤمنون به على هذه الحال ، وأعداؤه والكافرون به هم أهل الجاه والسيادة وسَعة الرزق؟

وهكذا فتَن الله بعضهم ببعض ، كما قال سبحانه : { وكذلك فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ } [الأنعام : 53] .

فالمؤمن والكافر ، والغني والفقير ، والصحيح والمريض ، كُلٌّ منهم فتنة للآخر لِيُمحِّص الله الإيمان ، ويختبر اليقين في قلوب المؤمنين؛ لأن الله تعالى يعدهم لحمل رسالته صلى الله عليه وسلم إلى الدنيا كلها في جميع أزمنتها وأماكنها ، فلا بُدَّ أن يختار لهذه المهمة أقوياء الإيمان الذين يدخلون في الإسلام ، ليس لمغنم دنيوي ، بل لحمل رسالته والقيام بأعبائه ، فهذا هو المؤمن المؤتمن على حَمْل منهج الله .

ومن ذلك ما نراه من أن مناهج الباطل في الدنيا مَنْ يدعو إليها يرشو المدعو ويعطيه ، أمّا منهج الله فيأخذ منه ليختبره وليُمحصه .

فكيف يكون الغني فتنة للفقير ، والفقير فتنة للغني؟ الغني مفتون بالفقير حيث هو في سَعَة من

العيش والفقير في ضيق ، الغني يأكل حتى التُّخمة والفقير جائع ، ويرتدي الغني الفاخر من الثياب والفقير عريان . فهل سيعرف نعمة الله عليه ويؤدي حقها؟
والفقير مفتون بالغني حين يراه على هذه الحال ، فهل سيصبر على هذه الشدة؟ أم سيعترض على ما قدَّره الله له ، ويحقد على الغنيّ .
ولو علم الفقير أن الفقر درس تدريبي أُجْرِي لجنود الحق الذين يحملون منهج الله إلى خَلْق الله في كل زمان ومكان ، وأن هذه قسمة الله بين خَلْقه لَمَا اعترض على قسمة الله ، ولَمَا حقد على صاحب الغني .

وكذلك يُفتَن الصحيح بالمريض والمريض بالصحيح ، فالصحيح يعيش مع نعمة الله بالعافية ، أما المريض فيعيش مع المنعم سبحانه ، كما جاء في الحديث القدسي : « يا ابْن آدم ، مرضْتُ فَلِم تعُدْني . فيقول : وكيف أعودك وأنت ربّ العاليمن؟ قال : أما علمتَ أن عبدي فلاناً مرض فلم تَعُدْه؟ أما علمت أنك لو عُدَّته لوجدتني عنده » .
لذلك ترى أهل الأمراض من المؤمنين يتألم زُوَّارهم من أمراضهم ، في حين أنهم في أُنْس بالله يشغلهم عن أمراضهم وعن آلامهم ، ومَنِ الذي يزهد في معية الله؟ إذن : لو حقد المريض على السليم فهو مفتون به ، وكان يجب عليه أن يعلم : إنْ كان الصحيح في معية النعمة فهو في معية المنعِم سبحانه وتعالى .
وسيدنا نوح عليه السلام بعد أن لبث يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً كان جواب قومه : { وَمَا نَرَاكَ اتبعك إِلاَّ الذين هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرأي } [هود : 27] فكان أتباع نوح في نظرهم حثالة القوم ، ثم حاولوا أنْ يُغروه بهم ليطردهم ، فهم ضِعاف لا جاهَ له ولا سلطان ، فما كان منه إلا أنْ قال : { وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ الذين آمنوا إِنَّهُمْ مُلاَقُو رَبِّهِمْ } [هود : 29] .
وقال في آية أخرى : { وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ الله وَلاَ أَعْلَمُ الغيب وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تزدري أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ الله خَيْراً الله أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إني إِذاً لَّمِنَ الظالمين } [هود : 31] .
فعلى مَرِّ الأزمان واختلاف الرسالات كان الكفار تزدري أعينهم الفقراء والضعفاء المؤمنين ، ويحاولون طردهم وإخراجهم من ديارهم ، ألم يقل الحق تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : { وَلاَ تَطْرُدِ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغداة والعشي يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظالمين } [الأنعام : 52] .
وهكذا جاء اللقطة التي معنا : { وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بينات قَالَ الذين كَفَرُواْ لِلَّذِينَ آمنوا أَيُّ الفريقين خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً } [مريم : 73] .
قوله : { آيَاتُنَا بينات } [مريم : 73] الآيات : جمع آية وهي الشيء العجيب الذي يتحدث

به ، وتُطلق كما قلنا على الآيات الكونية التي تثبت قدرة الله تعالى ، وتلفتنا إلى بديع صُنْعه كآيات الليل والنهار والشمس والقمر ، وتُطلق على المعجزات التي تُثبت صِدْق الرسول ، كما جاء في قوله تعالى :

{ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأنهار خِلالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السمآء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بالله والملائكة قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ ترقى فِي السمآء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً } [الإسراء : 9093] .

كما تُطلق الآيات على آيات القرآن التي تحمل الأحكام ، وهذه هي المرادة هنا؛ لأن آيات القرآن تنطوي فيها كل الآيات .

وقوله : { قَالَ الذين كَفَرُواْ لِلَّذِينَ آمنوا أَيُّ الفريقين } [مريم : 73] أي : لقد ارتضينا حكمكم في هذه المسألة : نحن الكفار في سَعَة ، وأنتم يا أهلَ الإيمان في ضيق ، فأيّ الفريقين خير مقاماً؟ والله بمقاييسكم أنتم . فأنتم خير ، أمّا بمقياس الأعلى والأبقى فنحن .

والمقام بفتح الميم : اسم لمكان قيامك من الفعل : قام .

أما « مُقام » بضم الميم ، فمِنْ أقام . والمراد هنا { خَيْرٌ مَّقَاماً } [مريم : 73] أي : مكاناً يقوم فيه على الآخر أي : بيت كبير وأثاث ومجلس يتباهى به على غيره .

{ وَأَحْسَنُ نَدِيّاً } [مريم : 73] الإنسان عادةً له بيت يأويه ، وله مجلس يَأوي إليه ، ويجلس فيه مع أصحابه وأحبابه يُسمُّونه « حجرة الجلوس » أو « المندرة » ، وفيها يجلس كبير القوم ومن حوله أهله وأتباعه ، كما نقول في العامية : (عامل قعر مجلس) ؛ لذلك إذا قام أنفضَّ المجلس كله؛ لأنهم تابعون له ، كما قال الشاعر :

وانفضَّ بَعْدَكَ يَا كُلَيْبُ المجلِسُ ... وهناك النادي ، وهو المكان الذي يجتمع فيه عظماء القوم والأعيان ، بدل أنْ يكون لكل منهم مجلسه الخاص ، كما نرى الآن : نادى الرياضيين ونادى القضاة . . إلخ إذن : فالنادي دليلٌ على أنهم متفقون ومتكاتفون ومتكتلون ضد الإسلام وضد الحق .

ومن ذلك قول الحق تبارك وتعالى : { فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ } [العلق : 17] ومن ذلك ما كان يُسمَّى قبل الإسلام « دار الندوة » ، و كانوا يجتمعون فيها ليدبروا المكائد لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن النادي ما كان مأخوذاً لعمل المنكر والفاحشة والعياذ بالله ، فيجتمعون فيه لكُلِّ ما هو خبيث من شُرْب الخمر والرقص والفواحش ، كما في قَوْل الحق تبارك وتعالى : { وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ المنكر } [العنكبوت : 29] .

وفي هذا دليل على شيوع الفاحشة و القِحَةِ بين القادرين والمجاهرة بها ، فلم يكونوا يقترفونها سِرّاً ، بل في جَمْع من رُوَّاد هذه الأماكن .

والنادي أو المنتدَى مأخوذ من النَّدَى أي : الكرم ، ولما مدحَتْ المرأة العربية زوجها قالت : رَفيع العِماد ، كثير الرماد ، قريب البيت من الناد .

والمعنى : أن بيته أقرب البيوت إلى النادي ، فهو مَقْصد الناس في قضاء حاجياتهم .

إذن : كان قول الكفار للمؤمنين : { أَيُّ الفريقين خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً } [مريم : 73] موضع فتنة للفريقين ، فقال المؤمنون : { لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ } [الأحقاف : 11] وقال الكفار : ما دام أن الله حبانا في الدنيا وهو الرزاق ، فلا بد أنْ يَحْبُوَنَا في الآخرة ، لكن لم تتعرض الآيات للقول المقابل من المؤمنين ، إنما جاء الرد عليهم من طريق آخر ، فقال تعالى : { وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ }

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا (74)

كم : خبرية تدل على الكثرة التي لا تُحصَى ، وأن المقول بعدها وقع كثيراً ، كأن يقول لك صاحبك : أنت ما عملتَ معي معروفاً أبداً ، فتُعدِّد له صنائع المعروف التي أسديتها إليه ، فتقول : كم فعلتُ معك كذا ، وكم فعلتُ كذا .

والقرن : هم الجماعة المتعايشون زماناً . بحيث تتداخل بينهم الأجيال ، فترى الجدَّ والأب والابن والحفيد معاً ، وقد قدَّروا القرن بمائة عام . كما يُطلَق القرن على الجماعة الذين يجتمعون على مُلك واحد ، أو رسالة واحدة مهما طال زمنهم كقوم نوح مثلاً .

والأثاث : هو فراش البيت ، وهذا أمر يتناسب وإمكانات صاحبه .

والرِّئْي : على وزن فِعْل ، ويراد به المفعول أي : المرئي ، كما جاء في قوله تعالى : { وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ } [الصافات : 107] فذبْح بمعنى : مذبوح .

وورد في قراءة أخرى : (أَحْسَنُ أثَاثاً وزِيّاً) وهي غير بعيدة عن المعنى الأول : لأن الزيّ أيضاً من المرئي ، إلا أنه يتكوّن من الزي والذي يرتديه ، والمراد هنا جمال الشكل والهيئة ونضارة الشخص وهندامه ، وقد افتخر الكفار بذلك ، في حين كان المؤمنين شُعْثاً غُبْراً يرتدون المرقَّع والبالي من الثياب .

وقد جاء الاختلاف في بعض ألفاظ القرآن من قراءة الأخرى؛ لأن القرآن الكريم دُوِّن أول ما دُوِّن غير منقوط ولا مشكول اعتماداً على مَلَكَة العربي وفصاحته التي تُمكِّنه من توجيه الحرف حَسْب المعنى المناسب للسياق ، وظل كذلك إلى أن وضع له العلماء النقاط فوق الحروف في العصر الأموي . فمثلاً النَّبْرة في كلمةٍ دون نقط يحتمل أنْ تُقرأ من أعلى : نون أو تاء أو ثاء . ومن أسفل تقرأ : باء أو ياء .

والعربي لمعرفته بمواقع الألفاظ يستطيع تحديد الحرف المراد ، فكلمة (رئْيَا) تقرأ (زيا) والمعنى غير بعيد .

ومن ذلك كلمة { فَتَبَيَّنُواْ } [النساء : 94] قرأها بعضهم (فتثبتوا) وكلمة { صِبْغَةَ } [البقرة : 138] قرأها بعضهم (صنعة) ، ودليل فصاحتهم أن الاختلاف في مثل هذه الحروف لا يؤدي إلى اختلاف المعنى .

لذلك ، كان العربي قديماً يغضب إنْ كُتِب إليه كتاب مُشَكل ، لأن تشكيل الكلام كأنه اتهام له بالغباء وعدم معرفته باللغة . ومن هنا وجدنا العلماء الذين وضعوا قواعد اللغة ليسوا من العرب؛ لأن العربي في هذا الوقت كان يستنكف أن يضع للغة قواعد ، فهي بالنسبة له مَلَكَة معروفة لا تحتاج إلى دراسة أو تعليم . أما الأعاجم فلما دخلوا الإسلام ما كان لهم أنْ يتعلَّموا لغته إلا بهذه الدراسة لقواعدها .

والحق تبارك وتعالى يقول هنا : { وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِءْياً } [مريم : 74] لأنهم قالوا : { أَيُّ الفريقين خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً } [مريم : 73] يريد أنْ يُدلِّل على أنهم حَمْقَى لا ينظرون إلى واقع الحياة ليروا عاقبة مَنْ كانوا أعزَّ منهم مكاناً ومكانة ، وكيف صار الأمر إليهم؟

الحق تبارك وتعالى يردُّ على الكفار ادعاءهم الخيرية على المؤمنين ، فهذه الخيرية ليستْ بذاتيتكم ، بل هي عطاء من الله وفِتْنة ، حتى إذا أخذكم أخذكم عن عِزَّة وجاهٍ؛ ليكون أنكى لهم وأشدَّ وأغَيظ ، أما إنْ أخذهم على حال ذِلَّة وَهَوان لم يكن لأخذه هذا الأثر فيهم .

فالحق سبحانه يُملي لهم بنعمه ليستشرفوا الخير ثم يأخذهم ، على حَدِّ قول الشاعر :

كَمَا أبرقَتْ قَوْماً عِطَاشاً غَمامَةً ... فَلَمَّا رأوْهَا أَقْشَعَتْ وتجلَّتِ

فأطمعهم في البداية ، ثم أخذهم وخيَّب آمالهم في النهاية .

وضربنا لذلك مثلاً بالأسير الذي بلغ به العطش مَبْلغاً ، فطلب الماء ، فجاءه الحارس بالماء حتى كان على فِيهِ ، واستشرف الريّ منعه وحرمه لتكون حسرته أشد ، وألمهُ أعظم ، ولو لم يأتِه بالماء لكان أهونَ عليه .

إذن : حينما تُجرون مُقارنة بينكم وبين المؤمنين وتُعيِّرونهم بما معكم من زينة الدنيا ، فقد قارنتم الوسائل وطرحتُم الغايات ، ومن الغباء أنْ نهتم بالوسائل وننسى الغايات ، فلكي تكون المقارنةُ صحيحة فقارنوا حالكم بحال المؤمنين ، بداية ونهاية .

ومثال ذلك : فلاح مجتهد في زراعته يعتني بها ويُعفِّر نفسه من تراب أرضه كل يوم ، وآخر ينعَم بالثياب النظيفة والجلوس على المقهى والتسكع هنا وهناك ، وينظر إلى صاحبه الذي أجهده العمل ، ويرى نفسه أفضل منه ، فإذا ما جاء وقت الحصاد وجد الأولُ ثمرة تعبه ونتيجة مجهوده

، وجلس الآخر حزيناً محروماً . فلا بُدَّ أن تأخذ في الاعتبار عند المقارنة الوسائل مع الغايات .
لذلك وُفِّق الشاعر حين قال :
ألاَ مَنْ يُرِيني غَايتِي قَبْل مذْهَبِي ... ومِنْ أينْ والغَايَاتُ بَعْد المذَاهِبِ؟
وقد عزل الكفار الوسيلة في الدنيا عن الغاية في الآخرة ، فتباهوا وعَيَّروا المؤمنين : { أَيُّ الفريقين خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً } [مريم : 73] .
وفي قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام : { فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ اقتلوه أَوْ حَرِّقُوهُ } [العنكبوت : 24] .
وهكذا اتفقوا على الإحراق ، ونجَّى الله نبيه وخيَّب سَعْيهم ، ثم كانت الغاية في الآخرة : { وَقَالَ إِنَّمَا اتخذتم مِّن دُونِ الله أَوْثَاناً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الحياة الدنيا ثُمَّ يَوْمَ القيامة يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النار وَمَا لَكُمْ مِّن نَّاصِرِينَ } [العنكبوت : 25] .
فكان عليهم ألاَّ ينظروا إلى الوسيلة منفصلةً عن غايتها .
وهنا يردُّ الحق تبارك وتعالى على هؤلاء المغترّين بنعمة الله :
{ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِءْياً } [مريم : 74] وكما قال في آيات أخرى : { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ العماد * التي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البلاد * وَثَمُودَ الذين جَابُواْ الصخر بالواد * وَفِرْعَوْنَ ذِى الأوتاد } [الفجر : 610] .
وهلاك هؤلاء وأمثالهم سَهْل لا يكلف الحق سبحانه إلا أنْ تَهُبَّ عليهم عواصف الرمال ، فتطمس حضارتهم ، وتجعلهم أثراً بعد عَيْن .
فدعاهم إلى النظر في التاريخ ، والتأمّل في عاقبة أمثالهم من الكفرة والمكذبين ، وما عساه أنْ يُغني عنهم من المقام والندىّ الذي يتباهون به ، وهل وسائل الدنيا هذه تدفع عنهم الغاية التي تنتظرهم في الآخرة؟
وكأن الحق تبارك وتعالى لا يردّ عليهم بكلام نظري يقول : إن عاقبتكم كذا وكذا من العذاب ، بل يعطيهم مثالاً من الواقع .

ويخاطب نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله : { فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذي نَعِدُهُمْ } [غافر : 77] أي : من القهر والهزيمة والانكسار { أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ } [غافر : 77] فمَنْ أفلت من عذاب الدنيا ، فلن يفلت من عذاب الآخرة .
والقرآن حين يدعوهم إلى النظر في عاقبة من قبلهم { وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ } [مريم : 74] فإنما يحثُّهم على أخْذ العِبْرة والعِظَة ممَّنْ سبقوهم ، ويستدل بواقع شيء حاضر على صِدْق غيْبٍ آتٍ ، فالحضارات التي سبقتهم والتي لم يوجد مثلها في البلاد ، وكان من صفاتها كذا وكذا ، ماذا حدث لهم؟ فهل أنتم أشدّ منهم قوة؟ وهل تمنعون عن أنفسكم ما نزل بغيركم من

المكذّبين؟

هذا من ناحية الواقع ، أما الغيب فيعرض له القرآن في مشهد آخر ، حيث يقول تعالى : { إِنَّ الذين أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ الذين آمَنُواْ يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انقلبوا إلى أَهْلِهِمُ انقلبوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قالوا إِنَّ هؤلاء لَضَالُّونَ * وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ } [المطففين : 2933] .

هذا المشهد في الدنيا ، فما بالهم في الآخرة؟ : { فاليوم الذين آمَنُواْ مِنَ الكفار يَضْحَكُونَ * عَلَى الأرآئك يَنظُرُونَ } [المطففين : 3435] .

ثم يخاطب الحق سبحانه وتعالى المؤمنين فيقول : { هَلْ ثُوِّبَ الكفار مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ } [المطففين : 36] .

يعني : بعد ما رأيتموه من عذابهم ، هل قدرنا أنْ نُجازيهم عَمَّا فعلوه بكم من استهزاء في الدنيا؟ وعلى كُلٍّ فإن استهزاءهم بكم في الدنيا موقوت الأجل ، أما ضِحْككم الآن عليهم فأمر أبديّ لا نهايةَ له . فأيُّ الفريقين خَيْر إذن؟

فإياكم أنْ تغرّكم ظواهر الأشياء ، أو تخدعكم بَرقات النعيم وانظروا إلى الغايات والنهايات؛ لذلك يقول سبحانه :

{ المال والبنون زِينَةُ الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً } [الكهف : 46] .

وفي سورة الأعراف لقطة أخرى من مواقف القيامة ، حيث يقول أصحاب الأعراف لأهل النار : { مَآ أغنى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ } [الأعراف : 48] ثم يلتفتون إلى المؤمنين في الجنة : { أهؤلاء الذين أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ الله بِرَحْمَةٍ } [الأعراف : 49] فأين أنتم منهم الآن؟

قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا (75)

قوله : (قل) أمر لرسوله صلى الله عليه وسلم : { مَن كَانَ فِي الضلالة فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرحمن مَدّاً } [مريم : 75] أي : يُمهله ويستدرجه؛ لأنه رَبٌّ للجميع ، وبحكم ربوبيته يعطي المؤمن والكافر ، وكما يعين المؤمن بالنصر ، كذلك يعين الكافر بمراده ، كما في قوله تعالى : { فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ الله مَرَضاً } [البقرة : 10] .

لأنهم ارتاحوا إليه ، ورَضُوا به ، وطلبوا منه المزيد .

{ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرحمن } [مريم : 75] أي : في الدنيا وزينتها ، كما قال : { مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِن نَّصِيبٍ } [الشورى : 20] .

وفي موضع آخر يقول : إياك أنْ تعجبك أموالهم وأولادهم؛ لأنها فتنة لهم ، يُعذِّبهم بها في الدنيا بالسَّعْي في جمع الأموال وتربية الأولاد ، ثم الحسرة على فقدهما ، ثم يُعذِّبهم بسببها في الآخرة : { فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ الله لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الحياة الدنيا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ } [التوبة : 55] .

ثم يقول تعالى : { حتى إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا العذاب وَإِمَّا الساعة } [مريم : 75] .

العذاب : عذاب الدنيا . أي : بنصر المؤمنين على الكافرين وإهانتهم وإذلالهم { وَإِمَّا الساعة } [مريم : 75] أي : ما ينتظرهم من عذابها ، وعند ذلك : { فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضْعَفُ جُنداً } [مريم : 75] لكنه عِلْم لا يُجدي ، فقد فات أوانه ، فالموقف في الآخرة حيث لا استئناف للإيمان ، فالنكاية هنا أعظم والحسرة أشدّ .

لكن ، ما من مناسبة ذكر الجند هنا والكلام عن الآخرة؟ وماذا يُغني الجند في مثل هذا اليوم؟

قالوا : هذا تهكُّم بهم كما في قوله تعالى : { احشروا الذين ظَلَمُواْ وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ الله فاهدوهم إلى صِرَاطِ الجحيم } [الصافات : 2223] ، فهل أَخْذهم إلى النار هداية؟

ثم يلتفت إليهم : { مَا لَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ * بَلْ هُمُ اليوم مُسْتَسْلِمُونَ * وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ * قالوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ اليمين * قَالُواْ بَلْ لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْماً طَاغِينَ } [الصافات : 2530] .

أي : لم نُجبركم على شيء ، مجرد أنْ أشَرْنَا لكم أطعتمونا .

لذلك ، سيقولون في موضع آخر : { رَبَّنَآ أَرِنَا الذين أَضَلاَّنَا مِنَ الجن والإنس نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأسفلين } [فصلت : 29] .

وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا (76)

قلنا : إن للهداية معنيَيْن : هداية بمعنى الدلالة على الخير وبيان طريقه ، وهداية المعونة والتوفيق للإيمان ، فمَنْ صدّق في الأُولى أعانه الله على الأخرى ، ومن ذلك قوله تعالى : { والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ } [محمد : 17] .

وقوله تعالى : { والباقيات الصالحات خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَّرَدّاً } [مريم : 76] الباقيات الصالحات : هي الأعمال الصالحة التي كانت منك خالصةً لوجه الله : { خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَّرَدّاً } [مريم : 76] هذه هي الغاية التي ننتظرها ونسعى إليها ، فساعةَ أنْ تقارن السُّبل الشاقة فاقْرِنها بالغاية المسعدة ، فيهون عليك عناء العبادة ومشقّة التكليف .

وقوله : { وَخَيْرٌ مَّرَدّاً } [مريم : 76] أي : مرجعاً تُرَدُّ إليه .

ثم يقول الحق سبحانه : { أَفَرَأَيْتَ الذي كَفَرَ }

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (77)

نلاحظ هنا أن القرآن لم يذكر لنا هذا الشخص الذي قال هذه المقولة ولم يُعيِّنه ، وإنْ كان معلوماً لرسول الله الذي خُوطب بهذا الكلام؛ وذلك لأن هذه المقولة يمكن أنْ تُقال في زماننا وفي كل زمان ، إذنْ : فليس المهم الشخص بل القول نفسه . وقد أخبر عنه أنه أمية بن خلف ، أو العاصي بن وائل السَّهْمي .

وقوله تعالى : { أَفَرَأَيْتَ } [مريم : 77] يعني : ألم تَرَ هذا ، كأنه يستدلّ بالذي رآه على هذه القضية { الذي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً } [مريم : 77] ويروي أنه قال : إنْ كان هناك بَعْثٌ فسوف أكون في الآخرة كما كنت في الدنيا ، صاحبَ مال وولد .

كما قال صاحب الجنة لأخيه : { وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنْقَلَباً } [الكهف : 36] .

والإنسان لا يعتزّ إلا بما هو ذاتيّ فيه ، وليس له في ذاتيته شيء ، وكذلك لا يعتز بنعمة لا يقدر على صيانتها ، ولا يصون النعمة إلا المنعِم الوهاب سبحانه إذن : فَلِمَ الاغترار بها؟

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْراً فَمَن يَأْتِيكُمْ بِمَآءٍ مَّعِينٍ } [الملك : 30] .

ويقول : { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ الله وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الكافرين مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ } [الملك : 28] .

ثم يردُّ الحق تبارك وتعالى على هذه المقولة الكاذبة : { أَطَّلَعَ الغيب أَمِ اتخذ }

أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (78)

يعني : أَقُلْتَ هذا القول مُتطوّعاً به من عند نفسك ، أم اطلعتَ على الغيب ، فعرفتَ منه ما سيكون لك في الآخرة : { أَمِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً } [مريم : 78] أي : أعطاه الله تعالى عهداً بأن يكون له في الآخرة كما له في الدنيا ، فإمّا هذه وإمّا هذه ، فأيُّهما توافرتْ لك حتى تجزم بهذا القول؟

وهذا المعنى واضح في قوله تعالى : { أَفَنَجْعَلُ المسلمين كالمجرمين * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إلى يَوْمِ القيامة إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ } [القلم : 3539] .

والمراد : مَنْ يضمن لهم هذا الذي يدَّعونه؟

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أدخل على مؤمن سروراً فقد أخذ العهد من الله » ، « ومَنْ صلى الصلوات بفرائضها وفي وقتها فقد أخذ العهد من الله » .

فمَنْ هؤلاء الذين لهم عَهْد من الله تعالى ألاَّ يدخلهم النار؟

والعَهْد : الشيء الموثّق بين اثنين ، والعهد إنْ كان بين الناس فهو عَهْد غير موثوق به ، فقد ينفذ أو لا ينفذ؛ لأن الإنسانَ أبنُ أغيار ، ويمكن أنْ تحُول الظروف بينه وبين ما وعد به ، أما إنْ كان العهد من الله تعالى المالك لكل شيء ، وليست هناك قوة تبطل إرادته تعالى ، فهو العَهْد الحقّ الموثوق به ، والذي لا يتخلف أبداً .

فحين تعاهد ربك على الإيمان فإنك لا تضمن ما يطرأ عليك من الأغيار ، أما حين يعاهدك ربك على الجزاء ، فثِقْ أنه نافذ لا يُخلَف .

لذلك ، فالنبي صلى الله عليه وسلم لما أراد أن ينصحَ الإمام علياً رضي الله عنه قال : « أدعو الله أن يجعل لك عهداً في قلوب المؤمنين » .

أي : حُباً ومودة في قلوبهم ، وما دام أن الله أعطاه هذا العهد ، فهو نافذ مُحقَّق .

واختار هنا اسم الرحمن لما فيه من صفة الرحمانية التي تناسب المعونة على الوفاء .

ثم يقول الحق سبحانه : { كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ }

كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (79)

كلا : أداة لنفي ما قيل قبلها وإبطاله ، أي : قوله : { لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً * أَطَّلَعَ الغيب أَمِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً } [مريم : 7778] ثم يأتي ما بعد كلا حُجة ، ودليلاً على النفي .

وقد ورد هذا الحرف (كَلاَّ) في قوله تعالى : { فَأَمَّا الإنسان إِذَا مَا ابتلاه رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ ربي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّآ إِذَا مَا ابتلاه فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ ربي أَهَانَنِ * كَلاَّ } [الفجر : 1517] .

فالحق تبارك وتعالى ينفي الكلام السابق؛ لأن النعمة وسَعَة الرزق ليست دليلَ إكرام ، كما أن الفقر وضِيق الرزق ليس دليلَ إهانةٍ ، فكلاهما ابتلاء واختبار كما أوضحتْ الآيات ، فإتيان النعمة في حَدِّ ذاته ليس هو النعمة إنما النعمة هي النجاح في الابتلاء في الحالتين .

فقد يعطيك الله المال فلا تصرفه فيما أحلَّ الله ، فيكون لك فتنة وتخفق في الاختبار ، إذن : لم يكرمك بالمال ، بل جعله لك وسيلة إغواء وإغراء ، فبيدك يتحوَّل المال إلى نعمة أو نقمة ، ويكون إكراماً أو إهانة .

وقوله تعالى :

{ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ العذاب مَدّاً } [مريم : 79] .

لقد جاءت كلمة (سَنَكْتُبُ) حتى لا يؤاخذه سبحانه وتعالى يوم القيامة بما يقول هو إنه فعله ، ولكن بما كتب عليه وليقرأه بنفسه ، وليكون حجة عليه ، كأن الكتابة ليست كما نظن فقط ، ولكنها تسجيل للصوت وللأنفاس ، ويأتي يوم القيامة ليجد كل إنسان ما فعله مسطوراً .

يقول تعالى : { اقرأ كتابك كفى بِنَفْسِكَ اليوم عَلَيْكَ حَسِيباً } [الإسراء : 14] وهذا القول يدل على أنه ساعة يرى الإنسان ما كتب في الكتاب سيعرف أنه منه ، وإذا كنا نحن الآن نسجل على خصومنا أنفاسهم وكلماتهم ، أتستبعد على من علمنا ذلك أن يسجل الأنفاس والأصوات والحركات بحيث إذا قرأها الإنسان ورآها لا يستطيع أن يكابر فيها أو ينكرها .

وقوله سبحانه : { وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ العذاب مَدّاً } [مريم : 79] أي : يزيده في العذاب ، لأن المد هو أن تزيد الشيء ، ولكن مرة تزيد في الشيء من ذاته ، ومرة تزيد عليه من غيره ، قد تأتي بخيط وتفرده إلى آخره ، وقد تصله بخيط آخر ، فتكون مددته من غيره ، فالله يزيده في العذاب .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ }

وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (80)

أي : في حين ينتظر أنْ نزيدَه ونعطيه سنأخذ منه { وَنَرِثُهُ } [مريم : 80] أي : نأخذ منه كما في قوله تعالى : { إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأرض وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ } [مريم : 40] .

وقوله : { وَكُنَّا نَحْنُ الوارثين } [القصص : 58] .

فكأن قوله تعالى : { وَنَرِثُهُ } [مريم : 80] تقابل قوله : { لأُوتَيَنَّ مَالاً } [مريم : 77] وقوله تعالى : { وَيَأْتِينَا فَرْداً } [مريم : 80] تقابل { وَوَلَداً } [مريم : 77] ، فسيأتينا من القيامة فَرْداً ، ليس معه من أولاده أحد يدفع عنه .

ثم يقول الحق سبحانه : { واتخذوا مِن دُونِ الله }

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (81)

آلهة : جمع إله ، وهو المعبود و الرب الذي أوجدك من عَدَم ، وأمدّك من عُدْم ، وتولاّك بالتربية ، فعطاء الألوهية تكليف وعبادة ، وعطاء الربوبية نِعَم وهِبَات . إذن : فمَنْ أَوْلى بعبادتك ومَنْ أحقّ بطاعتك؟

هؤلاء الذين اتخذوا من دون الله آلهة من شمس ، أو قمر ، أو حجر ، أو شجر ، بماذا تعبَّدتكم هذه الآلهة؟ بماذا أمرتكم؟ وعن أي شيء نهتْكُم؟ وبماذا أنعمتْ عليك؟ وأين كانت وأنت جنين في بطن أمك؟

إن أباك الذي رباك وأنت صغير وتكفَّل بكل حاجياتك ، وأمك التي حملتْك في بطنها وسهرتْ على راحتك ، هما أوْلَى الناس بطاعتك ، ولا ينبغي أنْ تُقدِّم على أمرهما أمراً . أما أنْ يستحوذَ عليك آخرون ، ويكون لهم طاعتك وولاؤك دون أبويْك فهذا لا يجوز وأنت في رَيْعان شبابك

وأَوْج قوتك .

لذلك ، من أصول التربية أنْ يُربّي الآباء أبناءهم على السمع والطاعة لهم ، ونُحذِّرهم من طاعة الآخرين خاصة غير المؤتمنين على التربية ، من العامة في الشارع ، أو أصدقاء السُّوء الذين يجرُّون الأبناء على مَا لا تُحمد عُقباه .

والآن نُحذّر أبناءنا من السَّيْر مع شخص مجهول ، أو قبول طعام ، أو شراب منه . وما نراه في عصرنا الحاضر يُغني عن الإطالة في هذه المسالة . هذه إذن مناعة يجب أنْ تُعطَى للأبناء ، كالمناعة ضد الأمراض تماماً .

وهكذا الحالُ فيمَنْ اتخذوا من دون الله آلهة وارتاحوا إلى إله لا تكليفَ له ولا مشقةَ في عبادته ، إله يتركهم يعبدونه كما يحلو لهم ، إنهم أخذوا عطاء الربوبية فتمتّعوا بنعمة الله ، وتركوا عطاء الألوهية فلم يعبدوه سبحانه وتعالى .

ولما كان الإنسان متديناً بطبعه فقد اختار هؤلاء ديناً على وَفْق أهوائهم وشهواتهم ، واتخذوا آلهة لا أمرَ لها ولا تكليفَ . ومن ذلك ما نراه من كثير من المثقفين الذين يأخذون دين الله على هواهم ، ويطيعون أعداء الله في قضايا بعيدة كل البُعْد عن دين الله ، وهم أصحاب ثقافة وعقول ناضجة ، ومع ذلك يُقنعون أنفسهم أنهم على دين وأنهم على الحق .

ثم يقول تعالى : { لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزّاً } [مريم : 81] العز : هو الغَلَبة والامتناع من الغير ، بحيث لا ينال أحد منه شيئاً ، يقولون : فلان عزيز أي : لا يُغلب .

ولنا أن نسأل : ما العزة في عبادة هذه الآلهة؟ وما الذي سيعود عليكم من عبادتها؟ لذلك يردُّ عليهم الحق تبارك وتعالى : { كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ }

كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (82)

كلا : تنفي أن يكون لهؤلاء عِزٌّ في عبادة ما دون الله ، بل { كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ } [مريم : 82] .

هذه الآلهة نفسها ستكفر بعبادتهم ، وتنكر أن تكون هي آلهة من دون الله ، وأكثر من ذلك { وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً } [مريم : 82] أي : في حين اتخاذها الكفار آلهة من دون الله وطلبوا العزة في عبادتها تنقلب عليهم ، وتكون ضِدّاً لهم وخَصْماً .

والضد : هو العدو المخالف لك ، والذي يحاول أنْ ينكّل بك . وفي القرآن الكريم حوارات كثيرة بين هذه المعبودات ومَنْ عبدوها ، فمثلاً الذين عبدوا الملائكة واتخذوها آلهةً من دون الله : يسأل الله الملائكة : { أهؤلاء إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ } ؟ [سبأ : 40] فيُجيبون : { سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ الجن أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ } [سبأ : 41] .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : { إِذْ تَبَرَّأَ الذين اتبعوا مِنَ الذين اتبعوا } [البقرة : 166] .

لذلك يقول الحق تبارك وتعالى عن هؤلاء : { وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ الله مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إلى يَوْمِ القيامة وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَافِلُونَ } [الأحقاف : 5] .

إذن : ما ظنَّه الكفار عِزّاً ومَنَعة صار عليهم ضِدّاً وعداوة ، كالفتاة التي قالتْ لأبيها : يا أبتِ ما حملك على أنْ تقبلني مخطوبة لابن فلان؟ أي : ماذا أعجبك فيه؟ قال : يا بُنيّتي إنهم أهل عِزٍّ وأهل جاهٍ وشرف وأهل قوة ومنعة ، فقالت : يا أبتِ لقد قدَّرْتَ أن يكون بيني وبين ابنهم وُدٌّ ، ولم تُقدِّر أن يكون بيني وبينه كراهية ، فإن حدثتْ الكراهية سيكون ما قلته ضدك ، وستشْقى أنت بهذا العزّ وبهذا الجاه .

ومن الناس من اتخذ من المال إلهاً ، على حَدِّ قَوْل الشاعر :

وَللمالِ قَوْمٌ إنْ بَدا المالُ قَائِلاً ... أنَا المالُ قالَ القومُ إيَّاكَ نعبُدُ

وهؤلاء الذين يعبدون المال ، ويرَوْن فيه القوة ، ويعتزُّون به لا يدرون أنه سيكون وَبَالاً ونَكالاً عليهم يوم القيامة : { يَوْمَ يحمى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فتكوى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هذا مَا كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ } [التوبة : 35] .

وهكذا ، كلما زاد حرصه على المال زاد كَيُّه . وتلحظ في الآية الترتيب الطبيعي لموقف السؤال حين يقف السائلُ الفقير أمام الغني اللئيم ، فأوَّل ما يطالع السائل يتغيّر وجهه ، ثم يُشيح عنه بوجهه ، فيعطيه جَنْبه ، ثم يُدير له ظهره مُعْرِضاً عنه ، وبنفسِ هذا الترتيب يكون العذاب ويكون الكيُّ والعياذ بالله . وينقلب المال الذي ظَنّ العزة فيه إلى نكَالٍ ووبَالٍ .

يقول تعالى : { وَإِذَا حُشِرَ الناس كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ } [الأحقاف : 6] .

حتى الجوارح التي تمتعتْ بمعصيتك في الدنيا ستشهد عليك : { يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } [النور : 24] .

ذلك لأنك غفلتَ عمَّنْ كان يجب ألاَّ تغفل عنه ، وذكرت مَنْ كان يجب ألاَّ تذكره ، فالإله الحق الذي غفلْتَ عنه يطلبك الآن ويحاسبك ، والإله الباطل الذي اتخذته يتخلى عنك ويُسلمِك للهلاك .

ثم يقول الحق سبحانه : { أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا }

أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (83)

الأزُّ : هو الهزُّ الشديد بعنف أي : تُزعجهم وتُهيجهم ، ومثْلُه النزغ في قوله سبحانه وتعالى : { وَإِماَّ يَنَزَغَنَّكَ مِنَ الشيطان نَزْغٌ فاستعذ بالله } [الأعراف : 200] .

والأزّ أو النَّزْغ يكون بالوسوسة والتسويل ليهيجه على المعصية والشر ، كما يأتي هذا المعنى أيضاً بلفظ الطائف ، كما في قوله تبارك وتعالى : { إِنَّ الذين اتقوا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشيطان تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ } [الأعراف : 201] .

وهذه الآية : { أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا الشياطين } [مريم : 83] تثير سؤالاً : إذا كان الحق تبارك وتعالى يكره ما تفعله الشياطين بالإنسان المؤمن أو الكافر ، فلماذا أرسلهم الله عليه؟

أرسل الله الشياطين على الإنسان لمهمة يؤدونها ، هذه المهمة هي الابتلاء والاختبار ، كما قال تعالى : { أَحَسِبَ الناس أَن يتركوا أَن يقولوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ } [العنكبوت : 2] .

إذن : فهم يُؤدُّون مهمتهم التي خُلِقوا من أجلها ، فيقفوا للمؤمن ليصرفوه عن الإيمان فيُمحص الله المؤمنين بذلك ، ويُظهر صلابة مَنْ يثبت أمام كيد الشيطان .

وقلنا : إن للشيطان تاريخاً مع الإنسان ، بداية من آدم عليه السلام حين أَبَى أن يطيع أمر الله له بالسجود لآدم ، فطرده الله تعالى وأبعده من رحمته ، فأراد الشيطان أنْ ينتقمَ من ذرية آدم بسبب ما ناله من آدم ، فقال : { قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } [ص : 82] .

وقال : { قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المستقيم } [الأعراف : 16] .

وهكذا أعلن عن منهجه وطريقته ، فهو يتربص لأصحاب الاستقامة ، أما أصحاب الطريق الأعوج فليسوا في حاجة إلى إضلاله وغوايته .

لذلك نراه يتهدد المؤمنين : { ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ } [الأعراف : 17] .

ومعلوم أن الجهات ست ، يأتي منها الشيطان إلا فوق وتحت؛ لأنهما مرتبطتان بعزّ الألوهية من أعلى ، وذُلّ العبودية من أسفل ، حين يرفع العبد يديه لله ضارعاً وحين يخِرُّ لله ساجداً؛ لذلك أُغلِقَتْ دونه هاتان الجهتان؛ لأنهما جهتا طاعة وعبادة وهو لا يعمل إلا في الغفلة ينتهزها من الإنسان .

والمتأمل في مسألة الشيطان يجد أن هذه المعركة وهذا الصراع ليس بين الشيطان وربه تبارك وتعالى ، بل بين الشيطان والإنسان؛ لأنه حين قال لربه تعالى : { فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ } [ص : 82] التزم الأدب مع الله .

فالغواية ليست مهارة مني ، ولكن إغوايهم بعزتك عن خَلْقك ، وتَرْكِكَ لهم الخيارَ ليؤمن مَنْ يؤمن ، ويكفر مَنْ يكفر ، هذه هي النافذة التي أنفذ منها إليهم ، بدليل أنه لا سلطانَ لي على أهلك وأوليائك الذين تستخلصهم وتصطفيهم : { إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين } [ص : 83] .

وهنا أيضاً يثار سؤال : إذا كان الشيطان لا يقعد إلا على الصراط المستقيم لِيُضلَّ أهله ، فلماذا يتعرَّض للكافر؟

نقول : لأن الكافر بطبعه وفطرته يميل إلى الإيمان وإلى الصراط المستقيم ، وها هو الكون بآياته أمامه يتأمله ، فربما قاده التأمل في كَوْن الله إلى الإيمان بالله؛ لذلك يقعد له الشيطان على هذا المسلْك مسلْك الفكر والتأمل لِيحُول بينه وبين الإيمان بالخالق عز وجل .

فالشيطان ينزغك ، إما ليحرك فيك شهوة ، أو ليُنسِيك طاعة ، كما قال تعالى : { وَمَآ أَنْسَانِيهُ إِلاَّ الشيطان } [الكهف : 63] .

وقال : { وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشيطان فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذكرى مَعَ القوم الظالمين } [الأنعام : 68] .

وكثير من الإخوان يسألون : لماذا في الصلاة بالذات تُلِحُّ علينا مشاكل الحياة ومشاغل الدنيا؟

نقول : هذه ظاهرة صحية في الإيمان ، لأن الشيطان لولا علمه بأهمية الصلاة ، وأنها ستُقبل منك ويُغفر لك بها الذنوب ما أفسدها عليك ، لكن مشكلتنا الحقيقية أننا إذا أعطانا الشيطان طرفَ الخيط نتبعه ونغفل عن قَوْل ربنا تبارك وتعالى :

{ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشيطان نَزْغٌ فاستعذ بالله } [فصلت : 36] .

فما عليك ساعةَ أنْ تشعر أنك ستخرج عن خطِّ العبادة والإقامة بين يدي الله إلاَّ أنْ تقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، حتى وإنْ كنت تقرأ القرآن ، لك أنْ تقطعَ القراءة وتستعيذ بالله منه ، وساعةَ أن يعلم منك الانتباه لكيده وألاعيبه مرة بعد أخرى سينصرف عنك ويأس من الإيقاع بك .

وسبق أن ضربنا لذلك مثلاً باللص؛ لأنه لا يحوم حول البيت الخرب ، إنما يحوم حول البيت العامر ، فإذا ما اقترب منه تنبّه صاحب البيت وزجره ، فإذا به يلوذ بالفرار ، وربما قال اللص في نفسه : لعل صاحب البيت صاح مصادفة فيعاود مرة أخرى ، لكن صاحب الدار يقظٌ منتبه ، وعندها يفرُّ ولا يعود مرة أخرى .

ويجب أن نعلم أن من حيل الشيطان ومكائده أنه إذا عَزَّ عليه إغواؤك في باب ، أتاك من باب آخر؛ لأنه يعلم جيداً أن للناس مفاتيح ، ولكل منا نقطة ضعف يُؤتَى من ناحيتها ، فمن الناس مَنْ لا تستميله بقناطير الذهب ، إنما تستميله بكلمة مدح وثناء . وهذا اللعين لديه (طفاشات) مختلفة باختلاف الشخصيات .

لذلك من السهل عليك أنْ تُمَيِّز بين المعصية إنْ كانت من النفس أم من الشيطان : النفس تقف بك أمام شهوة واحدة تريدها بعينها ولا تقبل سواها ، فإنْ حاولتَ زحزحتها إلى شهوة أخرى أبتْ إلا ما تريد ، أما الشيطان فإنْ عزَّتْ عليك معصية دعاك إلى غيرها ، المهم أن يُوقِع بك .

فالحق تبارك وتعالى يُحذرنا الشيطان؛ لأنه يحارب في الإنسان فطرته الإيمانية التي تُلح عليه بأن للكون خالقاً قادراً ، والدليل على الوجود الإلهي دليل فطري لا يحتاج إلى فلسفة ، كما قال العربي قديماً : البعرة تدل على البعير ، والقدم تدل على المسير . . سماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير؟!

وكذلك ، فكل صاحب صنعة عالم بصنعته وخبير بدقائقها ومواطن العطب فيها ، فما بالك بالخالق سبحانه : { أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللطيف الخبير } [الملك : 14] .

إذن : فالأدلة الإيمانية أدلة فطرية يشترك فيها الفيلسوف وراعي الشاة ، بل ربما جاءت الفلسفة فعقَّدتْ الأدلة .

ولنا وقفة مع قوله تعالى : { أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا الشياطين } [مريم : 83] ومعلوم أن عمل الشيطان عمل مستتر ، كما قال تعالى : { إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ } [الأعراف : 27] .

فكيف يخاطب الحق تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم في هذه المسألة بقوله : { أَلَمْ تَرَ } [مريم : 83] وهي مسألة لا يراها الإنسان؟

نقول : { أَلَمْ تَرَ } [مريم : 83] بمعنى ألم تعلم؟ فعدَل عن العلم إلى الرؤيا ، كما في قوله تعالى : { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفيل } [الفيل : 1] والنبي صلى الله عليه وسلم لم يَرَ هذه الحادثة ، فكيف يخاطبه ربه عنها بقوله : { أَلَمْ تَرَ } [الفيل : 1] ؟

ذلك ، ليدلك على أن إخبار الله لك أصحُّ من إخبار عينك لك؛ لأن رؤية العين بما تخدعك ، أمّا إعلام الله فهو صادق لا يخدعك أبداً . فعلمك من إخبار الله لك أَوْلَى وأوثق من علمك بحواسِّك .

والشياطين : جمعه شيطان ، وهو العاصي من الجنّ ، والجن خَلْق مقابل للإنسان قال الله عنهم : { وَأَنَّا مِنَّا الصالحون وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَداً } [الجن : 11] فَمنْ هم دون الصالحين ، هم الشياطين .

ثم يقول الحق سبحانه : { فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ }

فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (84)

تمنّى النبي صلى الله عليه وسلم لو أن الله أراحه من رؤوس الكفر وأعداء الدعوة ، فقال تعالى : { فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً } [مريم : 84] فالله يريد أنْ تطول أعمارهم ، وتسوء فعالهم ، وتكثر ذنوبهم ، فالكتبة يعدُّون عليهم ويُحْصُون ذنوبهم .

ومعنى : { إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً } [مريم : 84] أنها مسألة ستنتهي؛ لأن كل ما يُعَدّ ينتهي ، إنما الشيء الذي لا يُحصَى ولا يَعُدُّ فلا ينتهي ، كما في قول الحق سبحانه وتعالى : { وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ الله لاَ تُحْصُوهَا } [إبراهيم : 34] .

لأن نِعَم الله لا تُحصَى ولا تُعَدُّ ولا تنتهي؛ لذلك سُبِقَتْ بإن التي تفيد الشكِّ ، فهي مسألة لا يجرؤ أحد عليها؛ لأن : { مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ الله بَاقٍ } [النحل : 96] .

وها نحن نرى علم الإحصاء وما وصل إليه من تقدّم حتى أصبح له جامعات وعلماء متخصصون أدخلوا الإحصاء في كل شيء ، لكن لم يفكر أحد منهم أنْ يُحصِي نِعَم الله في كَوْنه ، لماذا؟ لأن

الإقبال على العَدِّ معناه ظن أنك تستطيع أنْ تنتهي ، وهم يعلمون تماماً أنهم مهما عَدُّوا ومهما أَحْصَوا فلن يصِلُّوا إلى نهاية .

إذن : { نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً } [مريم : 84] نُحصي سيئاتهم ونَعدُّ ذنوبهم قبل أن تنتهي أعمارهم ، وكلما طالت الأعمار كثرتْ الذنوب ، وكل ما ينتهي بالعدد ينتهي بالمُدد .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : { يَوْمَ نَحْشُرُ المتقين }

يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (85)

الحق تبارك وتعالى أعطانا صوراً متعددة ومشاهد مختلفة ليوم القيامة ، فأعطانا صورة للمعبود الباطل ، وللعابدين للباطل ، وما حدث بين الطرفين من جدال ونقاش ، وأعطانا صورة لمن تعاونوا على الشر ، ولمَنْ تعاونوا على الخير . وهذه صورة أخرى تعرض للمتقين في ناحية ، والمجرمين في ناحية ، فما هي صورة المتقين؟

نحشر : أي : نجمع ، والوفد هم الجماعة ترِدُ على الملِك لأخْذ عطاياه ، جمعها وفود ، والواحد وافد . وهذه حال المتقين حين يجمعهم الله يوم القيامة وَفْداً لأخذ عطايا ربهم تبارك وتعالى . ولا تظن أنهم يُحشَرون ما شين مثلاً ، لا ، بل كل مؤمن تقي يركب ناقة لم يُرَ مثل حُسْنها ، رَحْلها من ذهب ، وأزمّتها من الزبرجد .

وفي المقابل يقول الحق تبارك وتعالى : { وَنَسُوقُ المجرمين إلى جَهَنَّمَ }

وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا (86)

نسوق : والسائق يكون من الخلف ينهرهم ويزجرهم ، كما جاء في قوله تعالى : { يَوْمَ يُدَعُّونَ إلى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا } [الطور : 13] ولم يقل مثلاً : نقودهم؛ لأن القائد يكون من الأمام ، وربما غافله أحدهم وشرد منه .

وقوله تعالى : { وِرْداً } [مريم : 86] الوِرْد : هو الذَّهَاب للماء لطلب الريّ ، أما النار فمحلُّ اللظى والشُّواظ واللهب والحميم . فلماذا سُمِّي إتيان النار بحرّها وِرْداً؟

وهذا تهكُّم بهم ، كما جاء في آيات أخرى : { وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كالمهل يَشْوِي الوجوه } [الكهف : 29] .

وأنت ساعةَ تسمع (يغاثوا) تنتظر الخير وتأمل الرحمة ، لكن هؤلاء يُغاثون بماء كالمهل يشوي الوجوه .

وكذلك في قوله تعالى : { ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم } [الدخان : 49] في توبيخ عُتَاة الكفر والإجرام . ومنه قوله تعالى : { فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [لقمان : 7] والبشرى لا تكون إلا

بشيء . سَار .
إذن : فقوله تعالى : { وَنَسُوقُ المجرمين إلى جَهَنَّمَ وِرْداً } [مريم : 86] تهكُّم ، كما تقول للولد المهمل الذي أخفق في الامتحان : مبروك عليك السقوط .
ثم يقول تعالى : { لاَّ يَمْلِكُونَ الشفاعة إِلاَّ مَنِ اتخذ }

لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (87)

الكافر حين يباشر العذاب يطمع أول ما يطمع في أن يشفعَ له مبعوده ، ويُخرجه ممَّا هو فيه لكِنْ هيهات ، ألم تقرأ قول الحق تبارك وتعالى : { وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ الله مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إلى يَوْمِ القيامة وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ الناس كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ } [الأحقاف : 56] .
لذلك يقول تعالى عن هؤلاء يوم القيامة : { لاَّ يَمْلِكُونَ الشفاعة } [مريم : 87] لأن الشفاعة لا تكون إلا لمن أخذ الإذن بها { إِلاَّ مَنِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً } [مريم : 87] .
والعهد الذي تأخذه على الله بالشفاعة أنْ تُقدِّم من الحسنات ما يسع تكاليفك أنت ، ثم تزيد عليها ما يؤهلُك لأن تشفع للآخرين ، والخير لا يضيع عند الله ، فما زاد عن التكليف فهو في رصيدك في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ، ولا يهمل مثقال ذرة .
وعلى المؤمن مهما كان مُسْرفاً على نفسه ساعةَ يرى إنساناً مُقبلاً على الله مُستزيداً من الطاعات أنْ يدعوَ له بالمزيد ، وأن يفرح به؛ لأن فائض طاعاته لعله يعود عليك ، ولعلك تحتاج شفاعته في يوم من الأيام . أما مَنْ يحلو لهم الاستهزاء والسخرية من أهل الطاعات ، كما أخبر الحق تبارك وتعالى :
{ إِنَّ الذين أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ الذين آمَنُواْ يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انقلبوا إلى أَهْلِهِمُ انقلبوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قالوا إِنَّ هؤلاء لَضَالُّونَ } [المطففين : 2932] .
فكيف ستقابل أهل الطاعات ، وتطمع في شفاعتهم بعدما كان منك؟ فإنْ لم تكُنْ طائعاً فلا أقلَّ من أنْ تحب الطائعين وتتمسح بهم ، فهذه في حَدِّ ذاتها حسنةٌ لك ترجو نفعها يوم القيامة .
وما أشبه الشفاعة في الآخرة بما حدث بيننا من شفاعة في الدنيا ، فحين يستعصي عليك قضاءُ مصلحة يقولون لك : اذهب إلى فلان وسوف يقضيها لك . وفعلاً يذهب معك فلان هذا ، ويقضي لك حاجتك ، فلماذا قُضِيتْ على يديه هو؟ لا بُد أن له عند صاحب الحاجة هذه أياديَ لا يستطيع معها أنْ يرد له طلباً .
إذن : لا بُدَّ لمن يشفع أن يكون له رصيد من الطاعات يسمح له بالشفاعة ، وإذا تأملت لوجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم أول مَنْ قدّم رصيداً إيمانياً وسع تكليفه وتكليف أمته ، ألم يخبر عنه ربه بقوله : { يُؤْمِنُ بالله وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ } [التوبة : 61] لذلك وجبت له

الشفاعة ، وأُذِن له فيها .

والحق تبارك وتعالى لا يغفل الرصيد في خَلقه أبداً ، فكل ما قدَّمت من طاعات فوق ما كلَّفك الله به مُدَّخَر لك ، حتى إن الإنسان إذا اتُّهِم ظلماً ، وعُوقِب على عمل لم يرتكبه فإن الله يدَّخرها له ويستر عليه ما ارتكبه فعلاً فلا يُعاقب عليه .

فالعهد إذن في قوله تعالى : { إِلاَّ مَنِ اتخذ عِندَ الرحمن عَهْداً } [مريم : 87] أن تدخل مع ربك في مقام الإحسان ، ولا يدخل هذا المقام إلا مَنْ أدَّى ما عليه من تكليف ، وإلا فكيف تكون مُحسِناً وأنت مُقصِّر في مقام الإيمان؟

وأقرأ إنْ شئت قول الله تعالى : { إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَآ آتَاهُمْ رَبُّهُمْ } [الذاريات : 1516] ما العلة؟ { إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُواْ قَلِيلاً مِّن الليل مَا يَهْجَعُونَ * وبالأسحار هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وفي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ والمحروم } [الذاريات : 1619] .

فالمحسن مَنْ يُؤدِّي من الطاعات فوق ما فرض الله عليه ، ومن جنس ما فرض ، فالله تعالى لم يُكلِّفنا بقيام الليل والاستغفار بالأسحار ، ولم يفرض علينا صدقة للسائل والمحروم ، ولا بُدَّ أنْ نُفرِّق هنا بين (حق) و (حق معلوم) هنا قال (حق) فقط؛ لأن الكلام عن الصدقة أما الحق المعلوم ففي الزكاة .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَقَالُواْ اتخذ الرحمن }

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (88)

هذا الكلام منهم عبث وافتراء؛ لأنه متى كان اتخاذ هذا الولد؟ في أيِّ قَرْن من القرون من ميلاد المسيح عليه السلام؟ إن هذه المقولة لم تأْتِ إلا بعد ثلاثمائة سنة من ميلاد المسيح ، فما الموقف قبلها؟ وما الذي زاد في مُلْك الله بعد أنْ جاء هذا الولد؟

الشمس هي الشمس ، والنجوم هي النجوم ، والهواء هو الهواء ، إذن : موضوعية اتخاذ الولد هذه عبث؛ لأنه لم يَزِدْ شيء في المُلْك على يد هذا الولد ، ولم تكن عند الله تعالى صفة مُعطلة اكتملتْ بمجيء الولد؛ لأن الصفات الكمالية لله تعالى موجودة قبل أنْ يخلق أيَّ شيء .

فهو سبحانه وتعالى خالق قبل أن يَخْلق ، ورازق قبل أنْ يَرزُق ، ومُحْيٍ قبل أنْ يحيى ، ومميت قبل أن يميت . فالبصفات أوجد هذه الأشياء ، فصفات الكمال فيه سبحانه موجودة قبل متعلقاتها .

وضربنا لذلك مثلاً ولله المثل الأعلى بالشاعر الذي قال قصيدة . وقلنا : إنه قال القصيدة لأنه شاعر بدايةً ، ولولا أنه شاعر ما قالها .

لذلك يرد الحق سبحانه على هذا الافتراء بقوله : { كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ

كَذِباً } [الكهف : 5] .
وهنا يرد عليهم بقوله : { لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً }

لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (89)

والإدّ : المتناهي في النكْر والفظاعة ، وهو الأمر المستبشع ، من : آده الأمر . أي : أثقله ولم يَقْو عليه ، ومنه قوله تعالى في آية الكرسي : { وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا } [البقرة : 255] أي : لا يثقل عليه .
لكن ، لماذا جعل هذا الأمر إدّاً ومنكراً فظيعا؟
قالوا : لأن اتخاذ الولد له مقاصد ، فالولد يُتخذ ليكون لك عِزْوة وقوة؛ أو ليكون امتداداً لكل بعد موتك ، والحق سبحانه وتعالى هو العزيز ، الذي لا يحتاج إلى أحد ، وهو الباقي الدائم الذي لا يحتاج إلى امتداد .
إذن : فاتخاذ الولد بالنسبة لله تعالى لا عِلةَ له ، كما أن اتخاذ الولد لله تعالى ينفي سواسية العبودية له سبحانه .
ولذلك يقول الحق سبحانه : { تَكَادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ }

تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (90)

أي : فلسنا نحن فحسْب الذين ننكر هذا الأمر ، بل الجماد غير المكلف أيضاً ينكره ، فالسموات بقوتها وعظمها تتفطر أي : تتشقق ، وتكاد تكون مِزَعاً لهوْلِ ما قيل ، تقرب أن تنفطر لكن لماذا لم تنفطر بالفعل؟ لم تنفطر؛ لأن الله يمسكها : { إِنَّ الله يُمْسِكُ السماوات والأرض أَن تَزُولاَ } [فاطر : 41] .
وفي الحديث القدسي : « قالت السماء يا رب ائذن لي أنْ أسقط كِسَفاً على ابن آدم ، فقد طَعِم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الأرض : يارب ائذن لي أن أخسف بابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الجبال : يا رب ائذن لي أن أخِرَّ على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك . وقالت البحار : يا ربّ ائذن لي أن أُغرق ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك . فقال لهم : دعوني وخلقي لو خلقتموهم لرحمتموهم ، فإن تابوا إليَّ فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم » .
فما العِلَّة في أن السماء تقرب أن تنفطر ، والأرض تقرب أن تنشق ، والجبال تقرب أن تخِرَّ؟

أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (91)

هذه هي العلة والحيثية التي من أجلها يكاد الكونُ كلُّه أن يتزلزل ، ويثور غاضباً لهذه المقولة الشنيعة .

ثم يعقب الحق سبحانه فيقول : { وَمَا يَنبَغِي للرحمن أَن يَتَّخِذَ } .

وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (92)

وعلينا هنا أنْ نُفرق بين نَفْي الحدث ونفي انبغاء الحدث ، فمثلاً في قول الحق تبارك وتعالى في شأن نبيه صلى الله عليه وسلم : { وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشعر وَمَا يَنبَغِي لَهُ } [يس : 69] فنفى عنه قَوْل الشعر ، ونفي عنه انبغاء ذلك له ، فقد يظن ظانٌّ أن النبي لا يستطيع أن يقول شعراً ، أو أن أدوات الشعر من اللغة ورِقَّة الإحساس غير متوافرة لديه صلى الله عليه وسلم ، لكن رسول الله قادر على قَوْل الشعر إنْ أراد ، فهو قادر على الحدث ، إلا أنه لا ينبغي له .

كذلك في قوله تعالى : { وَمَا يَنبَغِي للرحمن أَن يَتَّخِذَ وَلَداً } [مريم : 92] فإنْ أراد سبحانه وتعالى أن يكون له ولد لَكانَ ذلك ، كما جاء في قوله تبارك وتعالى : { قُلْ إِن كَانَ للرحمن وَلَدٌ فَأَنَاْ أَوَّلُ العابدين } [الزخرف : 81] .

أي : إن كان له سبحانه ولد فعلى العَيْن والرأس ، إنما هذه مسألة ما أرادها الحق سبحانه ، وما تنبغي له ، فكيف أدَّعي أنا أن لله ولداً هكذا من عندي؟

وما حاجته تعالى للولد ، وقد قال في الآية بعدها : { إِن كُلُّ مَن فِي السماوات والأرض }

إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (93)

ذلك لأن الخالق تبارك وتعالى خلق الإنسان ، وجعل له منطقة اختيار يفعل أو لا يفعل ، يؤمن أو لا يؤمن ، وكذلك جعل فيه منطقة قَهْر ، فالكافر الذي أَلِف الكفر ، وتعوَّد عليه ، وتمرد على الطاعة والإيمان ، هل يستطيع أنْ يتمرّد مثلاً على المرض أو يتمرَّد على الموت ، أو على الفقر؟

إذن : فأنت مُختار في شيء وعَبْد في أشياء ، كما أن منطقة الاختيار هذه لك في الدنيا ، وليست لك في الآخرة . وسبق أنْ فرَّقنا بين العباد والعبيد ، فالجميع : المؤمن والكافر عبيد لله تعالى ، أما العباد فهم الذين تنازلوا عن اختيارهم ومرادهم لمراد ربهم ، فجاءت كُلُّ تصرفاتهم وفقاً لما يريده الله .

وهؤلاء الذين قال الله فيهم : { وَعِبَادُ الرحمن الذين يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً } [الفرقان : 63] .

ومعنى : { إِلاَّ آتِي الرحمن عَبْداً } [مريم : 93] أي : في الآخرة ، حيث تُلْغَى منطقة الاختيار ، ولا يستطيع أحد الخروج عن مراد الله تعالى ، ويسلب الملك من الجميع ، فيقول تعالى : { لِّمَنِ

الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار } [غافر : 16] .
وهو سبحانه القادر على العطاء ، القادر على السلب : { تُؤْتِي الملك مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الملك مِمَّنْ تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ } [آل عمران : 26] .
ثم يقول الحق سبحانه : { لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ }

لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (94)

الإحصاء : هو العَدُّ ، وكانوا قديماً يستخدمون الحصَى أو النوى في العَدِّ ، لكن النوى فرع ملكية النخل ، فقد لا يتوفر للجميع؛ لذلك كانوا يستخدمون الحصَى ، ومنه كلمة الإحصاء .
ثم يقول الحق تبارك وتعالى : { وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ القيامة }

وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (95)

أي . وحده ، ليس معه أهل أو أولاد أو عِزْوة ، كما قال تعالى : { يَوْمَ يَفِرُّ المرء مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وصاحبته وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امرىء مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ } [عبس : 3437] .
فكل مشغول بحاله ، ذاهل عن أقرب الناس إليه : { يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ } [الحج : 2] .
وتأمَّل قوله : { آتِيهِ } [مريم : 95] فالعبد هو الذي يأتي بنفسه مُخْتاراً لا يُؤْتَى به ، فكأن الجميع منضبط على وقت معلوم ، إذا جاء يُهْرَع الجميع طواعيةً إلى الله عز وجل .
ثم يقول رب العزة سبحانه : { إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ }

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (96)

وُداً : مودة ومحبة تقوم على الإيمان ، وتقود إلى شدة التعلّق ، وقد جعل الحق تبارك وتعالى كَوْنه أسباباً لهذه المحبة والمودة ، كأنْ ترى إنساناً يُحبك ويتودّد إليك ، فساعةَ تراه مُقبلاً عليك تقوم له وتبشُّ في وجهه ، وتُفسِح له في المجلس ، ثم تسأل عنه إنْ غاب ، وتعوده إنْ مرض ، وتشاركه الأفراح وتواسيه في الأحزان وتؤازره عند الشدائد ، فهذه المودة ناشئة عن حُبٍّ ومودة سابقة .
وقد تنشأ المودة بسبب القرابة أو المصالح المتبادلة أو الصداقة ، فهذه أسباب المودة في الدنيا بين الخَلْق جميعاً مؤمنهم وكافرهم ، أمّا هنا : { سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرحمن وُدّاً } [مريم : 96] .
أي : بدون سبب من أسباب المودة هذه ، مودة بدون قرابة ، وبدون مصالح مشتركة أو صداقة ، وهذه المودة بين الذين آمنوا ، كأنْ ترى شخصاً لأول مرة فتشعر نحوه بارتياح كأنك تعرفه ، وتقول له : إني أحبك لله .

هذه محبة جعلها الله بين المؤمنين ، فضلاً منه سبحانه وتكرُّماً ، لا بسبب من أسباب المودة المعروفة .

لذلك قال هرم بن حَيَّان رحمه الله : إن الحق تبارك وتعالى حين يرى عبده المؤمن قد أقبل عليه بقلبه وأسكنه فيه ، وأبعد عن قلبه الأغيار ، وسلَّم قلبه وهو أسمى ما يملك من مستودعات العقائد وينبوع الصالحات وقدَّمه لربه إلا فتح له قلوب المؤمنين جميعاً .

كما جاء في الحديث القدسي :

« ما أقبل عليَّ عبد بقلبه إلا أقلبتُ عليه بقلوب المؤمنين جميعاً » أي : بالمودة والرحمة دون أسباب .

وفي الحديث القدسي : « إن الله إذا أحب عبداً نادى في السماء : إنني أحببتُ فلاناً فأحبُّوه ، وينادي حبريل في الأرض : إن الله أحبَّ فلاناً فأحبوه . ويوضع له القبول في الأرض » .

فيحبه كل مَنْ رآه عطية من الله وفضلاً ، دون سبب من أسباب المودة ، وإنْ كنتَ قد تبرعتَ لله تعالى بما تملك وهو قلبك مستودع العقائد وينبوع الصالحات كلها ، فإنه تعالى وهب لك ما يملك من قلوب الناس جميعاً ، فهي في يده تعالى يُوجِّهها كيف يشاء .

وقد علَّمنا ربنا تبارك وتعالى في قوله : { وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ } [النساء : 86] أن نرد الجميل بأحسن منه ، فإنْ لم نقدر على الأحسن فلا أقلَّ من الرد بالمثل ، فإنْ كان هذا عطاء العبد ، فما بالك بعطاء الرب؟

ومن ذلك ما جاء في الحديث الشريف : « من يسَّر على معسر يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه » .

والعَوْن يقتضي مُعيناً ومُعَاناً ، ولا بُدّ أن يكون المعين أقوى من المعان ، فيفيض عليه من فضل ما عنده : صحة ، أو قدرة ، أو غنىً ، أو علماً .

وإعانةُ العبد لأخيه محدودة بقدراته وإمكاناته ، أمّا معونة الله لعبده فغير محدودة؛ لأنها تناسب قدرة وإمكانات الحق تبارك وتعالى .

وهكذا عوَّدنا ربنا تبارك وتعالى حين نُضحِّي بالقليل أنْ يعطينا الكثير وبلا حدود ، فضلاً من الله وكرماً . ألم تَرَ أن الحسنة عنده تعالى بعشر أمثالها ، وتضاعف إلى سبعمائة ضعف؟ أليست هذه تجارة مع الله رابحة ، كما قال سبحانه : { يأيها الذين آمَنُواْ هَلْ أَدُلُّكمْ على تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ } [الصف : 10] .

وقال عنها : { تِجَارَةً لَّن تَبُورَ } [فاطر : 29] .

وكأن الحق تبارك وتعالى يريد منا المحبة المتبادلة التي تربط بين قلوبنا وتُؤلّف بيننا ، ثم يمنحنا

سبحانه الثمن .

إذن : العملية الإيمانية لا تظن أنها إيثار ، بل الإيمان أثره ، وأنت حين تتصدق بكذا إنما تأمل ما عند الله من مضاعفة الأجر ، فالإيمان إذن أنانية عالية .

والحق سبحانه وتعالى يريد منا أنْ نعودَ على غيرنا بفضل ما نملك ، كما جاء في الحديث : « مَنْ كان عنده فضل مال فليعُدْ به على مَنْ لا مالَ له . . . » .

واعلم أن الله سيُعوِّضك خيراً مما أعطيْتَ . ومثال ذلك ولله المثل الأعلى : هَبْ أن عندك ولدين ، أعطيتَ لكل منهما مصروفة ، فالأول اشترى به حلوى أكل منها ، وأعطى رفاقه ، والآخر بدّد مصروفه فيما لا يُجدي من ألعاب أو خلافه ، فأيهما تعطي بعد ذلك؟ كذلك الحق سبحانه يعاملنا هذه المعاملة .

ويقول الحق سبحانه : { فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ }

فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا (97)

الفاء هنا تفيد : ترتيب شيء على شيء فابحث في الجملة بعدها عن هذا الترتيب ، فالمعنى : بشِّر المتقين ، وأنذر القوم اللُّد لأننا يسرنا لك القرآن .

ويسَّرنا القرآن : أي : طوعناه لك حِفْظاً وأداءً وإلقاء معانٍ ، فأنت تُوظِّفه في المهمة التي نزل من أجلها .

وتيسير القرآن ورد في آيات كثيرة ، كقوله تعالى في سورة القمر : { وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرآن لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ } [القمر : 17] .

والمتأمل في تيسير القرآن يجد العجائب في أسلوبه ، فترى الآية تأتي في سورة بنص ، وتأتي في نفس السياق في سورة أخرى بنص آخر ، فالمسألة إذن ليست (أكلاشيه) ثابت ، وليست عملية ميكانيكية صماء ، إنه كلام رب .

خُذْ مثلاً قوله تعالى :

{ كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ } [المدثر : 5455] .

وفي آية آخرى : { إِنَّ هذه تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ اتخذ إلى رَبِّهِ سَبِيلاً } [الإنسان : 29] .

مرة يقول : { إِنَّ هذه تَذْكِرَةٌ } [الإنسان : 29] ومرة يقول : { كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ } [عبس : 11] .

ونقف هنا أمام ملحظ دقيق في سورة (الرحمن) حيث يقول الحق تبارك وتعالى : { وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ } [الرحمن : 46] ثم يأتي الحديث عنهما : فيهما كذا ، فيهما كذا إلى أنْ يصلَ إلى قاصرات الطرف فيقول : { فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطرف } [الرحمن : 56] .

وكذلك في : { وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ } [الرحمن : 62] فيهما كذا وفيهما كذا إلى أنْ يصلَ إلى

الحور العين فيقول : { فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ } [الرحمن : 70] .
ولك أنْ تتساءل : الحديث هنا عن الجنتين ، فلماذا عدل السياق عن (فيهما) إلى (فيهن) في هذه النعمة بالذات؟
قالوا : لأن نعيم الجنة مشترك ، يصح أنْ يشترك فيه الجميع إلا في نعمة الحور العين ، فلها خصوصيتها ، فكأن الحق تبارك وتعالى يحترم مشاعر الغَيْرة عند الرجال ، ففي هذه المسألة يكون لكل منها جنته الخاصة التي لا يشاركه فيها أحد .
لذلك « لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنة رأى فيها قصراً فابتعد عنه ، فلما سُئِل عن ذلك صلى الله عليه وسلم قال : » إنه لعمر ، وأنا أعرف غَيْرة عمر « .
فإلى هذه الدرجة تكون غيرة المؤمن ، وإلى هذه الدرجة تكون دِقَّة التعبير في القرآن الكريم .
ولولا أن الله تعالى أنزل القرآن ويسَّره لَمَا حفظه أحد فالنبي صلى الله عليه وسلم كان ينزل عليه الآيات ، وحِين يسري عنه يمليها على الصحابة ، ويظل يقرؤها كما هي ، ولولا أن الله قال له : { سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى } [الأعلى : 6] ما تيسّر له ذلك .
ونحن في حفْظنا لكتاب الله تعالى نجد العجائب أيضاً ، فالصبي في سنِّ السابعة يستطيع حفْظ القرآن وتجويده ، فإنْ غفل عنه بعد ذلك تَفلَّتَ منه ، على خلاف ما لو حفظ نصاً من النصوص في هذه السن يظل عالقاً بذهنه .
إذن : مسألة حفظ القرآن ليست مجرد استذكار حافظة ، بل معونة حافظ ، فإن كنت على وُدٍّ وأُلْفة بكتاب الله ظلَّ معك ، وإنْ تركته وجفوْته تفلَّتَ منك ، كما جاء في الحديث الشريف :

« تعاهدوا القرآن ، فو الذي نفسي بيده لَهُو أشدُّ تفصّياً من الإبل في عُقَلها » .
ذلك؛ لأن حروف القرآن ليست مجرد حرف له رسم ومنطوق ، إنما حروف القرآن ملائكة تُصفّ ، فتكون كلمة ، وتكون آية ، فإنْ وددتَ الحرف ، وودتَ الكلمة والآية ، ودَّتْك الملائكة ، وتراصتْ عند قراءتك .
ومن العجائب في تيسير حفظ القرآن أنك إنْ أعلمتَ عقلك في القراءة تتخبّط فيها وتخطىء ، فإنْ أعدتَ القراءة هكذا على السليقة كما حفظت تتابعت معك الآيات وطاوعتك .
وتلحظ هنا أن القرآن لم يأْتِ باللفظ الصريح ، إنما جاء بضمير الغيبة في { يَسَّرْنَاهُ } [مريم : 97] لأن الهاء هنا لا يمكن أن تعود إلا على القرآن ، كما في قوله تعالى : { قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ } [الإخلاص : 1] فضمير الغيبة هنا لا يعود إلا على الله تعالى .
وقوله : { بِلِسَانِكَ } [مريم : 97] أي : بلغتك ، فجعلناه قرآنا عربياً في أمة عربية؛ ليفهموا عنك البلاغ عن الله في البشارة والنذارة ، ولو جاءهم بلغة أخرى لقالوا كما حكى القرآن عنهم .

{ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُواْ لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَاعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ } [فصلت : 44] .

وقول الحق سبحانه وتعالى : { وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً } [مريم : 97] .

والإنذار : التحذير من شَرّ سيقع في المستقبل ، واللَّدَد : عُنْف الخصومة ، وشراسة العداوة ، نقول : فلان عنده لَدَد أي : يبالغ في الخصومة ، ولا يخضع للحجة والإقناع ، ومهما حاولتَ معه يُصِرُّ على خصومته .

ويُنهي الحق سبحانه سورة مريم بقوله تعالى : { وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ }

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (98)

الحق تبارك وتعالى يُسرّي عن نبيه صلى الله عليه وسلم ما يلاقي من عنت في سبيل دعوته ، كأنه يقول له : إياك أنْ ينالَ منك بُغْض القوم لك وكُرههم لمنهج الله ، إياك أنْ تتضاءلَ أمام جبروتهم في عنادك ، فهؤلاء ليسوا أعزَّ من سابقيهم من المكذبين ، الذين أهلكهم الله ، إنما أستبقى هؤلاء لأن لهم مهمة معك .

وسبق أن أوضحنا أن الذين نجوْا من القتل من الكفار في بعض الغزوات ، وحزن المسلمون لنجاتهم ، كان منهم فيما بَعْد سيف الله المسلول خالد بن الوليد .

يقول تعالى : { وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ } [مريم : 98] .

كم : خبرية تفيد الكثرة ، من قرن : من أمة { هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ } [مريم : 98] لأننا أخذناهم فلم نُبق منهم أثراً يحس .

ووسائل الحِسّ أو الإدراك كما هو معروف : العين للرؤية ، والأذن للسمع ، والأنف للشمّ ، واللسان للتذوق ، واليد للمس ، فبأيّ آداة من أدوات الحسّ لا تجد لهم أثراً .

وقوله : { أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً } [مريم : 98] الرِكْز : الصوت الخفيّ ، الذي لا تكاد تسمعه .

وهذه سُنَّة الله في المكذبين من الأمم السابقة كما قال سبحانه : { أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ والذين مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ } [الدخان : 37] .

أين عاد وثمود وإرم ذات العماد التي لم يُخلَق مثلها في البلاد؟ وأين فرعون ذو الأوتاد؟ فكل جبار مهما عَلَتْ حضارته ما استطاع أنْ يُبقي هذه الحضارة؛ لأن الله تعالى أراد لها أنْ تزول ، وهل كفار مكة أشدّ من كل هؤلاء؟

لذلك حين تسمع هذا السؤال : { هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً } [مريم : 98] لا يسَعْك إلاَّ أنْ تُجيب : لا أحسُّ منهم من أحد ، ولا أسمع لهم ركزاً .

طه (1)

تكلمنا كثيراً عن الحروف المقطَّعة في بدايات السور ، ولا مانع هنا أنْ نشير إلى ما ورد في (طه) ، فالبعض يرى أنها حروف متصلة ، وهي اسم من أسماء الرسول صلى الله عليه وسلم ، وآخرون يرؤْنَ أنها حروف مُقطّعة مثل (الم) ومثل (يس) فهي حروف مُقطّعة ، إلا أنها صادفتْ اسماً من الأسماء كما في (ن) حرف وهو اسم للحوت : { وَذَا النون إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً } [الأنبياء : 87] و (ق) حرف ، وهو اسم لجبل اسمه جبل قاف .

إذن : لا مانع أن تدل هذه الحروف على اسم من الأسماء ، فتكون (طه) اسماً من أسماء الرسول صلى الله عليه وسلم خاصة ، وأن بعدها : { مَآ أَنَزَلْنَا عَلَيْكَ القرآن لتشقى } [طه : 2] .

لكن تلاحظ هنا مفارقة ، حيث نطق الطاء والهاء بدون الهمزة ، مع أنها حروف مقطعة مثل الف لام ميم ، لكن لم ينطق الحرف كاملاً ، لأنهم كانوا يستثقلون الهَمْز فيُخَفِّفونها ، كما في ذئب يقولون : ذيب وفي بئر ، يقولون : بير . وهذا النطق يُرجح القول بأنها اسم من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم .

وسبق أنْ أوضحنا أن فواتح السور بالحروف المقطّعة تختلف عن باقي آيات القرآن ، فكُلُّ آيات القرآن من بدايته لنهايته بُنِيَتْ على الوَصْل ، وإنْ كان لك أن تقف؛ لذلك فكل المصاحف تُبنَى على الوَصْل في الآيات وفي السور ، فتنطق آخر السورة على الوصل ببسم الله الرحمن الرحيم في السورة التي بعدها .

تقول : { هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً } [مريم : 98] (بسم الله الرحمن الرحيم) حتى في آخر سور القرآن ونهايته تقول : { مِنَ الجنة والناس } [الناس : 6] (بسم الله الرحمن الرحيم) مع أنها آخر كلمة في القرآن ، وماذا سيقول بعدها؟ لكنها جاءت على الوَصْل إشارة إلى أن القرآن موصولٌ أوَّله بآخره ، لا ينعزل بعضه عن بعض ، فإياك أن تجفوَهُ ، أو تظن أنك أنهيته؛ لأن نهايته موصولة ببدايته؛ فنقرأ { مِنَ الجنة والناس } { بِسمِ الله الرحمن الرَّحِيمِ } الحمدُ للهِ رب العالمين . . . .

إذن : فالقرآن كله في كل جملة وكل آية وكل سورة مبنيٌّ على الوَصْل ، إلا في فواتح السور بالحروف المقطّعة تُبنَى على الوقف (ألف لام ميم) ، وهذا وجه من وجوه الإعجاز ، وأن القرآن ليس ميكانيكا ، بل كلام مُعْجِز من ربِّ العالمين .

لذلك ، فالنبي صلى الله عليه وسلم أوضح استقلالية هذه الحروف بذاتها ، فقال « تعلموا هذا القرآن ، فإنكم تؤجرون بتلاوته ، بكل حرف عشر حسنات ، أما إني لا أقول الم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف ، بكل حرف عشر حسنات » .

يقول الحق سبحانة : { مَآ أَنَزَلْنَا عَلَيْكَ القرآن }

مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2)

الشقاء : هو التعب والنَّصَب والكدّ ، فالحق سبحانه ينفي عن رسوله صلى الله عليه وسلم التعب بسبب إنزال القرآن عليه ، إذن : فما المقابل؟ المقابل : أنزلنا عليك القرآن لتسعد ، تسعد أولاً بأن اصطفاك لأن تكون أَهْلاً لنزول القرآن عليك ، وتسعد بأن تحمل نفسك أولاً على منهج الله وفِعْل الخير كل الخير .

فلماذا إذن جاءتْ كلمة { لتشقى } [طه : 2] ؟ .

هذا كلام الكفار أمثال أبي جهل ، ومُطعِم بن عدي ، والنضر بن الحارث ، والوليد بن المغيرة حينما ذهبوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا له : لقد أشقيتَ نفسك بهذه الدعوة .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله بعثني رحمة للعالمين » .

فقد بعث رسول الله ليسعد ويسعد معه قومه والناس أجمعين لا ليشقى ويُشقِي معه الناس . لكن من أين جاء الكفار بمسألة الشقاء هذه؟ المؤمن لو نظر إلى منهج الله الذي نزل به القرآن لوجده يتدخل في إراداته واختياراته ، ويقف أمام شهواته ، فيأمره بما يكره وما يشقُّ على نفسه ، ويمنعه مما يألَف ومما يحب .

إذن : فمنهج الله ضد مرادات الاختيار ، وهذا يُتعِب النفس ويشقُّ عليها إذا عُزِلَتْ الوسيلة عن غايتها ، فنظرت إلى الدنيا والتكليف منفصلاً عن الآخرة والجزاء .

أمّا المؤمن فيقرن بين الوسيلة والغاية ، ويتعب في الدنيا على أمل الثواب في الآخرة ، فيسعد بمنهج الله ، لا يشقى به أبداً . كالتلميذ الذي يتحمل مشقّة الدرس والتحصيل؛ لأنه يستحضر فَرْحة الفوز والنجاح آخر العام .

من هنا رأى هؤلاء الكفار في منهج الله مشقة وتعباً ، لأنهم عزلوا الوسيلة عن غايتها؛ لذلك شعروا بالمشقة ، في حين شعر المؤمنون بلذة العبادة ومتعة التكليف من الله ، وهذه المسألة هي التي جعلتهم يتخذون آلهةً لا مطالبَ لها ، ولا منهج ، ولا تكليف ، آلهة يعبدونها على هواهم ، ويسيرون في ظلها على حَلِّ شعورهم .

لذلك أوضح القرآن أنهم مغفلون في هذه المسألة ، فقال : { مَآ أَنَزَلْنَا عَلَيْكَ القرآن لتشقى } [طه : 2] .

أو يكون الشقاء : تعرُّضه لِعُتاة قريش وصناديدها الذين سخروا منه ، وآذوه وسلَّطوا عليه سفهاءهم وصبيانهم ، يشتمونه ويرمونه بالحجارة ، وهو صلى الله عليه وسلم يُشقِي نفسه بدعوتهم والحرص على هدايتهم .

والحق تبارك وتعالى ينفي الشقاء بهذا المعنى أيضاً : { مَآ أَنَزَلْنَا عَلَيْكَ القرآن لتشقى } [طه : 2] أي : لتُشقي نفسك معهم ، إنما أنزلناه لتبليغهم فحسب ، وقد تكرر هذا المعنى في القرآن كثيراً في مثل قوله تعالى : { فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ على آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بهذا الحديث أَسَفاً } [الكهف : 6] وقوله : { إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِّنَ السمآء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ }

[الشعراء : 4] .

وسبق أنْ ضربنا لذلك مثلاً ولله المثَل الأعلى برجل عنده عبدان : ربط أحدهما إليه بحبل ، وأطلق الآخر حُراً ، فإذا ما دعاهما فاستجابا لأمره ، فأيهما أطوع له ، وأكثر احتراماً لأمره؟ لا شكَّ أنه الحر الطليق؛ لأنه جاء مختاراً ، في حين كان قادراً على العصيان .

وكذلك ربك تبارك وتعالى يريد منك أن تأتيه حُراً مختاراً مؤمناً ، وأنت قادر ألاَّ تؤمن .

والبعض يحلو لهم نقد الإسلام واتهام الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيقولون : إن رسول الله يخطىء والله يُصوِّب له ، ونتعجب : وما يضيركم أنتم؟ طالما أن ربه هو الذي يُصوِّب له ، هل أنتم الذين صَوَّبتم لرسول الله!؟ ثم مَنْ أخبركم بخطأ رسول الله؟ أليس هو الذي أخبركم؟ أليس هذا من قوة أمانته في التبليغ ويجب أن تحمد له؟

إذن : فرسول الله صلى الله عليه وسلم لا يستنكف أنْ يُربِّيه ربه؛ لذلك يقول : « إنما أنا بشر يَرِد عليَّ يعني من الحق فأقول : أنا لست كأحدكم ، ويُؤخذ مني فأقول : ما أنا إلا بشر مثلكم » .

وقد تمحَّك هؤلاء كثيراً في قصة عبد الله بن أم مكتوم ، حينما انشغل عنه رسول الله بكبار قريش ، والمتأمل في هذه القصة يجد أن ابن أم مكتوم كان رجلاً مؤمناً جاء ليستفهم من رسول الله عن شيء ، فالكلام معه ميسور وأمر سَهْل ، أمّا هؤلاء فهم رؤوس الكفر وكبار القوم ، ولديهم مع ذلك لَدَد في خصومتهم للإسلام ، والنبي صلى الله عليه وسلم يحرص على هدايتهم ويُرهِق نفسه في جدالهم أملاً في أنْ يهدي الله بهم مَنْ دونهم .

إذن : النبي في هذا الموقف اختار لنفسه الأصعب ، وربه يعاتبه على ذلك ، فهو عِتَاب لصالحه ، له لا عليه .

ثم يقول الحق سبحانه : { إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يخشى }

إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى (3)

أي : ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، وإنما أنزلناه (تذكرةً) أي تذكيراً (لِمَنْ يَخْشَى) الخشية : خَوْف بمهابة؛ لأن الخوفَ قد يكون خوفاً دون مهابة ، أمّا الخوف من الله فخوْف ومهابة معاً .

تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى (4)

تنزيلاً : مصدر أي : أنزلناه تنزيلاً ، وقد ورد في نزول القرآن : أنزلناه ، ونزلناه ونزل ، يقول تعالى : { إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القدر * وَمَآ أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ القدر * لَيْلَةُ القدر خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ الملائكة والروح فِيهَا } [القدر : 14] .

لأن القرآن أخذ أدواراً عِدَّة في النزول ، فقد كان في اللوح المحفوظ ، فأراد الله له أن يباشر القرآن مهمته في الوجود ، فأنزله من اللوح المحفوظ مرة واحدة إلى السماء الدنيا . فأنزله أي الله تعالى ثم تَنزَّل مُفرَّقاً حسْب الأحداث من السماء الدنيا على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نزل به جبريل : { نَزَلَ بِهِ الروح الأمين } [الشعراء : 193] .

وقوله تعالى : { مِّمَّنْ خَلَقَ الأرض والسماوات العلى } [طه : 4] .

خَصَّ السموات والأرض ، لأنها من أعظم خَلْق الله ، وقد أعدهما الله ليستقبلا الإنسان ، فالإنسان طرأ على كَوْن مُعَدٍّ جاهز لاستقباله ، فكان عليه ساعة أنْ يرى هذا الكون المُعدَّ لخدمته بأرضه وسمائه ، ولا قدرة له على تسيير شيء منها ، كان عليه أن يُعمِلَ عقله ، ويستدل بها على الموجد سبحانه وتعالى .

كأن الحق تبارك وتعالى يقول لك : إذا كان الخالق سبحانه قد أعدَّ لك الكون بما يُقيم حياتك المادية ، أيترك حياتك المعنوية بدون عطاء؟

والخالق عز وجل خلق هذا الكون بهندسة قيومية عادلة حكيمة تُوفِّر لخليفته في الأرض استبقاءَ حياته ، وتعطيه كل ما يحتاج إليه بقدر دقيق ، واستبقاء الحياة يحتاج إلى طعام وشراب وهواء ، وقد أعطاها الله للإنسان بحكمة بالغة .

فالطعام يحتاجه الإنسان ، ويستطيع أنْ يصبر عليه شهراً ، دون أن يأكل ، ويحتاج إلى الماء ولكن لا يستطيع أنْ يصبر عليه أكثر من عشرة أيام ، ويحتاج إلى الهواء ولكن لا يصبر عليه لحظةً تستغرق عِدَّة أنفاس .

لذلك ، فمن رحمته تعالى بعباده أنْ يمتلك بعضُ الناس القوتَ ، فالوقت أمامك طويل لتحتالَ على كَسْبه ، وقليلاً ما يملك أحدٌ الماءَ ، أما الهواء الذي لا صَبْر لك عليه ، فمن حكمة الله أنه لا يملكه أحد ، وإلا لو منع أحد عنك الهواء لمُتَّ قبل أنْ يرضى عنك .

فمن حكمة الله أنْ خلق جسمك يستقبل مُقوِّمات استبقاء الحياة فترة من الزمن تتسع للحيلة وللعطف من الغير ، وحين تأكل يأخذ الجسم ما يحتاجه على قَدْر الطاقة المبذولة ، وما فاض يُختزَن في جسمك على شكل دُهْن يُغذِّي الجسم حين لا يتوفر الطعام .

ومن عجائب قدرة الله أن هذه المادة الدُّهنية تتحول تلقائياً إلى أي مادة أخرى يحتاجها الجسم ، فإن احتاج الحديد تتحول كيماوياً إلى الحديد ، وإن احتاج الزرنيخ تتحول كيماوياً إلى زرنيخ ، وهي في الواقع مادة واحدة ، فمَنْ يقدر على هذه العملية غيره تعالى؟

وبعد أنْ أعطاك ما يستبقي حياتك من الطعام والشراب والهواء أعطاك ما يستبقي نوعك بالزواج والتناسل .

وقوله تعالى : { السماوات العلى } [طه : 4] العلا : جمع عُليا ، كما نقول في جمع كبرى : كُبَر { إِنَّهَا لإِحْدَى الكبر } [المدثر : 35] .

وهكذا تكتمل مُقوِّمات التكوين العالي لخليفة الله في الأرض ، فكما أعطاه ما يقيم حياته ونوعه بخَلْق السموات والأرض ، أعطاه ما يُقيم معنوياته بنزول القرآن الذي يحرس حركاتنا من شراسة الشهوات ، فالذي أنزل القرآن هو الذي خلق الأرض والسموات العلا .

والصفة البارزة في هذا التكوين العالي للإنسان هي صِفَة الرحمانية؛ لذلك قال بعدها : { الرحمن عَلَى العرش }

الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (5)

فالآية السابقة أعطتْنا مظهراً من مظاهر العطف والرحمة ، وهذه تعطينا مظهراً من مظاهر القَهْر والغَلَبة ، واستواء الرحمن تبارك وتعالى على العرش يُؤخَذ في إطار .

{ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } [الشورى : 11] .

وسبق أن تكلمنا في الصفات المشتركة بين الحق سبحانه وبين خَلْقه ، فلَكَ سمعٌ وبصر ، ولله سمع وبصر ، لكن إياك أنْ تظن أن سمع الله كسمْعك ، أو أن بصره كبصرك .

كذلك في مسألة الاستواء على العرش ، فاللحقِّ سبحانه استواء على عرشه ، لكنه ليس كاستوائك أنت على الكرسي مثلاً .

والعرش في عُرْف العرب هو سرير المُلْك ، وهل يجلس الملك على سريره ليباشر أمر مملكته ويدير شئونها إلا بعد أ نْ يستتبَّ له الأمر؟

وكذلك الخالق جَلَّ وعلا خلق الكون بأرضه وسمائه ، وخلق الخَلْق ، وأنزل القرآن لينظم حياتهم ، وبعد أن استتبَّ له الأمر لم يترك الكون هكذا يعمل ميكانيكياً ، ولم ينعزل عن كَوْنه وعن خَلْقه؛ لأنهم في حاجة إلى قيوميته تعالى في خَلْقه .

ألم يقل الحق سبحانه في الحديث القدسي : « يا عبادي ناموا مِلْءَ جفونكم ، لأنِّي قَيُّوم لا أنام » .

فكوْنُ الله ليس آلةً تعمل من تلقاء نفسها ، وإنما هو قائم بقيوميته عليه لا يخرج عنها؛ لذلك كانت المعجزات التي تخرق نواميس الكون دليلاً على هذه القيومية .

ثم يقول الحق سبحانه : { لَهُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض }

لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (6)

الحق تبارك وتعالى يمتنُّ بما يملكه سبحانه في السموات وفي الأرض وما تحت الثرى ، والله تعالى لا يمتنُّ إلا بملكية الشيء النفيس الذي يُنتفع به .

وكأنه سبحانه يلفت أنظار خَلْقه إلى ما في الكون من مُقوِّمات حياتهم المادية ليبحثوا عنها ،

ويستنبطوا ما ادَّخره لهم من أسرار وثروات في السموات والأرض ، والناظر في حضارات الأمم يجد أنها جاءت إما حَفْريات الأرض ، أو من أسرار الفضاء الأعلى في عصر الفضاء .

ولو فهم المسلمون هذه الآية منذ نزلت لَعلموا أن في الأرض وتحت الثرى وهو : (التراب) كنوزاً وثروات ما عرفوها إلا في العصر الحديث بعد الاكتشافات والحفريات ، فوجدنا البترول والمعادن والأحجار الثمينة ، كلها تحت الثَّرى مطمورةً تنتظر مَنْ يُنقِّب عنها وينتفع بها .

وقد أوضح العلماء أن هذه الثروات موزعة في أرض الله بالتساوي ، بحيث لو أخذتَ قطاعاتٍ متساوية من أراض مختلفة لوجدتَ أن الثروات بها متساوية : هذه بها ماء ، وهذه مزروعات ، وهذه معادن ، وهذه بترول وهكذا . فهي أشبه بالبطيخة حين تقسمها إلى قِطع متساوية من السطح إلى المركز .

لذلك يقول تعالى : { وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ } [الحجر : 21] .

إذن : فالخير موجود ينتظر القَدَر ليظهر لنا وننتفع به .

ثم يقول تبارك وتعالى : { وَإِن تَجْهَرْ بالقول }

وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (7)

الحق سبحانه وتعالى حينما يطلب من رسوله أن يذكر يريد منه أن يُذكِّر تذكيراً مرتبطاً بنيته ، لا ليقطع العَتْب عنه نفسه ، فالمسألة ليست جهراً بالتذكير .

وإذا كان تعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : إنني سأحرس سرك كما أحرس علانيتك ، وأن الجهر عندي مثل السر ، بل وأخفى من السر ، وهو صلى الله عليه وسلم مؤتمن على الرسالة فإنه تعالى يقول أيضاً لأمته : إياكم أن تقولوا كلاماً ظاهره فيه الرحمة ، ونيتكم غير مستقرة عليه؛ لأن الله كما يعلم الجهر يعلم السر ، وما هو أخفى من السر .

وتكلمنا عن الجهر ، وهو أن تُسمع مَنْ يريد أن يسمع ، والسر : أن تخصَّ واحداً بأن تضع في أذنه كلاماً لا تحب أن يشيع عند الناس ، وتهمس في أذنه بأنك المأمون على هذا الكلام ، وأنت ترتاح نفسياً حينما تُلقِي بسرّك إلى مَنْ تثق فيه ، وتأمن أَلاَّ يذيعه ، وهناك في حياة كل منا أمور تضيق النفس بها ، فلا بُدَّ لك أن تُنفِّسَ عن نفسك ، كما قال الشاعر :

وَلاَ بُدَّ مِنْ شَكْوَى إِلَى ذِي مُرُوءَةٍ ... يوَاسِيكَ أَوْ يُسْلِيكَ أَوْ يتوجَّعُ

فأنت إذن في حاجة لمَنْ يسمع منك ليريحك ، ويُنفِّس عنك ، ولا يفضحك بما أسررْتَ إليه .

ومعنى { وَأَخْفَى } [طه : 7] أي : أَخْفى من السر ، فإنْ كان سِرُّك قد خرج من فمك إلى أذن سامعك ، فهناك ما هو أَخْفَى من السر ، أي : ما احتفظتَ به لنفسك ولم تتفوَّه به لأحد .

لذلك يقول تعالى : { وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ اجهروا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصدور } [الملك : 13]

أي : مكنوناتها قبل أن تصير كلاماً .
وقال أيضاً : { وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ } [ق : 16] فوسوسة النفس ، وذات الصدور هي الأَخْفى من السر ، فلديْنَا إذن جَهْر ، وسِرٌّ ، وأخفى من السر ، لكن بعض العارفين يقول : وهناك في علم الله ما هو أخْفى من الأَخفى ، فما هو؟ يقول : إنه تعالى يعلم ما سيكون في النفس قبل أن يكون .
وبعد ذلك جاء الحق سبحانه بالكلمة التي بعث عليها الرسل جميعاً : { الله لا إله إِلاَّ هُوَ }

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (8)

هذه الكلمة (لا إله إلا هو) هي قمة العقيدة ، وقال عنها النبي صلى الله عليه وسلم : « خير ما قلته أنا والنبيون من قبلي : لا إله إلا الله » .
وما دام لا إله إلا الله ، فهو سبحانه المؤْتَمن عليك ، فليس هناك إله آخر يُعقِّب عليه ، فاعمل لوجهه يكْفك كل الأوجه وتريح نفسك أن تتنازعك قوى شتى ومختلفة ، ويُغنيك عن كل غنى .
« وحينما دخل أعرابي على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتكلم مع أبي بكر رضي الله عنه لم يفهم من كلامهما شيئاً ، فقال : يا رسول الله أنا لا أُحسن دندنتك ولا دندنة أبي بكر ، أنا لا أعرف إلا : لا إله إلا الله محمد رسول الله . فقال صلى الله عليه وسلم : » حَوْلَها ندندن يا أخا العرب « .
فهي الأساس والمركز الذي يدور حوله الإسلام .
وكلمة (اللهُ) عَلَم على واجب الوجود بكل صفات الكمال له ، فهو الله الموجود ، الله القادر ، الله العالم ، الله الحيّ ، الله المحيي ، الله الضار . فكل هذه صفات له سبحانه ، لكن هذه الصفات لما بلغتْ حَدَّ الكمال فيه تعالى أصبحتْ كالاسم العَلَم ، بحيث إذا أُطلِق الخالق لا ينصرف إلا له ، والرازق لا ينصرف إلا له .
وقد يشترك الخلْق مع الخالق في بعض الصفات ، كما في قوله تعالى : { وَإِذَا حَضَرَ القسمة أُوْلُواْ القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم } [النساء : 8] .
فالإنسان أيضاً يرزق ، لكن رزقه من باطن رزق الله ، فهو سبحانه الرازق الأعلى ، ومن بَحْره يغترف الجميع .
وكما في قوله تعالى : { فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الخالقين } [المؤمنون : 14] وقال تعالى : { وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً } [العنكبوت : 17] .
ومعنى ذلك أن هناك خالقين غيره سبحانه ، ومعنى الخَلْق : الإيجاد من عدم ، فالذي جاء بالرمل وصنع منه كوباً فهو خالق للكوب ، فأنت أوجدتَ شيئاً من عدم ، والله تعالى أوجد شيئاً من عدم ، ولكنك أوجدت من موجود الله قبل أن توجد أنتَ ، فهو إذن أحسن الخالقين في حين لم

يضِنّ عليك ربك بأنْ ينصفك ويسميك خالقاً . وهذا يوجب عليك أنْ تنصفه سبحانه وتقول { أَحْسَنُ الخالقين } [المؤمنون : 14] .

وأيضاً ، فإن الله تعالى إذا احترم إيجادك لمعدوم فسمَّاك خالقاً له ، ولم يَضِنّ عليك فأعطاك صفة من صفاته إنما أخبرك أنه أحسن الخالقين؛ لأنك تُوجِد معدوماً يظل على إيجادك ويجمد على هذه الحالة ، لكن الخالق سبحانه وتعالى يُوجِد معدوماً ويمنحه الحياة ، ويجعله يتلقى بمثله ويُنجب ، فهل يستطيع الإنسان الذي أوجد كوباً أن يجعل منه ذكراً وأنثى ينتجان لنا الأكواب؟! وهل يكبر الكوب الصغير ، أو يتألم إنْ كُسِر مثلاً؟!

إذن : فالخالق سبحانه هو أحسن الخالقين ، وكذلك هو خير الرازقين ، وخَيْر الوارثين ، وخَيْر الماكرين .

وقوله تعالى : { لَهُ الأسمآء الحسنى } [طه : 8] الحُسْنى : صيغة تفضيل للمؤنث مثل : كُبْرى ، تقابل « أحسن » للمذكر . إذن : فهناك أسماء حسنة هي أسماء الخَلْق ، أما أسماء الله فحسنى؛ لأنها بلغتْ القمة في الكمال ، ولأن الأسماء والصفات التي تنطبق عليها موجودة في الخالق الأعلى سبحانه ، فحين تقول في أسماء الله تعالى (الرازق) فهي الصفة الحُسْنى لا الحسنة .

لذلك لما أراد رجل يُدْعى (سعد) أن يشاور أباه في خطبة ابنته حسنى وقد تقدم لها رجلان : حسن وأحسن . فقال له أبوه (فحسنى يا سعد للأحسن) .

وقال تعالى : { لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ } [يونس : 26] فلم يقل : حسنة ، لأنهم أحسنوا فاستحقوا الحُسْنى بل وزيادة .

وأسماء الله تعالى هي في الحقيقة صفات ، إلا أنها لما أُطلِقت على الحق تبارك وتعالى أصبحتْ أسماء . ولَكَ أنْ تُسمَّى فتاة زنجية (قمر) وتسمى قِزْماً (الطويل) لأن الاسم إذا أُطلِق عَلَماً على الغير انحلَّ عن معناه الأصلي ولزم العَلَمية فقط ، لكن أسماء الله بقيتْ على معناها الأصلي حتى بعد أنْ أصبحتْ عَلَماً على الله تعالى ، فهي إذن أسماء حُسْنى .

وبعد أن تكلَّم الحق تبارك وتعالى عن الرسول الخاتم صاحب المنهج الخاتم فليس بعده نبي وليس بعد منهجه منهج أراد سبحانه أنْ يُسلّيه تسليةً تُبيّن مركزه في موكب الرسالات ، وأنْ يعطيه نموذجاً لمن سبقوه من الرسل ، وكيف أن كل رسول تعب على قَدْر رسالته ، فإنْ كانت الرسالات السابقة محدودة الزمان محدودة المكان ، ومع ذلك تعب أصحابها في سبيلها ، فما بالك برسول جاء لكل الزمان ولكل المكان؟ لا بُدَّ أنه سيواجه من المتاعب مثل هؤلاء جميعاً .

إذن : فوطِّن نفسك يا محمد على أنك ستلْقَى من المتاعب والصعاب ما يناسب عظمتك في الرسالة وخاتميتك للأنبياء ، وامتداد رسالتك في الزمان إلى أنْ تقومَ الساعة ، وفي المكان إلى ما اتسعتْ الأرض .

لذلك اختار الحق تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم نبياً من أُولي العزم؛ لأنه جاء لبني إسرائيل وجاء لفرعون ، وقد كان بنو إسرائيل قوماً ماديين ، أما فرعون فقد ادَّعى الألوهية ، اختار موسى عليه السلام ليقصّ على رسول الله قصته ويُسلِّيه فيما يواجهه من متاعب الدعوة ، كما قال تعالى : { وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرسل مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِي هذه الحق وَمَوْعِظَةٌ وذكرى لِلْمُؤْمِنِينَ } [هود : 120] .

وقال تعالى : { قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرسل } [الأحقاف : 9] .

فأنت يا محمد كغيرك من الرسل ، وقد وجدوا من المشقة على قَدْر رسالاتهم ، وسوف تجد أنت أيضاً من المشقة على قَدْر رسالتك . ونضرب لذلك مثلاً بالتلميذ الذي يكتفي بالإعدادية وآخر بالثانوية أو الجامعة ، وآخر يسعى للدكتوراة ، فلا شَكَّ أن كلاّ منهم يبذل من الجهد على قَدْر مهمته .

لذلك يقول تعالى : { وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ موسى }

وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (9)

إذا جاء الاستفهام من الله تعالى فاعلم أنه استفهام على غير حقيقته ، فلا يُرَاد هنا طب الفهم ، لأن أخبار محمد تأتيه من ربه عز وجل فكيف يستفهم منه . إنما المراد بالاستفهام هنا التشويق لما سيأتي كما تقول لصاحبك : هل بلغك ما حدث بالأمس؟ فيُشوِّقه لسماع ما حدث .

والحديث : أي الخبر عنه سواء أكان بالوحي ، أو بغير الوحي ، كأن حكيت له قصة موسى عليه السلام . . فهل بلغتْك هذه القصة؟ اسمعها الآن مني : { إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لأَهْلِهِ }

إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (10)

نلحظ هنا أن السياق لم يذكر قصة موسى من أولها لما قال تعالى : { وَأَوْحَيْنَآ إلى أُمِّ موسى أَنْ أَرْضِعِيهِ } [القصص : 7] ثم خروجه من المدينة خائفاً وذهابه إلى شعيب . . الخ ، وإنما قصد إلى مَنَاط الأمر ، وهي الرسالة مباشرة .

وقوله : { إني آنَسْتُ نَاراً لعلي آتِيكُمْ مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النار هُدًى } [طه : 10]

آنست : أي أبصرت ، وشعرت بشيء يستأنس به ويُفرَح به ويُطمأن إليه ، ومقابلها (توجست) للشر الذي يخاف منه كما في قوله : { فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً موسى } [طه : 67] .

(لَعلِّي) رجاء أنْ أجدَ فيها القبس ، وهو شعلة النار التي تُتَّخذ من النار إنْ إدركت النار وهي ذات لَهَب ، فتأخذ منها عوداً مشتعلاً مثل الشمعة .

وفي سياق آخر قال : (جذوة) وهي النار حينما ينطفىء لهبها ويبقى منها جمرات يمكن أن تشعل منها النار . وفي موضع آخر قال : { سَآتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ } [النمل : 7] .

وهذه كلها صور متعددة ، وحالات للنار ، ليس فيها تعارض كما يحلو للبعض أن يقول ، فموسى عليه السلام حينما قال { لعلي آتِيكُمْ } [طه : 10] يرجو أن يجد القبس ، لكن لا يدري حال النار عندما يأتيها ، أتكون قَبَساً أم جَذوة؟

وقد طلب موسى عليه السلام القَبَس لأهله؛ لأنهم كانوا في ليلة مطيرة شديدة البرد ، وهم غرباء لا يعلمون شيئاً عن المكان ، فهو غير مطروق لهم فيسيرون لا يعرفون لهم اتجاهاً ، فماذا يفعل موسى عليه السلام ومعه زوجته وولده الصغير وخادمه؟

إنهم في أمسّ الحاجة للنار ، إما للتدفئة في هذا الجو القارس ، وإما لطلب هداية الطريق ، لذلك قال : { أَوْ أَجِدُ عَلَى النار هُدًى } [طه : 10] أي : هادياً يدلّنا على الطريق .

وفي موضع آخر قال : { لعلي آتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ } [القصص : 29] .

لذلك لما أبصر موسى عليه السلام النار أسرع إليها بعد أنْ طمأن أهله : { امكثوا إني آنَسْتُ نَاراً } [طه : 10] .

وهذه المسألة من قصة موسى كانت مثَارَ تشكيك من خصوم الإسلام ، حيث وجدوا سياقات مختلفة لقصة واحدة ، فمرة يقول : { امكثوا إني آنَسْتُ نَاراً لعلي آتِيكُمْ } [طه : 10] ، وفي موضع آخر يقول : { لعلي آتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ } [القصص : 29] .

ومرة يقول : (قَبَس) وأخرى يقول (بِشِهَابٍ قَبَسٍ) ومرة (بِجَذْوَة) ومرة يقول : { أَوْ أَجِدُ عَلَى النار هُدًى } [طه : 10] ومرة يقول : { لعلي آتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ } [القصص : 29] .

والمتأمل في الموقف الذي يعيشه الآن موسى وامرأته وولده الصغير وخادمه في هذا المكان المنقطع وقد أكفهرَّ عليهم الجو ، يجد اختلاف السياق هنا أمراً طبيعياً ، فكلٌ منهم يستقبل الخبر من موسى بشكل خاص ، فلما رأى النار وأخبرهم بها أراد أنْ يُطمئنهم فقال : { سَآتِيكُمْ } [النمل : 7] فلما رآهم مُتعلِّقين به يقولون : لا تتركنا في هذا المكان قال : { امكثوا } [طه : 10] وربما قال هذه لزوجه وولده وقال هذه لخادمه . فلا بُدَّ أنهم راجعوه . فاختلفت الأقوال حول الموقف الواحد .

كذلك في قوله : قَبَسٍ أو جَذْوةٍ لأنه حين قال : { لعلي آتِيكُمْ } [طه : 10] يرجو أن يجد هناك القبس ، لكن لعله يذهب فيجد النار جَذْوة . وفي مرة أخرى يجزم فيقول : { سَآتِيكُمْ } [النمل : 7] .

إذن : هي لقطات مختلفة تُكوّن نسيج القصة الكاملة ، وتعددتْ الكلمات لأن الموقف قابلٌ

للمراجعة ، ولا ينتهي بكلمة واحدة .
ثم يقول الحق سبحانه : { فَلَمَّآ أَتَاهَا نُودِيَ }

فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (11)

يقال : إن موسى عليه السلام لما أتاها وجد نوراً يتلألأ في شجرة ، لكن لا خضرةُ الشجرة تؤثر في النور فتبهته ، ولا النورُ يطغي على خضرة الشجرة فيمنع عنها الخضرة ، فهي إذن مسألة عجيبة لا يقدر عليها إلا الله .
فكانت هذه النار هي أول الإيناس لموسى في هذا المكان الموحِش ، وكأن هذا المنظر العجيب الذي رآه إعداد إلهي لموسى حتى يتلقَّى عن ربه ، فليستْ المسألة مجرد منظر طبيعي .
وقوله تعالى : { نُودِيَ ياموسى } [طه : 11] أي : في هذه الدهشة { نُودِيَ } [طه : 11] فالذي يناديه يعرفه تماماً؛ لذلك ناداه باسمه { ياموسى } [طه : 11] وما دام الأمر كذلك فطَمع الخير فيه موجود ، وبدأ موسى يطمئن إلى مصدر النداء ، ويأنَسُ به ، ويبحث عن مصدر هذا الصوت ، ولا يعرف من أين هو؛ لذلك اعتبرها مسألة عجيبة مثل منظر الشجرة التي ينبعث منها النور .
{ إِنِي أَنَآ رَبُّكَ فاخلع نَعْلَيْكَ }

إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (12)

فساعة أنْ كلَّمه ربه : { إِنِي أَنَآ رَبُّكَ } [طه : 12] أزال ما في نفسه من العجب والدهشة لما رآه وسمعه ، وعلم أنها من الله تعالى فاطمأنَّ واستبشر أنْ يرى عجائب أخرى؟
ونلحظ في قوله تعالى : { إِنِي أَنَآ رَبُّكَ } [طه : 12] أن الحق تبارك وتعالى حينما يتحدَّث عن ذاته تعالى يتحدث بضمير المفرد { إِنِي أَنَآ رَبُّكَ } [طه : 12] وحينما يتحدث عن فِعْله يتحدث بصيغة الجمع ، كما في قوله عز وجل : { إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القدر } [القدر : 1] { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر } [الحجر : 9] { إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأرض وَمَنْ عَلَيْهَا } [مريم : 40] .
فلماذا تكلَّم عن الفعل بصيغة الجمع ، في حين يدعونا إلى توحيده وعدم الإشراك به؟ قالوا : الكلام عن ذاته تعالى لا بُدَّ فيه من التوحيد ، كما في : { إنني أَنَا الله لا إله إلا أَنَآ فاعبدني وَأَقِمِ الصلاة لذكري } [طه : 14] .
لكن في الفعل يتكلم بصيغة الجمع؛ لأن الفعل يحتاج إلى صفات متعددة وإمكانات شتَّى ، يحتاج إلى إرادة تريده ، وقدرة على تنفيذه وإمكانات وعلم وحكمة .
إذن : كل صفات الحق تتكاتف في الفعل؛ لذلك جاء الحديث عنه بصيغة الجمع ، ويقولون في

النون في قوله : { نَزَّلْنَا الذكر } [الحجر : 9] { نَرِثُ الأرض } [مريم : 40] أنها : نون التعظيم .

وقد جاء الخطاب لموسى بلفظ الربوبية { إِنِي أَنَاْ رَبُّكَ } [طه : 12] لإيناس موسى؛ لأن الربوبية عطاء ، فخطابه (بربك) أي الذي يتولّى رعايتك وتربيتك ، وقد خلقك من عَدَم ، وأمدك من عُدم ، ولم يقُلْ : إني أنا الله؛ لأن الألوهية مطلوبها تكليف وعبادة وتقييد للحركة بافعل كذا ولا تفعل كذا .

وقوله تعالى : { إِنِي أَنَاْ رَبُّكَ } [طه : 12] أي : ربك أنت بالذات لا الرب المطلق؛ لأن الرسل مختلفون عن الخَلْقِ جميعاً ، فلهم تربية مخصوصة ، كما قال تعالى : { وَلِتُصْنَعَ على عيني } [طه : 39] وقال : { واصطنعتك لِنَفْسِي } [طه : 41] .

إذن : فالحق تبارك وتعالى يُربِّي الرسل تربيةً تناسب المهمة التي سيقومون بها .

وقوله تعالى : { فاخلع نَعْلَيْكَ } [طه : 12] هذا أول أمر ، وخَلْعِ النعل للتواضع وإظهار المهابة؛ ولأن المكان مُقدَّس والعلة { إِنَّكَ بالواد المقدس طُوًى } [طه : 12] فاخلع نعليك حتى لا تفصل بينك وبين مباشرة ذرات هذا التراب .

ومن ذلك ما نراه في مدينة رسول الله من أناس يمشون بها حافيي الأقدام ، يقول أحدهم : لَعلِّي أصادف بقدمي موضع قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقوله : { طُوًى } [طه : 12] اسم الوادي وهذا كلام عام جاء تحديده في موضع آخر ، فقال سبحانه : { فَلَمَّآ أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِىءِ الوادي الأيمن فِي البقعة المباركة مِنَ الشجرة } [القصص : 30] .

والبعض يرى في الآية تكراراً ، وليست الآية كذلك ، إنما هو تأسيس لكلام جديد يُوضِّح ويُحدِّد مكان الوادي المقدس طوى أين هو ، فإنْ قلتَ : أين طوى؟ يقول لك : في الواد الأيمن ، لكن الواد الأيمن نفسه طويل ، فأين منه هذا المكان؟ يقول لك : عند البقعة المباركة من الشجرة .

إذن : فالآية الثانية تحدد لك المكان ، كما تقول أنت : أسكن في حي كذا ، وفي شارع كذا ، في رقم كذا .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَأَنَا اخترتك فاستمع }

وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (13)

أي : وإنْ كنتُ رباً لك ورباً للكافرين فسوف أزيدك خصوصية لك { وَأَنَا اخترتك } [طه : 13] أي : للرسالة ، والله أعلم حيث يجعل رسالته .

لذلك لم نزل القرآن على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اعترض كفار مكة على القرآن ، ولم يجدوا فيه عيباً فيما يدعو إليه من أخلاق فاضلة ومُثل عليا ، ولم يجدوا فيه مَأْخذاً في أسلوبه

، وهم أمة أَلِفتْ الأسلوب الجيد ، وعَشقَتْ آذانها فصاحة الكلام ، فتوجهوا بنقدهم إلى رسول الله فقالوا : { لَوْلاَ نُزّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مّنَ القريتين عَظِيمٍ } [الزخرف : 31] .
فكلُّ اعتراضهم أنْ ينزلَ القرآن على محمد بالذات؛ لذلك رَدَّ عليهم القرآن بما يكشف غباءهم في هذه المسألة ، فقال : { أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبّكَ } [الزخرف : 32] كيف ونحن قد قسمنا بينهم معيشتهم الأدْنى : { نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ } [الزخرف : 32] .
وهم يريدون أنْ يقسموا رحمة الله فيقولون : نزل هذا على هذا ، وهذا على هذا؟
ثم يقول تعالى : { فاستمع لِمَا يوحى } [طه : 13] مادة : سمع . منها : سمع ، واستمع وتسمَّع . قولنا : سمع أي مصادفة وأنت تسير في الطريق تسمع كلاماً كثيراً . منه ما يُهمك وما لا يهمك ، فليس على الأذن حجاب يمنع السمع كالجفْنِ للعين ، مثلاً حين ترى منظراً لا تحبه .
إذن : أنت تسمع كل ما يصل إلى أذنك ، فليس لك فيه خيار .
إنما : استمع أنْ تتكلَّف السماع ، والمتكلم حُر في أنْ يتكلم أو لا يتكلم .
وتسمَّع . أي : تكلّف أشدّ تكلّفاً لكي يسمع .
لذلك؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم حين يخبر أنه ستُعم بلوى الغِنَاء ، وستنتشر الأجهزة التي ستشيع هذه البلوى ، وتصبها في كل الآذان رَغْماً عنها يقول : « مَنْ تسمَّع إلى قَيْنة صب الآنك في أذنيه » .
أي : تكلَّف أنْ يسمع ، وتعمَّد أن يوجه جهاز الراديو أو التلفزيون إلى هذا الغناء ، ولم يقُل : سمع ، وإلاّ فالجميع يناله من هذا الشر رَغْماً عنه .
وهنا قال تعالى : (فَاسْتَمِعْ) ولم يقُلْ : تسمَّع : لأنه لا يقترح على الله تعالى أنْ يتكلم ، ومعنى : استمع أي : جَنِّد كلَّ جوارحك ، وهيىء كُلَّ حواسّك لأن تسمع ، فإنْ كانت الأذن للسمع ، فهناك حواسّ أخرى يمكن أنْ تشغلها عن الانتباه ، فالعين تبصر ، والأنف يشمّ ، واللسان يتكلم .
فعليك أنْ تُجَنِّد كل الحواسّ لكي تسمع ، وتستحضر قلبك لتعي ما تسمعه ، وتنفذ ما طلب منك؛ لذلك حين تخاطب صاحبك فتجده مُنْشغِلاً عنك تقول : كأنك لست معنا . لماذا؟ لأن جارحة من جوارحه شردتْ ، فشغلتْه عن السماع .
وقوله تعالى : { لِمَا يوحى } [طه : 13] الوحي عموماً : إعلام بخفاء من أيٍّ لأيٍّ في أيٍّ ، خيراً كان أم شراً ، أمّا الوحي الشرعي فهو : إعلام من الله إلى رسول أرسله بمنهج خَيْر للعباد ، فإنْ كان الوحي من الله إلى أم موسى مثلاً ، أو إلى الحواريين فليس هذا من الوحي الشرعي .

وهكذا تحدَّدَتْ من أيٍّ لأيٍّ في أيٍّ .
لكن ، كيف ينزل الوحي من الله تعالى على الرسول؟ كيف تلتقى الألوهية في عُلُوّها بالبشرية في

دُنوها؟ إذن : لا بُدَّ من واسطة؛ لذلك قال تعالى : { الله يَصْطَفِي مِنَ الملائكة رُسُلاً وَمِنَ الناس } [الحج : 75] .

فالمصطفى من الملائكة يتقبَّل من الله ، ويعطي للمصطفى من البشر؛ لأن الأعلى لا يمكن أنْ يلتقي بالأدنى مباشرة { وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ الله إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ } [الشورى : 51] .

فاستعداد الإنسان وطبيعته لا تُؤهّله لهذا اللقاء ، كيف ولما تجلَّى الحق سبحانه للجبل جعله دَكّاً ، ومن عظمته سبحانه أننا لا نراه ولا نتكلم معه مباشرة ، ولا نُحِسّه بأيّ حاسة من حواسنا ، ولو حُسَّ الإله بأيّ حاسة ما استحق أنْ يكونَ إلهاً .

وكيف يُحَسُّ الحق تبارك وتعالى ومن خَلْقه وصَنْعته مَا لا يُحَسُّ ، كالروح مثلاً؟ فنحن لا نعلم كُنْهها ، ولا أين هي ، ولا نُحِسّها بأيّ حاسّة من حواسنا ، فإذا كانت الروح المخلوقة لم نستطع أنْ ندركها ، فكيف ندرك خالقها؟

الحق الذي يدَّعيه الناس ويتمسَّحون فيه ، ويفخر كل منهم أنه يقول كلمة الحق ، وكذلك العدل وغيرها من المعاني : أتدركها ، أتعرف لها شكلاً؟ فكيف إذن تطمع في أنْ تدرك الخالق عز وجل؟

إذن : من عظمته سبحانه أنه لا تدركه الحواس ، ولا يلتقي بالخَلْق لقاءً مباشراً ، فالمصطفى من الملائكة يأخذ عن الله ، ويعطي للمصطفى من الخَلْق ، ثم المصطفى من الخَلْق يعطي للخَلْق ، ومع ذلك كان صلى الله عليه وسلم يجهد ، ويتصبَّب جبينه عَرَقاً في أول الوحي؟

ولذلك شاء الحق سبحانه أنْ يحجبَ الوحي عن رسوله فترة ليستريح من مباشرة المَلِك له ، وبانقطاع الوحي تبقى لرسول الله حلاوة ما أوحي إليه ويتشوّق إلى الوحي من جديد ، فيهون عليه ما يلاقي في سبيله من مشقة؛ لأن انشغال القلب بالشيء يُنسي متاعبه؟ .

وقد رُوي أنه صلى الله عليه وسلم حين ينزل عليه الوحي يُسمَع حوله دَوِيٌّ كدَوِيّ النحل ، ولو صادف أن رسول الله وضع رجله على أحد أصحابه حين نزول الوحي عليه فكان الصحابي يشعر كأنها جبل ، وإن نزل الوحي وهو على دابة كانت تنخ وتئن من ثِقَله .

وقد مثّلنا للواسطة بين الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية بالتيار الكهربائي حين نُوصِّله بمصباح صغير لا يتحمل قوة التيار ، فيضعون له جهازاً ينظم التيار ، ويعطي للمصباح على قَدْر حاجته وإلاّ يحترق .

ثم يقول الحق سبحانه : { إنني أَنَا الله }

إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14)

في الآية قبل السابقة خاطبه ربه : { إني أَنَآ رَبُّكَ } [طه : 12] ليُطمئنه ويُؤنسه بأنه المربِّي العطوف ، يعطي حتى للكافر الذي يعصاه ، لكن هنا يخاطبه بقوله : { إنني أَنَا الله } [طه :

14] أي : صاحب التكاليف ، والمعبود المطاع في الأمر والنهي ، وأوّل هذه التكاليف وقمّتها ، والينبوع الذي يصدر عنه كل السلوك الإيماني : { إنني أَنَا الله لا إله إلا أَنَاْ } [طه : 14] . لذلك قال عنها النبي صلى الله عليه وسلم : « خير ما قلت أنا والنبيون من قبلي : لا إله إلا الله » .

وما دام لا إله إلا هو فلا يصح أنْ نتلقَّى الأمر والنهي إلاَّ منه ، ولا نعتمد إلا عليه ، ولا يشغل قلوبنا غيره ، وهو سبحانه يريد منا أنْ نكون وكلاء : { وَتَوَكَّلْ عَلَى الحي الذي لاَ يَمُوتُ } [الفرقان : 58] .

فالناصح الفطن الذي لا يتوكل على أحد غير الله ، فربما توكّلت على أحد غيره ، فأصبحت فلم تجده ، وصدق الشاعر حين قال :

اجْعَلْ بربّكَ كُلَّ عِزّكَ ... يسْتقِرُّ وَيثبتُ

فَإِذَا اعْتَززْتَ بمَنْ يموتُ ... فإنَّ عِزَّكَ ميّتُ

فكأن الحق سبحانه في قوله : { لا إله إلا أَنَاْ } [طه : 14] يقول لموسى : لا تخفْ ، فلن تتلقى أوامر من غيري ، كما قال سبحانه في أية أخرى : { قُلْ لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إلى ذِي العرش سَبِيلاً } [الإسراء : 42] .

أي : لذهبَ هؤلاء الذي يدَّعُون الألوهية إلى الله يجادلونه أو يتودَّدون إليه ، ولم يحدث شيء من هذا .

ويشترط فيمن يُعطي الأوامر ويُشرّع ويُقنّن ألاَّ ينتفع بشيء من ذلك ، وأن تكون أوامره ونواهيه لمصلحة المأمورين ، ومن هنا يختلف قانون الله عن قانون البشر الذي يدخله الهوى وتخالطه المصالح والأغراض ، فمثلاً إنْ كان المشرّع والمقنّن من العمال انحاز لهم ورفعهم فوق الرأسماليين ، وإن كان من هؤلاء رفعهم فوق العمال .

وكذلك ألاَّ يغيب عنه شيء يمكن أنْ يُستدرك فيما بعد ، وهذه الشروط لا توجد إلا في التشريع الإلهي ، فله سبحانه صفات الكمال قبل أن يخلق الخَلْق .

لذلك قال بعدها : { فاعبدني } [طه : 14] بطاعة أوامري واجتناب نواهيَّ ، فليس لي هَوَى فيما آمرك به ، إنما هي مصلحتك وسلامتك .

ومعنى العبادة : الناس يظنون أنها الصلاة والزكاة والصوم والحج ، إنما للعبادة معنى أوسع من ذلك بكثير ، فكلُّ حركة في الحياة تؤدي إلى العبادة ، فهي عبادة كما نقول في القاعدة : كُلُّ ما لا يتمُّ الواجب إلا به فهو واجب .

فالصلاة مثلاً لا تتم إلا بستْر العورة ، وعليك أنْ تتأمل قطعة القماش هذه التي تستر بها عورتك : كم يد ساهمتْ فيها منذ كانتْ بذرة في الأرض ، إلى أنْ أصبحتْ قماشاً رقيقاً يستر عورتك؟ فكلُّ واحد من هؤلاء كان في عبادة وهو يُؤدِّي مهمته في هذه المسألة .

كذلك رغيف العيش الذي تأكله ، صنبور المياه الذي تتوضأ منه ، كم وراءها من أيادٍ وعمال ومصانع وعلماء وإمكانات جُنِّدَتْ لخدمتك ، لتتمكن من أداء حركتك في الحياة؟

لذلك ، فالحق تبارك وتعالى حينما يُحدِّثنا عن الصلاة يوم الجمعة يقول : { يأأيها الذين آمنوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الجمعة فاسعوا إلى ذِكْرِ الله وَذَرُواْ البيع ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاة فانتشروا فِي الأرض وابتغوا مِن فَضْلِ الله } [الجمعة : 910] .

وهكذا أخرجنا إلى الصلاة من عمل ، وبعد الصلاة أمرنا بالعمل والسعي والانتشار في الأرض والابتغاء من فضل الله ، فمخالفة الأمر في : { فاسعوا إلى ذِكْرِ الله وَذَرُواْ البيع ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ } [الجمعة : 9] كمخالفة الأمر في : { فانتشروا فِي الأرض وابتغوا مِن فَضْلِ الله } [الجمعة : 10] .

وخَصَّ البيع هنا؛ لأن البائع أحرص على بيْعه من المشتري على شرائه ، وربما كان من مصلحة المشتري ألاَّ يشتري؟

فالإسلام إذن لا يعرف التكاسل ، ولا يرضى بالتنبلة والقعود ، ومَنْ أراد السكون فلا ينتفع بحركة متحرِّك .

وسيدنا عمر رضي الله عنه حينما رأى رجلاً يقيم بالمسجد لا يفارقه سأل : ومَنْ ينفق عليه؟ قالوا : أخوه ، قال : أخوه أعبد منه . لماذا؟ لأنه يسهم في حركة الحياة ويوسع المنفعة على الناس .

إذن : فكلُّ عمل نافع عبادة شريطة أنْ تتوفر له النية ، فالكافر يعمل وفي نيته أنْ يرزق نفسه ، فلو فعل المؤمن كذلك ، فما الفرق بينهما؟ المؤمن يعمل ، نعم لِيقوتَ نفسه ، وأيضاً لِيُيسِّر لإخوانه قُوتَهم وحركة حياتهم . فسائق التاكسي مثلاً إذا عمل بمبلغ يكفيه ، ثم انصرف إلى بيته ، وأوقف سيارته ، فمَنْ للمريض الذي يحتاج مَنْ يُوصِّله للطبيب؟ والبائع لو اكتسب رزقه ، ثم أغلق دكانه مَنْ يبيع للناس؟

إذن : اعمل لنفسك ، وفي بالك أيضاً مصلحة الغير وحاجتهم ، فإنْ فعلتَ ذلك فأنت في عبادة . تعمل على قَدْر طاقتك ، لا على قَدْر حاجتك ، ثم تأخذ حاجتك من منتوج الطاقة ، والباقي يُرَدُّ على الناس إما في صورة صدقة ، وإما بثمن ، وحَسْبك أنْ يسرت له السبيل .

إذن : نقول : العبادة كل حركة تؤدي خدمة في الكون نيتك فيها لله .

ثم يقول تعالى : { وَأَقِمِ الصلاة لذكري } [طه : 14] فلماذا خَصَّ الصلاة دون سائر العبادات؟

قالوا : لأن الصلاة هي العبادة الدائمة التي لا تنحلّ عن المؤمن ، ما دام فيه نَفَس ، فالزكاة مثلاً تسقط عن الفقير ، والصيام يسقط عن المريض ، والحج يسقط عن غير المستطيع ، أمّا الصلاة فلا عذر أبداً يبيح تركها ، فتصلي قائماً أو قاعداً أو مضطجعاً ، فإنْ لم تستطيع تصلي ، ولو إيماءً برأسك أو بجفونك ، فإنْ لم تستطع فحَسْبُك أن تخطرها على قلبك ، ما دام لك وَعْي ،

فهي لا تسقط عنك بحال .
كذلك ، فالصلاة عبادة مُتكرّرة : خمس مرات في اليوم والليلة؛ لتذكرك باستمرار إنْ أنستْك مشاغل الحياة رب هذه الحياة ، وتعرض نفسك على ربك وخالقك خمس مرات كل يوم .

وما بالك بآلة تُعرَض على صانعها هكذا ، أيمكن أن يحدث بها عُطْل أو عَطَب؟
أما الزكاة فهي كل عام ، أو كل محصول ، والصوم شهر في العام ، والحج مرة واحدة في العمر .
لذلك ، كان النبي صلى الله عليه وسلم كلما حَزَبه أمر قام إلى الصلاة ليعرض نفسه على ربه وخالقه عز وجل ، ونحن نصنع هذا في الصنعة المادية حين نعرض الآلة على صانعها ومهندسها الذي يعرف قانون صيانتها .
وفي الحديث الشريف : « وجعلت قرة عيني في الصلاة » .
وسبق أن ذكرنا أن للصلاة أهميتها؛ لأنها تُذكّرك بربك كل يوم خمس مرات ، وتُذكّرك أيضاً بنفسك ، وبقَدر الله في الآخرين حين ترى الرئيس ومرؤوسه جَنْباً إلى جَنْب في صفوف الصلاة ، فإنْ جئتَ قبل رئيسك جلستَ في الصف الأول ، وجلس هو خلفك ، ثم تراه وهو منُكسِر ذليل لله تعالى ، وهو يعرف أنك تراه على هذه الهيئة فيكون ذلك أدْعى لتواضعه معك وعدم تعاليه عليك بعد ذلك .
وكم رأينا من أصحاب مناصب وقيادة يبكون عند الحرم ، ويتعلقون بأستار الكعبة وعند المتلزم ، وهو العظيم الذي يعمل له الناس ألف حساب . ففي الصلاة إذن استطراق للعبودية لله تعالى .
لذلك من أخطر ما مُنِي به المسلمون أنْ تجعلَ في المسجد أماكن خاصة لنوعية معينة يُخلَى لها المكَان ، ويصاحبها الحرس حتى في بيت الله ، ثم يأتي في آخر الوقت ويجلس في الصف الأول ، وآخر يفرش سجادته ليحجز بها مكاناً لحين حضوره ، فيجد المكان خالياً .
وينبغي على عامة المسلمين أن يرفضوا هذا السلوك ، وعليك أنْ تُنحِّي سجادته جانباً ، وتجلس أنت؛ لأن أولوية الجلوس بأولوية الحضور ، فقد صفها الله في المسجد إقبالاً عليه . وهذه العادة السيئة تُوقع صاحبها في كثير من المحظورات ، حيث يتخطى رقاب الناس ، ويُميِّز نفسه عنهم دون حق ، ويحدث انتقاص عبودي في بيت الله .
ولأهمية الصلاة ومكانتها بين العبادات تميّزت في فرضها بما يناسب أهميتها ، فكُلُّ العبادات فُرِضَتْ بالوحي إلا الصلاة ، فقد استدعى الحق رسوله الصدق ليبلغه بها مباشرة لأهميتها .
وقد ضربنا لذلك مثلاً ولله المثل الأعلى بالرئيس إذا أراد أنْ يُبلِّغ مرؤوسه أمراً يكتب إليه ، فإنْ كان الأمر مهماً اتصل به تليفونياً ، فإنْ كان أهمّ استدعاه إليه لِيُبلِّغه بنفسه . ولما قرَّبه الله إليه بفرض الصلاة جعل الصلاة تقرُّباً لعباده إلى الله .
وقوله : { وَأَقِمِ الصلاة لذكري } [طه : 14] أقام الشيء : جعله قائماً على أُسس محكمة ،

فإقامة الصلاة أن تؤديها مُحكَمة كاملة الأركان غير ناقصة .

{ لذكري } [طه : 14] أي : لتذكري؛ لأن دوام ورتابة النعمة قد تُنسيك المنعم ، فحين تسمع نداء (الله أكبر) ، وترى الناس تُهرَع إلى بيوت الله لا يشغلهم عنها شاغل تتذكر إنْ كنتَ ناسياً ، وينتبه قلبك إنْ كنتَ غافلاً .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : { إِنَّ الساعة آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا }

إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (15)

أي : مع ما سبق وَطِّنْ نفسك على أن الساعة آتية لا محالةَ ، والساعة هنا هي عمر الكون كله ، أمّا أعمار المكين في الكون فمتفاوته ، كل حسب أجله ، فمَنْ مات فقد قامت قيامته وانتهت المسألة بالنسبة له .

إذن : نقول : الساعة نوعان : ساعة لكُلٍّ منا ، وهي عمره وأجَله الذي لا يعلم متى سيكون ، وساعة للكون كله ، وهي القيامة الكبرى .

فقوله تعالى : { إِنَّ الساعة آتِيَة } [طه : 15] أي : اجعل ذلك في بالك دائماً ، ومادام الموت سينقلك إليها سريعاً فإياك أنْ تقول : سأموت قريباً ، أما القيامة فبعد آلاف أو ملايين السنين؛ لأن الزمن مُلغىً بعد الموت ، كيف؟

الزمن لا يضبطه إلا الحدث ، فإن انعدم الحدث فقد انعدم الزمن ، كما يحدث لنا في النوم ، وهل تستطيع أنْ تُحدِّد الوقت الذي نمْتَه؟ لذلك قال الحق سبحانه وتعالى : {كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يلبثوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا } [النازعات : 46] .

والعبد الذي أماته الله مائة عام لما بعثه قال : يوماً أو بعض يوم ، وكذلك قال أهل الكهف بعد ثلاثمائة سنة وتسع ، لأن يوماً أو بعض يوم هي أقْصى ما يمكن تصوُّره للنائم حين ينام؛ لذلك نقول : « مَنْ مات فقد قامت قيامته » .

ومن حكمته سبحانه أن أخفى الساعة ، أخفاها للفرد ، وأخفاها للجميع؛ وربما لو عرف الإنسان ساعته لقال : أفعل ما أريد ثم أتوب قبل الموت؛ لذلك أخفاها الحق تبارك وتعالى لنكون على حذر أنْ نلقى الله على حال معصية .

وكذلك أخفى الساعة الكبرى ، حتى لا تأخذ ما ليس لك من خَلْق الله ، وتنتفع به ظُلْماً وعدواناً ، وتعلم أنك إنْ سرقتَ سترجع إلى الله فيحاسبك ، فما دُمْتَ سترجع إلى الله فاستقِمْ وعَدِّل من سلوكك ، كما يقول أهل الريف (ارع مساوي) .

وقوله تعالى : { آتِيَةٌ } [طه : 15] أي : ليس مَأْتِياً بها ، فهي الآتية ، مع أن الحق تبارك وتعالى هو الذي سيأتي بها ، لكن المعنى (آتية) كأنها منضبطة (أوتوماتيكيا) ، فإنْ جاء وقتها حدثتْ .

وقوله تعالى : { أَكَادُ أُخْفِيهَا } [طه : 15] كاد : أي : قَرُب مثل : كاد زيد أن يجيء أي : قَرُب لكنه لم يأْتِ بعد ، فالمراد : أقرب أن أخفيها ، فلا يعلم أحد موعدها ، فإذا ما وقعتْ فقد عرفناها . كما قال تعالى : { إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلاَّ هُوَ } [الأعراف : 187] .

وقد تكون { أُخْفِيهَا } [طه : 15] بمعنى آخر ، فبعض الأفعال الثلاثية تُعطى عكس معناها عند تضعيف الحرف الثاني منها ، كما في : مرض أي : أصابه المرض . ومرَّضه الطبيب . أي : عالجه وأزال مرضه . وقَشَرتُ الشيء أي : جعلْتُ له قشرة ، وقشَّرتُ البرتقالة أزلْتُ قِشْرها . ومن ذلك قوله تعالى : { تَاللهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حتى تَكُونَ حَرَضاً } [يوسف : 85] والحَرَض : هو الهلاك . من : حَرِض مثل : تَعب .

وقوله تعالى : { ياأيها النبي حَرِّضِ المؤمنين عَلَى القتال } [الأنفال : 65] .

ومعنى (حَرِّض) حثَّهم على القتال ، الذي يُزيل عنهم الهلاك أمام الكفار؛ لأنهم إنْ لم يجاهدوا هلكوا ، فَحرِض : هلك ، وحرَّض : أزال الهلاك .

وقد يأتي مضاد الفعل بزيادة الهمزة على الفعل مثل : { وَأَمَّا القاسطون فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَباً } [الجن : 15] فالقاسط من قسط . أي : الجائر بالكفر .

أما في قوله تعالى : { إِنَّ الله يُحِبُّ المقسطين } [المائدة : 42] فالمقسط من أقسط : العادل الذي يُزيل الجوْرَ . وإنْ كانت المادة واحدة هي (قَسَط) فالمصدر مختلف نقول : قسط قِسْطاً أي : عدل ، وقسط قَسْطاً وقسوطاً يعني : جار . فهذه الهمزة في أقسط تسمى « همزة الإزالة » .

ومن الفعل الثلاثي قَسَطَ يستعمل منها : القسط والميزان والفرق بين قَسَط وأقسط : قسط أي : عدل من أول الأمر وبادىء ذي بَدْء ، إنما أقسط : إذا وجد ظُلْماً فرفعه وأزاله ، فزاد على العدل أنْ أزال جَوْراً .

وأيضاً الفعل (عجم) عجم الأمر : أخفاه ، وأعجمه : أزال خفاءه . ومن ذلك كلمة المعجم الذي يزيل خفاء الكلمات ويُوضِّحها .

وكذلك في قوله تعالى : { أَكَادُ أُخْفِيهَا } [طه : 15] خفى بمعنى : استتر وأخفاها : أزال خفاءها ، ولا يُزَال خفاء الشيء إلا بإعلانه .

ثم يقول تعالى : { لتجزى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تسعى } [طه : 15] .

وإلا لو لم يكُنْ في الآخرة حساب وجزاء لَكَان الذين أسرفوا على أنفسهم وعربدوا في الوجود أكثر حظاً من المؤمنين المتلزمين بمنهج الله؛ لذلك في نقاشنا مع الشيوعيين قُلْنا لهم : لقد قتلتم مَنْ أدركتموه من أعدائكم من الرأسماليين ، فما بال مَنْ مات ولم تدركوه؟ وكيف يفلت منكم

هؤلاء؟

لقد كان أَوْلَى بكم أن تؤمنوا بمكان آخر لا يفلت منه هؤلاء ، وينالون فيه جزاءهم ، إنها الآخرة التي تُجزَى فيها كُلُّ نفس بما تسعى .

ثم يقول الحق سبحانه : { فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ }

فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (16)

كأن الحق تبارك وتعالى يعطي لموسى عليه السلام مناعة لما سيقوله الكافرون الذين يُشكِّكون في الآخرة ويخافون منها ، وغرضهم أنْ يكون هذا كذباً فليست الآخرة في صالحهم ، ومن حظهم إنكارها .

فإياك أنْ تصغي إليهم حين يصدونك عنها ، يقولون : { أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ آبَآؤُنَا الأولون } [الصافات : 1617] .

ولماذا يستبعدها هؤلاء؟ أليس الذي خلقهم مِنْ لا شيء بقادر على أنْ يعيدهم بعد أن صاروا عِظاماً؟

والحق سبحانه يقول : { وَهُوَ الذي يَبْدَؤُاْ الخلق ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ } [الروم : 27] .

وهذا قياس على قَدْر أفهامكم وما تعارفتم عليه من هَيّن وأهْوَن ، أما بالنسبة للحق تبارك وتعالى فليس هناك هيّن وأهون منه؛ لأن أمره بين الكاف والنون؟

لكن لماذا يصدُّ الكفار عن الآخرة ، والإيمان بها؟ لأنهم يعلمون أنهم سَيُجازون بما عملوا ، وهذه مسألة صعبة عليهم ، ومن مصلحتهم أن تكون الآخرة كذباً .

وصدق أبو العلاء المعري حين قال :

زَعَمَ المنجِّمُ والطبيبُ كِلاَهُمَا ... لاَ تُحْشَرُ الأجْسَادُ قُلْتُ إليْكُمَا

إنْ صَحَّ قَولكُمَا فلسْتُ بخَاسِرٍ ... أَوْ صَحَّ قَوْلِي فَالخسَارُ عليكُمَا

أي أن المؤمن بالبعث إن لم يكسب فلن يخسر ، أما أنتم أيها المنكرون فخاسرون .

وقوله تعالى : { فتردى } [طه : 16] أي : تهلك من الردَى ، وهو الهلاك .

وهكذا جاء الكلام من الله تعالى لموسى عليه السلام أولاً : البداية إيماناً بالله وحده لا شريك له ، وهذه القمة الأولى ، ثم جاء بالقمة الأخيرة ، وهي البعث فالأمر إذن منه بداية ، وإليه نهاية : { إنني أَنَا الله لا إله إلا أَنَاْ } [طه : 14] إلى أنْ قال : { إِنَّ الساعة آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا } [طه : 15] .

وبعد ذلك شرح لنا الحق سبحانه بَدْء إيحائه لرسوله موسى عليه السلام : { وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ ياموسى }

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17)

ما : استفهامية . والتاء بعدها إشارة لشيء مؤنَّث ، هو الذي يمسكه موسى في يده ، والكاف للخطاب ، كأنه قال له : ما هذا الشيء الذي معك؟ والجواب عن هذا السؤال يتم بكلمة واحدة : عَصَا .

أمّا موسى عليه السلام فهو يعرف أن الله تعالى هو الذي يسأل ، ولا يَخْفَى عليه ما في يده ، ولكنه كلام الإيناس؛ لأن الموقف صعب عليه ، ويريد ربه أنْ يُطمئنَه ويُؤنِسَه .

وإذا كان الإيناس من الله ، فعلى العبد أنْ يستغلّ هذه الفرصة ويُطيل أمدَ الائتناس بالله عز وجل ، ولا يقطع مجال الكلام هكذا بكلمة واحدة؛ لذلك رد موسى عليه السلام : { قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا }

قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (18)

قال موسى : { قَالَ هِيَ عَصَايَ } [طه : 18] ، ثم يفتح لنفسه مجالاً آخر للكلام : { أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا على غَنَمِي } [طه : 18] وهنا يرى موسى أنه تمادى وزاد ، فيحاول الاختصار : { وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أخرى } [طه : 18] .

وكان موسى ينتظر سؤالاً يقول : وما هذه المآرب؟ ليُطيل أُنْسه بربه ، وإذا كان الخطاب مع الله فلا يُنهِيه إلا زاهد في الله .

وللعصا تاريخ طويل مع الإنسان ، فهي لازمة من لوازم التأديب والرياضة ، ولازمة من لوازم الأسفار ، ولها أهميتها في الرعي . . الخ وهنا يذكر موسى عليه السلام بعض هذه الفوائد يقول : { أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا } [طه : 18] أي : أعتمد عليها ، وأستند عندما أمشي ، والإنسان يحتاج إلى الأعتماد على عصا عند السير وعند التعب؛ لأنه يحتاج إلى طاقتين : طاقة للحركة والمشي ، وطاقة لحمل الجسم والعصا تساعده في حَمْل ثقل جسمه ، خاصة إنْ كان مُتْعباً لا تقوَى قدماه على حَمْله .

فقوله : { أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا } [طه : 18] أي : أعتمد عليها حين المشي وحين أقف لرعي الغنم فأستند عليها ، والاتكاء يراوح الإنسان بين قدميْه فيُريح القدم التي تعبتْ ، وينتقل من جنب إلى جنب .

والإنسان إذا ما استقرّ جسمه على شيء لمدة طويلة تنسدّ مسامّ الجسم في هذا المكان ، ولا تسمح بإفراز العرق ، فيُسبّب ذلك ضرراً بالغاً نراه في المرضى الذين يلازمون الفراش لمدة طويلة ، ويظهر هذا الضرر في صورة قرحة يسمونها « قرحة الفراش »؛ لذلك ينصح الأطباء هؤلاء المرضى بأن يُغيّروا من وضْعِهم ، فلا ينامون على جنب واحد .

لذلك شاءت قدرة الله عز وجل أنْ يُقلِّب أهل الكهف في نومهم من جَنْب إلى جَنْب ، كما قال سبحانه : { وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ اليمين وَذَاتَ الشمال } [الكهف : 18] .

لذلك إذا وقف الإنسان طويلاً ، أو جلس طويلاً ولم يجد له متكأ تراه قَلِقاً غير مستقر ، ومن هنا كان المتَّكأ من مظاهر النعمة والترف في الدنيا وفي الآخرة ، كما قال تعالى في شأن امرأة العزيز : { وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئاً } [يوسف : 31] .

وقال عن نعيم الآخرة : { مُتَّكِئِينَ على سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ } [الطور : 20] .

وقال : { مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ } [الرحمن : 54] .

وقال الحق تبارك وتعالى : { مُتَّكِئِينَ على رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ } [الرحمن : 76] .

فالاتكاء وسيلة من وسائل الراحة ، وعلى الإنسان أنْ يُغيِّر مُتكاهُ من جنب إلى جنب حتى لا يتعرّض لما يسمى ب « قرحة الفراش » .

ومن فوائد العصا : { وَأَهُشُّ بِهَا على غَنَمِي } [طه : 18] أي : أضرب بها أوراق الشجر فتتساقط فتأكلها الغنم والماشية؛ لأن الراعي يمشي بها في الصحراء ، فتأكل من العِذْي ، وهو النبات الطبيعي الذي لم يزرعه أحد ، ولا يسقيه إلا المطر ، فإن انتهى هذا العُشْب اتجه الراعي إلى الشجر العالي فيُسقِط ورقه لتأكله الغنم ، فيحتاج إلى العصا ليؤدي بها هذه المهمة .

إذن : قوله : { أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا } [طه : 18] لراحته هو ، و { وَأَهُشُّ بِهَا على غَنَمِي } [طه : 18] لخدمة الرعية ، وفيها سياسة إدارة الرزق كلها للماشية وللناس ، ورَعْي الغنم وسياستها تدريب على سياسة الأمة بأسْرها؛ لذلك ما بعث الله من نبي إلا ورَعَى الغنم ليتعلم من سياسة الماشية سياسة الإنسان .

وفي الحديث الشريف : « ما بعث الله من نبي إلا ورعى الغنم ، وأنا كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة » .

ولما أحسَّ موسى عليه السلام أنه أطال في خطاب ربه عز وجل أجمل فقال : { وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أخرى } [طه : 18] أي : منافع .

وقد حاول العلماء جزاهم الله عَنَّا خيراً البحث في هذه المآرب الأخرى التي لم يذكرها موسى عليه السلام ، فتأملوا حال الرعاة ، وما وظيفة العصا في حياتهم فوجدوا لها منافع أخرى غير ما ذكر .

من هذه المنافع أن الراعي البدائي يضع عصاه على كتفه ويُعلِّق عليها زاده من الطعام والشراب ، وبعض الرعاة يستغل وقته أيضاً في الصيد ، فيحتاج إلى أدوات مثل : القوس ، والنبل ، والسهام والمخلاة التي يجمع فيها صَيْده ، فتراه يضع عصاه على كتفه هكذا بالعرض ، ويُعلِّق عليها هذه الأدوات من الجانبين .

فإذا ما اشتدت حرارة الشمس ولم يجد ظلالاً غرز عصاه في الأرض ، وألقى بثوبه عليها فجعل

منها مثل الخيمة أو المظلة تقيه حرارة الجو . فإن احتاج للماء ذهب للبئر ، وربما وجده غائر الماء لا يبلغه الدلو فيحتاج للعصا يربطها ويُطيل بها الحبل ، إلى غير ذلك من المنافع .

وبعض العلماء يقولون : لقد كان موسى عليه السلام ينتظر أن يسأله ربه عن هذه المآرب ليطيل الحديث معه ، لكن الحق سبحانه لم يسأله عن ذلك؛ لأنه سينقله إلى شيء أهم من مسألة العصا ، فما ذكْرتَه يا موسى مهمة العصا معك ، أمّا أنا فأريد أنْ أخبرك بمهمتها معي :

ثم يقول الحق سبحانه : { قَالَ أَلْقِهَا ياموسى }

قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (19)

ارْم بها على الأرض ، وهو هنا إلقاء الدُّرْبة والتمرين على لقاء فرعون ، وهنا خرجت العصا عن ناموسها الذي يعلمه موسى عليه السلام ، لم تعد للتوكؤ والهش على الغنم ، ولكنها تنتقل من جنس الخشب إلى جنس الحيوان فتصير حية ، قال الحق سبحانه : { فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ }

فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (20)

وهذه نَقْلة كبيرة في مسألة العصا ، فقد كان في الإمكان لإثبات المعجزة أنْ تتحوَّل العصا ، وهي عود جاف من الخشب إلى شجرة خضراء ، لكن الحق تبارك وتعالى يُجرِي لموسى هذه المعجزة؛ لأنه سيحتاج إليها فيما بعد ، ولو تحولتْ العصا إلى شجرة خضراء فسوف تستقر في مكانها ، أما حين تتحول إلى حيّة فهي حيوان مُتحَرّك ، تجري هنا وهناك ، وهذا ما سيحتاجه موسى في معركته القادمة .

ألقى موسى عصاه { فَإِذَا هِيَ } [طه : 20] إذا هنا فجائية كما تقول : خرجتُ فإذا أسدٌ بالباب . وحينما ألقى موسى العصا سرعان ما تحولت وهي جافة يابسة إلى حيّة ، وحيّة تسعى ليستْ جامدة ميتة ، أليست هذه مفاجأة؟

وطبيعي أن يخاف موسى عليه السلام مما رآه ، فطمأنه ربه فقال : { قَالَ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ }

قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (21)

أي : امسكها بيدك ، وسوف نعيدها في الحال { سِيرَتَهَا الأولى } [طه : 21] أي : كما كانت عصا يابسة جافة في يدك ، وقال : { لاَ تَخَفْ } [طه : 21] لما ظهر عليه من أمارات الخوف . وقد أخبر عن خوفه في آية أخرى : { فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً موسى } [طه : 67] .

وكانت هذه المسألة تدريباً لموسى عليه السلام وتجربةً ، فللعصا مهمة في رسالته ، وسوف تكون هي معجزته في صراعه مع فرعون حين يضرب بها البحر وفي دعوته لبني إسرائيل حين يضرب بها

الحجر فيتفجّر منه الماء .

وقد عالج القرآن هذه القصة في لقطات مختلفة ، فمرة يقول عن العصا كأنها ثعبان . ومرة يقول : حيّة . وأخرى يقول : جان؛ لذلك اعترض البعض على هذه الاختلافات ، فأيها كانت العصا؟ الحقيقة أنها صور مختلفة للعصا حينما انقلبتْ ، فمن ناحية قتْلتها المميتة هي حية ، ومن ناحية ضخامتها ثعبان ، ومن ناحية خِفَّة حركتها جان ، وكل هذه الخصائص كانت في العصا ، وحين تجمع كل هذه اللقطات تعطيك الصورة الكاملة للعصا بعد أنْ صارت حية . فآيات القرآن إذن تتكامل لترسم الصورة المرادة للحق تبارك وتعالى .

ثم يقول الحق سبحانه : { واضمم يَدَكَ إلى جَنَاحِكَ }

وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى (22)

اليد معروفة ، والجناح للطائر ، ويقابله في الإنسان الذراع بداية من العَضُد ، والحق سبحانه حينما أوصانا بالوالدين قال : { واخفض لَهُمَا جَنَاحَ الذل مِنَ الرحمة } [الإسراء : 24] يعني : تواضع لهما ، ولا تتعالَ عليهما .

وفي موضع آخر قال تعالى : { اسلك يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سواء } [القصص : 32] .

والجَيْب : طَوْق القميص ، سُمِّي جَيْباً؛ لأنهم كانوا في الماضي يجعلون الجيب الذي يضعون به النقود أو خلافه في داخل الثوب ، ليكون بعيداً عن يد السارق ، فإذا ما احتاج الإنسان شيئاً في جَيْبه يُدخِل يده من طَوْق القميص ليصل إلى الجيْب فسُمِّي الطوق جيباً . وهذا من مظاهر التكامل بين الآيات .

والمعنى هنا : اضمم كف يدك اليمنى ، وأدْخله من طَوْق قميصك إلى تحت عَضُدك الأيسر { تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سواء } [طه : 22] أي : ساعة أنْ تُخرِج يدك تجدها بيضاء ، لها ضوء ولمعان وبريق وشعاع .

ومعلوم أن موسى عليه السلام كان أسمر اللون ، كما وصفه النبي صلى الله عليه وسلم حينما طُلِب منه أنْ يَصف الرسل الذين لقيهم في رحلة الإسراء والمعراج ، فقال : « أما موسى ، فرجل آدم طُوَال ، كأنه من رجال أزدشنوءة . . . . » .

أي : أسمر شديد الطول؛ لان طُوَال يعني : أكثر طولاً من الطويل .

ومن هنا كان بياضُ اليد ونورها في سُمْرة لونه آيةً من آيات الله ، ولو كان موسى أبيض اللون ما ظهر بياضُ يده .

وقوله : { مِنْ غَيْرِ سواء } [طه : 22] أي : من غير مرض ، فقد يكون البياض في السُّمرة مرضاً والعياذ بالله كالبرص مثلاً . فنفى عنه ذلك .

وقوله تعالى : { آيَةً أخرى } [طه : 22] أي : معجزة ، لكنه لم يقُلْ شيئاً عن الآية الأولى ، فدلَّ ذلك على أن العصا كانت الآية الأولى ، واليد الآية الأخرى .

ثم يقول الحق سبحانه : { لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الكبرى }

لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (23)

أي : نُريك الآيات العجيبة عندنا؛ لتكون مقدمة لك ، فحين نأمرك بشيء من هذا القبيل فاعلم أن الذي يأمرك ربُّ لن يغشَّك ، ولن يتخلى عنك ، وسوف يُؤيدك وينصرك ، فلا ترتَعْ ولا تخف أو تتراجع .

وكأن الحق تبارك وتعالى يُعِدُّ نبيه موسى للقاء مرتقب مع عدوه فرعون الذي ادعى الألوهية .

ثم بعد هذه الشحنة والتجربة العملية يقول له : { اذهب إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طغى }

اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (24)

فلماذا أرسله إلى فرعون أولاً ، ولم يرسله إلى قومه؟ قالوا : لأن فرعون فعل فعلاً فظيعاً ، حيث ادعى الألوهية ، وهي القمة في الاعتداء ، ثم استعبد بني إسرائيل ، فلا بُدَّ أن نُصفِّي الموقف أولاً مع فرعون .

لذلك حدثت معجزة العصا في ثلاثة مواقف .

الأول : وكان لِدُرْبة موسى ورياضته على هذه العملية ، وكانت هذه المرة بين موسى وربه عز وجل تدريباً ، حتى إذا أتى وقت مزاولتها أمام فرعون لم يتهيّب منها أو يتراجع ، بل باشرها بقلب ثابت واثق .

والثاني : كان مع فرعون بمفرده ترويعاً له .

والثالث : مع السَّحَرة تجميعاً .

فكُلُّ موقف من هذه المواقف كان لحكمة وله دور ، وليس في المسألة تكرار كما يدَّعي البعض .

وقوله تعالى : { إِنَّهُ طغى } [طه : 24] الطغيان : مجاوزة الحدّ ، ومجاوزة الحدِّ يكون بأخْذ ما ليس لك والمبالغة في ذلك ، وليْتَه أخذ من المساوي له من العباد ، إنما أخذ ما ليس له من صفات الله عز وجل .

ولما سمع موسى اسم فرعون ، تذكَّر ما كان من أمره في مصر ، وأنه تربَّى في بيت هذا الفرعون الذي ادَّعى الألوهية ، فكيف سيواجهه .

كما تذكَّر قصة الرجل الذي وكَزه فقتله ، ثم خرج منها خائفاً يترقب ، فلما شعر موسى أن العبء ثقيل قال : { قَالَ رَبِّ اشرح لِي صَدْرِي }

قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25)

كأنه قال : يا رب أنا سأنفّذ أوامرك؛ لكني لا أريد أنْ أُقبل على هذه المهمة وأنا منقبض الصدر منْ ناحيتها؛ لأن انقباضَ الصدر من الشيء يُهدِر الطاقة ويُبدِّدها ، ويعين الأحداث على النفس .

لذلك دعا موسى بهذا الدعاء : { رَبِّ اشرح لِي صَدْرِي } [طه : 25] ليوفر قوته لأداء هذه المهمة الصعبة التي تحتاج إلى مجهود يناسبها ، ومعنى ذلك أنه انقبض صدره من لقاء فرعون للأسباب الذي ذُكِرت .

ثم قال : { وَيَسِّرْ لي أَمْرِي }

وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (26)

لأن شَرْح الصدر في هذه المسألة لا يكفي ، فشَرْح الصدر من جهة الفاعل ، وقد يجد من القليل لَدَداً شديداً وعناداً؛ لذلك قال بعدها : { وَيَسِّرْ لي أَمْرِي } [طه : 26] فلا أجد لَدَداً وطغياناً من فرعون ، فتيسير الامر من جهة القابل للفعل بعد شرح الصدر عند الفاعل .

وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (27)

لأن الكلام وتبليغ الرسالة يحتاج إلى منطق ولسان مُنطلِق بالكلام ، وكان موسى عليه السلام لديه رُتَّة أو حُبْسَة في لسانه ، فلا ينطلق في الكلام .

وكانت هذه الرُّتَّة أيضاً في لسان الحسين بن علي رضي الله عنهما وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سمع الحسين يضحك ويقول : « ورثها عن عمه موسى » .

وتلحظ دِقَّة التعبير في قوله : { مِّن لِّسَانِي } [طه : 27] ولم يقل : احلل عقدة لساني . فقد يُفهم منها أنه مُتمرِّد على قَدَر الله من حُبسة لسانه ، إنما هو لا يعترض ويطلب مجرد جزءٍ من لسانه ، يمَكِّنه من القيام بمهمته في التبليغ .

يَفْقَهُوا قَوْلِي (28)

هذه هي العِلّة في طلبه ، ولولاها ما طلب انطلاقة اللسان . والفقه هو أن يفهموا الكلام والحديث عنه .

ويواصل موسى عليه السلام ما يراه مُعيناً له على أداء مهمته : { واجعل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي }

وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (29)

وزيراً : أي : معيناً وظهيراً . والحق سبحانه وتعالى لما أراد أنْ يُخوِّف الناس من الآخرة قال : { كَلاَّ لاَ وَزَرَ * إلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المستقر } [القيامة : 1112] .

أي : لا ملجأ ولا معين تفزع إليه إلا الله ، فالوزير من (وَزَر) ، ويطلب الوزير حين لا يستطيع صاحب الأمر القيام به بمفرده ، فيحتاج إلى مَنْ يعينه على أمره ، وهو وزير إنْ كان ناصحاً أميناً يُعين صاحبه بصِدْق ، فإنْ كان غاشّاً لئيماً يعمل لصالح نفسه ، فليس بوزير ، بل هو (وِزْر) ، ومنه قوله تعالى : { وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى } [فاطر : 18] .

وفي الحديث النبوي الشريف : « خَيْر الملوك ملك جعل الله له وزيراً ، إنْ نسي ذكَّره ، وإنْ نوى على خير مجرد نيّة أعانه ، وإن أراد شرّاً كفَّه . . . » .

تلك علامات الوزير الناصح للرعية كما بيَّنتها سياسة السماء؛ لأن لكل حاكم بطانتين : واحدة تأمر بالمعروف ، وأخرى تأمر بالمنكر كما جاء في الحديث الشريف .

فإنْ كانت هذه هي سياسة السماء ، فماذا عن سياسة البشر؟

يقول أنو شروان : إياكم أنْ تفهموا أن أحداً مِنَّا يستغني عن أحد ، فلكُلِّ واحد مهمته ، فإنْ زدت في شيء فقد نقصت في أشياء ، جعلها الله في غيرك ليكمل بها نقصك ، فالمعايشة مشتركة ، لكن هذه المشاركة تفرضها الضرورة لا التفضّل ، وإلاَّ لو لم يتفضّل عليك غيرك فماذا تفعل؟

وسبق أن ضربنا مثلاً لحاجة الناس بعضهم لبعض ، قلنا : ماذا يحدث لو امتنع رجال الصرف الصحي أو الكناسون عن العمل لعدة أيام؟ أما لو غاب الوزراء لعدة أيام فلن يحدث شيء .

إذن : لا تظن أنك أفضل من الآخرين؛ لأن لكل منهم مهمة يؤديها ، فإنْ كنتَ خيراً منه في هذه فهو خير منك في هذه؛ لأن مجموع مواهب كل إنسان يساوي مجموع مواهب الآخر ، فإنْ قلتَ : فلماذا وُجِد التفاوت بين الناس؟

قالوا : لتكون هناك ضرورة في حاجة بعضنا لبعض ، فلو تساوَى الجميع لقلنا لجماعة منا : تفضّلوا بكنس الشوارع يوم كذا فلن يتفضلوا ، أما إنْ ألجأتْهم الحاجة إلى مثل هذا العمل فسوف يسارعون إليه ، كما نرى الآن في أشقَّ المهن وأصعب المهام التي ينفر منها الناس بل ويحتقرونها ترى صاحبها مُقبلاً عليها حريصاً على القيام بها ، رغم ما فيها من مشقّة ، بل ويغضب إنْ لم يجد فرصة للعمل ، لماذا؟ لأنه مصدر قُوته وقُوت عياله .

وبهذه النظرة لا يتعالى أحد أو يستكبر ليحدث في المجتمع توازن استطراقي .

وقوله : { مِّنْ أَهْلِي } [طه : 29] أي : ليكون مأموناً عليَّ .

وهذا المطلب من موسى عليه السلام يشير لأدب عال من آداب النبوة ، وقد اختار الله موسى للرسالة ، فلماذا يشرك معه أخاه في هذه المهمة؟ إذن : موسى لا يريد أنْ يفخَر بالرسالة ، أو يتعالى بها ، أو يطغى ، إنما يريد أن يقوم بها على أكمل وجه؛ لذلك يحاول أنْ يُكمل ما فيه من نقص بأخيه ليُعينه على تبليغ رسالته ، ولو أراد الاستئثار بالرسالة ما طلب هذا الطلب .

وهذا نموذج يجب أنْ يُحتذَى ، فإنْ كُلِّفت بأمر فوق طاقتك فلا غبارَ عليك أن تستعين عليه بغيرك ، فهذا دليل على إخلاصك للمهمة التي كُلِّفت بها .

هَارُونَ أَخِي (30)

فاختار أخاه هارون ليعينه في مهمة الرسالة .

ثم أوضح العلّةَ في ذلك ، فقال في آية آخرى : { وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً } [القصص : 34] .

وهكذا يتكامل موسى وهارون ويُعوِّض كل منهم النقص في أخيه . ويُقال : إن هارون عليه السلام كان يمتاز على موسى في أمور آخرى ، فكان به لِينٌ وحِلْم ، وكان موسى حاداً سريع الغضب ، فكان هارون للّين ، وموسى للشدة .

ويتضح هذا حينما عاد موسى إلى قومه ، وقد تركهم في صُحْبة أخيه هارون فعبدوا العجل فاشتد غضبه ، كما قال تعالى : { وَلَمَّا رَجَعَ موسى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً } [الأعراف : 150] .

ثم احتدّ على أخيه ، وجذبه من ذَقْنه ، وظهرتْ حِدَّته . وقَسْوته ، فماذا قال هارون؟ { قَالَ ابن أُمَّ } [الأعراف : 150] ليستعطفه ويُذكّره برأفة الأم وحنانها { لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي } [طه : 94] ، كأنه يقول لأخيه : اضربني كما تريد ، لكن لا تروعني في لحيتي ، وفي رأسي .

إذن : فالفصاحة في هارون تجبر العُقدة في لسان موسى ، واللين يجبر الشدة والحدة . وأيضاً فإن موسى عليه السلام كان أسمر اللون ، أجعد الشعر ، أقنى الأنف ، أما هارون فكان أبيض اللون ، مُرْسَل الشعر ، وسيم التقاطيع والملامح ، ترتاح له الأبصار ، فمَنْ لم يرتَحْ لموسى ارتاح لهارون .

ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يحب أن ينزل الوحي عليه في صورة دِحيْة الكلبي ، وكان رضي الله عنه وسيماً ، ترتاح له العين لرؤيته ، فكان جبريل عليه السلام ينزل عليه في هذه الصورة لِيُؤنسه .

وموسى عليه السلام مع ما تميَّز به أخوه هارون عليه من هذه الصفات لم يحقد على أخيه ، ولم ينظر إليه على أنه أفضل منه ، إنما جعل صفات أخيه مكملة لصفاته ، والجميع من أجل أداء الرسالة وتبليغها على وجهها الأكمل ، فلم ينظر إلى نفسه ونجاحه هو ، وإنما إلى نجاح المهمة التي كلّفه الله بها .

ويجب أنْ يشيعَ هذا الخُلق بين الناس ، فإنْ رأيت خَصْلةَ خَيْر في غيرك ، أو وجهاً من وجوه الكمال في غيرك ، فاحمد الله عليها ، واعلم أنها سيعود عليك نفعها ، وستجبر ما عندك من نقص فلا تحقد عليه؛ لأنه سيتحمل ما فيك من قصور ، وتنتفع أنت بخيره .

ثم يقول الحق سبحانه أن موسى عليه السلام قال : { اشدد بِهِ أَزْرِي }

اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (31)

الأَزْر : القوة . وكأن موسى عليه السلام عرف أن حَمْل الرسالة إلى فرعون وإلى قومه من بعده عملية شاقة ، فقال لله : أعطني أخي يساعدني في هذه المشقة .

وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (32)

قوله : (وَأَشْرِكْهُ) أي : أنت يا ربّ ، ليس أنا الذي أشركه تفضُّلاً مني عليه ، فأراد موسى عليه السلام أن يكون الفضل من الله ، وأن يكون التكليف أيضاً من الله حتى لا يعترض هارون أو يتضجر عند مباشرة أمر الدعوة .

لذلك لما ذَهَبا إلى فرعون قالا : { إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ } [طه : 47] ولم يقُلْ موسى : إن هارون تابع له بل هو مثله تماماً مُرْسَل من الله ، وإذا تكلَّم موسى تكلَّم عنه وعن هارون .

فلما دعا موسى على قومه : { رَبَّنَا اطمس على أَمْوَالِهِمْ واشدد على قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حتى يَرَوُاْ العذاب الأليم } [يونس : 88] .

جاءت الإجابة من الله : { قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَّعْوَتُكُمَا } [يونس : 89] ؛ لأن الدعاء كان من موسى ، وهارون يُؤمِّن عليه ، والمؤمِّن أحد الداعيَيْن .

ثم يقول الحق سبحانه عن هارون وموسى أنهما قالا : { كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً }

كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (33) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (34)

فهذه هي العِلّة في مشاركة هارون لأخيه في مهمته ، لا طلباً لراحة نفسه ، وإنما لتتضافر جهودهما في طاعة الله ، وتسبيحه وذِكْره .

والتسبيح : تقديس الله وتنزيهه ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً ، ذاتاً . فلا ذات مثل ذاته تعالى : { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } [الشورى : 11] لا في الذات ، ولا في الصفات ولا في الأفعال ، فلا تقل : إن سَمْع الله كسَمْعك ، أو أن بصره تعالى كبصرك ، أو أن فِعْله كفِعلْك .

والمعنى : نُسبِّحك ونُقدِّسك تقديساً يرفعك إلى مستوى الألوهية الثابتة لك ، فلا نزيد شيئاً من عندنا .

وقوله : { نُسَبِّحَكَ كَثِيراً } [طه : 33] أي : دائماً ، فكأن التسبيح يُورِث المسبِّح لذة في نفسه ، والطاعة من الطائع تُورثه لذة في نفسه ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « . . . وجُعِلتْ قرّة عيني في الصلاة » .

وكان صلى الله عليه وسلم « إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة » .

إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (35)

فأنت قيُّوم علينا ، مُطلع على أفعالنا ، أنؤدّيها على الوجه الأكمل ، أم نُقصِّر فيها؟
ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : { قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ ياموسى }

قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (36)

سُؤْل : أي : الشيء المسئول مثل (خُبز) أي : مخبوز ، فالمراد : أعطيناك ما سألتَ ، بل وأعطيناك قبل أن تسأل ، بل وقبل أن تعرف كيف تسأل : { وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أخرى }

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (37)

(مّننا) من المنة ، وهي العطاء بلا مقابل على خلاف الجزاء ، وهو العطاء مقابل عمل { مَرَّةً أخرى } [طه : 37] إذن : هناك مرة أولى ، لكن المراد بالمنّة هنا ما حدث من الوحي إلى أم موسى وهو صغير ، فهي في الحقيقة المنّة الأولى إنما قال هنا { مَرَّةً أخرى } [طه : 37] هذا ترتيب ذكري حَسْب ذِكْر الأحداث .
فمتى كانت هذه المنّة؟

إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (38)

إذ : يعني وقت أنْ أوحينا إلى أمك ما يُوحَى . فكانت هذه هي المنة الأولى عليك حين وُلدت في عام ، يقتل فيه فرعون الذكور ، فمنَّنا عليك لما قلنا لأمك : { فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليم وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تحزني إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ المرسلين } [القصص : 7] .
ومعنى { مَا يوحى } [طه : 38] أي : أمراً عظيماً لك أن تقدره أنت فتذهب فيها نفسك كل مذهب ، كما جاء في قوله تعالى : { فَغَشِيَهُمْ مِّنَ اليم مَا غَشِيَهُمْ } [طه : 78] ويُفصِّل الحق سبحانه هذا الوحي لأم موسى ، فيقول تعالى : { أَنِ اقذفيه فِي التابوت }

أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (39)

هذا ما أوحينا به إلى أم موسى .
واليمُّ : البحر الكبير ، سواء أكان مالحاً أم عَذْباً ، فلما تكلّم الحق سبحانه عن فرعون قال : { فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي اليم } [الأعراف : 136] والمراد : البحر الأحمر ، أما موسى فقد وُلِد في مصر

وأُلْقِي تابوته في النيل ، وكان على النيل قصر فرعون .

وبالله . . أي أم هذه التي تُصدِّق هذه الكلام : إنْ خِفْتِ على ولدك فألقيه في اليم؟ وكيف يمكن لها أن تنقذه من هلاك مظنون وترمي به في هلاك مُتيقّن؟

ومع ذلك لم تتردد أم موسى لحظة في تنفيذ أمر الله ، ولم تتراجع ، وهذا هو الفرق بين وارد الرحمن ووارد الشيطان ، وارد الرحمن لا تجد النفس له ردّاً ، بل تتلقاه على أنه قضية مُسلَّمة ، فوارد الشيطان لا يجرؤ أن يزاحم وارد الرحمن ، فأخذتْ الأم الوليد وأَلْقَتْه كما أوحى إليها ربها .

وتلحظ في هذه الآيات أن آية القصص لم تذكر شيئاً عن مسألة التابوت : { فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليم } [القصص : 7] هكذا مباشرة .

قالوا : لأن الحق سبحانه تكلم عن الغاية التي تخيف ، وهي الرَّمي في اليم ، وطبيعي في حنان الأم أنْ تحتال لولدها وتعمل على نجاته ، فتصنع له مثل هذا التابوت ، وتُعِدّه إعداداً مناسباً للطَفْو على صفحة الماء .

فالكلام هنا لإعداد الأم وتهيئتها لحين الحادثة ، وفَرْق بين الخطاب للإعداد قبل الحادثة والخطاب حين الحادثة ، فسوف يكون للأمومة ترتيب ووسائل تساعد على النجاة ، صنعتْ له صندوقاً جعلت فيه مَهْداً ليّناً واحتاطتْ للأمر ، ثم يطمئنها الحق سبحانه على ولدها : { وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تحزني } [القصص : 7] فسوف نُنجيه؛ لأن له مهمة عندي { إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ المرسلين } [القصص : 7] .

فإذا ما جاء وقت التنفيذ جاء الأمر في عبارات سريعة متلاحقة : { أَنِ اقذفيه فِي التابوت فاقذفيه فِي اليم فَلْيُلْقِهِ اليم بالساحل } [طه : 39] .

لذلك ، تجد السياق في الآية الأولى هادئاً رتيباً يناسب مرحلة الإعداد ، أما في التنفيذ فقد جاء السياق سريعاً متلاحقاً يناسب سرعة التنفيذ ، فكأن الحق سبحانه أوحى إاليها : أسرعي إلى الأمر الذي سبق أنْ أوحيتُه إليك ، هذا الكلام في الحبْكة الأخيرة لهذه المسألة .

وقوله تعالى : { فَلْيُلْقِهِ اليم بالساحل } [طه : 39] أي : تحمله الأمواج وتسير به ، وكأن لديها أوامر أن تُدخِله في المجرى الموصِّل لقصر فرعون .

فعندنا إذن لموسى ثلاثة إلقاءات : إلقاء الرحمة والحنان في التابوت ، وإلقاء التابوت في اليم تنفيذاً لأمر الله ، وإلقاء اليَمّ للتابوت عند قصر فرعون .

وقوله تعالى : { يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ } [طه : 39] (عَدُو لِي) أي : لله تعالى؛ لأن فرعون ادعى الألوهية ، (وَعَدُوٌّ لَهُ) أي : لموسى؛ لأنه سيقف في وجهه ويُوقفه عند حَدِّه .

وفي الآية إشارة إلى إنفاذ إرادته سبحانه ، فإذا أراد شيئاً قضاه ، ولو حتى على يد أعدائه وهم غافلون ، فمَنْ يتصور أو يصدق أن فرعون في جبروته وعُتوه وتقتيله للذكور من أولاد بني إسرائيل هو الذي يضم إليه موسى ويرعاه في بيته ، بل ويُحبه ويجد له قبولاً في نفسه .

وهل التقطه فرعون بداية ليكون له عَدواً؟ أم التقطه ليكون ابناً؟ كما قالت زوجته آسية : { قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ عسى أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ } [القصص : 9] .

إذن : كانت محبة ، إلا أنها آلتْ إلى العداوة فيما بعد ، آلتْ إلى أن يكون موسى هو العدو الذي ستُربيه بنفسك وتحافظ عليه ليكون تقويضُ ملكك على يديه؛ لذلك سيقول فرعون : { أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ } [الشعراء : 18] .

ومسألة العداوة هذه استغلها المشككون في القرآن واتهموه بالتكرار في قوله تعالى : { يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ } [طه : 39] ثم قال في آية أخرى : { فالتقطه آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً } [القصص : 8] .

والمتأمل في الآيتين يجد أن العداوة في الآية الأولى من جانب فرعون لموسى وربه تبارك وتعالى ، أما العداوة في الآية الثانية فمن جانب موسى لفرعون ، وهكذا تكون العداوة متبادلة ، وهذا يضمن شراستها واستمرارها ، وهذا مُرَاد في هذه القصة .

أمّا إنْ كانت العداوة من جانب واحد ، فلربما تسامح غير العدو وخَجِل العدو فتكون المصالحة . والعداوة بين موسى وفرعون ينبغي أن تكونَ شرسة؛ لأنها عداوة في قضية القِمَّة ، وهي التوحيد .

ولكن ، لماذا لم يُلفِت مجيء موسى على هذه الحالة انتباه فرعون فيسأل عن حكايته ويبحث في أمره؟ إنها إرادة الله التي لا يُعجِزها شيء ، فتحبه زوجة فرعون ، وتقول : { قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ } [القصص : 9] ؛ لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى بعدها : { وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي } [طه : 39] .

فأحبته آسية امرأة فرعون لما رأته ، وأحبَّه فرعون لما رآه ، وهذه محبة من الله بلا سبب للمحبة؛ لأن المحبة لها أسباب بين الناس ، فتحب شخصاً لأنك تودّه ، أو لأنه قريب لك أو صديق ، أو أسْدى لك معروفاً ، وقد يكون الحب من الله دون سبب من هذه الأسباب ، فلا سببَ له إلا إرادة الله .

فمعنى : { وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي } [طه : 39] وليس فيك ما يُوجب المحبة ، وليس لديك أسبابها ، خاصة وقد كان موسى عليه السلام أسمر اللون ، أجعد الشعر ، أقنى الأنف ، أكتف ، وكأن هذه الخِلْقة جاءت تمهيداً لهذه المحبة ، وإثباتاً لإرادة الله التي طوَّعَتْ فرعون لمحبة موسى ، كما قال تعالى : { وَاعْلَمُواْ أَنَّ الله يَحُولُ بَيْنَ المرء وَقَلْبِهِ } [الأنفال : 24] .

وهكذا ، حوَّل الله قلب فرعون ، وأدخل فيه محبة موسى ليُمرِّر هذه المسألة على هذا المغفل الكبير ، فجعله يأخذ عدوه ويُربِّيه في بيته ، ولم يكن في موسى الوسامة والجمال الذي يجذب إليه القلوب .

ثم يقول سبحانه : { وَلِتُصْنَعَ على عيني } [طه : 39] أي : تُربَّى على عَيْن الله وفي رعايته ،

وإنْ كان الواقع أنه يُربّى في بيت فرعون ، فالحق تبارك وتعالى يرعاه ، فإنْ تعرَّض لشيء في التربية تدخّل ربُّه عز وجل ليعلمه ويُربّيه .

ومن هذه المواقف أن فرعون كان يجلس وزوجته آسية ، ومعهما موسى صغير يلعب ، فإذا به يمسك بلحية فرعون ويجذبها بشدة أغاظته ، فأمر بقتله ، فتدخلّت امرأته قائلة : إنه ما يزال صغيراً لا يفقه شيئاً ، إنه لا يعرف التمرة من الجمرة .
فأتوا له بتمرة وجمرة ليمتحنوه ، فأزاح الله يده عن التمرة إلى الجمرة لِيُفوّت المسألة على هذا المغفل الكبير ، بل وأكثر من هذا ، فأخذها موسى رغم حرارتها حتى وضعها في فمه ، فلدغتْ لسانه ، وسبَّبت له هذه العُقْدة في لسانه التي اشتكى منها فيما بعد .
وكأن الحق تبارك وتعالى يُطمئِن نبيه موسى عليه السلام : لا تخف ، فأنت تحت عيني وفي رعايتي ، وإنْ فعلوا بك شيئاً سأتدخل ، وفي آية أخرى قال : { واصطنعتك لِنَفْسِي } [طه : 41] فأنا أرعاك وأحافظ عليك؛ لأن لك مهمة عندي .
ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : { إِذْ تمشي أُخْتُكَ }

إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى (40)

إذن : كان لأخت موسى دور في قصته ، كما قال تعالى في موضع آخر : { وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ } [القصص : 11] .
والمراد : تتبعيه بعد أنْ علمتِ نجاته من اليمّ ، فتتبعته ، وعرفتْ أنه في بيت فرعون ، ثم حرَّم الله عليه المراضع ، فكان يعَافُ المرضعات ، وهنا تدخلت أخته لتقول : { هَلْ أَدُلُّكُمْ على مَن يَكْفُلُهُ } [طه : 40] وهذا الترتيب لا يقدر عليه إلا الله .
ويقول تعالى : { فَرَجَعْنَاكَ إلى أُمِّكَ } [طه : 40] حين نستقرىء مادة (رجع) في القرآن نجدها تأتي مرة لازمة كما في : { وَلَمَّا رَجَعَ موسى إلى قَوْمِهِ } [الأعراف : 150]
وتأتي متعدية كما في : { فَرَجَعْنَاكَ إلى أُمِّكَ } [طه : 40] وفي : { فَإِن رَّجَعَكَ الله إلى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ } [التوبة : 83] .
والفَرْق بين اللازم والمتعدّي أن اللازم رجع بذاته ، أمّا المتعدي فقد أرجعه غيره ، فالرجوع أن تصير إلى حال كنتَ عليها وتركتها ، فإنْ رجعت بنفسك دون دوافع حملتْك على الرجوع فالفعل لازم ، فإنْ كانت هناك أمور دفعتْك للرجوع فالفعل مُتعَدٍّ .
ومثل رجعك : أرجعك ، إلا أن رجعك : الرجوع في ظاهر الأمر منك من دون دوافع منك .

وأرجعك : أي رَغْماً عن إرادتك .

وقوله : { كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها } [طه : 40] تقرُّ العين أي : تثبت؛ لأن التطلعات إما أن تكون معنوية أو حِسّية ، فالإنسان لديه أمانٍ يتطلع إلى تحقيقها ، فإذا ما تحققت نقول : لم يعُدْ يتطلع إلى شيء .

وكذلك في الشيء الحسّيّ ، فالعرب يقولون للشيء الجميل : قيد النواظر . أي : يقيد العين فلا تتحول عنه؛ لأن الإنسان لا يتحول عن الجميل إلا إذا رأى ما هو أجمل ، وهذا ما يسمونه قُرَّة العين . يعني الشيء الحسن الذي تستقر عنده العين ، ولا تطلب عليه مزيداً في الحُسْن .

ثم يقول تعالى : { وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الغم وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً } [طه : 40] وهذه مِنَّة أخرى من مِنَن الله تعالى على موسى عليه السلام ، فمِنَنُ الله عليه كثيرة كما قال : { وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أخرى } [طه : 37] فهي مرة ، لكن هناك مرات .

ومسألة القتل هذه وردتْ في قوله تعالى : { وَدَخَلَ المدينة على حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاَنِ هذا مِن شِيعَتِهِ وهذا مِنْ عَدُوِّهِ فاستغاثه الذي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الذي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ موسى فقضى عَلَيْهِ } [القصص : 15] .

وخرج من المدينة خائفاً يترقب الناس لئلا يلحقوا به فيقتلوه ، وهذا معنى { فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الغم } [طه : 40] أي : من القتل ، أو من الإمساك بك { وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً } [طه : 40] أي : عرَّضناك لمحن كثيرة ، ثم نجيناك منها ، أولها : أنك وُلِدْت في عام يُقتل فيه الأطفال ، ثم رمتْكَ أمك في اليم ، ثم ما حدث منه مع فرعون لما جذبه من ذقنه .

ثم يقول تعالى : { فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ على قَدَرٍ ياموسى } [طه : 40] ذكر الله تعالى مدة مُكْثه في أهل مدين على أنها من مننه على موسى مع أنه كان فيها أجيراً ، وقال عن نفسه :

{ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ } [القصص : 24] .

وفي مدين تعرّف على شعيب عليه السلام ، وتزوج من ابنته وأنجب منها ولداً ، وموسى في هذا كله غريب عن وطنه ، بعيد عن أمه ، فلما أراد الله له الرسالة شَوَّقه إلى وطنه ورؤية أمه ، وقَدَّر له العودة؛ فقال تعالى : { ثُمَّ جِئْتَ على قَدَرٍ ياموسى } [طه : 40] .

أي : على قَدَر من اصطفائك ، فقَدَر الله هو الذي حرَّك في قلبك الشوق للعودة ، وحملك على أنْ تمشي في الطريق غير المأهول ، وتتحمل مشقة البرد وعناء السفر ، قَدَر الله هو الذي حرّك فيك خاطر الشوق لأمك ، ففي طريق العودة وفي طُوىً أنت على موعد مع الاصطفاء والرسالة .

لذلك ، فإن الشاعر الذي مدح الخليفة قال له :

جاء الخِلاَفَةَ أوْ كانتْ لَهُ قَدَراً ... كَما أتَى ربَّه مُوسَى عَلَى قَدَرِ

ثم يقول الحق سبحانه لموسى : { واصطنعتك لِنَفْسِي }

وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (41)

أي : نجّيْتك وحافظت عليك؛ لأنني أُعِدُّك لمهمة عندي ، هي إرسالك رسولاً بمنهجي إلى فرعون وإلى قومك .

وقد حاول العلماء إحصاء المطالب التي طلبها موسى عليه السلام من ربه فوجدوها ثمانية : { قَالَ رَبِّ اشرح لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لي أَمْرِي * واحلل عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُواْ قَوْلِي * واجعل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشدد بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً * وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً } [طه : 2534] .

ثم وجدوا أن الله تعالى أعطاه ثمانية أخرى دون سؤال منه : { إِذْ أَوْحَيْنَآ إلى أُمِّكَ مَا يوحى * أَنِ اقذفيه فِي التابوت فاقذفيه فِي اليم فَلْيُلْقِهِ اليم بالساحل يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ على عيني * إِذْ تمشي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ على مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إلى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلاَ تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الغم وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ على قَدَرٍ ياموسى } [طه : 3840] .

فإنْ كان موسى عليه السلام قد طلب من ربه ثمانية مطالب فقد أعطاه ربه عز وجل ثمانية أخرى دون أن يسألها موسى؛ ليجمع له بين العطاء بالسؤال ، والعطاء تكرُّماً من غير سؤال؛ لأنك إنْ سألت الله فأعطاك دَلَّ ذلك على قدرته تعالى في إجابة طلبك ، لكن إنْ أعطاك بدون سؤال منك دَلَّ ذلك على محبته لك .

ثم يقول الحق سبحانه : { اذهب أَنتَ وَأَخُوكَ }

اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (42)

{ بِآيَاتِي } [طه : 42] الآيات هنا هي المعجزات الباهرات التي تبهر فرعون ، فلن تذهبا مُجرَّديْن ، بل معكما دليل على صِدْق الرسالة التي تحملونها إليه : { لاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي } [طه : 42] من التَّواني أي : الفتور أو التقصير؛ لأنني أعددتكما الإعداد المناسب لهذه المهمة الشاقة ، فإياكم والتهاون فيها ، فإنْ حدث منكما تقصير فهو تقصير في الأداء ، لا في الإعداد .

ومعنى : { فِي ذِكْرِي } [طه : 42] أي : لأكُنْ دائماً على بالكما ، فأنا الذي أرسلتُ ، وأنا الذي أيدتُ بالمعجزات ، وأنا الذي أرعاكما وأرقبكما ، وأنا الذي سأجازيكما فلا يَغبْ ذلك

عنكما .

ثم يقول الحق سبحانه : { اذهبآ إلى فِرْعَوْنَ }

اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43)

وهل هناك طغيان فوق ادعاء أنه رَبٌّ؟ وقد قال تعالى في موضع آخر : { وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأرض وَإِنَّهُ لَمِنَ المسرفين } [يونس : 83] والمسرف : هو الذي يتجاوز الحدود ، وهو قد تجاوز في إسرافه وادَّعى الألوهية ، فعَلاَ في الأرض علوَّ طاغية من البشر على غيره من البشر المستضعفين .

فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44)

هذا لفرعون بعد أنْ طغى ، ومن الذي حكم عليه بالطغيان؟ حين تحكم أنت عليه بالطغيان فهو طغيان يناسب قدرات وإمكانات البشر ، أمّا أن يقول عنه الحق تبارك وتعالى { إِنَّهُ طغى } [طه : 43] فلا بُدَّ أنه تجاوز كل الحدود ، وبلغ قمة الطغيان ، فربُّنا هو الذي يقول .

فقوله : { فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً } [طه : 44] فلا بُدَّ أنْ تعطيه فُسْحة كي يرى حُجَجك وآياتك ، ولا تبادره بعنف وغِلْضة ، وقالوا : النصح ثقيل ، فلا ترسله جبلاً ، ولا تجعله جدلاً ، ولا تجمع على المنصوح شدتين : أنْ تُخرِجه مما ألف بما يكره ، بل تُخرِجه مما ألِف بما يحب .

وهذا منهج في الدعوة واضح وثابت ، كما في قوله تعالى : { ادع إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بالحكمة والموعظة الحسنة } [النحل : 125] .

لأنك تخلعه مما اعتاد وألف ، وتُخرجه عَمَّا أحبَّ من حرية واستهتار في الشهوات والملذات ، ثم تُقيّده بالمنهج ، فليكُنْ ذلك برفق ولُطْف .

وهذه سياسة يستخدمها البشر الآن في مجال الدواء ، فبعد أن كان الدواء مُرّاً يعافُه المرضى ، توصلوا الآن إلى برشمة الدواء المر وتغليفه بطبقة حلوة المذاق حتى تتم علمية البَلْع ، ويتجاوز الدواء منطقة المذاق .

وكذلك الحال في مرارة الحق والنصيحة ، عليك أنْ تُغلِّفها بالقول اللين اللطيف .

وقوله : { لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يخشى } [طه : 44] لعل : رجاء ، فكيف يقول الحق تبارك وتعالى : { لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يخشى } [طه : 44] وفي عِلْمه تعالى أنه لن يتذكَّر ولن يخشى ، وسيموت كافراً غريقاً؟

قالوا : لأن الحق سبحانه يريد لموسى أن يدخل على فرعون دخول الواثق من أنه سيهتدي ، لا دخولَ اليائس من هدايته ، لتكون لديه الطاقة الكافية لمناقشته وعَرْض الحجج عليه ، أمّا لو

دخل وهو يعلم هذه النتيجة لكان محبطاً لا يرى من كلامه فائدة ، كما يقولون (ضربوا الأعور على عينه قال خسرانه خسرانه) .

فالحق سبحانه يعلم ما سيكون من أمر فرعون ، لكنْ يريد أنْ يقيمَ الحجة عليه { لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى الله حُجَّةٌ بَعْدَ الرسل } [النساء : 165] .

وقوله : { يَتَذَكَّرُ أَوْ يخشى } [طه : 44] كأن الإنسان إذا ما ترك شراسة تفكيره ، وغُمة شهواته في نفسه ، لا بُدَّ أنْ يهتدي بفطرته إلى وجود الله أو (يتذكر) عالم الذَّر ، والعهد الذي أخذه الله عليه يوم أنْ قال : { أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى شَهِدْنَآ } [الأعراف : 172] .

والذي قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم : « كُلُّ مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يُهوِّدانه ، أو يُنصِّرانه ، أو يُمجِّسانه » .

فلو تذكّر الإنسان ، وجرَّد نفسه من هواها لا بُدَّ له أنْ يهتدي إلى وجود الله ، لكن الحق سبحانه وتعالى جعل للغفلة مجالاً ، وأرسل الرسل للتذكير؛ لذلك قال : { رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ } [النساء : 165] ولم يقل : بادئين .

أمّا مسألة الإيمان بالله فكان ينبغي أن تكون واضحة معروفة للناس أن هناك إيماناً بإله خالق قادر فقط ينتظرون ما يطلبه منهم وما يتعبّدهم به .

ماذا تفعل؟ وماذا تترك؟ وهذه هي مهمة الرسل .

وسبق أن ضربنا مثلاً برجل انقطعت به السُّبل في صحراء دَوِيَّة ، لا يجد ماءً ولا طعاماً ، حتى أشرف على الهلاك ، ثم غلبه النوم فنام ، فلما استيقظ إذا بمائدة عليها ألوان الطعام والشراب . بالله قبل أنْ يمد يده للطعام ، ألاَ يسأل : مَنْ أتى إليه به؟

وهكذا الإنسان ، طرأ على كون مُعَدٍّ لاستقباله : أرض ، وسماء ، وشمس ، وقمر ، وزرع ، ومياه ، وهواء . أليس جديراً به أن يسأل : من الذي خلق هذا الكون البديع؟ فلو تذكرتَ ما طرأتَ عليه من الخير في الدنيا لا نتهيتَ إلى الإيمان .

فمعنى : { يَتَذَكَّرُ } [طه : 44] أي : النعم السابقة فيؤمن بالمنعم { أَوْ يخشى } [طه : 44] يخاف العقوبة اللاحقة ، فيؤمن بالله الذي تصير إليه الأمور في الآخرة .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى عنهما : { قَالاَ رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ }

قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (45)

الخوف : شعور في النفس يُحرِّك فيك المهابة من شيء ، ومِمَّ يخافان؟ { أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ } [طه : 45] يفرط : أي : يتجاوز الحد . . ومضادها : فرَّط يعني : قصّر في الأمر؛ لذلك يقولون : الوسط فضيلة بين إفراط وتفريط .

ومَنْ أفرط يقولون : فَرَس فارط عندما يسبق في المضمار . ويقولون : حاز قَصْب السبق ، وكانوا يضعون في نهاية المضمار قصبة يركزونها في الأرض ، والفارس الذي يلتقطها أولاً هو الفائز ، والفرس فارط يعني : سبق الحدِّ المعمول له ، لا مجرد أن يسبق غيره .

لذلك عندما يُحدِّثنا القرآن عن الحدود ، يقول مرة : { تِلْكَ حُدُودُ الله فَلاَ تَعْتَدُوهَا } [البقرة : 229] أي : إياك أن تسبق الحد الذي وُضِع لك ومرة أخرى يقول : { تِلْكَ حُدُودُ الله فَلاَ تَقْرَبُوهَا } [البقرة : 187] ففي المحلّلات قال { فَلاَ تَعْتَدُوهَا } [البقرة : 229] قِفُوا على الحدِّ لا تسبقوه ، وفي المحرمات قال { فَلاَ تَقْرَبُوهَا } [البقرة : 187] لأنك لو اقتربتَ منها وقعتَ فيها .

فالمعنى إذن { يَفْرُطَ عَلَيْنَآ } [طه : 45] يتجاوز الحدّ ، وربما عاجلنا بالقتل قبل أن نقول شيئاً فيسبق قتلُه لنا كلامنا له .

وقوله تعالى : { أَوْ أَن يطغى } [طه : 45] فلا يكتفي بقتلنا ، بل ويخوض في حَقِّ ربنا ، أو يقول كلاماً لا يليق ، كما سبق له أن ادَّعى الألوهية .

ومن واجب الدعاة ألاَّ يَصِلوا مع المدعوين إلى درجة أن يخوضوا في حقِّ الله تبارك وتعالى؛ لذلك فالحق سبحانه يُؤدِّب المؤمنين به بأدب الدعوة في مجابهة هؤلاء فيقول : { وَلاَ تَسُبُّواْ الذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله فَيَسُبُّواْ الله عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ } [الأنعام : 108] .

ثم يقول الحق سبحانه : { قَالَ لاَ تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ }

قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (46)

أي : لن أسلمكما ولن أترككما ، وأنا معكما أسمع وأرى؛ لأن الحركة إما قول يُسمع ، أو فعل يُرى ، فاطمئنّا ، لأننا سنحفظكما ، وقد قال تعالى : { وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين * إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون } [الصافات : 171173] .

وهذه سُنة من سُنَن الله تعالى ، فإنْ رأيتَ جنداً من الجنود منسوبين لله تعالى وهُزِمُوا ، فاعلم أنهم انحلوا عن الجندية لله ، وإلا فوعْد الله لجنوده لا يمكن أن يتخلف أبداً .

والدليل على ذلك ما حدث للمسلمين في أُحُد ، صحيح أن المسلمين هُزِموا في هذه الغزوة؛ لأنهم انحرفوا عن أوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم وخالفوه عندما قال للرماة : « لاتتركوا أماكنكم على أيّ حال من الأحوال » لكن بمجرد أنْ رأوا بوادر النصر تركوا أماكنهم ، ونزلوا لجَمْع الغنائم ، فالتف من خلفهم خالد بن الوليد وألحق بهم الهزيمة ، وإن انهزم المسلمون فقد انتصر الإسلام؛ لأنهم لما خالفوا أوامر رسولهم انهزموا ، وبالله لو انتصروا مع المخالفة أكان يستقيم لرسول الله أمر بعد ذلك؟

ففي الآية التي معنا يطمئنهم الحق تبارك وتعالى حتى لا يخافا ، فقدرة الله ستحفظهما ، وسوف

تتدخل إنْ لزمَ الأمر كما تدخلْت في مسألة التمرة والجمرة ، وهو صغير في بيت فرعون .
ثم يقول لهما الحق سبحانه وتعالى : { فَأْتِيَاهُ فقولا إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ }

فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (47)

ونلحظ هنا أنهما لم يواجهاه بما ادعاه من الألوهية مرة واحدة ، إنما أشارا إلى مقام الربوبية { رَسُولاَ رَبِّكَ } [طه : 47] وهذه هِزّة قوية تزلزل فرعون ، ثم تحوّلا إلى مسألة أخرى ، وهي قضية بني إسرائيل ، وكان فرعون يُسخِّرهم في خدمته ويُعذِّبهم ويشقّ عليهم .
{ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بني إِسْرَائِيلَ } [طه : 47] فقد جئنا لنأخذ أولادنا وننقذهم من هذا العذاب { قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ } [طه : 47] أي : معجزة { مِّن رَّبِّكَ } [طه : 47] فأعادوا عليه هذه الكلمة مرة أخرى .
وقد علّمهما الحق سبحانه كيف يدخلون على فرعون؟ وكيف يتحدثون معه في أمر لا يمسّ كبرياءه وألوهيته .
وبنو إسرائيل هم البقية الباقية من يوسف عليه السلام وإخوته ، لما جاءوا إلى مصر في أيام العزيز الذي قرَّب يوسف وجعله على خزائن الأرض ، كما قال تعالى في قصة يوسف : { وَقَالَ الملك ائتوني بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ اليوم لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ * قَالَ اجعلني على خَزَآئِنِ الأرض إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ } [يوسف : 5455] .
وقوله : { والسلام على مَنِ اتبع الهدى } [طه : 47] وهذه ليست تحية؛ لأنك تُحيي مَنْ كان مُتبعاً للهدى ، وتدعو له بالسلام ، فإنْ لم يكُنْ كذلك فهي نهاية للكلام .
لذلك كان يكتبها رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتبه إلى المقوقس عظيم القبط ، وإلى هرقل عظيم الروم ، يقول : « اسلم تسلم ، يؤتِكَ الله أجرك مرتين ، فإنْ توليت فإنما عليك إثم الأريسيين والسلام على مَنِ اتبع الهدى » .
قال موسى وهارون لفرعون : { إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ }

إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (48)

فأعطاه هنا القضية النهائية : جاءنا في الوحي أن مَنْ كذّب وتولّى فله العذاب ، ومعنى { أُوحِيَ إِلَيْنَآ } [طه : 48] أي : من ربك .
فلما سمع فرعون هذه المقولة أحب أنْ يدخل معهما في متاهات يشغلهم بها ، ويطيل الجدل ليُرتِّب أفكاره ، وينظر ما يقول : { قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا ياموسى }

قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (49)

ووجّه الخطاب إلى الرئيس الأصلي في هذه المهمة ، وهو موسى عليه السلام .

قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50)

معنى { ا أعطى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ } [طه : 50] أي : كل ما في الوجود ، خلقه الله لمهمة ، فجاء خَلْقه مناسباً للمهمة التي خُلِق لها { ثُمَّ هدى } [طه : 50] أي : دلّ كل شيء على القيام بمهمته ويسّره لها .

والحق سبحانه أعطى كل شيء (خَلْقَهُ) الخَلْق يُطلَق ، ويُراد به المخلوق ، فالمخلوق شيء لا بُدَّ له من مادة ، لا بُدَّ أن يكون له صورة وشكل ، له لون ورائحة ، له عناصر ليؤدي مهمته .

فإذا أراد الله سبحانه خَلْق شيء يقْدِر له كل هذه الأشياء فأمدَّ العين كي تبصر ، والأنف كي يشم ، واللسان كي يتذوق ، ثم هدى كل شيء إلى الأمر المراد به لتمام مهمته ، بدون أي تدخّل فيه من أحد .

وإذا كان الإنسان ، وهو المقدور للقادر الأعلى يستطيع أن يصنع مثلاً القنبلة الزمنية ، ويضبطها على وقت ، فتؤدي مهمتها بعد ذلك تلقائياً دون اتصال الصانع بها .

فالحق سبحانه خلق كل شيء وأقدره على أنْ يُؤدِّي مهمته على الوجه الأكمل تأدية تلقائية غريزية ، فالحيوانات التي نتهمها بالغباء ، ونقول عنها : « بهائم » هي في الحقيقة ليست كذلك ، وقد أعطانا الحق سبحانه وتعالى صورة لها في مسألة الغراب الذي بعثه الله ليُعلِّم ولد آدم كيف يواري سوءة أخيه كما قال سبحانه : { فَبَعَثَ الله غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأرض لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَاوَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هذا الغراب فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النادمين } [المائدة : 31] .

فكيف صنع الغراب هذا الصنيع؟ صنعة بالغريزة التي جعلها الله فيه ، ولو تأملتَ الحمار الذي يضربون به المثل في الغباء حين تريده أنْ يتخطى (قناة) مثلاً ، تراه ينظر إليها ويُقدِّر مسافتها ، فإن استطاع أنْ يتخطاها قفز دون تردد ، وإنْ كانت فوق إمكانياته تراجع ، ولم يُقْدِم مهما ضربته أو أجبرته على تخطيها ، هذه هي الغريزة الفِطْرية .

لذلك تجد المخلوقات غير المختارة لا تخطىء؛ لأنها محكومة بالغريزة ، وليس لها عقل يدعو إلى هوىً ، وليس لها اختيار بين البدائل مثل العقل الإلكتروني الذي يعطيك ما أودعته فيه لا يزيد عليه ولا ينقص ، أما الإنسان فيمكن أنْ يُغيّر الحقيقة ، ويُخفِي ما تريده منه ، لأن له عقلاً يفاضل : قُلْ هذه ، ولا تقُلْ هذه ، وهذا ما ميّز الله به الإنسان عن غيره من المخلوقات .

كذلك ، ترى الحيوان إذا شبع يتمنع عن الطعام ولا يمكن أن تؤكله عود برسيم واحد مهما

حاولتَ ، إنما الإنسان صاحب العقل والهوى يقول لك : (أرها الألوان تريك الأركان) ، فلا مانع بعد أن أكل حتى التخمة من تذوُّق أصناف شتّى من الحلوى والفاكهة وخلافه .
وفي هذه الآية يقول الحق سبحانه وتعالى أنه : { ا أعطى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هدى } [طه : 50] .

خذ مثلاً الأذن ، وكيف هي محكمة التركيب مناسبة لتلقي الأصوات ، ففي الأذن من الخارج تجاعيد وتعاريج تتلقى الأصوات العالية ، فتُخفّف من حِدّتها حتى تصل إلى الطبلة الرقيقة هادئة ، وإلاَّ خرقتها الأصوات وأصَمّتها ، وكذلك جعلها لله لِصدِّ الرياح حتى إذا هبت لم تجد الأذن هكذا عارية فتؤذيها .
وكذلك العَيْن ، كم بها من آيات لله ، فقد خلقها الله بقدر ، من هذه الآيات أن حرارتها إنْ زادت عن 12 درجة تفسد ، وأرنبة الأنف إنْ زادت عن 9 درجات لا تؤدي مهمتها ، مع أن في الجسم عضواً حرارته 40 درجة هو الكبد ، والحرارة الكلية للإنسان 37 درجة ، تكون ثابتة في المناطق الباردة حيث الجليد كما هي في المناطق الحارة ، لا ترتفع ولا تنخفض إلا لعِلَّة أو آفة في الجسم .
إذن : كل شيء في الوجود خلقه الله بقدر وحكمة وكيفية لأداء مهمته ، كما قال في آية أخرى : { الذي خَلَقَ فسوى * والذي قَدَّرَ فهدى } [الأعلى : 23] .
اللسان مثلاً جعل الله به حَلَمات متعددة ، كل واحدة منها تتذوّق طَعْماً معيناً ، فواحدة للحلو ، وواحدة للمُرّ ، وواحدة للحريف ، وهكذا ، وجميعها في هذه المساحة الضيقة متجاورة ومتلاصقة بقَدْر دقيق ومُعْجز .
الأنف وما فيه من مادة مُخاطية عالقة لا تسيل منك ، وشعيرات دقيقة ، ذلك لكي يحدث لهواء الشهيق عملية تصفية وتكييف قبل أن يصل إلى الرئتين؛ لذلك لا ينبغي أنْ نقصَّ الشعيرات التي بداخل الأنف؛ لأن لها مهمة .
عضلة القلب وما تحتويه من أُذَيْن وبُطَيْن ، ومداخل للدم ، ومخارج محكمة دقيقة تعمل ميكانيكياً ، ولا تتوقف ولا تتعطل لمدة 140 أو 120 سنة ، تعمل تلقائياً حتى وأنت نائم ، فأيّ آلة يمكن أنْ تُؤدِّي هذه المهمة؟
والحق سبحانه وتعالى عندما أرسل موسى وهارون بآية دالة على صدقهما إلى فرعون كانت مهمتهما الأساسية أَخْذ بني إسرائيل ، وإنقاذهم من طغيان فرعون ، وجاءت المسألة الإيمانية تبعية ، أما أصل مهمة موسى فكان : { فَأَرْسِلْ مَعَنَا بني إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ } [طه : 47] .
والحق سبحانه حين يعرض قضية الإيمان يعرضها مبدوءة بالدليل دليل البدء الذي جاء في قوله تعالى : { قَالَ رَبُّنَا الذي أعطى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هدى } [طه : 50] لأن ، فرعون الذي

ادعى الألوهية لا بُدَّ أن يكون له مألوهون ، وهم خَلْق مثله ، وهو يعتزّ بملكه وماله من أرض مصر ونيلها وخيراتها حتى قال :

{ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وهذه الأنهار تَجْرِي مِن تحتي } [الزخرف : 51] .

فأراد الحق سبحانه وتعالى أنْ يرد عليه : أَلَكَ شيء في خَلْق هؤلاء المألوهين لك؟

وما أشبهَ موقف فرعون أمام هذه الحجة بموقف النمروذ أمام نبي الله إبراهيم عليه السلام عندما قال له : { رَبِّيَ الذي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ } [البقرة : 258] .

فلم يجد النمروذ إلا الجدل والسفسطة ، فلجأ إلى حيلة المفلسين ، وجاء برجلين فقال : أنا أحكم على هذا بالموت وأعفو عن هذا؛ لذلك لما أحسَّ إبراهيم عليه السلام منه المراوغة والجدال نقله إلى مسألة لا يستطيع منها فكاكاً .

{ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ الله يَأْتِي بالشمس مِنَ المشرق فَأْتِ بِهَا مِنَ المغرب فَبُهِتَ الذي كَفَرَ والله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين } [البقرة : 258] .

إذن : فالردُّ إلى قضية الخلق الأول دليل لا يمكن لأحد ردُّه ، حتى فرعون ذاته لم يدَّعِ أنه خلق شيئاً ، إنما تجبّر وتكبّر وادّعى الألوهية فقط على مألوه لم يخلقه ، ولم يخلق نفسه ، ولم يخلق المُلْك الذي يعتز به .

ولما كان دليل الخلق الابتدائي هو الدليل المقنع ، لم يكن لفرعون رَدٌّ عليه؛ لذلك لما سمع هذه المسألةَ { قَالَ رَبُّنَا الذي أعطى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هدى } [طه : 50] لم يستطع أنْ ينقضَ هذا الدليل ، فأراد أنْ يُخرِج الحوار من دليل الجد إلى مسألة أخرى يهرب إليها ، مسألة فرعية لا قيمة لها : { قَالَ فَمَا بَالُ القرون الأولى }

قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (51)

أي : ما شأن الأمم السابقة؟ لكن ما دَخْل القرون الأولى بما نتكلّم فيه؟ كلمة البال : هو الفكر ، نقول : خطر ببالي . أي : بفكري ، ولا يأتي في الفكر وبُؤْرة الشعور إلا الأمر المهم .

لكن ، سرعان ما أحسَّ موسى بمراوغة فرعون ، ومحاولة الهرب من الموضوع الأساسي فسَدَّ عليه الباب .

قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى (52)

فهذه المسألة ليست من اختصاصي؛ لأن الذي يُسأل عن القرون الأولى هو الذي يُجازيها ، وينبغي أنْ يعلم حالها ، وما هي عليه من الإيمان أو الكفر؛ لِيُجازيها على ذلك ، إذن : هذا سؤال لا موضعَ له ، إنه مجرد هَزْل ومهاترة وهروب ، فلا يعلم حال القرون الأولى إلا الله؛ لأن

سبحانه هو الذي سَيُجازيها .

ومعنى { فِي كِتَابٍ } [طه : 52] أي : سجّلها في كتاب ، يطلع عليه الملائكة المدبرات أمراً؛ ليمارسوا مهمتهم التي جعلهم الله لها ، وليس المقصود من الكتاب أن الله يطّلع عليه ويعلم ما فيه؛ لأنه سبحانه { لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى } [طه : 52] .

ثم أرجعه موسى إلى القضية الأولى قضية الخلق ، ولكن بصورة تفصيلية : { الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض مَهْداً }

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (53)

مَهْداً : من التمهيد وتوطئة الشيء ليكون صالحاً لمهمته ، كما تفعل في فراشك قبل أن تنام ، ومن ذلك يسمى فراش الطفل مَهْداً؛ لأنك تُمهِّده له وتُسوّيه ، وتزيل عنه ما يقلقه أو يزعجه ليستقر في مَهْده ويستريح .

ولا بُدَّ لك أنْ تقوم له بهذه المهمة؛ لأنه يعيش بغريزتك أنت ، إلا أن تتنبه غرائزه لمثل هذه الأمور ، فيقوم بها بنفسه؛ لذلك لزمك في هذه الفترة رعايته وتربيته والعناية به .

فمعنى { جَعَلَ لَكُمُ الأرض مَهْداً } [طه : 53] أي : سوَّاها ومهَّدها لتكون صالحة لحياتكم ومعيشتكم عليها .

وليس معنى مهّدها جعلها مستوية ، إنما سوّاها لمهمتها ، وإلا ففي الأرض جبال ومرتفعات ووديان ، وبدونها لا يستقيم لنا العيش عليها ، فتسويتها تقتضي إصلاحها للعيش عليها ، سواء بالاستواء أو التعرّج أو الارتفاع أو الانخفاض .

فمثلاً في الأرض المستوية نجد الطرق مستوية ومستقيمة ، أما في المناطق الجبلية فهي مُتعرّجة مُلتوية؛ لأنها لا تكون إلا كذلك ، ولها ميزة في التوائها أنك لا تواجه الشمس لفترة طويلة ، بل تراوح بين مواجهة الشمس مرة والظل أخرى .

وسبق أن ضربنا مثلاً بالخطّاف الذي نصنعه من الحديد ، فلو جعلناه مستقيماً ما أدَّى مهمته ، إذن : فاستقامته في كَوْنه مُعْوجاً فتقول : سويته ليؤدي مهمته ، ولو كان مستقيماً ما جذب الشيء المراد جَذْبه به .

إذن : نقول التسوية : جَعْل الشيء صالحاً لمهمته ، سواء أكان بالاعتدال أو الاعوجاج ، سواء أكان بالأمْت أو بالاستقامة .

ثم يقول تعالى : { وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً } [طه : 53] أي : طرقاً ممهدة تُوصّلكم إلى مهماتكم بسهولة .

سلك : بمعنى دخل ، وتأتي متعدية ، تقول : سلك فلان الطريق . وقال تعالى : { مَا سَلَكَكُمْ فِي

سَقَرَ } [المدثر : 42] فالمخاطبون مَسْلوكون في سقر يعني : داخلون ، وقال : { اسلك يَدَكَ فِي جَيْبِكَ } [القصص : 32] أي : أدْخِلْها .

فتعديها إلى المفعول الداخل أو للمدخول فيه ، فقوله : { وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً } [طه : 53] متعدية للمدخول فيه أي : عديت المخاطب إلى المدخول فيه ، فأنتم دخلتم ، والسُّبل مدخول فيه . إذن : المفعول مرة يكون المسلوك ، ومرة يكون المسلوك فيه .

وحينما تسير في الطرق الصحراوية تجدها مختلفة على قَدْر طاقة السير فيها ، فمنها الضيّق على قَدْر القدم للشخص الواحد ، ومنها المتسع الذي تسير فيه الجمال المحمّلة أو السيارات ، فسلك لكم طرقاً مختلفة ومتنوعة على قَدْر المهمة التي تؤدونها .

ثم يقول تعالى : { وَأَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شتى } [طه : 53] .

وهذه أيضاً من مسألة الخَلْق التي لا يدعيها أحد؛ لأنها دَعْوى مردودة على مدعيها ، فأنت يا مَنْ تدّعي الألوهية أخرِجْ لنا شيئاً من ذلك ، إرِنَا نوعاً من النبات فلن يقدر ، وبذلك لزمتْه الحجة .

كما أن إنزال الماء من السماء ليس لأحد عمل فيه ، لكن عندما يخرج النبات قد يكون لنا عمل مثل الحَرْث والبَذْر والسَّقْي وخلافه ، لكن هذا العمل مستمد من الأسباب التي خلقها الله لك؛ لذلك لما تكلم عن الماء قال (أنْزَلَ) فلا دَخْل لأحد فيه ، ولما تكلم عن إخراج النبات قال (أَخْرَجْنَا) لأنه تتكاتف فيه صفات كثيرة ، تساعد في عملية إخراجه ، وكأن الحق تبارك وتعالى يحترم عملك السَّببي ويُقدِّره .

اقرأ قوله تعالى : { أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزارعون } [الواقعة : 6364] فأثبت لهم عملاً ، واحترم مجهودهم ، إنما لما حرثتم من أين لكم بالبذور؟ فإذا ما تتبعت سِلْسِلة البذور القبلية لانتهتْ بك إلى نبات لا قَبْلَ له . كما لو تتبعتَ سلسلة الإنسان لوجدتها تنتهي إلى أب ، لا أب له إلا مَنْ خلقه .

وأنت بعد أن ألقيتَ البذرة في الأرض وسقيْتها ، ألَكَ حيلة في إنباتها ونُموّها يوماً بعد يوم؟ أأمسكْتَ بها وجذبْتها لتنمو؟ أم أنها قدرة القادر { الذي خَلَقَ فسوى * والذي قَدَّرَ فهدى } [الأعلى : 23] .

لذلك يقول تعالى بعدها : { لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً } [الواقعة : 65] ، فإنْ كانت هذه صنعتكم فحافظوا عليها .

كما حدث مع قارون حينما قال عن نعمة الله : { إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ } [الزمر : 49] . فما دام الأمر كذلك فحافظ عليه يا قارون بما عندك من العلم ، فلما خسف الله به وبداره الأرض دَلَّ ذلك على كذبه في مقولته .

ونلحظ في قوله تعالى : { لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً } [الواقعة : 65] أنه مؤكد باللام ، لماذا؟ لأن لك شبهة عمل في مسألة الزرع ، قد تُطمِعك وتجعلك مُتردّداً في القبول . إنما حينما تكلم عن الماء قال :

{ أَفَرَأَيْتُمُ المآء الذي تَشْرَبُونَ * أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ المزن أَمْ نَحْنُ المنزلون * لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً } [الواقعة : 6870] .

هكذا بدون توكيد؛ لأنها مسألة لا يدَّعيها أحد لنفسه .

وقوله تعالى : { أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شتى } [طه : 53] لم يقل : نباتاً فقط . بل أزواجاً؛ لأن الله تعالى يريد أن تتكاثر الأشياء ، والتكاثر لا بُدَّ له من زوجين : ذكر وأنثى . وكما أن الإنسان يتكاثر ، كذلك باقي المخلوقات؛ لأن الحق تبارك وتعالى خلق الأرض وقدَّر فيها أقواتها ، ولا بُدَّ لهذه الأقوات أن تكفي كل مَنْ يعيش علىهذه الأرض .

فإذا ضاقت الأرض ، ولم تُخرِج ما يكفينا ، وجاع الناس ، فلنعلم أن التقصير مِنّا نحن البشر من استصلاح الأرض وزراعتها؛ لذلك حينما حدث عندنا ضيق في الغذاء خرجنا إلى الصحراء نستصلحها ، وقد بدأت الآن تُؤتي ثمارها ونرى خيرها ، والآن عرفنا أننا كنا في غفلة طوال المدة السابقة ، فتكاثرنا ولم نُكثِّر ما حولنا من الرقعة الزراعية .

والذكر والأنثى ليسا في النبات فحسْب ، بل في كل ما خلق الله : { سُبْحَانَ الذي خَلَقَ الأزواج كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأرض وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ } [يس : 36] .

فالزوجية في كل شيء ، عَلِمته أو لم تعلمه ، حتى في الجمادات ، هناك السالب والموجب والألكترونيات والأيونات في الذرة ، وهكذا كلما تكاثر البشر تكاثر العطاء .

وقوله تعالى : { مِّن نَّبَاتٍ شتى } [طه : 53] شتى مثل : مرضى جمع مريض فشتى جمع شتيت . يعني أشياء كثيرة مختلفة ومتفرقة ، ليست في الأنواع فقط ، بل في النوع الواحد هناك اختلاف .

فلو ذهبت مثلاً إلى سوق التمور في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم تجد أنواعاً كثيرة ، مختلفة الأشكال والطُّعوم والأحجام ، كلها تحت مُسمّى واحد هو : التمر . وهكذا لو تأملتَ باقي الأنواع من المزروعات .

ثم يذكر الحق تبارك وتعالى العِلَّة في إخراج النبات : { كُلُواْ وارعوا أَنْعَامَكُمْ }

كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (54)

(كُلُوا) : تدل على أن الخالق عز وجل خلق الحياة ، وخلق مقومات الحياة ، وأولها القوت من الطعام والشراب ، وهذه المقوّمات تناسبت فيها الملكية مع الأهمية ، فالقوت أولاً ، ثم الماء ، ثم الهواء .

فأنت تحتاج الطعام وتستطيع أن تصبر عليه شهراً على قَدْر ما يختزن في جسمك من شحم ولحم ، يتغذّى منها الجسم في حالة فقد الطعام؛ لأنك حين تأكل تستهلك جزءاً من الطعام في حركتك ، ثم يُختزن الباقي في صورة دهون هي مخزن الغذاء في الجسم ، فإذا ما نفد الدُّهْن امتصَّ الجسم غذاءه من اللحم ، ثم من العظم ، فهو آخر مخازن الغذاء في جسم الإنسان .

لذلك لما أراد سيدنا زكريا عليه السلام أن يعبر عن ضعفه ، قال : { رَبِّ إِنِّيَ وَهَنَ العظم مِنِّي } [مريم : 4] .

لذلك تجد كثيراً ما يُتملّك الغذاء؛ لأنك تصبر عليه مدة طويلة تُمكِّنك من الاحتيال في طلبه ، أو تُمكِّن غيرك من مساعدتك حين يعلم أنك محصور جوعان .

أما الماء فلا تصبر عليه أكثر من ثلاثة أيام إلى عشرة؛ لذلك قليلاً ما يُمِلّك الماء لأحد .

أما الهواء فلا تصبر عليه أكثر من نفَس واحد ، فمن رحمة الله بعباده ألاَّ يُمِلّك الهواء لأحد ، وإلاّ لو غضب عليك صاحب الهواء ، فمنعه عنك لمتّ قبل أنْ يرضى عنك ، وليس هناك وقت تحتال في طلبه .

وقوله تعالى : { وارعوا أَنْعَامَكُمْ } [طه : 54] لأنها تحتاج أيضاً إلى القُوت ، وقال تعالى في أية أخرى : { مَتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ } [النازعات : 33] ثم يصبّ الجميع في أن يكون متاعاً للإنسان الذي سخّر الله له كل هذا الكون .

وقوله تعالى : { إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ لأُوْلِي النهى } [طه : 54] .

آيات : عجائب . والنُّهَى : جمع نُهية مثل قُرَبْ جمع : قُرْبة . والنُّهَى : العقول ، وقد سمّاها الله تعالى أيضاً الألباب ، وبها تتم عملية التدبير في الاختيارات .

والعقل من العقال الذي تعقل به الدابة حتى لا تشرد منك ، وكذلك العقل لم يُخلَق لك كي تشطح به كما تحب ، إنما لتعقل غرائزك ، وتحكمها على قَدْر مهمتها في حياتك ، فغريزة الأكل مثلاً لبقاء الحياة ، وعلى قَدْر طاقة الجسم ، فإنْ زادت كانت شراهة مفسدة .

وقد جُعل حُبُّ الاستطلاع للنظر في الكون وكَشْف أسراره وآيات الله فيه ، فلا ينبغي أنْ تتعدّى ذلك ، فتتجسس على خَلْق الله .

وسُمِّيَتْ العقول كذلك النُّهَى ، لأنها تنهي عن مثل هذه الشطحات . إذن : فلا بد للإنسان من عقل يعقل غرائزه ، حتى لا تتعدى المهمة التي جُعلَتْ لها ، ويُوقِفها عند حَدِّها المطلوب منها ، وإلا انطلقتْ وعربدتْ في الكون ، لا بُدَّ للإنسان من نُهية تنهاه وتقول له : لا لشهوات النفس وأهوائها ، وإلاّ فكيف تُطلِق العنان لشهواتك ، ولست وحدك في الكون؟ وما الحال لو أطلق غيرك العنان لشهواتهم؟

وسُمِّي العقل لُبّاً ، ليشير لك إلى حقائق الإشياء لا إلى قشورها ، ولتكون أبعد نظراً .

وأعمق فكراً في الأمور . فحين يأمرك أن تعطي شيئاً من فضل مالك للفقراء ، فسطحية التفكير تقول : لا كيف أتعب وأعرق في جمعه ، ثم أعطيه للفقير؟ وهو لم يفعل شيئاً؟

أماحين تتعمق في فَهْم الحكمة من هذا الأمر تجد أن الحق تبارك وتعالى قال لك : أعط المحتاجين الآن وأنت قادر حتى إذا ما احتجتَ تجد مَنْ يعطيك ، فقد يصبر الغني فقيراً ، أو الصحيح سقيماً ، أو القوي ضعيفاً ، فهذه سنة دائرة في الخَلْق متداولة عليهم .

وحين تنظر إلى تقييد الشرع لشهواتك ، فلا تنسَ أنه قيَّد غيرك أيضاً بنفس المنهج وبنفس التكاليف . فحين يقول لك : لا تنظر إلى محارم الناس وأنت فرد فهو في نفس الأمر يكون قد أمر الناس جميعاً ألاّ ينظروا إلى حرماتك .

وهكذا جعل الخالق عز وجل آلة العقل هذه ، لا لنعربد بها في الكون ، إنما لنضبط بها الغرائز والسلوك ، ونحرسها من شراسة الأهواء ، فيعتدل المجتمع ويسْلَم أفراده .

وإلاَّ فإذا سمحتَ لنفسك بالسرقة ، فاسمح للآخرين بالسرقة منك!! إذن : فمن مصلحتك أنت أنْ يوجد تقنين ينهاك ، ومنهج يُنظِّم حياتك وحياة الآخرين .

والحق سبحانه يقول : { مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ }

مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (55)

نلحظ هنا أن موسى عليه السلام يعرض على فرعون قضايا لا تخصُّ فرعون وحده ، إنما تمنع أنْ يوجد فرعون آخر .

وقوله : { مِنْهَا } [طه : 55] أي : من الأرض التي سبق أنْ قال عنها : { الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض مَهْداً } [طه : 53] .

ثم ذكر لنا مع الأرض مراحل ثلاث : { مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أخرى } [طه : 55] .

وفي آية أخرى يذكر مرحلة رابعة ، فيقول : { فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ } [الأعراف : 25] .

بذلك تكون المراحل أربعة : منها خلقناكم ، وفيها تحيَوْن ، وإليها تُرجعون بالموت ، ومنها نُخرجكم بالبعث .

فقوله تعالى : { مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ } [طه : 55] الخلْق قِسْمان : خَلْق أولي ، وخَلْق ثانوي ، الخلق الأَوليّ في أدم عليه السلام ، وقد خُلِق من الطين أي : من الأرض . ثم الخَلْق الثاني ، وجاء من التناسل ، وإذا كان الخَلْق الأَوْلي من طين ، فكل ما ينشأ عنه يُعَدّ كذلك؛ لأنه الأصل الأول .

ويمكن أن نُوجِّه الكلام توجيهاً آخر ، فنقول : التناسل يتولد من ميكروبات الذكورة وبويضات

الأنوثة ، وهذه في الأصل من الطعام والشراب ، وأصله أيضاً من الأرض . إذن : فأنت من الأرض بواسطة أو بغير واسطة .

وإنْ كانت قضية الخَلْق هذه قضية غيبية ، فقد ترك الخالق في كونه عقولاً تبحث وتنظر في الكون ، وتعطينا الدليل على صِدْق هذه القضية ، فلما حلّل العلماء طينة الأرض وجدوها ستة عشر عنصراً تبدأ بالأكسوجين ، وتنتهي بالمنجنيز ، وحين حلّلوا عناصر الإنسان وجدوها نفس العناصر الستة عشر ، ليثبتوا بذلك البحث التحليلي صِدْق قضية الخَلْق التي أخبر عنها الخالق عز وجل .

وقوله : { وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ } [طه : 55] هذه مرحلة مشاهدة ، فكُلُّ مَنْ يموت مِنّا ندفنه في الأرض؛ لذلك يقول الشاعر :

إنْ سَئِمْتَ الحياةَ فَارْجِعْ إلَى ... الأرْضِ تَنَمْ آمِناً مِنَ الأوْصَاب

هِيَ أُمُّ أحْنَى عَلَيْكَ مِنَ الأم ... التي خَلَّفتْك للإتْعَابِ

فبعد أن تُنقض بنية الإنسان بالموت لا يسارع إلى مواراته التراب إلا أقرب الناس إليه ، فترى المرأة التي مات وحيدها ، وأحب الناس إليها ، والتي كانت لا تطيق فراقه ليلة واحدة ، لا تطيق وجوده الآن ، بل تسارع به إلى أمه الأصلية (الأرض) .

وذلك لأن الجسد بعد أنْ فارقته الروح سرعان ما يتحول إلى جيفة لا تطاق حتى من أمه وأقرب الناس إليه ، أما الأرض فإنها تحتضنه وتمتصُّ كل مافيه من أذى .

ومن العجائب في نَقْض بنية الإنسان بالموت أنها تتم على عكس بنائه ، فعندما تكلم الخالق عز وجل عن الخلق الأول للإنسان قال : إنه خلق من تراب ، ومن طين ، ومن حمأ مسنون ، ومن صلصال كالفخار . وقلنا : إن هذه كلها أطوار للمادة الواحدة ، ثم بعد ذلك ينفخ الخالق فيه الروح ، فتدبّ فيه الحياة .

فإذا ما تأملنا الموت لوجدناه على عكس هذا الترتيب ، كما أنك لو بنيتَ عمارة من عِدَّة أدوار ، فآخر الأدوار بناءً أولها هَدْماً .

كذلك الموت بالنسبة للإنسان يبدأ بنزع الروح التي وُضِعَتْ فيه آخراً ، ثم يتصلّب الجسد و (يشضب) كالصلصال ثم يرمّ ، ويُنتن كالحمأ المسنون ، ثم يتبخر ما فيه من ماء ، وتتحلل باقي العناصر ، فتصير إلى التراب .

ثم يقول تعالى : { وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أخرى } [طه : 55] أي : مرة أخرى بالبعث يوم القيامة ، وهذا الإخراج له نظام خاصّ يختلف عن الإخراج الأول؛ لأنه سيبدأ بعودة الروح ، ثم يكتمل لها الجسد .

هذه كلها قضايا كونية تُلْقَى على فرعون عَلَّها تُثنيه عَمَّا هو عليه من ادّعاء الألوهية ، والألوهية

تقتضي مألوهاً ، فالإله معبود له عابد ، فكيف يَدّعي الألوهية ، وليس له في الربوبية شيء؟ فلا يستحق الألوهية والعبادة إلا مَنْ له الربوبية أولاً ، وفي الأمثال : (اللي ياكل لقمتي يسمع كلمتي) .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا }

وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (56)

الآيات : الأمور العجيبة ، كما نقول : فلان آية في الذكاء ، آية في الحسن ، آية في الكرم . يعني : عجيب في بابه ، وسبق أنْ قسّمنا آيات الله إلى : آيات كونية كالشمس والقمر ، وآيات لإثبات صِدْق الرسُل ، وهي المعجزات وآيات القرآن الكريم ، والتي تسمى حاملة الأحكام .

لكن آيات الله عز وجل كثيرة ولا تُحصى ، فهل المراد هنا أن فرعون رأى كل آيات الله؟ لا؛ لأن المراد هنا الآيات الإضافية ، وهي الآيات التسعة التي جعلها الله حُجّة لموسى وهارون ، ودليلاً على صِدْقهما ، كما قال سبحانه :

{ وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ } [الإسراء : 101] .

وهي : العصا واليد والطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم والسنين والنقص من الثمرات .

تلك هي الآيات التي أراها الله لفرعون .

والكلية في قوله : { آيَاتِنَا كُلَّهَا } [طه : 56] كلية إضافية . أي : كل الآيات الخاصة به كما تقول لولدك (لقد أحضرتُ لك كل شي) وليس المقصود أنك أتيتَ له بكل ما في الوجود ، إنما هي كلية إضافية تعني كل شيء تحتاج إليه .

ومع ذلك كانت النتيجة { فَكَذَّبَ وأبى } [طه : 56] كذَّب : يعني نسبها إلى الكذب ، والكذب قَوْل لا واقعَ له ، وكان تكذيبه لموسى عِلَّة إبائه { وأبى } [طه : 56] امتنعَ عن الإيمان بما جاء به موسى .

ولو ناقشنا فرعون في تكذيبه لموسى عندما قال : { رَبُّنَا الذي أعطى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هدى } [طه : 50] .

لما كذبتَ يا فرعون؟ الحق سبحانه قال : خلقتُ هذا الكون بما فيه ، ولم يَأْتِ أحد لينقضَ هذا القول ، أو يدَّعيه لنفسه ، حتى أنت يا مَنْ ادعيْتَ الألوهية لم تدَّعِ خَلْق شيء ، فهي إذن قضية مُسلَّم بها للخالق عز وجل لم ينازعه فيها أحد ، فأنت إذن كاذب في تكذيبك لموسى ، وفي إبائك الإيمان به .

ثم يقول الحق سبحانه : { قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا }

قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (57)

عاش المصريون قديماً على ضفاف النيل؛ لذلك يقولون : مصر هِبَة النيل ، حتى إذا ما انحسر الماء بذروا البذور وانتظروها طوال العام ، ليس لهم عمل ينشغلون به ، وهذه الحياة الرتيبة عوَّدتهم على شيء من الكسل ، إلا أنهم أحبُّوا هذا المكان ، ولو قلت لواحد منهم : اترك هذه الأرض لمدة يوم أو يومين يثور عليك ويغضب .

لذلك استغلّ فرعون ارتباط قومه بأرض مصر ، وحاول أن يستعدي هؤلاء الذين يمثّل عليهم أنه إله ، يستعديهم على موسى وهارون فقال مقولته هذه { أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ ياموسى } [طه : 57] .

وهنا ثار القوم ، لا لألوهية فرعون المهددة ، إنما دفاعاً عن مصلحتهم الاقتصادية ، وما ينتفعون به على ضفاف هذه النيل المبارك ، الذي لا يضنّ عليهم في فيضانه ولا في انحساره ، فكان القوم يسمونه : ميمون الغَدَوات والروحَات ، ويجري بالزيادة والنقصان كجرْي الشمس والقمر ، له أوان .

وهكذا نقل فرعون مجال الخلاف مع موسى وهارون إلى رعيته ، فأصبحت المسألة بين موسى وهارون وبين رعية فرعون؛ لأنه خاف من كلام موسى ومِمّا يعرضه من قضايا إنْ فهمها القوم كشفوا زَيْفه ، وتنمَّروا عليه ، وثاروا على حكمه ، ورفضوا ألوهيته لهم ، فأدخلهم طرفاً في هذا الخلاف .

ثم يقول الحق سبحانه : { فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ }

فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى (58)

فسمَّى فرعون ما جاء به موسى سِحْراً؛ لذلك قال { فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ } [طه : 58] وهذه التسمية خاطئة في حق موسى ، وإنْ كانت صحيحة بالنسبة لقوم فرعون . فما الفرق إذن بين ما جاء به موسى وما جاء به قوم فرعون؟

السحر لا يقلب حقيقة الشيء ، بل يظل الشيء على حقيقته ، ويكون السحر للرائي ، فيرى الأشياء على غير حقيقتها ، كما قال تعالى : { سحروا أَعْيُنَ الناس } [الأعراف : 116] فلما ألقى السحرةُ حبالهم كانت حبالاً في الحقيقة ، وإنْ رآها الناظر حيّات وثعابين تسعى ، أما عصا موسى فعندما ألقاها انقلبت حية حقيقية ، بدليل أنه لما رآها كذلك خاف منها .

وقوله : { فاجعل بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لاَّ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلاَ أَنتَ } [طه : 58] أي : نتفق على موعد لا يُخلفه واحد منّا { مَكَاناً سُوًى } [طه : 58] أي : مُسْتوياً؛ لأنه سيكون مشهداً للناس جميعاً فتستوي فيه مرائي النظارة ، بحيث لا تحجب الرؤية عن أحد . أو (سُوىً) يعني : سواء بالنسبة لنا ولك ، كما نقول : نلتقي في منتصف الطريق ، لا أنا أتعب ولا أنت .

ثم يقول الحق سبحانه : { قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزينة }

قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (59)

معلوم أن الحدث يحتاج إلى مُحدِث له ، ويحتاج إلى مكان يقع عليه ، ويحتاج إلى زمان يحدث فيه ، وقد عرفنا المحدِث لهذا اللقاء ، وهما موسى وهارون من ناحية ، وفرعون وسحرته من ناحية .

وقد حدد فرعون المكان ، فقال { مَكَاناً سُوًى } [طه : 58] بقي الزمان لإتمام الحدث؛ لذلك حدده موسى ، فقال : { مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزينة } [طه : 59] ؛ لأن الحدث لا يتم إلا في زمان ومكان .

لذلك لا نقول : متى الله ولا : أين الله؟ فالحق تبارك وتعالى ليس حَدَثاً ، ومتى وأين مخلوقة لله تعالى ، فكيف يحدُّه الزمان أو المكان؟

وقول موسى { مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزينة } [طه : 59] ولم يقُلْ : يوم الاثنين أو الثلاثاء مثلاً ، ويوم الزينة يوم يجتمع فيه كل سُكَّان مصر ، يظهر أنه يوم وفاء النيل ، فيخرجون في زينتهم مسرورين بفيضان النيل وكثرة خيره وبركاته ، وما زالت مصر تحتفل بهذا اليوم .

وكان القاضي لا يقضي بأمر الخراج إلا بعد أنْ يطّلع على مقياس النيل ، فإنْ رآه يُوفي بريٍّ البلاد حدَّد الخراج وإلاَّ فلا .

لكن ، لماذا اختار موسى هذه اليوم بالذات؟ لماذا لم يحدد أي يوم آخر؟ ذلك؛ لأن موسى عليه السلام كان على ثقة تامة بنصر الله له ، ويريد أن تكون فضيحة فرعون على هذا الملأ ، ووسط هذه الجمع ، فمِثْل هذا التجمع فرصة لا يضيعها موسى؛ لأن النفس في هذا اليوم تكون مسرورة منبسطة ، فهي أقرب في السرور لقبول الحق من أيِّ وقت آخر .

وقوله : { وَأَن يُحْشَرَ الناس ضُحًى } [طه : 59] أي : ضاحين ، ويوم الزينة يمكن أن يكون في الصباح الباكر ، أو في آخر النهار ، لكن موسى متمكِّن واثق من الفوز ، يريد أن يتم هذا اللقاء في وضح النهار ، حتى يشهده الجميع .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : { فتولى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ }

فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (60)

تولى : أي : ترك موسى و انصرف ليُدبِّر شأنه { فَجَمَعَ كَيْدَهُ } [طه : 60] الكيد : التدبير الخفي للخَصْم ، والتدبير الخفيّ هنا ليس دليلَ قوة ، بل دليل ضَعْف؛ لأنه قوةَ له على المجابهة الواضحة ، مثل الذي يدسُّ السُّم للآخر لعدم قدرته على مواجهته .

إذن : الكيد دليل ضَعْف؛ لذلك نفهم من قوله تعالى عن النساء : { إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ } [يوسف : 28] أنه ليس دليلاً على قوة المرأة ، إنما دليلٌ على ضعفها ، فكما أن كيدهُنّ عظيم ، فكذلك ضعفُهن عظيم .

فمعنى { فَجَمَعَ كَيْدَهُ } [طه : 60] أدار فِكْره على ألوان الكَيْد المختلفة ، ليختار منها ما هو أنكى لخَصْمه ، كما جاء في آية أخرى في شَأْنِ نوح عليه السلام { فأجمعوا أَمْرَكُمْ } [يونس : 71] .

وكأن الأمر الذي هو بصدده يتطلب وجهات نظر متعددة : نفعل كذا ، أو نفعل كذا؟ ثم ينتهي من هذه المشاورة إلى رَأْي يجمع كل الاحتمالات ، بحيث لا يفاجئه شيء بعد أنْ احتاط لكل الوجوه .

فالمعنى : اتفِقُوا على الخطة الواضحة التي تُوحِّد آراءكم عند تحقيق الهدف .

ومن ذلك قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام : { وأجمعوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غيابت الجب } [يوسف : 15] . أي : اتفقوا على هذا الرأي ، وأجمعوا عليه ، بعد أن قال أحدهم { اقتلوا يُوسُفَ أَوِ اطرحوه أَرْضاً } [يوسف : 9] ، فكان الرأي النهائي أنْ يجعلوه في غيابة الجب .

فهُمْ على آية حال سلالة نُبوة ، لم يتأصل الشرُّ في طباعهم؛ لذلك يتضاءل شرُّهم من القتل إلى الإلقاء في متاهات الأرض إلى أهْوَن هذه الأخطار ، أنْ يُلْقوه في الجُبِّ ، وهذه صفة الأخيار ، أما الأشرار الذين تأصل الشر في نفوسهم وتعمّق ، فشرُّهم يتزايد ويتنامى ، فيقول أحدهم : أريد أنْ أقابل فلاناً ، فأبصق في وجهه ، أو أضربه ، أو أُقطّعه ، بل رصاصة تقضي عليه فيُصعِّد ما عنده من الشر .

وبعد ذلك يرجُونَ له النجاة ، فيقولون : { يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السيارة } [يوسف : 10] .

ثم يقول تعالى في شأن فرعون : { ثُمَّ أتى } [طه : 60] أي : أتى الموعد الذي سبق تحديده ، مكاناً وزماناً .

ثم يُحدِّثنا الحق سبحانه عن وقائع هذا اليوم ، فيقول : { قَالَ لَهُمْ موسى وَيْلَكُمْ }

قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى (61)

لما رأى موسى السحرة أراد أنْ يُحذِّرهم مِمَّا هم مُقبِلون عليه ، وأنْ يعطيهم المناهي التي تمنعهم ، فذكَّرهم بأن لهم رباً سيحاسبهم كما تقول لشخص ، تراه مُقْدِماً على جريمة ، لو فعلتَ كذا سأُبلغ عنك الشرطة ، وستُعاقب بكذا وكذا ، وتُذكّره بعاقبة جريمته .

{ لاَ تَفْتَرُواْ عَلَى الله كَذِباً } [طه : 61] افترى أي : جاء بالفِرْية ، وهي تعمُّد الكذب { فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ } [طه : 61] يعني : يستأصلكم بعذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة { وَقَدْ خَابَ مَنِ افترى } [طه : 61] أي : خسر .

ثم يقول الحق سبحانه : { فتنازعوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ }

فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى (62)

يبدو أن تخويفَ موسى لهم بقوله : { وَيْلَكُمْ لاَ تَفْتَرُواْ عَلَى اللهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ } [طه : 61] قد أثَّر فيهم وأخافهم { فتنازعوا أَمْرَهُمْ } [طه : 62] أخذوا يتساومون القَوْل ويتبادلون الآراء .

{ وَأَسَرُّواْ النجوى } [طه : 62] تحدثوا سِراً ، وهذا دليل خوفهم من كلام موسى ، ودليل ما فيهم من استعداد للخير ، لكن انتهى رأيهم إلى الاستمرار في الشوط إلى آخره .

قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (63)

توقف العلماء طويلاً حول هذه الآية ، لأن فيها قراءتين (إنْ هذان) بسكون (إنْ) والأخرى (إنَّ هذان) بالتشديد .

والقراءة التي نحن عليها قراءة حفص { إِنْ هذان لَسَاحِرَانِ } [طه : 63] و (إنْ) شرطية إنْ دخلت على الفعل ، كما نقول : إنْ زارني زيد أكرمته ، وتأتي نافية بمعنى ما ، كما في قوله تعالى : { الذين يُظَاهِرُونَ مِنكُمْ مِّن نِّسَآئِهِمْ مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللائي وَلَدْنَهُمْ } [المجادلة : 2] .

فالمعنى : ما أمهاتهم إلا اللائي وَلَدْنهم . كذلك في قوله تعالى : { إِنْ هذان لَسَاحِرَانِ } [طه : 63] فالمعنى : ما هذان إلا ساحران ، فتكون اللام في { لَسَاحِرَانِ } [طه : 63] بمعنى إلا . كأنك قُلْتَ : ما هذان إلا ساحران .

وتأتي اللام بمعنى إلا ، إذا اختلفنا مثلاً على شيء ، كل واحد مِنّا يدَّعيه لنفسه ، فيأتي الحكم يقول : لَزَيدُ أحقُّ به ، كأنه قال : ما هذا الشيء إلا لزيد . إذن : اللام تأتي بمعنى إلا .

وعلى القراءة الثانية بالتشديد (إنَّ هذان لساحران) فإنَّ حرف ناسخ ينصب المبتدأ ويرفع الخبر ، تقول : إنَّ زيداً مجتهدٌ ، أما في الآية بهذه القراءة : (إنّ هذان لساحران) جاء اسم إنَّ هذان بالرفع بالألف؛ لأنه مثنى ، والقاعدة تقتضي أن نقول (هذين) .

فكيف يتم توجيه إنَّ المشددة الناسخة وبعدها الاسم مرفوع؟

قالوا : هذه لغة كنانة إحدى قبائل العرب ، وكان لكل قبيلة لهجتها الخاصة ولغتها المشهورة فيقولون : جعجعة خزاعة ، وطُمْطُمانيّة حِمْيَر ، وتَلْتلة بَهْراء ، وفحفحة هذيل . . الخ .

ولما نزل القرآن نزل على جمهرة اللغة القرشية؛ لأن لغات العرب جميعها كانت تصبُّ في لغة قريش في مواسم الحج والشعر والتجارة وغيرها ، فكانت لغة قريش هي السائدة بين لغات كل هذه القبائل؛ لذلك نزل بها القرآن ، لكن الحق تبارك وتعالى أراد أن يكون للقبائل الأخرى نصيب ، فجاءت بعض ألفاض القرآن على لهجات العرب المختلفة للدلالة على أن القرآن ليس لقريش وحدها ، ليجعل لها السيادة على العرب ، وإنما جاء للجميع .

ومن لهجات القبائل التي نزل بها القرآن لهجة كنانة التي تلزم المثنى الألف في كل أحواله رَفْعاً ونَصْباً وجراً . وشاهدهم في كتب النحو قول شاعرهم :

وَاهَاً لِسَلْمى ثُمَّ وَاهَا وَاهَا ... يَا لَيْتَ عَيْناهَا لَنَا وَافَاهَا

هِيَ المُنَى لَوْ أَنَّنَا نِلْناهَا ... ومَوْضِعِ الخُلْخال من قَدَمَاهَا

إنَّ أبَاهَا وأبَا أَبَاهَا ... قَدْ بلغَا في المَجْدِ غَايتَاهَا

فقال : إنَّ أباها . ولم يقل : إنَّ أبيها؛ لأنه يُلزِم المثنى الألف .

إذن : لم ينزل القرآن بلغة قريش على أنها لغة سيادة ، وإنما لأنها تنطوي على زُبْدة فصاحات لغات الجزيرة كلها ، وكانت لغة قريش تصفَّى في مواسم الشعر والأدب في عكاظ وذى المجنّة وغيرها .

نعود إلى قول الحق تبارك وتعالى : { قالوا إِنْ هذان لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا } [طه : 63] ويبدو أن استعداء فرعون لقومه على موسى وهارون جاء بنتيجة ونالتْ حيلته من نفوسهم؛ لذلك يُردِّدون نفس كلام المعلم الكبير فرعون ، فيتهمون موسى وهارون بالسحر .

وقولهم : { وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ المثلى } [طه : 63] طريقتهم المثلى . أي : ما ارتضاه القوم للعيش عليه ، والمذهب والطريق الذي سلكوه . والمراد بالطريقة المثلى التي ساروا عليها أنهم اتخذوا واحداً منهم إلهاً يعبدونه ويأتمرون بأمر ، تلك هي الطريقة المثلى!! والمثلى : أي الفاضلة مُذكّرها أمثل .

فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى (64)

أي : تنبهوا واشحذوا كل أذهانكم ، وكل فنونكم ، وحركاتكم في السحر حتى لا يتمكنا من هذين الأمرين : إخراجكم من أرضكم ، والقضاء على طريقتكم المثلى .

وهذا قَوْل بعضهم لبعض { فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ } [طه : 64] فلا يُخفِي أحد فناً من فنون السحر ، وليُقدّم كُلُّ مِنّا ما عنده؛ لأن عادة أهل الحِرَف أن يوجد بينهم تحاسد ، فلا يُظهر الواحد منهم كل ما عنده مرة واحدة ، أو يحاول أنْ يُخفي ما عنده حتى لا يطلع عليه الآخر ، لكن في مثل هذا الموقف لا بُدَّ لهم من تضافر الجهود فالموقف حرِج ستعمُّ بلواه الجميع إنْ فشلنا في هذه المهمة .

وقوله : { ثُمَّ ائتوا صَفّاً } [طه : 64] يعني : مجتمعين كأنكم يد واحدة ، فهذا أهْيَبُ لكم وأدْخَلُ للرعب في قلوب خصمكم ، كما أننا إذا جِئْنَا سوياً لم يتمكن أحد من التراجع ، فيكون بعضنا رقيباً على بعض .

{ وَقَدْ أَفْلَحَ اليوم مَنِ استعلى } [طه : 64] أفلح : فاز ، كما في قوله تعالى : { قَدْ أَفْلَحَ

المؤمنون } [المؤمنون : 1] وهذا اللفظ مأخوذ من فلح الأرض ومنه الفلاحة؛ لأن الفلاح إذا شقَّ الأرض أو حرثَها ورعاها تعطيه خيرها ، فحركتُه فيها حركة ميمونة مباركة .

لذلك ، لما أراد الحق تبارك وتعالى أن يُبيّن لنا مضاعفة الأجر والثواب على الصدقة وعلى فعل الخير ضرب لنا مثلاً بالزرع ، فقال تعالى : { مَّثَلُ الذين يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ والله يُضَاعِفُ لِمَن يَشَآءُ والله وَاسِعٌ عَلِيمٌ } [البقرة : 261] .

فإذا كانت الأرض وهي مخلوقة لله تعالى تعطي كل هذا العطاء ، فما بالك بعطاء الخالق لهذه الأرض؟ لذلك عقب المثل بقوله تعالى : { والله يُضَاعِفُ لِمَن يَشَآءُ } [البقرة : 261] .

ثم أُخِذَتْ كلمة الفلاح عَلماً على كل فلاح ، ولو لم يكن فيه صِلَة بالأرض؛ لأن قصارى كل حركات الحياة أن تضمن للإنسان بقاء نَوْعه بالأكل ، والأرض مصدر هذا كله ، فكانت لذلك مصدراً للفوز .

وقوله : { مَنِ استعلى } [طه : 64] أي : طلب العُلو على خَصْمه . لكن هل الفلاَح يكون لمن طلب العلو أم لمن علا بالفعل؟ طبعاً يكون لمن علا ، إذن : مَنْ عَلاَ بالفعل لا بُدَّ أنْ يشحذَ ذِهْنه على أن يطلب العلو على خصمه ، فمهما علا الخصم استعلى عليه أي : طلب العُلو ، إذن : قبل علا استعلى .

ثم يقول الحق سبحانه عن السحرة : { قَالُواْ ياموسى إِمَّآ أَن تُلْقِيَ }

قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (65)

تُلْقي : ترمي . والمراد أن يرمي واحد منهم ما أعدّه من سحر ، فاختار موسى أنْ يُلْقُوا هم أولاً .

قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (66)

لأنهم إنْ ألقوا سِحْرهم كانت للعصا مهمة حين يلقيها موسى ، فأراد أن يكون للعصا حركة بعد أن تنقلب إلى ثعبان أو حية أو جان ، وإلا لو ألقى هو أولاً ، فماذا سيكون عملها؟

وقد ألهم الله تعالى سحرة فرعون هذه الأدب في معركتهم مع موسى ، فخيَّروه بين أنْ يلقي هو ، أو يلقوا هُمْ ، والله تبارك وتعالى يحُول بين المرء وقلبه ، فألهمهم ذلك مع أنهم خصومه ، وأنطقهم بما يؤيد صاحب المعجزة الخالدة ، فقالوا : { إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ ألقى } [طه : 65] .

وقد اختار موسى عليه السلام أنْ يُلقي أخيراً؛ لأن التجربة التي مَرَّ بها في طوى مع ربه عز وجل

لما قال له ربه : { قَالَ أَلْقِهَا ياموسى } [طه : 19] .
فلما ألقى موسى عصاه انقلبتْ إلى حيَّة تسعى ورأى هو حركتها ، لكن لم يكُنْ بهذه التجربة شيء تلقفه العصا ، فإذا ألقى موسى أولاً وتحوَّلَتْ العصا حية أو ثعباناً ، فما الفرق بينها وبين حبال السحرة التي تحولتْ أمامهم إلى حيَّات وثعابين؟
إذن : لا بُدَّ من شيء يُميِّز عصا موسى كمعجزة عن سِحْر السحرة وشعوذتهم؛ لذلك اختار موسى أنْ يُلقي هو آخراً بإلهام من الله حتى تلقف عصاه ما يأفكون ، فما يُلقَف لا بُدَّ أن يسبق ما يَلْقُف .
فمن حيث الحركة أمام الناظرين لا فَرْقَ بين عصا موسى وحبال السحرة وعِصِيهم ، فكلها تتحرك ، إنما تميزت عصا موسى بأنها تلقف ما يصنعون من السحر ، وتتتبع حبالهم وعِصيَّهم ، وتقفز هنا وهناك ، فلها إذن عَيْن تبصر ، ثم تلقف سحرهم في جوفها ، ومع ذلك تظل كما هي لا تنتفخ بطنها مثلاً ، وهذا هو موضع المعجزة في عصا موسى عليه السلام .
وقوله تعالى : { فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تسعى } [طه : 66] إذن : فحركة العِصِيّ والحبال ليستْ حركة حقيقية ، إنما هي تخيُّل { يُخَيَّلُ إِلَيْهِ } [طه : 66] فيراها تسعى ، وهي ليست كذلك .
وقد قال تعالى عن هؤلاء السحرة : { سحروا أَعْيُنَ الناس } [الأعراف : 116] فجاءوا بأعمال تخيُّلية خادعة بأيّ وسيلة كانت ، فالبعض يقول مثلاً : إنهم وضعوا بها الزئبق ، فلما حَمِيَتْ عليه الشمس تمدّد ، فصارتْ الأشياء تتلوّى وتتحرك ، فأياً كانت وسائلهم فهي مجرد تخيُّلات ، أمَّا الساحر نفسه فيراها حِبَالاً على حقيقتها ، وهذا هو الفرق بين سِحْر السحرة ، ومعجزة عصا موسى .
والسحر يختلف عن الحِيَل التي تعتمد على خِفَّة الحركة والألاعيب والخُدَع ، فالسحر أقرب ما يكون إلى الحقيقة في نظر الرائي ، كما قال تعالى : { واتبعوا مَا تَتْلُواْ الشياطين على مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ولكن الشياطين كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ الناس السحر } [البقرة : 102] .
إذن : هو فَنٌّ يُتعلم ، يعطي التخييل بواسطة تسخير الجنّ ، فهم الذين يقومون بكل هذه الحركات ، فهي إذن ليستْ حيلاً ولا خفة حركة ، إنما هي عملية لها أصول وقواعد تُدرَّس وتُتعَلَّم .

والخالق عز وجل حينما يعرض علينا قضية السحر ، وأنه عبارة عن تَسخير الشياطين لخدمة الساحر ، ويجعل لكل منهما القدرة على مضرّة الآخرين : الساحر بالسحر ، والشياطين بما لديهم من قوة التشكّل في الأشكال المختلفة والنفاذ من الحواجز؛ لأن الجن خُلِقُوا من النار ، والنار لها شفافية تنفذ خلال الجدار مثلاً .

أما الإنسان فَخُلِق من الطين ، والطين له كثافة ، وضربنا مثلاً لنقرب هذه المسألة ، قلنا : هَبْ أنك تجلس خلف جدار ، ووراء هذا الجدار تفاحة مثلاً وهي من الطينية المتجمدة ، أيصل إليك من التفاحة شيء؟ إنما لو خلف الجدار نار فسوف تشعر من خلال الجدار بحرارتها . هذه إذن خصوصيات جعلها الخالق عز وجل للشياطين فضلاً عن أنهم يرونكُم من حيث لا ترونهم .

لكن ، كان من لُطْف القدير بنا أن جعل لنا ما يحمينا من الشياطين ، فجعل الحق تبارك وتعالى حين يتشكَّلون في الأشكال المختلفة تحكمهم هذه الأشكال ، بمعنى لو أن الشيطان تشكّل لك في صورة إنسان فقد حكمتْه هذه الصورة ، فلو أطلقتَ عليه الرصاص في هذه اللحظة لقتلتَه فعلاً .

لذلك؛ فالشيطان يخاف منك أكثر مما تخاف منه ، ولا يظهرون لنا إلا ومضة ولمحة سريعة خَوْفاً أن يكون الرائي له على عِلْم بهذه المسألة فيمسك به وساعتها لن يفلت منك .

وقد أمسك النبي صلى الله عليه وسلم شيطاناً وقال : « لقد هممت أن أربطه بسارية المسجد ، يلعب به غلمان المدينة ، إلا أنني ذكرت دعوة أخي سليمان { وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّن بعدي } [ص : 35] » .

إذن : الحق سبحانه أعطاهم خصوصية التشكّل كما يحبون ، إنما قيدهم بما يشكّلون به ، كأنه يقول له : إذا تركتَ طبيعتك وتشكَّلْت بصورة أخرى فارْضَ بأنْ تحكمك هذه الصورة ، وأن يتحكم فيك الأضعف منك ، وإلا لَفزَّعوا الناس وأرهبوهم ، ولم نسلم من شَرَّهم .

وكذلك الحال مع الساحر نفسه ، فلديه بالسحر والطلاسم أن يُسخِّر الجن يفعلون له ما يريد ، وهذه خصوصية تفوق بها قدرتُه قدرةَ الآخرين ، ولديه بالسحر فُرْصة لا تتوفر لغيره من عامة الناس ، فليس بينه وبين تكافؤ في الفُرص .

والله عز وجل يريد لخَلْقه أنْ تتكافأ فُرَصهم في حركة الحياة فيقول الساحر : إياك أن تفهم أن ما يسَّرته لك من تسخير الأقوى منك ليقدر على ما لا تقدر عليه يفيدك بشيء . أو أنك أخذتَ بالسحر فرصةً على غيرك ، بل العكس هو الصحيح فلن تجنيَ من سِحْرك إلا الضرر والشقاء ، فالسحر فتنة للإنسان ، كما أنه فتنة للجن .

لذلك يقول تعالى : { وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حتى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ }

[البقرة : 102] .

والفتنة هنا معناها أن نختبر استعماله لمدى مَا اعدَّه الله له ، أيستعمله في الخير أم في الشر؟ فإنْ قُلْتَ : أتَعلَّم السحر لأستعمله في الخير . نقول : هذا كلامك ساعة التحمُّل ، ولا تضمن نفسك ساعة الأداء . كما قلنا سابقاً في تحمُّل الأمانة حين تقبلها ساعة التحمل ، وأنت واثق من قدرتك على أدائها في وقتها ، ومطمئنٌ إلى سلامة نيتك في تحمُّلها ، أما وقت الأداء فربما يطرأ

عليك ما يُغيّر نيتك .

وكما جاء في قول الحق تبارك وتعالى : { إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة عَلَى السماوات والأرض والجبال فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً } [الأحزاب : 72] .

فاخترْنَ التسخير على الاختيار وحَمْل الأمانة؛ لأنهن لا يضمَنَّ القيام بها .

وقد أعذر الله تعالى إلى السحرة في قوله : { وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حتى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ } [البقرة : 102] .

كأن الساحر مآله إلى الكفر؛ لأنه ابن أهواء وأغيار ، لا يستطيع أن يتحكّم في نفسه فيُسخِّر قوة السحر في الخير ، كما أن الله تعالى إذا أراد أن يُسخِّر القوى للخير : أيُسخِّر الطائع؟ أم يُسخِّر العاصي؟ سيُسخِّر الطائع ، والجن الطائع لا يرضى أبداً بهذه المسألة .

إذن : لن يستطيع الساحر إلا تسخير الجن العاصي ، كما قال تعالى : { وَإِنَّ الشياطين لَيُوحُونَ إلى أَوْلِيَآئِهِمْ } [الأنعام : 121] .

لذلك تلاحظ أن كل الذين يشتغلون بهذه العملية على سَمْتهم الغضب ، وعلى سحنتهم آثار الذنوب وشُؤْمها ، ينفر منهم مَنْ رآهم ، يعيشون في أضيق صور العيش ، فترى الساحر يأخذ من هذا ، ويأخذ من هذا ، ويبتز الناس ويخدعهم ، ومع ذلك تراه شحاذاً يعيش في ضيق ، ويموت كافراً مُبْعَداً من رحمة الله حتى أولاده من بعده لا يَسْلمَون من شُؤْمه ، وصدق الله العظيم حين قال : { وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإنس يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الجن فَزَادُوهُمْ رَهَقاً } [الجن : 6] .

كما أن في حياة السحرة لفتة ، يجب أن نلتفت إليها ، وهي أن السحرة الذين يصنعون السحر للناس ويخدعونهم : من أين يرتزقون؟ من عامة الناس الذين لا يفهمون في السحر شيئاً ، ولو أنه أفلح بالسحر لأغنى نفسه عن أنْ تمتد يده إلى هذا ، فيأخذ منه عدة جنيهات ، وإلى هذا يطلب منه أشياء غريبة يُوهمه أن مسألته لن تُحّل إلا بها .

ولماذا لم يستخدم سحره في سرقة خزينة مثلاً ويريح نفسه من هذا العناء ، وإنْ قال : كيف وهي أموال الناس والسطو عليها سرقة ، فليذهب إلى الرِّكاز وكنوز الأرض فليست مملوكة لأحد .

نعود إلى سحرة فرعون؛ أياً كان سحرهم أمِنْ نوع الألاعيب وخِفّة الحركة وخداع الناظرين؟ أم من نوع السحر الذي علّمته الشياطين من زمن سليمان عليه السلام فهو سحر لن يقف أمام معجزة باهرة جاءت على يد موسى لإثبات صدقه .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : { فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً }

فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (67)

أوجس : من الإيجاس ، وهو تحرّك شيء مخيف في القلب لا يتعدّى إلى الجوارح ، فإنْ تعدى إلى الجوارح يتحول إلى عمل نزوعي ، كأن يهرب أو يجري ، فالعمل النزوعي يأتي بعد الإحساس الوجداني؛ لذلك يقول بعدها : { فِي نَفْسِهِ } [طه : 67] .

وقد شعر موسى عليه السلام بالخوف لما رأى حبال السحرة وعِصيّهم تتحول أمام النظارة إلى حيَّات وثعابين ، وربما اكتفى المشاهدون بما رأَوْه فهرجوا عليه وأنهوا الموقف على هذا أنْ يتمكّن هو من عمل شيء . فإنْ قُلْت : فلماذا لم يُلْقِ عصاه وتنتهي المسألة؟ نقول : لأن أوامره من الله أولاً بأول ، وهو معه يتتبعه سماعاً ورؤية ، فتأتيه التعاليم جديدة مباشرة .

قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (68)

هذا حكم الله عز وجل يأتي موسى على هيئة برقية مختصرة { أَنتَ الأعلى } [طه : 68] أنت المنصور الفائز فاطمئن ، لكن تتحرك في موسى بشريته : منصور كيف؟

وهنا يأتيه الأمر العملي التنفيذي بعد هذا الوعد النظري ، وكأن الحق سبحانه متتبع لكل حركات نبيه موسى ، ولم يتركه يباشر هذه المسألة وحده ، إنما كان معه يسمع ويرى ، فيردُّ على السماع بما يناسبه ، ويردُّ على الرؤية بما يناسبها . ودائماً يرهف النبي سمعه وقلبه إلى ما يُلْقي عليه من توجيهات ربه عز وجل؛ لذلك خاطبه ربه بقوله : { إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وأرى } [طه : 46] .

فسيأتيك الرد المناسب في حينه . إذن : الحق سبحانه لم يخبر موسى بمهمته مع فرعون ثم تركه يباشرها بنفسه ، وإنما تمَّتْ هذه المسألة بتوجيهات مباشرة من الله تعالى .

وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (69)

وهذا أصل المعجزة في عصا موسى ، أن تلقف وتبتلع ما يأفكون من السحر وكلمة { تَلْقَفْ } [طه : 69] تعطيك الصورة الحركية السريعة التي تُشبه لمح البصر ، تقول : تلقفتُه يعني أخذتُه بسرعة وشدة ، وهذه هي العِلّة في العصا أن تلقف ما صنعوا من السحر { إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَاحِرٍ } [طه : 69] والكَيْد : التدبير الخفيّ للتغلُّب على الخَصْم ، لكن ماذا يفعل كَيْد الساحر وألاعيبه وتلفيقه أمام قدرة الرب تبارك وتعالى؟

ثم يقول تعالى : { وَلاَ يُفْلِحُ الساحر حَيْثُ أتى } [طه : 69] سبق أنْ تكلّمنا في مسألة فَلاَح الساحر ، وأنه مهما أُوتِي من قدرة على تسخير الجن لعمل شيء فوق طاقة الإنس ، فلن يعطيه ذلك مَيْزةً على غيره ، ولن تكون له قدرة على شيء .

فإياكم أن تظنوا أن الله تعالى ملَّك مصالحكم لهؤلاء ، صحيح هو يفعل ، أما الإصابة والأذى

فبإذن الله وتحت عنايته : { وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ الله } [البقرة : 102] وهذه القضية لا تنسحب على الساحر فحسب ، إنما على الوجود كله ، وإلى أنْ تقوم الساعة .
ثم يقول الحق سبحانه : { فَأُلْقِيَ السحرة سُجَّداً }

فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (70)

قال الزجاج في هذا الموقف : عجيب أمر هؤلاء ، فقد ألقوا حبالهم وعِصيّهم للكفر والجحود ، فإذا بهم يُلْقُون أنفسهم للشكر والسجود .
نعم ، لقد دخلوا كافرين فجرة فخرجوا مؤمنين بررة ، لأنهم جاءوا بكل ما لديهم من الكَيْد ، وجمعوا صَفْوة السحر وأساتذته ممنْ يَعْلمون السحر جيداً ، ولا تنطلي عليهم حركات السحرة وألاعيبهم ، فلما رَأوا العصا وما فعلتْ بسحرهم لم يخالطهم شكٌّ في أنها معجزة بعيدة عَمّا يصنعونه من السحر؛ لذلك سارعوا ولم يترددوا في إعلان إيمانهم بموسى وهارون .
وهذا يدلُّنا على أن الفطرة الإيمانية في النفس قد تطمسها الأهواء ، فإذا ما تيقظتْ الفطرة الإيمانية وأُزيلَتْ عنها الغشاوة سارعتْ إلى الإيمان وتأثرتْ به .
لقد سارع السحرة إلى الإيمان ، وكان له هَوىً في نفوسهم ، بدليل أنهم سيقولون فيما بعد : { وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السحر } [السحر : 73] فكانوا مكرهين ، كانوا أيضاً مُسخَّرين ، بدليل قولهم : { إِنَّ لَنَا لأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الغالبين } [الأعراف : 113] .
كأنهم كانوا لا يأخذون على السحر أجراً ، فلما كانت هذه المهمة صعبة طلبوا عليها أجراً ، فهي معركة تتوقف عليها مكانته بين قومه ، أما ممارستهم للسحر إرهاباً للناس وتخويفاً لمن تُسوّل له نفسه الخروج والتمرد على فرعون ، فكان سُخْرة ، لا يتقاضَوْن عليه أجراً .
لذلك لم يعارض فرعون سحرته في طلبهم ، بل زادهم منحة أخرى { وَإِنَّكُمْ لَمِنَ المقربين } [الأعراف : 114] فسوف تكونون سدنة الفرعونية ، يريد أنْ يشحن هِمَمهم ، ويشحذَ عزائمهم ، حتى لا يدخروا وُسْعاً في فَنِّ السحر في هذه المعركة .
إذن : فطباعهم وفطرتهم تأبى هذا الفعل ، وتعلم أنه كذب وتلفيق ، لكن مذا يفعلون وكبيرهم يأمرهم به ، بل ويُكرههم عليه ، ويلزمهم أنْ يُعلِّموا غيرهم ، لماذا؟ لأن السحر والشعوذة والتلفيق هي رأس ماله وبضاعته التي يسعى إلى ترويجها ، فعليها يقوم مُلْكه وتُبْنى ألوهيته .
وقوله تعالى : { فَأُلْقِيَ السحرة سُجَّداً } [طه : 70] فَرْق بين { فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ } [الشعراء : 44] وهذا منهم عمل اختياري ، وبين { فَأُلْقِيَ السحرة سُجَّداً } [طه : 70] : يعني على غير اختيارهم وعلى غير إرادتهم ، كأن صَوْلة الحق فاجأتْ صحوة الفطرة ، فلم يملكوا إلا أنْ خرُّوا لله ساجدين ، فالإلقاء هنا عمل تلقائي دون تفكير منهم ودون شعور ، فقد فاجأهم الحق الواضح والمعجزة الباهرة في عصا موسى ، لأنها ليستْ سِحْراً فهم أعلم الناس بالسحر .

ونلحظ في هذه الآية أنها جاءت بصيغة الجمع؛ أُلقى السحرةُ ، قالوا ، آمنا . لتدل على أنهم كانوا يَداً واحدة لم يشذْ منهم واحد ، مما يدل على أنهم كانوا مكرهين مُسخَّرين .

كما أن إعلان إيمانهم جاء بالفعل المرئي المشاهد للجميع { فَأُلْقِيَ السحرة سُجَّداً } [طه : 70] ، ثم بالقول المسموع { قالوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وموسى } [طه : 70] وفي آية أخرى : { قَالُواْ آمَنَّا بِرَبِّ العالمين * رَبِّ موسى وَهَارُونَ }

[الشعراء : 4748] .

ونعلم أن موسى عليه السلام هو الأصل ، ثم أُرسِل معه أخوه هارون ، ولما عرضَ القرآن موقف السحرة مع موسى حكى قولهم : { آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وموسى } [طه : 70] وقولهم : { آمَنَّا بِرَبِّ العالمين * رَبِّ موسى وَهَارُونَ } [الشعراء : 4748] .

لذلك كانت هذه المسألة مثارَ جَدَل من خصوم الإسلام ، يقولون : ماذا قال السحرة بالضبط؟ أقالوا الأولى أم الثانية؟

ولك أن تتصور جمهرة السحرة الذين حضروا هذه المعركة ، فكان رؤساؤهم وصفوتهم سبعين ساحراً ، فما بالك بالمرؤوسين؟ إذن : هم كثيرون ، فهل يُعقل مع هذه الكثرة وهذه الجمهرة أن يتحدوا في الحركة وفي القول؟ أم يكون لكل منهم انفعاله الخاص على حَسْب مداركه الإيمانية؟

لا شَكَّ أنهم لم يتفقوا على قول واحد ، فمنهم مَنْ قال { آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وموسى } [طه : 70] وآخرون قالوا : { آمَنَّا بِرَبِّ العالمين * رَبِّ موسى وَهَارُونَ } [الشعراء : 4748] .

كذلك كان منهم سطحيّ العبارة ، فقال { آمَنَّا بِرَبِّ العالمين * رَبِّ موسى وَهَارُونَ } [الشعراء : 4748] ولم يفطن إلى أن فرعون قد ادّعى الألوهية وقال أنا ربكم الأعلى فربما يُفهم من قوله { رَبِّ موسى وَهَارُونَ } [الشعراء : 48] أنه فرعون ، فهو الذي ربّى موسى وهو صغير .

وآخر قد فطن إلى هذه المسألة ، فكان أدقَّ في التعبير ، وأبعد موسى عن هذه الشبهة ، فقال : { آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وموسى } [طه : 70] وجاء أولاً بهارُون الذي لا علاقة لفرعون بتربيته ، ولا فضل له عليه ، ثم جاء بعده بموسى .

إذن : هذه أقوال متعددة ولقطات مختلفة لمجتمع جماهيري لا تنضبط حركاته ، ولا تتفق تعبيراته ، وقد حكاها القرآن كما كانت فليس لأحد بعد ذلك أن يقول : إنْ كان القول الأول صحيحاً ، فالقول الآخر خطأ أو العكس .

وما أشبه هذا الموقف الآن بمباراة رياضية يشهدها الآلاف ويُعلِّقون عليها ، تُرى أتتفق تعبيراتهم في وصف هذه المباراة؟

نقول : إذن ، تعددت اللقطات وتعددت الأقوال للقصة الواحدة لينقل لنا القرآن كل ما حدث .

ثم يقص الحق سبحانه رد فعل فرعون على ما حدث ، فيقول : { قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ . . . }

قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (71)

طبيعي أن يشتاط فرعون غضباً بعدما سمعه من سحرته ، فقد جمعهم لينصروه فإذا بهم يخذلونه ، بل ويُقوِّضون عرشه من أساسه فيؤمنون بإله غيره ، ويا ليتهم لما خذلوه سكتوا ، إنما يعلنونها صريحة عالية مدوية : { آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وموسى } [طه : 70] .

{ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ . . . } [طه : 71] فمع الخيبة التي مُنِي بها ما يزال يتمسك بفرعونيته وألوهيته ، ويهرب من الاستخزاء الذي حاق به ، يريد أن يعطي للقوم صورة المتماسك الذي لم تُؤثّر فيه هذه الأحداث ، فقال { قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ } [طه : 71] فأنا كبيركم الذي علّمكم السحر ، وكان عليكم أنْ تحترموا أستاذيته ، وقد كنت سآذنُ لكم .

وكلمة (آمنتم) مادتها : أمِنَ . وقد أخذت حيزاً كبيراً في القرآن الكريم ، والأصل فيها : أمِنَ فلان آمناً يعني : اطمأن . فليس هناك ما يُخوّفه . لكن هذه المادة تأتي مرة ثلاثية (أَمِنَ) وتأتي مزيدة بالهمزة (آمن) .

وهذا الفعل يأتي متعدياً إلى المفعول مباشرة ، كما في قوله تعالى { فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هذا البيت * الذي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ } [قريش : 34] يعني : آمن سكان مكة من الخوف .

وقد يتعدى بالباء كما في : آمنت بالله ، أو يتعدى باللام كما في قوله تعالى : { فَمَآ آمَنَ لموسى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ } [يونس : 83] وآمن له يعني : صدَّقه فيما جاء به .

إذن : لدينا : آمَنَهُ يعني أعطاه الأمن ، وآمن به : يعني اعتقده ، وآمن له : يعني صَدَّقه .

وقد تأتي أَمن وآمن بمعنى واحد ، كما في قول سيدنا يعقوب : { هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَآ أَمِنتُكُمْ على أَخِيهِ مِن قَبْلُ } [يوسف : 64] .

فلماذا اختلفت الصيغة من آمن إلى أمِن؟

قالوا : لأن قوله { كَمَآ أَمِنتُكُمْ على أَخِيهِ مِن قَبْلُ } [يوسف : 64] كانت تجربة أولى ، فجاء الفعل (أَمن) مُجرّداً على خلاف الحال في المرة الثانية ، فقد احتاجت إلى نوع من الاحتياط للأمر ، فقال { هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ } [يوسف : 64] فزاد الهمزة للاحتياط .

فمعنى قول فرعون : { آمَنتُمْ لَهُ } [طه : 71] يعني أي : صدَّقتموه .

وتأمل هنا بلاغة القرآن في هذا التعبير { قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ } [طه : 71] ومَنِ الذي يقولها؟

إنه فرعون الآمر الناهي في قومه يتحدث الآن عن الإذن . وفَرْق بين أمر وأذن ، أمر بالشيء يعني : أنه يحب ما أمر به ، ويجب عليك أنت التنفيذ . أما الإذن فقد يكون في أمر لا يحبه ولا يريده ، فهو الآن يأذن؛ لأنه لا يقدر على الأمر .

وما دُمْتُمْ قد آمنتم له قبل أن آذن لكم فلا بُدَّ أن يكون هو كبيركم الذي علّمكم السحر ، فكان وفاؤكم له ، واحترمتم هذا الكِبَر وساعدتموه على الفوز .

وهذا من فرعون سوء تعليل لواقع الإيمان ، ففي نظره أن موسى تفوّق عليهم ، لا لأنه يُجيد فنَّ السحر أكثر منهم ، إنما تفوّق عليهم لأنهم جاملوه وتواطأوا معه؛ لأنه كبيرهم ومُعلِّمهم .

لذلك يتهدَّدهم قائلا : { فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلاَفٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النخل } [طه : 71] .

جاء هذا التهديد والوعيد جزاءً لهم؛ لأنهم في نظره هزموه وخذوله في معركته الفاصلة أمام موسى عليه السلام ، ومعنى : { مِّنْ خِلاَفٍ } [طه : 71] الخِلاَف أن يأتي شيء على خلاف شيء آخر ، والكلام هنا عن الأيدي والأرجل ، فيكون المراد اليد اليمنى مع الرِّجْل اليسرى ، أو اليد اليُسْرى مع الرِّجْل اليُمْنى .

وقوله : { وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النخل } [طه : 71] المعروف أن التَّصلْيب يكون على الجذوع؛ لذلك حاول بعض المفسرين الخروج من هذا الإشكال فقالوا : (في) هنا بمعنى (على) . لكن هذا تفسير لا يليق بالأسلوب الأعلى للبيان القرآنيّ ، ويجب أن نتفق أولاً على معنى التصليب : وهو أن تأتي بالمصلوب عليه وهو الخشب أو الحديد مثلاً ، ثم تأتي بالشخص المراد صَلْبه ، وتربطه في هذا القائم رباطاً قوياً ، ثم تشدّ عليه بقوة .

ولك أنْ تُجرّب هذه المسألة ، فتربط مثلاً عود كبريت على إصبعك ، ثم تشدُّ عليه الرباط بقوة ، وسوف تجد أن العود يدخل في اللحم ، ساعتها تقول : العود في إصبعك ، لا على إصبعك .

إذن قوله تعالى : { وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النخل } [طه : 71] (في) هنا على معناها الأصلي للدلالة على المبالغة في الصَّلْب تصليباً قوياً ، بحيث يدخل المصلوب في المصلوب فيه ، كأنه ليس عليه ، بل داخل فيه .

ثم يقول : { وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَاباً وأبقى } [طه : 71] أينا : المراد فرعون وموسى ، أو فرعون ورب موسى الذي أرسله { أَشَدُّ عَذَاباً وأبقى } [طه : 71] فجمع في العذاب شدته من حيث الكيفية ، ودوامه وبقاءه في الزمن . ولم يذكر القرآن شيئاً عن تهديد فرعون ، أفعله أم لا؟ والأقرب أنه نفّذ ما هدد به .

وكان من المفروض في تهديد فرعون أن يأخذ من قلوب السَّحرة ويُرهبهم ، فيحاولون على الأقل

الاعتذار عَمَّا حدث ، لكن شيئاً من هذا لم يحدث ، بل قالوا ما أهاجه أكثر : { قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ على مَا جَآءَنَا . . . }

قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72)

الإيثار : تفضيل شيء على شيء في مجال متساوٍ تقول : آثرتُ فلاناً على فلان ، وهما في منزلة واحدة ، أو أن معك شيئاً ليس معك غيره ، ثم جاءك فقير فآثرْتَهُ على نفسك .

ومنه قوله تعالى : { وَيُؤْثِرُونَ على أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ } [الحشر : 9] .

فقولهم : { لَن نُّؤْثِرَكَ على مَا جَآءَنَا مِنَ البينات والذي فَطَرَنَا . . . } [طه : 72] لأنه قال { وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَاباً وأبقى } [طه : 71] أنا أمْ موسى؟ فالمعركة في نظره مع موسى ، فأرادوا أنْ يُواجهوه بهذه الحقيقة التي اتضحتْ لهم جميعاً ، وهي أن المعركة ليستْ مع موسى ، بل مع آيات الله البينات التي أُرسِل بها موسى ، ولن نُفضّلك على آيات الله التي جاءتْنا واضحة بيّنة .

ولما رأى السحرة معجزة العصا كانوا هم أكثَر القوم إيماناً ، وقد وَضُحَ عُمْق إيمانهم لما قالوا : { آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وموسى } [طه : 70] ولم يقولوا : آمنا بموسى وهارون ، إذن : فإيمانهم صحيح صادق من أول وَهْلة .

وقد تعرضنا لهذه المسألة في قصة سليمان مع ملكة سبأ ، حين قالت : { وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ العالمين } [النمل : 44] فأنا وهو مسلمان لله ، ولم تقل : أسلمت لسليمان ، فهناك رب أعلى ، الجميع مُسلِّم له .

إذن : فقوْل السَّحَرة لفرعون : { لَن نُّؤْثِرَكَ على مَا جَآءَنَا مِنَ البينات والذي فَطَرَنَا } [طه : 72] تعبير دقيق وواعٍ وحكيم لا تلحظ فيه ذاتية موسى إنما تلحظُ البينة التي جاء بها موسى من الله .

لذلك يقول تعالى : { لَمْ يَكُنِ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب والمشركين مُنفَكِّينَ حتى تَأْتِيَهُمُ البينة } [البينة : 1] ثم يُبين عند منْ جاءت البينة : { رَسُولٌ مِّنَ الله يَتْلُواْ صُحُفاً مُّطَهَّرَةً } [البينة : 2] .

فالارتقاء من الرسول إلى البينة إلى مَنْ أعطى له البينة ، فهذه مراحل ثلاث .

والبينات ، هي الأمور الواضحة التي تحسم كل جَدَلٍ حولها ، فلا تقبل الجدل والمهاترات؛ لأن حجتها جليّة واضحة .

وقولهم : { والذي فَطَرَنَا } [طه : 72] أي : ولن نُؤثرك أيضاً على الله الذي فطرنا ، أو تكون { والذي فَطَرَنَا } [طه : 72] قسم على ما يقولون ، كما تقول : لن أفعل كذا والذي خلقك

، فأنت تُقسِم ألاَّ تفعل هذا الشيء .

وهذه حيثية عدم الرجوع فيما قالوه وهو الإيمان بربِّ هارون وموسى .

ثم لم يَفُتْهم الإشارة إلى مسألة التهديدات الفرعونية : { فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلاَفٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النخل } [طه : 71] .

لذلك يقولون : { فاقض مَآ أَنتَ قَاضٍ } [طه : 72] أي : نفِّذ ما حكمتَ به من تقطيع الأيدي والأرجل ، أو أقْضِ ما أنت قاض من أمور أخرى ، وافعل ما تريد فلم تعُدْ تخيفنا هذه التهديدات { إِنَّمَا تَقْضِي هذه الحياة الدنيآ } [طه : 72] .

فأنت إنسان يمكن أن تموتَ في أي وقت ، فما تقضي إلا مُدَّة حياتك ، وربما يأتي من بعدك مَنْ هو أفضل منك فلا يدّعي ما ادَّعيْته من الألوهية .

وهَبْ أن مَنْ جاء بعدك كان على شاكلتك ، فحياته أيضاً منتهية ، وحتى لو ظَلَّ ما سننته للناس من ادعاء الألوهية إلى يوم القيامة ، وامتدّ طغيان غيرك من بعدك ، فالمسألة ستنتهي ، ولو حتى بقيام الساعة .

كما سبق أن قُلْنا : إن نعيم الدنيا مهما بلغ فيتهدده أمران : إما أن تفوته أو يفوتك ، أما نعيم الآخرة فنعيم بَاقٍ دائم ، لا تفوته ولا يفوتك .

ثم يقول الحق سبحانه : { إِنَّآ آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا . . . }

إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (73)

فما دُمْنا رجعنا من الإيمان بالبشر إلى الإيمان بخالق البشر ، فهذا رُشْدٌ في تفكيرنا لا يصح أنْ تلومنَا عليه ، ثم أوضحوا حيثية إيمانهم { لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السحر } [طه : 73] فالإيمان بالله سينفعنا ، وسيغفر لنا الخطايا وهي كثيرة ، وسيغفر لنا ما أكرهتنا عليه من مسألة السحر ، فقد صنعوا السحر مُكْرهين ، ومارسوه مُجْبرين ، فهو عمل لا يوافق طبيعتهم ولا تكوينهم ولا فطرتهم .

وما أكثر ما يُكْره الناس على أمور لا يرضونها ، وينفذون أوامر وهم غير مقتنعين بها ، خاصة في عصور الطُّغَاة والجبّارين ، وقد سمعنا كثيراً عن السَّجانين في المعتقلات ، فكان بعضهم تأتيه الأوامر بتعذيب فلان ، فلماذا يفعل وهو يعلم أنه بريء مظلوم ، ولا يطاوعه قلبه في تعذيبه ، فكان يدخل على المسجون ويقول له : اصرخ بأعلى صوتك ، ويُمثِّل أنه يضربه .

ثم يقولون : { والله خَيْرٌ وأبقى } [طه : 73] فأنت ستزول ، بل دنياك كلها ستزول بمَنْ جاء بعدك من الطُّغَاة ، ولن يبقى إلا الله ، وهو سبحانه يُمتِّع كل خَلْقه بالأسباب في الدنيا ، أما في الآخرة فلن يعيشوا بالأسباب . إنما بالمسبب عز وجل دون أسباب .

لذلك إذا خطر الشيء ببالك تجده بين يديك ، وهذا نعيم الآخرة ، ولن تصل إليه حضارات

الدنيا مهما بلغتْ من التطور .

لذلك في قوله تعالى : { حتى إِذَآ أَخَذَتِ الأرض زُخْرُفَهَا وازينت وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَآ أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً } [يونس : 24] ، فمهما ظَنَّ البشر أنهم قادرون على كل شيء في دُنْياهم فهم ضُعفاء لا يستطيعون الحفاظ على ما توصّلوا إليه .

إذن : اجعل الله تبارك وتعالى في بالك دائماً يكُنْ لك عِوَضاً عن فائت ، واستح أنْ يطلع عليك وأنت تعصيه . وقد ورد في الحديث القدسي : « إن كنتم تعتقدون أني لا أراكم فالخلل في إيمانكم ، وإن كنتم تعتقدون أني أراكم فلم جعلتموني أهون الناظرين إليكم؟! » .

ولما سُئل أحد العارفين : فيم أفنيتَ عمرك؟ قال : في أربعة أشياء : علمتُ أنِّي لا أخلو من نظر الله تعالى طَرْفة عَيْن ، فاستحييتُ أن أعصيه ، وعلمتُ أنَّ لي رِزْقاً لا يتجاوزني وقد ضمنه الله لي فقنعتُ به ، وعلمتُ أن عليَّ ديناً لا يُؤدِّيه عنِّي غيري فاشتغلتُ به ، وعلمتُ أن لي أَجَلاً يبادرني فبادرته .

وقد شرح أحد العارفين هذه الأربع ، فقال : اجعل مراقبتك لمن لا تخلو عن نظره إليك ، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك واجعل طاعتك لمن لا تستغني عنه ، واجعل خضوعك لمَنْ لا تخرج عن مُلْكه وسلطانه .

وهكذا جمعتْ هذه الأقوالُ الثمانية الدينَ كله .

ثم يُقدِّم السحرة الذين أعلنوا إيمانهم حيثيات هذا الإيمان ، فقالوا : { إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً . . } .

إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (74)

قوله : { مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً } [طه : 74] يعني مُجرِّماً عمل الجريمة ، والجريمة أنْ تكسر قانوناً من قوانين الحق عز وجل كما يفعل البشر في قوانينهم ، فيضعون عقوبة لمَنْ يخرج عن هذه القوانين ، لكن ينبغي أن تُعيِّن هذه الجريمة وتُعلَن على الناس ، فإذا ما وقع أحد في الجريمة فقد أعذر من أنذر .

إذن : لا يمكن أن تعاقب إلا بجريمة ، ولا توجد جريمة إلا بنص .

وقوله : { يَأْتِ } أي : هو الذي سيأتي رغم إجرامه ، ورغم ما ينتظره من العذاب . لكن لماذا خاطبوه بلفظ الإجرام؟ لأنه قال : { فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلاَفٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النخل } [طه : 71] ولم يفعلوا أكثر من أنْ قالوا كلمة الحق ، فأيُّنا إذنْ المجرم؟

وقوله تعالى : { فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يحيى } [طه : 74] لأن الموت سَيُريحهم من العذاب؛ لذلك يتمنَّوْنَ الموت ، كما جاء في قوله تعالى : { وَنَادَوْاْ يامالك لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ } [الزخرف : 77] فيأتي رده { إِنَّكُمْ مَّاكِثُونَ } [الزخرف : 77] .

وفَرْقٌ بين عذاب وموت ، فالموت إنهاء للحياة ، وليس بعد الموت إيلام ، أمَّا العذاب فلا ينشأ إلا مع الحياة؛ لأنه إيلام حَيٍّ .

لذلك ، فالحق تبارك وتعالى لما عرض لهذه المسألة في قصة سليمان عليه السلام والهدهد وأن سليمان قال : { لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ } [النمل : 21] فالعذاب شيء ، و الذبح شيء آخر؛ لأنه إنهاء للحياة الحاسة .

ومعنى : { لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يحيى } [طه : 74] أن هناك مرحلة وحلقة بين الموت والحياة ، حيث لا يموت فيستريح ، ولا يحيى حياةً سالمة من العذاب ، فبقاؤهم في جهنم في هذه المرحلة ، التي لا هي موت ولا هي حياة .

وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (75)

فكأنهم كانوا يشيرون بقولهم : { إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً } [طه : 74] إلى فرعون ، والآن يشيرون إلى أنفسهم ، وما سلكوه من طريق الإيمان { وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصالحات } [طه : 75] .

فجمعوا بين الإيمان والعمل الصالح؛ لأن الإيمان هو الينبوع الوجداني الذي تصدر عنه الحركات النزوعية على وَفْق المنهج الذي آمنت به ، وإلا فما فائدة أنْ تؤمنَ بشيء ، ولا تعمل له ، وكثيراً ما جمع القرآن بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

وقوله : { فأولئك لَهُمُ الدرجات العلى } [طه : 75] الدرجات أي : درجات الجنة ، فالجنة درجات ، بعضها فوق بعض ، أما النار فدركات ، بعضها تحت بعض .

وقد جعل الحق تبارك وتعالى الجنة درجات؛ لأن أهلها متفاوتون في الأعمال ، كما أنهم متفاوتون حتى في العمل الواحد؛ لأن مناط الإخلاص في العمل متفاوت .

لذلك جاء في الأثر : « الناس على خطر إلا العالمون ، والعالمون على خطر إلا العاملون ، والعاملون على خطر إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم » .

والعُلاَ : جمع عُليا . فما الدرجات العُلاَ؟

جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (76)

عدن : أي إقامة . مِنْ عَدَنَ في المكان : أقام فيه ، فالمراد جنات أعِدَّتْ لإقامتك ، وفرْق بين أنْ تُعِد المكان للإقامة وأنْ تُعِدَّ مكاناً لعابر ، كما أن المكان يختلف إعداده وترفه حَسْب المُعِدْ وإمكاناته ، فالإنسان العادي يُعِد مكاناً غير الذي يعده عظيم من العظماء ، فما بالك إذنْ بمكان أعدّه لك ربك عز وجل بقدراته وإمكاناته؟

وقوله : { تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا } [طه : 76] .

نعلم أن الماء من أهم مقومات الحياة الدنيا ، فبه تنبت الأرض النبات ، وفيه تذوب العناصر الغذائية ، وبدونه لا تقوم لنا حياة على وجه الأرض . والحق سبحانه وتعالى ساعةَ يُنزِل مطراً من السماء قد لا ينتفع بالمطر مَنْ نزل عليه المطر ، فربما نزل على جبل مثلاً ، فالنيل الذي نحيا على مائه يأتي من أين؟ من الحبشة وغيرها .

لذلك جعل الخالق عز وجل كلمة { تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار } [طه : 76] رمزاً للخضرة وللنضارة وللنماء وللحياة السعيدة الهانئة ، حتى الإنسان وإنْ لم يكُنْ محتاجاً للطعام بأنْ كان شبعان مثلاً ، يجد لذة في النظر إلى الطبيعة الخضراء ، وما فيها من زرع وورود وزهور ، فليس الزرع للأكل فقط ، بل للنظر أيضاً ، وإنْ كنتَ تأكل في اليوم ثلاث مرات ، والأكل غذاء للجسم ، فأنت تتمتع بالمنظر الجميل وتُسَرُّ به كلما نظرتَ إليه ، والنظر متعة للروح ، وسرور للنفس .

وكأن الحق تبارك وتعالى يقول لنا : لا تقصروا انتفاعكم بنعم الله على ما تملكون ، فتقول مثلاً : لا آكل هذه الفاكهة لأنها ليست مِلْكي ، لأن هناك متعةً أخرى : { انظروا إلى ثَمَرِهِ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ } [الأنعام : 99] فقبل أن تأكل انظر ، فالنظر متعة ، وغذاء مستمر .

فقوله تعالى : { تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار } [طه : 76] لأن ظاهرة جريان الأنهار في الدنيا وسيلة للخُضْرة والخِصْب والإيناع ، و { مِن تَحْتِهَا } [طه : 76] أي : أن الماء ذاتيّ فيها ، ونابع منها ، ليس جارياً إليك من مكان آخر ، ربما يُمنَع عنك أن تُحرم منه .

لذلك يقول تعالى في آية أخرى : { تَجْرِي تَحْتَهَا الأنهار } [التوبة : 100] فتحتها أنهار جارية ، لكن مصدرها ومنبعها من مكان آخر .

ونسب الجريان إلى النهر ، لا إلى الماء للمبالغة . فالنهر هو المجرى الذي يجري فيه الماء .

ثم يقول تعالى : { خَالِدِينَ فِيهَا } [طه : 76] وهذا هو التأمين الحقّ للنعيم؛ لأن آفة النعم أنْ تزولَ ، إمّا بأن تفوتها أنت أو تفوتك هي ، أما نعيم الجنة فقد سَلَّمه الله تعالى من هذه الآفة ، فهو خالد بَاقٍ ، لا يزول ولا يُزال عنه .

{ وذلك جَزَآءُ مَن تزكى } [طه : 76] الزكاة : تُطلَق على الطهارة وعلى النماء ، فالطهارة : أن يكون الشيء في ذاته طاهراً ، والنماء : أنْ توجَد فيه خصوصية نمو فيزيد عَمَّا تراه أنت عليه .

كما ترى مثلاً الورد الصناعي والورد الطبيعي في البستان ، وفيه المائية والنضارة والرائحة الطيبة والألوان المختلفة والنمو ، وكلها صفات ذاتية في الوردة ، على خلاف الورد الصناعي فهو جامد على حالة واحدة .

وهذا هو الفرق بين صَنْعة البشر وصَنْعة الخالق للبشر؛ لذلك كانت صنعة الله أخلد وأبقى ، وصدق الله العظيم حين قال : { فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الخالقين } [المؤمنون : 14] .

وتلحظ أنه لم يَضِنّ عليك بصفة الخَلْق؛ لأنك استعملتَ الأسباب وأَعلمتَ الفكر ، فكان لك شيء من الخلق ، لكن ربَّك أحسنُ الخالقين؛ لأنك خلقتَ من باطن خِلْقته ، خلقتَ من موجود ، وهو سبحانه يخلق من عدم ، خلقتَ شيئاً جامداً لا حياة فيه ، وخلق سبحانه شيئاً نامياً ، يتكاثر بذاته .

ومن هنا سُمِّي المال الذي تُخرجه للفقراء زَكاةً؛ لأنه يُطهِّر الباقي ويُنمِّيه . ومن العجائب أن الله تعالى سَمّى ما يخرج من المال زَكاة ونماءً ، وسَمَّى زيادة الربا مَحْقاً .

فمعنى : { وذلك جَزَآءُ مَن تزكى } [طه : 76] أي : تطهَّر من المعاصي ، ثم نَمَّى نفسه ، ومعنى التنمية هنا ارتقاءات المؤمن في درجات الوصول للحق ، فهو مؤمن بداية ، لكن يزيد إيمانه وينمو ويرتقي يوماً بعد يوم ، وكلما ازداد إيمانه ازداد قُرْبه من ربه ، وازدادت فيوضات الله عليه . والطهارة للأشياء سابقة على تنميتها؛ لأن دَرْء المفسدة مُقدَّم على جلب المصلحة .

إذن : زَكَّى نفسه : طهَّرها أولاً ، ثم يُنمِّيها ثانياً ، كمَنْ يريد التجارة ، فعليه أولاً أن يأتي برأس المال الطاهر من حلال ثم يُنمِّيه ، لكن لا تأتي برأس المال مُدنّساً ثم تُنمِّيه بما فيه من دَنَسٍ .

وكلما نَمَّى الإنسانُ إيمانَهُ ارتقى في درجاته ، فكانت له الدرجات العُلاَ في الآخرة .

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى (77)

كان هذا الوحي لموسى عليه السلام بعد أنِ انتهت المعركة ، وانتصر فيها معسكر الإيمان ، أما فرعون فقد خسر سلاحاً من أهمِّ أسلحته وجانباً كبيراً من سَطْوته وجبروته .

وهنا جمع موسى بني إسرائيل ، وهم بقايا ذرية آل يعقوب ليذهب بهم إلى أرض الميعاد ، وسرعان ما أعدَّ فرعون جيشه وجمع جموعه ، وسار خلفهم يتبعهم إلى ساحل البحر ، فإذا بموسى وقومه مُحَاصرين : البحر من أمامهم ، وفرعون بجيشه من خلفهم ، وليس لهم مَخْرج من هذا المأزق .

هذا حُكْم القضايا البشرية المنعزلة عن ربِّ البشر ، أما في نظر المؤمن فلها حَلٌّ؛ لأن قضاياه ليست بمعزل عن ربه وخالقه؛ لأنه مؤمن حين تصيبه مصيبة ، أو يمسه مكروه ينظر فإذا ربُّه يرعاه ، فيلجأ إليه ، ويرتاح في كَنَفِه .

لذلك يقولون : لا كَرْبَ وأنت ربٌّ ، وما دام لي رب ألجأ إليه فليست هناك معضلة ، المعضلة فيمن ليس له رَبٌّ يلجأ إليه .

وقد ضربنا لذلك مثلاً ولله المثل الأعلى لو أن إنساناً معه في جيبه جنيه ، فسقط منه في الطريق ، فإذا لم يكُنْ عنده غيره يحزن أمّا إنْ كان لديه مال آخر فسوف يجد فيه عِوَضاً عَمَّا ضاع منه ،

هذا الرصيد الذي تحتفظ به هو إيمانك بالله .

وهنا جاء الأمر من الله تعالى لموسى عليه السلام ليُخرجه وقومه من هذا المأزق : { أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فاضرب لَهُمْ طَرِيقاً فِي البحر يَبَساً } [طه : 77] .

أَسْرِ : من الإسراء ليلاً . أي : السير؛ لأنه أستر للسائر .

وقوله : { بِعِبَادِي } [طه : 77] كملة « عبد » تُجمع على « عبيد » و « عباد » والفَرْق بينهما أن كل مَنْ في الكون عبيد لله تعالى؛ لأنهم وإنْ كانوا مختارين في أشياء ، فهم مقهورون في أشياء أخرى ، فالذي تعوَّد باختياره على مخالفة منهج الله ، وله دُرْبة على ذلك ، فله قَهْريات مثل المرض أو الموت .

أما العباد فهم الصَّفْوة التي اختارت مراد الله على مرادها ، واختياره على اختيارها ، فإنْ خيَّرهم : { فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ } [الكهف : 29] خرجوا عن اختيارهم لاختيار ربهم .

لذلك نسبهم الله إليه فقال : { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ } [الحجر : 42] وقال عنهم : { عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ } [الأنبياء : 26] وقال : { وَعِبَادُ الرحمن الذين يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً } [الفرقان : 63] .

ويقول الحق سبحانه : { فاضرب لَهُمْ طَرِيقاً فِي البحر يَبَساً } [طه : 77] أي : يابساً جافاً وسط الماء .

والضرب : إيقاع شيء من ضارب بآلة على مضروب ، ومنه ضرَب العملة أي : سكَّها وختمها ، فبعد أنْ كان قطعةَ معدن أصبح عملة متداولة .

وضرب موسى البحر بعصاه فانفلق البحر وانحسر الماء عن طريق جافّ صالح للمشي بالأقدام ، وهذه مسألة لا يتصورها قانون البشر؛ لذلك يُطمئنه ربه { لاَّ تَخَافُ دَرَكاً } [طه : 77] أي : من فرعون أنْ يُدرِكَكَ { وَلاَ تخشى } [طه : 77] أي : غرقاً من البحر؛ لأن الطريق مضروب أي : مُعَد ومُمَّهد وصالح لهذه المهمة .

وهذه معجزة أخرى لعصا موسى التي ألقاها ، فصارت حية تسعى ، وضرب بها البحر فانفلق فصار ما تحت العصا طريقاً يابساً ، وما حولها جبالاً { كُلُّ فِرْقٍ كالطود العظيم } [الشعراء : 63] وهي التي ضرب بها الحجر فانبجس منه الماء .

والسياق هنا لم يذكر شيئاً عن الحوار الذي دار بين موسى وقومه حينما وقعوا في هذه الضائقة ، لكن جاء في لقطة أخرى من القصة حيث قال تعالى : { فَلَمَّا تَرَاءَى الجمعان قَالَ أَصْحَابُ موسى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ } [الشعراء : 6162] .

وبتعدد اللقطات في القرآن تكتمل الصورة العامة للقصة ، وليس في ذلك تكرار كما يتوهّم

البعض .

فقبل أنْ يُوحِي إليه : { فاضرب لَهُمْ طَرِيقاً فِي البحر يَبَساً } [طه : 77] قال القوم : { إِنَّا لَمُدْرَكُونَ } [الشعراء : 61] فقال : (كَلاّ) . لكن كيف يقولها قَوْلة الواثق وما يخافون منه محتمل أنْ يقع بعد لحظة؟

نقول : لأنه لم يقل (كَلاَّ) من عنده ، لم يَقُلها بقانون البشر ، إنما بقانون خالق البشر { كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ } [الشعراء : 62] فأنا لا أغالطكم ، ولسْتُ بمعزل عن السماء وتوجيه ربي .

ثم يقول الحق سبحانه : { فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ . . . }

فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (78)

قوله تعالى : { فَغَشِيَهُمْ مِّنَ اليم مَا غَشِيَهُمْ } [طه : 78] غشيهم يعني : غطّاهم الماء ، وقد أبهم هذا الحدث للدلالة على فظاعته وهَوْله ، وأنه فوق الحَصْر والوصف ، كأن تقول في الأمر الذي لا تقدر على تفصيله : حصل ما حصل .

وفي لقطة أخرى لهذه الحادثة يُبيّن الحق تبارك وتعالى أن موسى عليه السلام بعد أن عبر بقومه آمناً أراد باجتهاده وترجيحاته الإيمانية أن يضرب البحر مرة أخرى ليعود إلى سيولته فلا يتمكن فرعون من اللحاق به ، لكن توجيهات ربه لها شأن آخر . فأوحى الله إليه : { واترك البحر رَهْواً إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ } [الدخان : 24] .

أي : اتركه كما هو لا تُعِدْه إلى استطراق سيولته ، فكما أنجيتك بالماء سأتلف عدوك بالماء ، فسبحان مَنْ يُنجِي ويُهلك بالشيء الواحد .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ }

وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (79)

وسبق أن قال فرعون لقومه . { وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرشاد } [غافر : 29] .

فأين سبيل الرشاد الذي تحدَّث عنه فرعون بعدَ أنْ أطبق الله عليهم البحر؟ لقد سُقْتهم إلى الهلاك ، ولم تسلك بهم مناط النجاة والهداية . فأنت إذن كاذب في ادعاء سبيل الرشاد؛ لأنك أضللتَهم ما هديتهم ، وأهلكتهم ما نجَّيتهم .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : { يابني إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُمْ . . . }

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى (80)

لله عز وجل على بني إسرائيل مَنَنٌ كثيرة ونِعَم لا تُعَدُّ ، كان مقتضى العبادية التي وصفهم بها { أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي } [طه : 77] أَن يُنَفِّذوا منهج ربهم ، ويذكروا نعمه ذِكْراً لا يغيب عن بالهم أبداً ، بحيث كلما تحركتْ نفوسهم إلى مخالفة ذكروا نعمةً من نِعَم الله عليهم ، تذكّروا أنهم غير متطوعين بالإيمان ، إنما يردُّون لله ما عليهم من نِعَم وآلاء .

والحق تبارك وتعالى هنا يذكِّرهم ببعض نعَمه ، ويناديهم بأحبِّ نداء { يابني إِسْرَائِيلَ } [طه : 80] وإسرائيل يعني عند الله ، عبده المخلص ، كما تقول لصاحبك : يا ابن الرجل الطيب . . الورع ، فالحق يُذكِّرهم بأصلهم الطيب ، ينسبهم إلى نبي من أنبيائه . كأنه يلفت أنظارهم أنه لا يليق بكم المخالفة ، ولا الخروج عن المنهج . وأنتم سلالة هذا الرجل الصالح .

وقوله تعالى : { قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِّنْ عَدُوِّكُمْ } [طه : 80] أي : من فرعون الذي استذلكم ، وذبح أبناءكم ، واستحي نساءكم ويُسخِّرهم في الأعمال دون أجر ، وفعل بكم الأفاعيل ، ثم { وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطور الأيمن } [طه : 80] لتأخذوا المنهج السليم لحركة الحياة . إذن : خلَّصْناكم من أذى ، وواعدناكم لنعمة .

{ وَوَاعَدْنَاكُمْ } [طه : 80] واعد : مفاعلة لا تكون إلا من طرفيْن مثل : شارك وخاصم ، فهل كان الوَعْد من جانبهما معاً : الله عز وجل وبني إسرائيل؟ الوَعْد كان من الله تعالى ، لكن لم يقُلْ القرآن : وعدناكم . بل أشرك بني إسرائيل في الوعد ، وهذا يُنبِّهنا إلى أنه إذا وعدك إنسان بشيء ووافقتَ ، فكأنك دخلتَ في الوعد .

وجانب الطور الأيمن : مكان تلقِّي منهج السماء ، وهو مكان بعيد في الصحراء ، لا زرعَ فيه ولا ماء؛ لذلك يضمن لهم ربُّهم عز وجل ما يُقِيتهم { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ المن والسلوى } [طه : 80] .

المنّ : سائل أبيض يشبه العسل ، يتساقط مثل قطرات بلورية تشبه الندى على ورق الأشجار ، وفي الصباح يجمعونه كطعام حلو . وهذه النعمة ما زالت موجودة في العراق مثلاً ، وتقوم عليها صناعة كبيرة هي صناعة المنّ .

والسَّلْوى : طائر يشبه طائر السَّمان .

وهكذا وفَّر لهم الحق تبارك وتعالى مُقوِّمات الحياة بهذه المادة السُّكَّرية لذيذة الطعم تجمع بين القشدة مع عسل النحل ، وطائر شهي دون تعب منهم ، ودون مجهود ، بل يروْنَه بين أيديهم مُعَدّاً جاهزاً ، وكان المنتظر منهم أن يشكروا نعمة الله عليهم ، لكنهم اعترضوا عليها فقالوا : { لَن نَّصْبِرَ على طَعَامٍ وَاحِدٍ فادع لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأرض مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الذي هُوَ أدنى بالذي هُوَ خَيْرٌ } [البقرة : 61] .

وفي سورة البقرة ذكر مع هذه النعمة التي صاحبتهم في جَدْب الصحراء نعمة أخرى ، فقال تعالى : { وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الغمام وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ المن والسلوى } [البقرة : 57] أي : حَمْيانكم من وهج الشمس وحرارتها حين تسيرون في هذه الصحراء .

ونلحظ اختلاف السياق هنا { نَزَّلْنَا } ، وفي البقرة قال : { أَنْزَلْنَا } ؛ ذلك لأن الحق تبارك وتعالى يعالج الموضوع في لقطات مختلفة من جميع زواياه ، فقوله { أَنْزَلْنَا } تدل على التعدّي الأول للفعل ، وقد يأتي لمرة واحدة ، إنما { نَزَّلنَا } فتدلُّ على التوالي في الإنزال .

وأهل الريف في بلادنا يُطلِقون المنَّ على مادة تميل إلى الحمرة الداكنة ، ثم تتحول إلى السواد ، تسقط على النبات ، لكنها ليست نعمةً ، بل تُعَدُّ آفة من الآفات الضارة بالنبات .

ثم يقول الحق سبحانه : {كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ . . . }

كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى (81)

الطعام والشراب والهواء مُقوِّمات الحياة التي ضمنها الله عز وجل لنا ، والأمر بالأكل هنا للإباحة ، وليست فَرْضاً عليك أنْ تأكل إلا إذا أردتَ الإضراب عن الطعام إضراباً يضرُّ بحياتك فعندها تُجبر عليه .

وقوله : { مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ } [طه : 81] خصَّ الطيبات؛ لأن الرزق : منه الطيب ، ومنه غير الطيّب ، فالرزق : كُلّ ما انتفعتَ به ولو كان حراماً . بمعنى أن ما نِلْتَه من الحرام هو أيضاً من رزقك إلا أنك تعجَّلته بالحرام ، ولو صبرْتَ عليه وعففْتَ نفسك عنه لَنِلْتَ أضعافه من الحلال .

ثم يقول تعالى : { وَلاَ تَطْغَوْاْ فِيهِ } [طه : 81] وفي آية البقرة { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ولكن كانوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [النحل : 118] فكأن ظلمَ النفس عِلَّته أنهم طَغَوْا في الأكل من الرزق .

والطغيان : من طغى الشيء إذا زاد عن حَدِّه المألوف الذي ينتفع به ، ومنه طغيان الماء إذا زاد عن الحدِّ الذي يزيل الشَّرق والعطش إلى حَدِّ أنه يُغرق ، كما قال تعالى : { إِنَّا لَمَّا طَغَا المآء حَمَلْنَاكُمْ فِي الجارية } [الحاقة : 11] أي : تجاوز الحد الذي ينتفع به إلى العَطَب والهلاك .

وهكذا في أي حَدٍّ ، لكن كيف تتأتى مجاوزة الحد في الطعام والأقوات؟

الحق تبارك وتعالى لما خلق الأرض قدَّر فيها أقواتها إلى يوم القيامة ، فقال تعالى : { وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا } [فصلت : 10] .

فاطمئنوا إلى هذه المسألة ، وإذا رأيتم الأرض لا تعطي فلا تتهموها ، إنما اتهموا أنفسكم بالتقصير والتكاسل عن عمارة الأرض وزراعتها ، كما أمركم الله : { هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الأرض واستعمركم فِيهَا } [هود : 61] .

وقد غفلنا زمناً عن هذه المسألة ، حتى فاجأتنا الأحداث بكثرة العدد وقِلَّة المدد ، فكان الخروج إلى الصحراء وتعميرها .

وما دام أن الخالق عز وجل خلق لنا أرزاقنا ومُقوِّمات حياتنا ، وجعلها مناسبة لهذا الإنسان الذي

كرّمه وجعله خليفة له في الأرض ، وجعل لهذا الرزق ولهذه المقوّمات حدوداً حدّها وبيَّنها هي (الحلال) ، فلا ينبغي لك بعد ذلك أن تتعدى هذه الحدود ، وتطغى في تناول طعامك وشرابك . ونحن نرى حتى الآلات التي صنعها البشر ، لكل منها وقودها الخاص ، وإذا أعطيتها غيره لا تؤدي مهمتها ، فمثلاً لو وضعت للطائرة سولاراً لا تتحرك ، فليس هو الوقود المناسب لطبيعتها .

إذن : حدودك في مُقوِّمات حياتك الحلال ، ولو استقرأنا ما أحلَّ الله وما حرَّم لوجدنا الأصل في الأشياء أنها حلال ، والكثير هو المحلل لك ، أما المحرم عليك فهو القليل المحصور الذي يمكن تحديده .

لذلك يقول عز وجل : { قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ } [الأنعام : 151] ولم يقُلْ مثلاً في آية أخرى : تعالوا أَتْلُ ما أحل الله لكم؛ لأنها مسألة تطول ولا تحصى .

إذن : ساعةَ أعطاك ربك قال لك : هذا رِزْقُك الحلال الخالص ، ومنه وقودك ومُقوِّمات حياتك ، وبه بقاؤك ونشاط حركتك .

فلا تتعدَّ الحلال على كثرته إلى الحرام على قِلَّته وانحصاره في عِدَّة أنواع ، بيَّنها لك وحذَّرك منها .

وبالغذاء تتم في الجسم عملية (الأَيْض) يعني : الهدم والبناء ، وهي عملية مستمرة في كل لحظة من لحظاتك ، فإياك أنْ تبني ذَرَّة من ذراتك من الحرام؛ لأن ذرة الحرام هذه تظل تُشاغبك وتُلِح عليك كي تُوقِعك في أصلها .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أيها الناس ، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : { ياأيها الرسل كُلُواْ مِنَ الطيبات واعملوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ } [المؤمنون : 51] وقال : { ياأيها الذين آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ } [البقرة : 172] ثم ذكر الرجل يطيل السفر ، أشعث أغبر ، ثم يمد يديه إلى السماء : يا رب يا رب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغُذِّي بالحرام ، فأنَّ يُستجاب لذلك » .

ذلك لأن ذرات بنائه غير منسجمة ، لأنها نَمتْ على وقودٍ ما أحله الله له .

لذلك تسمع من بعض المتمحكين : ما دام أن الله خلق الخنزير فلماذا حرَّمه؟ نقول : لقد فهمتَ أن كل مخلوق خُلِق ليؤكل ، وهذا غير صحيح ، فالله خلق البترول الذي تعمل به الآلات ، أتستطيع أن تشربه كالسيارة؟

إذن : فَرْق بين شيء مخلوق لشيء ، وأنت توجهه لشيء آخر ، هذه تسمى إحالة أي : تحويل الشيء إلى غير ما جُعِل له ، وهذا هو الطغيان في القُوت؛ لأنك نقلتَ الحرام إلى الحلال .

وقد يأتي الطغيان في صورة أخرى ، كأن تأكل ما أحلَّ الله من الطيبات ، لكنك تحصل عليها بطريق غير مشروع ، وتُعوِّد نفسك الكسل عن الكسْب الحلال ، فتأخذ مجهود غيرك وتعيش عالةً عليه ، فإلى جانب أنك تتغذَّى على الحرام فأنت أيضاً تُزهّد غيرك في الحركة والإنتاج والمِلك ، وما فائدة أن يتعب الإنسان ويأخذ غيره ثمرة تعبه؟

وقد أخذ الطغيان بهذا المعنى صُوراً متعددة في مجتمعاتنا ، فيمكن أن ندرج تحته : الغصب ، والخطف ، والسرقة ، والاختلاس ، والرشوة ، وخيانة الأمانة ، وخداع مَن استأجرك إلى غير ذلك من أخْذ أموال الناس بالباطل ودون وَجْه حق ، وكل عمل من هذه التعديات له صورته .

فالخطف : أنْ تخطف مال غيرك دون أنْ يكون في متناول يد المخطوف منه ثم تَفِر منه ، فإنْ كان في متناول يده وأنت غالبته عليه ، وأخذته عُنْوةً فهو غَصْب مأخوذ من : غَصْب الجلد عن الشاة أي : سلخه عنها . فإنْ كان أخذ المال خُفْية وهو في حِرْزه فهي سرقة . وإن كنت مُؤتمناً على مال بين يديك فأخذتَ منه خفية فهو اختلاس . . الخ .

إذن : أحل الله لك أشياءً ، وحرَّم عليك أخرى ، فإنْ كان الشيء في ذاته حلالاً فلا تأخذه إلا بحقِّه حتى يحترم كل مِنّا عمل الآخر وحركته في الحياة وملكيته للأشياء ، وبذلك تستقيم بِنَا حركة الحياة ، ويسعد الجميع ونعين المنفق ، ونأخذ على يد المتسبِّب البلطجي .

وللإسلام منهج قويم في القضاء على مسألة البطالة ، تأخذ منه بعض النظم الحديثة الآن ، وهو أن الشرع يأمر للقضاء على البطالة أن تحفر بئراً وتطُمَّها : أي احفرها وأرْدِمها ثم اعْطِ الأجير فيها أجره . كيف هذا؟ تحفر البئر ولا تستفيد منها وتردمها فما الفائدة؟ ولماذا لم نعط الأجير أجره دون حفر ودون ردم؟

قالوا : حتى لا يتعوَّد على الخمول والكسل ، وحتى لا يأكل إلاّ من عرقه وكَدَّه ، وإلا فسد المجتمع .

وللطغيان في القوت صورة أخرى ، هي أن تستخدم القوت الذي جعله الله طاقة لك في حركة الحياة النافعة ، فإذا بك تصرف هذه الطاقة التي أنعم الله بها عليك في معصيته .

وهكذا ، كان الطغيان هو علّة { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ } [النحل : 118] أي : بالعقوبة { ولكن كانوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [النحل : 118] أي : بالطغيان .

ثم يقول تعالى : { فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي } [طه : 81] الفعل : حَلَّ ، يحلّ يأتي بمعنى : صار حلالاً ، كما تقول للسارق : حلال فيه السجن . وتأتي حلَّ يحل بمعنى : نزل في المكان ، تقول : حَلَّ بالمكان أي : نزل به . فيكون المعنى : { فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي } [طه : 81] أي : صار حلالاً ، ووجب لكم ، أو بمعنى : ينزل بكم . وقد يكون المعنى أعمَّ من هذا كله .

والغضب انفعال نفسيٌّ يُحدِث تغييراً في كيماوية الجسم ، فترى الغاضب قد انتفختْ أوداجه

واحمرَّ وجهه ، وتغيّرت ملامحه ، فهذه أغيار تصاحب هذا الانفعال . فهل غضب الله عز وجل من هذا النوع؟

بالطبع لا؛ لأنه تعالى ليس عنده أغيار ، وإذا كان الغضب يتناسب وقدرة الغاضب على العذاب ، فما بالك إنْ كان الغضب من الله؟

ثم يقول تعالى : { وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هوى } [طه : 81] مادة : هَوَى لها استعمالان ، الأول : هَوَى يهْوِي : يعني سقط من أَعْلى سقوطاً لا إرادةَ له في منعه ، كأن يسقطَ فجأة من على السطح مثلاً ، ومن ذلك قوله :

هُوِيّ الدلو أَسْلَمَها الرِّشَاء ... إذا انقطع الحبل الذي يُخرِج الدَّلُو .

والآخر : هَوِيَ يَهْوَى : أي أحبَّ .

فيكون المعنى { فَقَدْ هوى } [طه : 81] سقط إلى القاع سقوطاً لا يبقى له قيمة في الحياة ، أو هَوَى في الدنيا ، ويَهوي في الآخرة ، كما جاء في قوله تعالى : { فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ } [القارعة : 9] فأمه ومصدر الحنان له هاوية ، فكيف به إذا هوى في الهاوية؟

هذه كلها عِظَات ومواعظ للمؤمن ، يُبيِّنها الحق سبحانه وتعالى له كي يبني حركة حياته على ضَوْئها وهُدَاها .

ولما كان الإنسان عُرْضة لأغيار لا يثبتُ على حال يتقلَّب بين عافية ومرض ، بين غِنىً وفقرٍ ، فكُلُّ ما فيه موهوب له لا ذاتيّ فيه ، لذلك إياك أن تحزن حين يفوتك شيء من النعمة؛ لأنها لن تبقى ولن تدوم ، وهَبْ أنك بلغتَ قمة النعيم ، فماذا تنتظر إلا أنْ تزول ، كما قال الشاعر :

إذَا تَمَّ شَيْءٌ بَدَا نَقْصُه ... تَرقَّبْ زَوَالاً إذَا قِيلَ تَمّ

فإذا تَمَّ لك الشيء ، وأنت ابْنُ أغيار ، ولا يدوم لك حال فلا بُدَّ لك أن تنحدر إلى الناحية الأخرى .

فكأن نقْصَ الإنسان في آماله في الحياة هي تميمة حراسة النِّعَم ، وما فيه من نَقْص أو عيب يدفع عنه حَسَد الحاسد ، كما قال الشاعر في المدح :

شَخَصَ الأنَامُ إلى كَمَالِكَ ... فَاسْتِعذْ مِنْ شَرِّ أعينهِمْ بِعيْبٍ وَاحِدٍ

أي : أن الأعين متطلعة إليك ، فاصرفها عنك ، ولو بعيب واحد يذكره الناس وينشغلون به .

وفي الريف يعيش بعض الفلاحين على الفطرة ، فإنْ رُزِق أحدهم بولد جميل وسيم يُلفِت نظر الناس إليه . وتراهم يتعمدون إهمال شكله ونظافته ، أو يضعونَ له (فاسوخة) دَفْعاً للحسد وللعين .

لذلك فالمرأة التي دخلت على الخليفة ، فقالت له : أتمَّ الله عليك نعمته ، وأقرَّ عينك ، ففهم الحضور أنها تدعو له ، فلما خرجتْ قال الخليفة : أعرفتم ما قالت المرأة؟ قالوا : تدعو لك ،

قال : بل تدعو عليَّ ، فقد أرادت بقولها : أتمَّ الله عليك نعمته تريد أزالها؛ لأن النعمة إذا تمت لم يَبْقَ لها إلا الزوال ، وقولها : أقَرَّ الله عينكَ تريد : أسكنها عن الحركة .

إذن : لا تغضَب إنْ قالوا عنك : ناقص في كذا ، فهذا النقص هو تميمة الكمال ، ويريدها الله لك لمصلحتك أنت .

وما دام الإنسان ابن أغيار ، فلا بُدَّ أنْ يغفل عن منهج الله ، فتكون له سَقَطات وهَفَوات تحتاج إلى غفران؛ لذلك يقول تعالى : { وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ . . . }

وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى (82)

غفار : صيغة مبالغة من غفر ، فإذا أثبت المبالغة فالترتيب اللغوي بالتالي يُثبتِ الأقلَّ وهو غافر ، هذا في الإثبات : وكذلك في النفي في مثل قوله تعالى : { وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ } [فصلت : 46] فنفى المبالغة في الظلم ، فهل يعني ذلك أنه تعالى يمكن أن يكون ظالماً؟

والشيء يُبالغ فيه لأمرين : الأول : أن تبالغ في نفس الحدث ، كأن تأكلَ رغيفاً في الوجبة أو رغيفين ، وآخر يأكل خمسة أرغفة ، فهذه منه مبالغة في نفس الحدث وهو الأكل ، والثاني : قد تكون المبالغة بتكرار الحدَث ، فالعادة أن نأكل ثلاث مرات ، وهناك مَنْ يأكل سِتّ وجبات ، ونسميه (أكول) أي : كثير الأكل ، لا في الوجبة الواحدة ، إنما في عدد الوجبات .

فمعنى (غَفَّارٌ) غافر لي ، وغافر لك ، وغافر لهذا وهذا . . غافر لكل الخَلْق ، فتكررت مغفرته عز وجل لخَلْقه .

وقد شرع الحق سبحانه وتعالى المغفرة والتوبة ليحمي المجتمعات من شرار الناس فيها ، فالشرير إذا ارتكب جريمة ولم يجد له فرصة للمغفرة والتوبة ، فإنه يستمرىء الجريمة ، بل ويبالغ فيها .

أما إذا فُتِح له باب التوبة والمغفرة فإن هذا يرحم المجتمع من شراسة أصحاب السوء .

والله عز وجل ليس غافراً للذنوب فحسب ، بل هو غفار لها ، وكلما عدت إليه غفر لك ، ولكن وَطِّن نفسك أنك إذا فعلت الذنب وتُبْت منه فلا تعد إليه ، ولا ترتب وتخطط لمعصيتك على أمل أن تتوب ، فما يدريك أن تعيش إلى أن تتوب؟

والمغفرة تكون { لِّمَن تَابَ وَآمَنَ } [طه : 82] وما دام قال { تَابَ وَآمَنَ } [طه : 82] فلا بُدَّ أن التوبة هنا عن الكُفْر ، ثم أنشأ إيماناً بالله وبرسوله . والإيمان هو الينبوع الذي يصدر عنه السُّلوك البشري ، وهذا يقتضي أن تسمع كلامه وتُنفِّذ أوامره ، وتجتنب نواهيه ، وهذا هو المراد بقوله { وَعَمِلَ صَالِحاً } [طه : 82] .

لكن ، أليس العمل الصالح هداية؟ فلماذا قال بعدها { ثُمَّ اهتدى } [طه : 82] قالوا : لأن الهداية أنْ تستمر على هذا العمل الصالح ، وأنْ تستزيدَ منه ، كما قال تعالى : { والذين اهتدوا

زَادَهُمْ هُدًى } [محمد : 17] .
ثم يقول الحق سبحانه : { وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَومِكَ . . . }

وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (83)

نقول : ما أعجلك؟ يعني : ما أسرع بك؟ لماذا جئتَ قبل موعدك؟ وكان موسى عليه السلام على موعد مع ربه عز وجل ليتلقى عنه المنهج ، والمفروض في هذا اللقاء أنْ يأتيَ معه مجموعة من صَفْوة قومه ورؤسائهم ، فتعجل موسى موعد ربه ، وذهب دون قومه ، فقال له : { وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَومِكَ ياموسى } [طه : 83] أي : أسرعتَ وتعجَّلْتَ وجِئْتَ بدونهم .
فقال موسى عليه السلام : { قَالَ هُمْ أولاء على أَثَرِي . . . }

قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (84)

أي : قادمين خلفي وسيتبعونني ، أما أنا فقد { عَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لترضى } [طه : 84] تعجَّلْتُ في المثول بين يديك لترضى .
وقد تعجَّل موسى إلى ميقات ربه ، وسبق قومه لحكمة ، فالإنسان حين يأمر غيره بأمر فيه مشقّة على النفس وتقييد لشهواتها ، لا بُدَّ أن يبدأ بنفسه يقول : أنا لست بنجْوَةٍ عن هذا الأمر ، بل أنا أول مَنْ أُنفِّذ ما آمركم به ، وسوف أسبقكم إليه .
لذلك يقول القائد الفاتح طارق بن زياد لجنوده : « واعلموا أني إذا التقى الفريقان مُقبِل بنفسي على طاغية القوم لزريق فقاتله إن شاء الله ، فإن قتلته فقد كُفيتم أمره » وهكذا تكون القيادة قدوة ومثَلاً كما يقولون في الأمثال (اعمل كذا وإيدي في إيدك) وهنا يقول : يدي قبل يدك .
فموسى عليه السلام يقول : { وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لترضى } [طه : 84] ترضى أن منهجك يُطبّق من جهتي كرسول مؤتمن عليه ، ومن جهة قومي؛ لأنهم حين يروني قد تعجلت للقائك في الموعد يعلمون أن في ذلك خيراً لهم ، وإلا ما سبقتهم إليه . وبذلك يسود منهج الله ويُمكَّن في الأرض ، وإذا ساد منهج الله رضي الله . عن خليفته في الأرض .
ثم يُخبر الحق تبارك وتعالى نبيه موسى عليه السلام بما كان من قومه بعد مفارقته لهم من مسألة عبادة العجل .

قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (85)

الفتنة : ليست مذمومة في ذاتها؛ لأن الفتنة تعني الاختبار ، ونتيجته هي التي تُحمَد أو تُذمّ ، كما لو دخل التلميذ الامتحان فإنْ وُفِّق فهذا خير له ، وإنْ أخفق فهذا خير للناس ، كيف؟

قالوا : لأن هناك أشياءَ إنْ تحققتْ مصلحة الفرد فيها انهدمتْ مصلحة الجماعة . فلو تمكَّن التلميذ المهمل الكَسُول من النجاح دون مذاكرة ودون مجهود ، فقد نال انتفاعاً شخصياً ، وإنْ كان انتفاعاً أحمق ، إلا أنه سيعطي الآخرين إشارة ، ويُوحِي لهم بعدم المسئولية ، ويفرز في المجتمع الإحباط والخمول ، وكفى بهذا خسارة للمجتمع .

وقد جاءتْ الفتنة بهذا المعنى في قول الحق تبارك وتعالى : { أَحَسِبَ الناس أَن يتركوا أَن يقولوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ } [العنكبوت : 2] .

إذن : لا بد من الاختبار لكي يعطي كل إنسان حسب نتيجته ، فإن سأل سائل : وهل يختبر الله عباده ليعلَم حالهم؟ نقول : بل ليعلم الناس حالهم ، وتتكشف حقائقهم فيعاملونهم على أساسها : هذا منافق ، وهذا مخلص ، وهذا كذاب ، فيمكنك أنْ تحتاط في معاملتهم .

إذن : الاختبار لا ليعلم الله ، ولكن ليعلم خَلْق الله .

أو : لأن الاختبار من الله لِقطْع الحجة على المختبر ، كأن يقول : لو أعطاني الله مالاً فسأفعل به كذا وكذا من وجوه الخير ، فإذا ما وُضِع في الاختبار الحقيقي وأُعطِي المال أمسك وبَخِل ، ولو تركه الله دون مال لَقال : لو عندي كنتُ فعلت كذا وكذا .

فهناك عِلْم واقع من الله ، أو علم من خَلْق الله لكل مَنْ يفتن ، فإنْ كان مُحْسِناً يقتدون به ، ويقبلون عليه ، ويحبونه ويستمعون إليه ، وإلاَّ انصرفوا عنه . فالاختبار إذن قَصْده المجتمع وسلامته .

وقد سَمَّى الحق سبحانه ما حدث من بني إسرائيل في غياب موسى من عبادة العجل سماه فتنة ، ثم نسبها إلى نفسه { فَتَنَّا } [طه : 85] أي : اختبرنا .

ثم يقول تعالى : { وَأَضَلَّهُمُ السامري } [طه : 85] أضلهم : سلك بهم غير طريق الحق ، وسلوك غير طريق الحق قد يكون للذاتية المحضة ، فيحمل الإنسان فيها وِزْر نفسه فقط ، وقد تتعدَّى إلى الآخرين فيسلك بهم طريق الضلال ، فيحمل وزْره ووِزْر غيره مِمَّنْ أضلّهم .

وفي هذه المسألة يقول تعالى : { لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ القيامة وَمِنْ أَوْزَارِ الذين يُضِلُّونَهُمْ } [النحل : 25] .

مع أن الله تعالى قال في أية أخرى : { وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى } [فاطر : 18] .

وهذه من المسائل التي توقَّف عندها بعض المستشرقين ، محاولين اتهام القرآن وأسلوبه بالتناقض ، وما ذلك منهم إلا لعدم فَهْمهم للغة القرآن واتخاذها صناعة لا مَلَكة ، ولو فَهِموا القرآن لَعَلِموا الفرق بين أن يضل الإنسان في ذاته ، وبين أن يتسبب في إضلال غيره .

والسامري : اسمه موسى السامري ، ويُرْوَى أن أمه وضعته في صحراء لا حياة فيها ، ثم ماتت في نفاسها ، فظل الولد بدون أم ترعاه ، فكان جبريل عليه السلام يتعهده ويربّيه إلى أن شبَّ .

وقد عبَّر الشاعر عن هذه اللقطة وما فيها من مفارقات بين موسى عليه السلام وموسى السامري

، فقال :

إِذَا لَمْ تُصَادِفْ فِي بَنِيكَ عِنَايةً ... فَقَدْ كذَبَ الرَّاجِي وَخَابَ المؤمِّل

فَمُوسَى الذِي رَبَّاهُ جِبْرِيلُ كَافِر ... وَمُوسَى الذِي رَبَّاه فِرْعَوْنُ مُرْسَلُ

ثم يقول الحق سبحانه : { فَرَجَعَ موسى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ . . . }

فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (86)

رَجَع : تُستعمل لازمة . مثل : رجع فلان إلى الحق . ومُتعدّية مثل { فَإِن رَّجَعَكَ الله إلى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فاستأذنوك لِلْخُرُوجِ } [التوبة : 83] والمعنى فيهما مختلف .

هنا رجع موسى أي : حين سمع ما حدث لقومه من فتنة السامري { غَضْبَانَ أَسِفاً } [طه : 86] أي : شديد الحزن على ما حدث { قَالَ ياقوم أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً } [طه : 86] الوعْد الحسن أن الله يعطيهم التوراة ، وفيها أصول حركة الحياة ، وبها تَحسُن حياتنا في الدنيا ، ويحسُن ثوابنا في الآخرة .

وقوله : { أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ العهد } [طه : 86] .

يعني : أطال عهدي بكم ، وأصبح بعيداً لدرجة أنْ تنسَوْه ولم أَغبْ عنكم إلا مُدَّة يسيرة . قال الله عنها : { وَوَاعَدْنَا موسى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ } [الأعراف : 142] .

ثم يقول : { أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَّوْعِدِي } [طه : 86] .

وما دام أن عهدي بكم قريب لا يحدث فيه النسيان ، فلا بُدَّ أنكم تريدون العصيان ، وتبغُون غضب الله ، وإلاّ فالمسألة لا تستحق ، فبمجرد أنْ أغيبَ عنكم تنتكسون هذه النكسة ، وإن كان هذا حال القوم ورسولُهم ما زال بين أظهرهم ، فما بالهم بعد موته؟

لذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « أذلك وأنا بين ظَهْرانيكم؟ » .

أي : ما هذا الذي يحدث منكم ، وأنا ما زلت موجوداً بينكم؟

وقوله : { فَأَخْلَفْتُمْ مَّوْعِدِي } [طه : 86] وفي آية أخرى قال : { بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بعدي } [الأعراف : 150] فكأنه كان له معهم وَعْد وكلام ، فقد أوصاهم قبل أن يُفارقهم أنْ يسلكوا طريق هارون ، وأن يطيعوا أوامره إلى أنْ يعود إليهم ، فهارون هو الذي سيخلفه من بعده في قومه ، وهو شريكه في الرسالة ، وله مهابة الرسول وطاعته واجبة .

هذا هو الوَعْد الذي أخلفوه مع نبيهم موسى عليه السلام .

قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (87)

مادة « ملك » لها صور ثلاثة ، لكل منها معنى ، وليست بمعنى واحد كما يدَّعِي البعض ، فتأتي مَلْك بفتح الميم ، ومِلْك بكسرها ، ومُلْك بضم الميم ، وجميعها تفيد الحيازة والتملُّك ، إلا أن مَلْك تعني تملك الإنسان لنفسه وذاته وإرادته ، دون أنْ يملكَ شيئاً آخر مِمَّا حوله .

ومِلْك : لتملك ما هو خارج عن ذاتك .

ومُلْك : أنْ تملك شيئاً ، وتملك مَنْ ملكه .

إذن : هذه الثلاثة ليستْ مترادفات بمعنى واحد . فقوله تعالى : { قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا } [طه : 87] أي : بإرادتنا ، بل أمور أخرى خارجة عن إرادتنا حملتنا على إخلاف الوعد ، فما هذه الأمور الخارجة عن إرادتكم؟

قالوا : { ولكنا حُمِّلْنَآ أَوْزَاراً مِّن زِينَةِ القوم } [طه : 87] (أَوْزَاراً) جمع وِزْر ، وهو الشيء الثقيل على النفس ، ويطلق الوِزْر على الإثم؛ لأنه ثقيل على النفس ثِقَلاً يتعدىَ إلى الآخرة أيضاً ، حيث لا ينتهي ألم الحمْل فيها؛ لذلك يقول تعالى : { وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ القيامة حِمْلاً } [طه : 101] .

وكانت هذه الأوزار من زينة القوم : أي : قوم فرعون . وقالوا إنهم كانوا في أعيادهم يستعيرون الحُليّ من جيرانهم ومعارفهم من قوم فرعون يتزيَّنون بها . فلماذا لم يردُّوا الأمانات هذه إلى أصحابها قبل أنْ يخرجُوا إلى الميقات الذي واعدهم عليه؟

قالوا : لأنهم أرادوا أنْ يُسِرُّوا ساعة خروجهم حتى لا يستعد لهم أعداؤهم ، وصدُّوهم عن الخروج فأعجلوا عن رَدِّها .

وقال قوم : إن هذه الزينات والحليّ كانت مما قذف به البحر بعد أنْ غرق فرعون وقومه ، ولكن هذا القول مردود؛ لأنهم إنْ أخذوها بعد أنْ ألْقَى بها البحر فسوف تكون أسلاباً لا أوزاراً .

ثم يقول تعالى : { فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السامري } [طه : 87] .

إذا أُطلِقَتْ الزينة تنصرف عادةً إلى الذهب ، والقَذْف هو الرَّمْي بشدة ، وكأن الرامي يتأفَف أنْ يحمل المرميّ ، وفي ذلك دلالة على أن بني إسرائيل ما يزال عندهم خميرة إيمان فتألموا وحزنوا لأنهم لم يردُّوا الأمانات إلى أهلها .

لذلك دخل عليهم السامري من هذه الناحية ، فأفهمهم : إنكم لن تبرأوا من هذه المعصية إلا أنْ ترمُوا بهذه الزينة في النار ، وهو يقصد شيئاً آخر ، هو أنْ ينصهر الذهب ، ويُخرِج ما فيه من الشوائب { فَكَذَلِكَ أَلْقَى السامري } [طه : 87] أي : ألقى ما معه من الحُليّ ، لكن فَرْق بين القَذْف والإلقاء ، الإلقاء فيه لُطْف وتمهُّل ، فهو كبيرهم ومُعلِّمهم .

ثم يقول الحق سبحانه : { فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ . . . }

فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (88)

أي : أخرج لهم من هذا الذهب المنصهر { عِجْلاً جَسَداً } [طه : 88] كلمة جسد وردتْ أيضاً في القرآن في قصة سليمان عليه السلام ، حيث قال تعالى : { وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا على كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ } [ص : 34] .

وقد أعطى الله سليمان مُلْكاً عظيماً لا ينبغي لأحد من بعده ، فسخَّر له الطير والجنَّ والإنس والريح يأتمرون بأمره ، ويبدو أنه أخذه شيء من الزَّهْو أو الغرور ، فأراد الحق سبحانه أنْ يلفته إلى مانح هذا المُلْك ويُذكِّره بأن هذا المُلْك لا يقوم بذاته ، إنما بأمر الله القادر على أن يُقعِدك على كُرسيِّك جسداً ، لا حركة فيه ولا قدرة له حتى على جوارحه وذاته .

كما ترى الرجل والعياذ بالله قد أصابه شلل كُليٌّ أقعده جسداً ، لا حركة فيه ، ولا إرادةَ على جوارحه ، فإذا لم تكن له إرادة على جارحة واحدة من جوارحه ، أفتكون له إرادة على الخارج عنه من طير أو إنس أو جن؟

فلا تغتر بأنْ جعل الله لك إمْره على كل الأجناس؛ لأنه قادر أنْ يسلبكَ هذا كله .

ويُروَى أن سليمان عليه السلام ركب بساط الريح يحمله إلى حيث يريد ، كما قال تعالى : { وَلِسُلَيْمَانَ الريح غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ } [سبأ : 12] فَداخلَه شيء من الفخر والزَّهْو ، فسمع من تحته مَنْ يقول : يا سليمان هكذا دون ألقاب أُمِرْنا أنْ نطيعك ما أطعتَ الله ، ثم رَدَّه حيث كان .

لذلك استغفر سليمان عليه السلام وأناب .

وكذلك نرى الإنسان ساعة أن يموتَ أولَ ما يُنسَى منه اسمه ، فيقولون : الجثة : الجثة هنا ، ماذا فعلتم بالجثة ، ثم تُنسَى هذه أيضاً بمجرد أن يُوضَع في نعشه فيقولون الخشبة : أين الخشبة الآن ، انتظروا الخشبة . . سبحان الله بمجرد أنْ يأخذ الخالق عز وجل سِرَّه من العبد صار جثة ، وصار خشبة ، فما هذه الدنيا التي تكون نهايتها هكذا؟

ففي قوله تعالى { عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ } [طه : 88] أي : لا حركة فيه ، فهو مجرد تمثال . صُنِع على هيئة معينة ، بحيث يستقبل الريح ، فيحدث فيه صفيراً يشبه الخوار أي : صوت البقر .

لكن ، لماذا فكَّر السامري هذا التفكير ، واختار مسألة العجل هذه؟

قالوا : لأن السامري استغلَّ تشوُّق بني إسرائيل ، وميلهم إلى الصنمية والوثنية ، وأنها متأصلة فيهم . ألم يقولوا لنبيهم عليه السلام وما زالت أقدامهم مُبتلة من البحر بعد أن أنجاهم الله من فرعون ، وكان جديراً بهم شكر الله ، فإذا بهم يقولون وقد أَتَوْا على قوم يعكفون على أصنام لهم : { ياموسى اجعل لَّنَآ إلها كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ } [الأعراف : 138] .

فجاءهم بهذا العجل ، وقد ترقَّى به من الصنمية ، فجعله جسداً ، وجعل له خواراً وصَوْتاً مسموعاً .

ثم يقول تعالى : { فَقَالُواْ هاذآ إلهكم وإله موسى فَنَسِيَ } [طه : 88] أي : نسي السامري خميرة الإيمان في نفسه ، ونسي أن هذا العمل خروجٌ عن الإيمان إلى الكفر ، ولَيْتَه يكفر في ذاته ، إنما هو يكفر ويُكفِّر الناس . لا بُدَّ أنه نسي ، فلو كان على ذُكْر من الإيمان ومن عاقبه عمله وخيبة ما أقدم عليه ما فعل .

ثم يقول الحق سبحانه : { أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ }

أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (89)

أي : كيف يعبدون هذا العجل ، وهو لا يردّ عليهم جواباً ، ولا يملك له شيئاً ، كما قال تعالى في آية أخرى : { واتل عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ } [الشعراء : 6973] .

فَمنْ كان لديه ذرة من عقل لا يُقدم على هذه المسألة؛ لذلك فالحق سبحانه يناقش هؤلاء : { كَيْفَ تَكْفُرُونَ بالله } [البقرة : 28] .

أي : أخبرونا بالطريق الذي يحملكم على الكفر ، كأنها مسألة عجيبة لا يقبلها العقل ولا يُقرُّها .

ألم يخطر ببال هؤلاء الذين عبدوا العجل أنه لا يردّ عليهم إنْ سألوه ، ولا يملك لهم ضَرَّاً إنْ كفروا به ، ولا نفعاً إن آمنوا به وعبدوه .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ }

وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (90)

وكان هارون عليه السلام خليفة لأخيه في غَيْبته ، كما قال تعالى : { وَقَالَ موسى لأَخِيهِ هَارُونَ اخلفني فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ المفسدين } [الأعراف : 142] .

اخْلُفْنِي واعمل الصالح ، فكان هذا تفويضاً من موسى لأخيه هارون أن يقضي في القوم بما يراه مناسباً ، وأنْ يُقدِّر المصلحة كما يرى . وقد شُفِع هذا التفويض لهارون أمام أخيه بعد ذلك .

فقوله تعالى : { وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ ياقوم إِنَّمَا فُتِنتُمْ بِهِ } [طه : 90] .

وهكذا وعظهم هارون على قَدْر استطاعته ، وبيّن لهم أن مسألة العِجْل هذه اختبار من الله .

وكان تقديره في هذه القضية ألاَّ يدخل مع هؤلاء في معركة؛ لأن القومَ كانوا جميعاً ثلاثمائة ألف ، عبد العجل منهم أثنا عشر ألفاً ، ولو جعلها هارون عليه السلام معركة لأفْنى كل هذا العدد .

لذلك اكتفى بالوعظ { ياقوم إِنَّمَا فُتِنتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أَمْرِي } [طه : 90] كما أخذتم العهد عند موسى .

قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (91)

{ لَن نَّبْرَحَ } [طه : 91] . أي سنظل عل هذا الحال ، البعض يظن أنها للمكان فقط ، إنما هي حَسْب ما تتعلق به ، تقول : لا أبرح سائراً حتى أصِلَ لغرضي ، ولا أبرح هذه المكان فقد تكون للمكان ، وقد تكون للحال . كما ورد في القرآن :

للمكان والإقامة في قوله : { فَلَنْ أَبْرَحَ الأرض حتى يَأْذَنَ لي أبي } [يوسف : 80] .

وللحال في قوله تعالى : { وَإِذْ قَالَ موسى لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حتى أَبْلُغَ مَجْمَعَ البحرين } [الكهف : 60] أي : لا أبرح السير .

فالمعنى { لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ } [طه : 91] سنظلّ على عبادته حتى يرجع موسى ، فلن نمكثَ هذه الفترة دون إلهٍ .

ثم يقول الحق سبحانه : { قَالَ ياهرون مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضلوا }

قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (92) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (93)

هذا حوار دار بين موسى وأخيه هارون { مَا مَنَعَكَ } [طه : 92] وقد وردتْ هذه الكلمة في القرآن بأُسْلوبين : الأول : قوله تعالى : { مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ } [ص : 75] أي : ما منعك من السجود .

والآخر : { مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ } [الأعراف : 12] . أي : ما منعك أن لا تسجد؛ لأن المانع قد يكون قَهْراً عنك ، وأنت لا تريد أن تفعل ، وقد يأتي آخر فيُقنِعك أن تفعل . فمَرّة يُرغِمك : أنت لا تريد أنْ تسجد يقول لك : اسجد . إذن : منعك أن تسجد يعني قهراً عنك ، لكن أقنعك أن تسجد أنت باختيارك فقد منعك ألاَّ تسجد .

إذن : مرة من النفس ، ومرة من الغير ، وهكذا يلتقي الأسلوبان .

فقوله : { مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضلوا * أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي } [طه : 9293] أي : من اتباعي ، لكن هل موسى عليه السلام هنا يستفهم؟ الحقيقة أنه لا يريد الاستفهام ، فقد تخاطب إنساناً بذنب ، وأنت لا تعلم ذنبه ، إنما تخاطبه بصورة الذَّنْب لتسمع الردَّ منه ، فيكون رَدّاً على مَنْ يعترض عليه .

ومن ذلك ما كان من سيدنا عمر رضي الله عنه عند الحجر الأسود ، فلما قَبَّله قال : « اللهم إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنِّي رأيت رسول الله يُقبِّلك ما قبَّلتُك » .

إذن : قبّله عمر؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبَّله ، إلا أنه جاء بهذا الكلام ليعطينا الجواب المستمر على مَرِّ التاريخ لكل مَنْ يسأل عن تقبيل الحجر .

وهنا أثارها موسى شبهة؛ كي نسمع نحن الجواب ، ولنسمع الردّ من صاحب الشأن باقياً سائراً في طول الأزمان .

قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (94)

إذن : صاحبَ خطابَ موسى لأخيه هارون فعْل نزوعيٌّ وحركة ، فهمناها من قول هارون : { يَبْنَؤُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي } [طه : 94] .

ثم ذكر العلة { إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بني إِسْرَآئِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي } [طه : 94] يقصد قول أخيه : { اخلفني فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ المفسدين } [الأعراف : 142] .

فذكّره بالتفويض الذي أعطاه إياه . وقد اجتهد هارون حَسْب رؤيته للموقف ، ونأى بالقوم عن معركة ربما انتهتْ بالقضاء على خِلَية الإيمان في بني إسرائيل ، اجتهد في إطار { وَأَصْلِحْ } [الأعراف : 142] .

إذن : أثار موسى هذه القضية مع أخيه ، لا ليسمع هو الرد ، وإنما ليُسمع الدنيا كلّها على مَرّ التاريخ .

ثم ينقل موسى الخطاب إلى رأس هذه الفتنة : { قَالَ فَمَا خَطْبُكَ ياسامري }

قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (95)

أي : ما شأنك؟ وما قصتك؟

والخَطْب : يُقال في الحدّث المهم الذي يُسمُّونه الحدَث الجلَل ، والذي يُقال فيه « خطب » ، فليس هو الحدث العابر الذي لا يقف عنده أحد .

ومن ذلك قوله تعالى : { مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ } [يوسف : 51] .

وما حكاه القرآن من قول موسى عليه السلام لابنتَيْ شعيب : { مَا خَطْبُكُمَا } [القصص : 23] .

ثم يقول الحق سبحانه عن السامري : { قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِ }

قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (96)

مادة : بَصُر منها أبصرت للرؤية الحسية ، وبصرت للرؤية العلمية أي : بمعنى علمتُ .

فمعنى { بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِ } [طه : 96] يعني : اقتنعتُ بأمر هم غير مقتنعين به ، فأنا فعلتُ وهم قَلَّدوني فيما فعلتُ من مسألة العِجْل .

وقد أدَّى به اجتهاده إلى صناعة العجل؛ لأنه رأى قومه يحبون الأصنام ، وسبق أنْ طلبوا من موسى أن يجعل لهم إلهاً لما رأوا قوماً يعبدون الأصنام ، فانتهز السامريُّ فرصة غياب موسى ، وقال لهم : سأصنع لكم ما لم يستطع موسى صناعته ، بل وأزيدكم فيه ، لقد طلبتم مجرد صنم من حجارة إنما أنا سأجعل لكم عِجْلاً جَسَداً من الذهب ، وله صوت وخُوَار مسموع .

وقوله : { فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرسول فَنَبَذْتُهَا } [طه : 96] قبض على الشيء : أخذه بجُمْع يده . ومثلها : قَبصَ .

وقوله : { مِّنْ أَثَرِ الرسول } [طه : 96] للعلماء في هذه المسألة روايات متعددة . منها : أن السامري حين كان جبريل عليه السلام يتعَهَّده وهو صغير ، كان يأتيه على جواد فلاحظ السامري أن الجواد كلما مَرَّ على شيء اخضرّ مكان حافره ، ودَبَّتْ الحياة فيه ، لذلك : فأصحاب هذا القول رأؤا أن العجل كان حقيقياً ، وله صوت طبيعي ليس مجرد مرور الهواء من خلاله .

ورأْى آخر يقول : { مِّنْ أَثَرِ الرسول } [طه : 96] الرسول كما نعلم هو المبلّغ لشرع الله المباشر للمبلّغ ، أما جبريل فهو رسول للرسول ، ولم يَرَه أحد فأُطلِقت الرسول على حامل المنهج إلى المتكلّم به ، لكنها قد تُطلق ويُراد بها التهكّم ، كما جاء في قوله تعالى : { هُمُ الذين يَقُولُونَ لاَ تُنفِقُواْ على مَنْ عِندَ رَسُولِ الله } [المنافقون : 7] فيقولون : رسول الله تهكماً لا إيماناً بها .

وكذلك في قوله تعالى : { وَقَالُواْ مَالِ هذا الرسول يَأْكُلُ الطعام وَيَمْشِي فِي الأسواق } [الفرقان : 7] .

إذن : قد يُرَاد بها التهكّم .

لكن ، ما المراد بأثر الرسول؟ الرسول جاء لِيُبلّغ شرعاً من الله ، وهذا هو أثره الذي يبقى من بعده . فيكون المعنى : قبضتُ قبضة من شرع الرسول ، قبضة من قمته ، وهي مسألة الإله الواحد الأحد المعبود ، لا صنمَ ولا خلافه .

وقوله تعالى : { فَنَبَذْتُهَا } [طه : 96] أي : أبعدتُها وطرحتها عن مُخيّلتي ، ثم تركتُ لنفسي العنان في أن تفكر فيما وراء هذا .

بدليل أنه قال بعدها { وكذلك سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي } [طه : 96] أي : زيَّنتها لي ، وألجأتني إلى معصية . فلا يقال : سوَّلَتْ لي نفسي الطاعة ، إنما المعصية وهي أن يأخذ شيئاً من أثر الرسول

ووَحْيه الذي جاء به من الله ، ثم يطرحه عن منهجه ويُبعده عن فِكْره ، ثم يسير بِمَحْض اختياره .
ثم يقول الحق سبحانه : { قَالَ فاذهب فَإِنَّ لَكَ }

قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (97)

كان ردّ موسى عليه السلام على هذه الفعْلة من السامري : جزاؤك أن تذهب ، ويكون قولك الملازم لك { لاَ مِسَاسَ } [طه : 97] والمِسَاس أي : المسّ . المعنى يحتمل : لا مساس مِنّي لأحد ، أو لا مساسَ من أحد لي .
ذلك لأن الذين يفترون الكذب ويدَّعُون أن لهم رسالة ولهم مهمة الأنبياء ، حظُّهم من هذا كله أن تكون لهم سُلْطة زمنية ومكانة في قلوب الناس ، وأن يكون لهم مذهب وأتباع وأشياع .
لذلك تراهم دائماً في سبيل الوصول إلى هذه الغاية يتحللون من المنهج الحق ، ويستبدلونه بمناهج حَسْب أهوائهم ، فيميلون إلى تسهيل المنهج وتبسيطه ، ويُعطون لأتباعهم حريةً ما أنزل الله بها من سلطان ، كالذي خرج علينا يُبيح للناس الاختلاط بين الرجال والنساء .
ومن العجيب أن تجد لهذه الأفكار أَنصاراً يؤمنون بها ويُطبِّقونها ، لا من عامة الناس ، بل من المثقفين وأصحاب المناصب . فكيف تحجب عنهم المرأة ، وهي نصف المجتمع؟
إذن : ما أجملَ هذ الدين ومَا أيسره على الناس ، فقد جاء على وَفْق أهوائهم وشهواتهم ، ووسَّع لهم المسائل ، فالنفس تميل بطبعها إلى التدين؛ لأنها مفطورة عليه ، لكن تريد هذا الدين سَهْلاً لا مشقةَ فيه ، حتى وإنْ خالف منهج الله .
لذلك تجد مثلاً مسيلمة وسجاح وغيرهما من مُدَّعِي النبوة يُخفِّفون عن أتباعهم تكاليف الشرع في الصلاة والصوم ، أما الزكاة فهي ثقيلة على النفس فلا داعيَ لها . وإلاَّ فما الميْزة التي جاءوا بها ليتبعهم الناس؟ وما وسائل التشجيع لاتباع الدين الجديد؟
وهكذا يصبح لهؤلاء سُلْطة زمنية ومكانة ، وأتباع ، وجمهور ، إذن : الذي أفسد حياته أن يجد العِزَّ والمكانة في انصياع الناس له وتبعيتهم لأفكاره ، فيعاقبه الله بهم ، ويجعل ذُلَّه على أيديهم وفتنته من ناحيتهم ، فهم الذين أعانوه على هذا الباطل ، فإذا به يكرههم ويبتعد بنفسه عنهم ، لدرجة أن يقول { لاَ مِسَاسَ } [طه : 97] كأنه يفِرُّ منهم يقول : إياك أنْ تقربَ مِنّي أو تمسّني .
لقد تحول القُرْب والمحبة إلى بُعْد وعداوة ، هذه الجمهرة التي كانت حوله وكان فيها عِزُّه وتسلُّطه يفرُّ منها الآن ، فهي سبب كَبْوته ، وهي التي أعانَتْه على معصية الله .
وهكذا ، كانت نهاية السامريّ أن ينعزل عن مجتمعه ، ويهيم على وجهه في البراري ، ويفرّ من الناس ، فلا يمسّه أحد ، بعد أنْ صدمه الحق ، وواجهتْه صَوْلته .

وما أشبهَ هذا الموقف بما يحدث لشاب متفوق مستقيم يُغريه أهل الباطل ، ويجذبونه إلى طريقهم ، وبعد أن انخرط في سِلْكهم وذاق لذة باطلهم وضلالهم إذَا به يصحو على صدمة الحق التي تُفيقه ، ولكن بعد أن خسر الكثير ، فتراه بعد ذلك يفِرُّ من هذه الصُّحْبة وينأى بنفسه عن مجرد الاقتراب منهم .

لذلك من الذين اختاروا دينهم وَفْق أهوائهم عبدة الأصنام ، فإن كانت العبادة أنْ يطيع العابدُ معبوده ، فما أيسرَ عبادة الأصنام؛ لأنها آلهة بدون تكليف ، وعبادة بدون مشقة ، لا تقيد لك حركة ، ولا تمنعك من شهوة ، وإلا فماذا أعدَّتْ الأصنام من ثواب لمَنْ عبدها؟ وماذا أعدَّتْ من عذاب لمن كفر بها .

فكأن الحق تبارك وتعالى قال للسامري : ستُعاقب بنفس المجتمع الذي كنت تريد منه العِزّة والسُّلْطة والسيطرة والذكر ، فتتبرأ أنت منهم وتفرّ من جوارهم ، ولا تتحمل أنْ يمسَّك أحد منهم ، فهم سبب بلائك ، ومصدر فتنتك ، كما قال تعالى : { الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المتقين } [الزخرف : 67] .

فأخلاءُ الباطل ، وصُحْبَة السوء الذين يجتمعون على معصية الله في سهرات مُحرَّمة عليهم أنْ يحذروا هذا اللقاء . أما الخُلّة الحقيقية الصادقة فهي للمتقين ، الذين يأتمرون بالحق ، ويتواصَوْن بطاعة الله .

وفَرْق بين مَنْ يقاسمك الكأس ومَنْ يكسرها ويُريقها قبل أنْ تذوقها ، فَرْق بين مَنْ يلهيك عن الصلاة ومَنْ يحثُّك عليها ، فَرْق بين مَنْ يُسعِدك الآن بمعصية ومَنْ يحملك على مشقّة الطاعة ، فانظر وتأمَّلْ .

ثم يقول : { وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَّن تُخْلَفَهُ } [طه : 97] أي : ما ينتظرك من عذاب الآخرة .

{ وانظر إلى إلهك الذي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي اليم نَسْفاً } [طه : 97] .

(عَاكِفاً) أي : مقيماً على عبادته ، والاعتكاف : الإقامة في المسجد ، والانقطاع عن المجتمع الخارجي .

ومعنى { لَّنُحَرِّقَنَّهُ } [طه : 97] أي : نُصيِّره كالمحروق ، بأنْ نبردَه بالمبرد حتى يصبح فُتاتاً وذرات متناثرة ، بحيث يمكن أن نذروه في الهواء { ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي اليم نَسْفاً } [طه : 97] أي : نذروه كما يفعل الفلاحون حين يذرون الحبوب لفَصْل القِشْر عنها بآلة تسمى (المنسف) تشبه الغربال ، وقد استبدلوا هذه الأدوات البدائية الآن بآلات ميكانيكية حديثة تُؤدِّي نفس الغرض .

ذلك لأن إلهَ السَّامري كان هذا العجل الذي اتخذه من ذهب ، فلا يناسبه الحرق في النار ، إنما نريد له عملية أخرى ، تذهب به من أصله ، فلا نُبقِي له على أثر . وهذا هو إلهك الذي عبدته

إنْ أفلح كان يدافع عن نفسه ويحمي رُوحَه .

وبعد أن بَيَّن الحق سبحانه وَجْه البطلان فيما فعله السامري ، ومَنْ تبعه من القوم ، عاد لِيذكِّرهم بمنطقه الحق وجادة الطريق ، وأن كلَّ ما فعلوه هراء في هراء :

{ إِنَّمَآ إلهكم الله }

إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (98)

الحق تبارك وتعالى حينما يقول : { لا إله إِلاَّ هُوَ } [طه : 98] نقولها نحن هكذا ، ونشهد بها ، فقد تعلَّمناها من رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي سمعها من ربه ونقلها إلينا ، فهي الشهادة بالوحدانية الحقّة ، شهادة من الله لذاته أولاً : { شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ هُوَ والملائكة وَأُوْلُواْ العلم } [آل عمران : 18] .

فهذه شهادة الذات للذات قبل أنْ يخلق شاهداً يشهد بها . ثم شهدتْ له بذلك الملائكة شهادةَ المشهد أنه لا إله غيره ، ثم شهد بذلك أولو العلم شهادة استدلال بالمخلوقات التي رأوْها على أبدع نظام وأعجبه ، ولا يمكن أن ينشأ هذا كله إلا عن إله قادر .

وقد سلمتْ لله تعالى هذه الدَّعوْى؛ لأنها قضية صادقة شَهِد بها سبحانه لنفسه ، وشَهِد بها الملائكة وأولو العلم ولم يَقُمْ لها معارض يدّعِيها لنفسه .

وإلا والعياذ بالله أين ذلك الإله الذي أخذ الله تعالى منه الألوهية؟ فإما أنْ يكون لا يعلم ، أو عَلِم بذلك ولم يعترض ، وفي كلتا الحالتين لا يستحق أن يكون إلهاً . والدَّعْوى إذا لم تُجْبَه بمعارض فقد سلمتْ لصاحبها ، إلى أن يُوجَد المعارض .

وكأن الحق سبحانه قال : لا إله إلا أنا ، وأنا خالق الكون كله ومُدبِّر أمره ، ولم يَأْتِ أحد حتى من الكفار يدَّعي شيئاً من هذا . وقد ضربنا لهذه المسألة مثلاً ولله المثل الأعلى : هَبْ أنه نزل عندك مجموعة ضيوف وزوار ، وبعد انصرافهم وجدتَ حافظة نقود فسألتَ عن صاحبها ، فلم يدَّعِها أحد إلى أنْ قال واحد منهم : هي لي ، إذن : فهو صاحبها ، وهو أحقُّ بها حيث لم يَقُمْ له معارض .

لذلك يقول تعالى : { قُلْ لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إلى ذِي العرش سَبِيلاً } [الإسراء : 42] .

يعني إنْ كان هناك آلهة أخرى فلا بُدَّ أنْ يذهبوا إلى صاحب العرش ، إما ليخضعوا له ويستلهموا منه القدرة على فِعْل الأشياء ، أو ليُحاسبوه ويُحاكموه : كيف يدَّعي الألوهية وهم آلهة؟ ولم يحدث شيء من هذا كله ، ولا أقام أحد دليلاً على أنه إله ، والدَّعْوى إذا لم يَقُمْ عليها دليل فهي باطلة .

وينفي الحق سبحانه وجود آلهة أخرى ، فيقول في موضع آخر : { مَا اتخذ الله مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ

مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إله بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ } [المؤمنون : 91] .
فهذا إله للسماء ، وهذا إله للأرض ، وهذا الجن ، وهذا الإنس . . إلخ ، وبذلك تكون الميْزة في أحدهم نقصاً في الآخر ، والقدرة في أحدهم عجزاً في الآخر ، وهذا لا يليق في صفات الألوهية .

ونلحظ هنا في قوله تعالى : { إِنَّمَآ إلهكم الله } [طه : 98] أن كلمة (إله) لا تعني (الله) ، وإلا لو كان إلهاً بمعنى الله لأصبح المعنى : إنما الله الله .

إذن : هناك فَرْق بين اللفظين : الله عَلَم على واجب الوجود الأعلى ، أما الإله فهو المعبود المطاع فيما يأمر ، فالمعنى : أن المعبود المطاع فيما يأمر به هو الله خالق هذا الوجود ، وصاحب الوجود الأعلى .
فالله تعالى هو المعبود المطاع بحقٍّ ، لأن هناك معبوداً ومطاعاً لكن بالباطل ، كالذين يعبدون الشمس والقمر والأشجار والأحجار ويُسمُّونهم آلهة ، فإذا كانت العبادة إطاعة أمر ونهي المعبود ، فبماذا أمرتْهم هذه الآلهة؟ وعن أيّ شيء نَهتْهم؟ وماذا أعدَّتْ لمن عبدها أو لمن كفر بها؟ إذن : هي معبودة ، لكن بالباطل؛ لأنها آلهة بلا منهج .
وكلمة { إِنَّمَآ } [طه : 98] لا تأتي إلا استدراكاً على باطل ، وتريد أن تُصوِّبه ، كأن تقول : إنما الذي حضر زيد ، فلا تقولها إلا لمن ادَّعى أن الذي حضر غير زيد ، فكأنك تقول : لا ، فلان لم يحضر ، إنما الذي حضر زيد .
فلا بُدَّ أن قوله تعالى : { إِنَّمَآ إلهكم الله } [طه : 98] جاء رداً على كلام قيل يدَّعي أن هناك إلهاً آخر ، وإنما لا تُقال إلا إذا ادُّعِيَ أمر يخالف ما بعدها ، فتنفي الأمر الأول ، وتُثبت ما بعدها .
وهنا يقول : { إِنَّمَآ إلهكم الله } [طه : 98] لأن السامريَّ لما صنع لهم العجل قال : { هاذآ إلهكم وإله موسى } [طه : 88] فكذَّبه الله واستدرك بالحقِّ على الباطل : { إِنَّمَآ إلهكم الله الذي لا إله إِلاَّ هُوَ } [طه : 98] .
ثم أضاف الحق تبارك وتعالى ما يُفرِّق بين إله الحق وإله الباطل ، فقال : { وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً } [طه : 98] لأنه سبحانه هو الإله الحق ، وهذه أيضاً رَدٌّ على السامريّ وما اتخذه إلهاً من دون الله ، فالعجل الذي اتخذه لا عِلمَ عنده ، وكذلك السامري الذي أمر الناس بعبادته ، فلو كان عنده علم لعرفَ أن عِجْله سيُحرق ويُنسَف وتذروه الرياح ، ولعرفَ العاقبة التي انتهى إليها من قوله للقوم (لا مساس) ، وأنه سينزل به عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة ، فلو علم هذه الحقائق ما أقدمَ على هذه المسألة .
ووسع علم الله لكل شيء يعني : مَنْ أطاع ومَنْ عصى ، لكن من رحمته تعالى بنا ألاَّ يحاسبنا عَمَّا

علم منّا ، بل يعلمنا حين ندعوه أن نقول : { رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً } [غافر : 7] فسبقتْ رحمته تعالى سيئاتنا وذنوبنا ، وسبقت عذابه ونقمته ، وفي موضع آخر يقول عز وجل : { وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ } [الأعراف : 156] .

فلو وقفنا عند { وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً } [طه : 98] لأتعبتْنا هذه المسألة؛ لأنه سيجازينا عن السيئة وعن الحسنة ، ومَنْ يطيق هذا؟

ثم يُبيّن الحق سبحانه حكمة القَصَص في القرآن ، والقَصَص لون من التاريخ ، وليس مطلق التاريخ ، القصص تاريخ لشيء مشهود يهمني وتفيدني معرفته ، وإلا فمن التاريخ أن نقول : كان في مكان كذا رجل يبيع كذا ، وكان يفعل كذا أو كذا .

إذن : فالقصص حدث بارز ، وله تأثيره فيمَنْ سمعه ، وبه تحدث الموعظة ، ومنه تؤخذ العبرة .

والتاريخ هو ربط الأحداث بأزمنتها ، فحين تربط أيَّ حدث بزمنه فقد أرَّخْتَ له ، فإذا كان حَدَثاً متميزاً نسميه قصة تُروَى ، فإنْ كانت قصة شهيرة تعلو على القصص كله نسميها سيرة ، لذلك خُصَّ باسم السيرة تاريخ قصة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن القَصَص شيء مميز ، أما السيرة فهي أميز ، ورسول الله خاتم الأنبياء؛ لذلك نقول عن تاريخه سيرة ولا نقول قصة؛ لأن واقعه في الحياة كان سَيْراً على منهج الله ، وعليه نزل القرآن ، وكان خُلقه القرآن .

والقصص يأتي مرة بالحدث ، ثم تدور حوله الأشخاص ، أو يأتي بشخصية واحدة تدور حولها الأحداث ، فإذا أردتَ أن تؤرخ للثورة العرابية مثلاً وضعت الحدث أولاً ، ثم ذكرتَ الأشخاص التي تدور حوله ، فإنْ أردتَ التأريخ لشخصية عرابي وضعت الشخصية أولاً ، ثم أدرت حولها الأحداث .

وقَصص القرآن يختلف عن غيره من الحكايات والقصص التي نسمعها ونحكيها من وضع البشر وتأليفهم ، فهي قصص مُخْتَرَعة تُبنى على عُقْدة وَحلِّها ، فيأخذ القاصُّ حدثاً ، ثم ينسخ حوله أحداثاً من خياله .

وبذلك يكونون قد أخذوا من القصص اسمه ، وعدلوا عن مُسمَّاه ، فهم يُسمُّون هذا النسيج قصة ، وليست كذلك؛ لأن قصة من قصَّ الأثر اي : مشى على أثره وعلى أقدامه ، لا يميل عنها ولا يحيد هنا أو هناك .

فالقصة إذن التزام حدثيٌّ دقيق لا يحتمل التأليف أو التزييف ، وهذا هو الفَرْق بين قَصَص القرآن الذي سماه الحق سبحانه وتعالى : { القصص الحق } [آل عمران : 62] و { أَحْسَنَ القصص } [يوسف : 3] وبين قَصَص البشر وتآليفهم .

القصص الحقُّ وأحسن القصص؛ لأنه ملتزم بالحقيقة لا يتجاوزها ، وله غاية سامية أَسْمى من قَصَص دنياكم ، فقَصَص الدنيا غايته وخلاصته إن أفلح أن يحميك من أحداث الدنيا ، أما

قصص القرآن فحمايته أوسع؛ لأنه يحميك في الدنيا والآخرة .

فإنْ رأيتَ في قصص القرآن تكراراً فاعلم أنه لهدف وغاية ، وأنها لقطات شتَّى لجوانب الحدَث الواحد ، فإذا ما تجمعتْ لديك كل اللقطات أعطتك الصورة الكاملة للحدث .

وهنا يقول تعالى : { كذلك نَقُصُّ عَلَيْكَ }

كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا (99)

وفي موضع آخر قال تعالى : { وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرسل مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ } [هود : 120] .

فكأن فؤاده صلى الله عليه وسلم كان في حاجة إلى تثبيت؛ لأنه سيتناول كل أحداث الحياة ، وسيتعرض لما تشيب لهَوْله الرؤوس ، ألم يَقُلْ الحق تبارك وتعالى عن الرسل قبله : { وَزُلْزِلُواْ حتى يَقُولَ الرسول والذين آمَنُواْ مَعَهُ متى نَصْرُ الله } [البقرة : 214] .

ألم يُضطهد رسول الله والمؤمنون ويُضربوا ويُحاصروا في الشِّعْب بلا مأوى ولا طعام ، حتى أكلوا الجلود وأوراق الشجر؟

فهذه أحداث وشدائد تضطرب النفس البشرية حين تستقبلها ، ولا بُدَّ لها من تأييد السماء لتثبت على الإيمان؛ لذلك يقصُّ الحق تبارك وتعالى على رسوله قصص مَنْ سبقوه في موكب الرسالات ليقول له : لست يا محمد بِدْعاً من الرسل ، فقد تحملوا من المشاق كيت وكيت ، وأنت سيدهم ، فلا بُدَّ أنْ تتحمل من المشاقِّ ما يتناسب ومكانتك ، فوطِّن نفسك على هذا .

فقوله تعالى : { كذلك نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ } [طه : 99] (كذلِكَ) : أي : كما قصصنا عليك قصة موسى وهارون وفرعون والسامريّ نقصُّ عليك قصصاً آخر من أنباء مَنْ سبقُوك من الرسل .

وأنباء : جمع نبأ ، وهو الخبر الهام العظيم ، فلا يُقال للأمر التافه نبأ . ومن ذلك قوله تعالى عن يوم القيامة : { عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ النبإ العظيم } [النبأ : 12] إنما يُقال « خبر » في أي شيء .

ثم يقول تعالى : { وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً } [طه : 99] .

وأكد الإتيان بأنه { مِن لَّدُنَّا } [طه : 99] أي : من عندنا ، فلم يَقُلْ مثلاً : آتيناك ذِكْراً .

وهذا له معنى؛ لأن كل الكتب التي نزلت على الرسل السابقين نزلت ورُويتْ بالمعنى ، ثم صاغها أصحابها بألفاظ من عند أنفسهم ، أمَّا القرآن فهو الكتاب الوحيد الذي نزل بلفظه ومعناه؛ لذلك قال { مِن لَّدُنَّا } [طه : 99] أي : مباشرة من الله لرسوله .

والمتأمّل في تبليغ الرسول وتلقّيه عن ربه يجد أنه يحافظ على لفظ القرآن ، لا يُخْفي منه حرفاً واحداً ، كما في قوله تعالى مثلاً : { قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ } [الإخلاص : 1] فكان يكفي في تبليغ

هذه العبارة أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أحد ، لكنه يقول نصّ ما جاءه من ربه مباشرة .

أرأيتَ لو قلت لولدك : اذهب إلى عمك وقُلْ له : أبي سيزورك غداً ، ألاَ يكفي أن يقول الولد : أبي سيزورك غداً؟

إذن : فالقرآن الذي بين آيدينا هو نفسه كلام الله المنزَّل على محمد صلى الله عليه وسلم لم يتغير فيه حرف واحد لا بالزيادة ولا بالنقصان؛ لأنه نصُّ الإعجاز ، وما دام نص الإعجاز فلا بُدَّ أنْ يظلَّ كما قاله الله .

ومعنى { ذِكْراً } [طه : 99] للذكْر معان متعددة ، فيُطلق الذكر ، ويُراد به القرآن ، كما في قوله تعالى :

{ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [الحجر : 9] .

ويُطلَق ويُراد به الصِّيت والشَّرف والجاه في الدنيا ، كما في قوله تعالى : { لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ } [الأنبياء : 10] أي : شرفكم ورِفْعتكم بين الناس ، وقال : { وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ } [الزخرف : 44] .

وقد يقول قائل : كيف يكون القرآن ذكراً وشرفاً للعرب ، وقد أبان عجزهم ، وأظهر ما فيهم من عِيٍّ؟ وهل يكون للمغلوب صِيت وشَرف .

نقول : كونهم مغلوبين للحق شهادة بأنهم أقوياء ، فالقرآن أعجز العرب وهم أمة فصاحة وبلاغة وبيان ، والحق سبحانه وتعالى حين يتحدى لا يتحدى الضعيف ، إنما يتحدى القوي ، ومن الفخر أن تقول : غلبت البطل الفلاني ، لكن أيّ فخر في أن تقول : غلبت أيّ إنسان عادي؟

وكذلك يُطلَق الذكْر على كل كتاب أنزله الله تعالى ، كما قال لرسوله صلى الله عليه وسلم : { فاسألوا أَهْلَ الذكر إِن كُنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ } [النحل : 43] أي : أهل الذكر قبلكم ، وهم أهل التوراة وأهل الإنجيل .

ويُطلَق الذكر ، ويُراد به فعل العمل الصالح والجزاء من الله عليه ، كما قال تعالى : { فاذكروني أَذْكُرْكُمْ } [البقرة : 152] أي : اذكروني بالطاعة أذكركم بالخير .

ويأتي الذكْر بمعنى التسبيح والتحميد ، وبمعنى التذكُّر والاعتبار ، فله إذن معانٍ متعددة يُحدِّدها السياق .

لكن ، لماذا اختار كلمة (ذكر) ولم يقل مثلاً كتاباً؟

قالوا : لأن الذكْر معناه أن تذكر الشيء بداية؛ لأنه أمر مهم لا يُنسَى ، وهو ذِكْر لأنه يُسْتلهم ، ومن الذكر الاعتبار والتذكير ، والشيء لا يُذكر إلا إذا كان له أهمية ، هذه الأهمية تتناسب مع الأمر من حيث مُدّة أهميته ومقدار أهميته ، وكل ذكر لشيء في الدنيا قصارى أمره أنْ يعطيك

خير الدنيا ، أمّا القرآن فهو الذكر الذي يعطيك خير الدنيا والآخرة؛ لذلك فهو أهم ذكر يجب أنْ يظلَّ على بالك لا يُنسى أبداً .

إذن : فالقرآن ذِكْر ذُكر أولاً ، وذِكْر يُذكَر ثانياً ، ويستلهم ذكراً يشمل الزمن كله في الدنيا وفي الآخرة .

ثم يصف الحق تبارك وتعالى هذا الذكر ، فيقول : { مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ }

مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (100)

أعرض : نعرف أن الطول أبعد المسافات ، وأن العرض أقصر المسافات؛ لذلك لما أراد الحق سبحانه أن يُصوِّر لنا اتساع مُلْكه سبحانه قال : { وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السماوات والأرض } [آل عمران : 133] فأتى بالأوسع للأقل ، فإن كان عَرْضها السموات والأرض ، فما بالك بطولها؟ لا بُدَّ أنه لا نهاية له .

والإنسان مِنّا له طول ، وله عرض ، ولا يميز العرض إلا الكتفان ، ودائماً مرآهما من الخلف ، لا من الأمام؛ لذلك نجد الخياط إذا أراد أنْ يقيس لك الثوب قاسه من الخلف ، فعَرْض الإنسان مؤخرته من أعلى .

وبذلك يكون أعرض عن كذا ، يعني : تركه وذهب بعيداً عنه ، أو : أعطاه ظهره وانصرف عنه .

ومن ذلك ما نقوله (اديني عرض كتافك) يعني : در وجهك وانصرف عني ، فإنْ كان جالساً نقول (انقُضْ طولك أو اطول) أي : قم وأَرِني طولك ، كي تريني عرض أكتافك وتنصرف عني .

والحق سبحانه وتعالى ، يعطينا صورة من الإعراض للذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها في سبيل الله ، فيقول : { يَوْمَ يحمى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فتكوى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هذا مَا كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ } [التوبة : 35] .

وهكذا ترى ترتيب العذاب حسْب ترتيب الإعراض ، فأول ما واجهه السائل قَطَّب جبهته ، وكشَّر وبدَتْ عليه ملامح الغضب والضيق ، ثم أدار له جنبه ، ثم أعطاه ظهره وانصرف عنه .

والوِزْر : الحِمْل الثقيل ، وليْتَه في الدنيا فيمكنك أن تتخلص منه ، إما بأنْ يُوضع عنك ، وإما أنْ تفوته بالموت ، إنما الوِزْر هنا في الآخرة؛ لذلك فهو وزر ثقيل لا ينحط عنك ولا تفوته بالموت ، فهو حِمْل لا نهايةَ له ولا أملَ في الخلاص منه . فهو ثقيل ممتد الإيلام ، فقد يكون الحمل ثقيلاً إلا أنه مُحبَّب إلى النفس ، كمَنْ يحمل شيئاً نافعاً له ، أمّا هنا فحِمْل ثقيل مكروه .

وبعد ذلك يستدرك به على العقوبة ، فالذي يأثم يُقال : أتى وزراً .

{ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ }

خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا (101)

ساء : قبح ذلك الحمل يوم القيامة؛ لأن الحمل قد لا يكون قبيحاً إنْ كان خيراً ، وإن كان شراً فقد يحمله صاحبه في الدنيا ويزول عنه أمّا الوزر فحِمْل سيىء قبيح ، لأنه في دار الخُلْد التي لا نهايةَ لها .

فمتى يكون ذلك؟

يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (102)

وهو يوم القيامة ، والصور : هو البوق الذي يُنفخ فيه النفخة الأولى والثانية ، كما جاء في قوله تعالى : { وَنُفِخَ فِي الصور فَصَعِقَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض إِلاَّ مَن شَآءَ الله ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ } [الزمر : 68] .

وقوله تعالى : { وَنَحْشُرُ المجرمين يَوْمِئِذٍ زُرْقاً } [طه : 102] .

أي : نجمعهم ونسوقهم زُرْقاً ، والزُّرْقة هي لونهم ، كما ترى شخصاً احتقن وجهه ، وازرقَّ لونه بسبب شيء تعرَّض له ، هذه الزُّرْقة نتيجة لعدم السلام والانسجام في كيماوية الجسم من الداخل ، فهو انفعال داخلي يظهر أثره على البشرة الخارجية ، فكأن هَوْلَ القيامة وأحداثها تُحدِث لهم هذه الزرقة .

والبعض يفسر { زُرْقاً } [طه : 102] أي : عُمْياً ، ومن الزُّرْقة مَا ينشأ عنها العمى ، ومنها المياه الزرقاء التي تصيب العين وقد تسبب العمى .

يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (103)

أي : في هذه الحال التي يُحشرون فيها زرقاً { يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ } [طه : 103] أي : يُسِرُّون الكلام ، ويهمس بعضهم إلى بعض ، لا يجرؤ أحد منهم أنْ يجهر بصوته من هَوْل ما يرى ، والخائف حينما يلاقي من عدوه مَا لا قِبلَ له به يُخفِي صوته حتى لا يُنبهه إلى مكانه؛ أو : لأن الأمر مَهوُل لدرجة الهلع الذي لا يجد معه طاقة للكلام ، فليس في وُسْعه أكثر من الهَمْس .

فما وجه التخافت؟ ولِمَ يتخافتون؟

يُسِرُّ بعضهم إلى بعض { إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً } [طه : 103] يقول بعضهم لبعض : ما لبثنا في الدنيا إلا عشرة أيام ، ثم يُوضِّح القرآن بعد ذلك أن العشرة هذه كلامهم السطحي ، بدليل قوله في الآية بعدها : { إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً } [طه : 104] .

فانتهت العشرة إلى يوم واحد ، ثم ينتهي اليوم إلى ساعة في قوله تعالى حكاية عنهم : { وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة يُقْسِمُ المجرمون مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ } [الروم : 55] فكُلُّ ما ينتهي فهو قصير .

إذن : أقوال متباينة تميل إلى التقليل؛ كأن الدنيا على سَعة عمرها ما هي إلا ساعة : { كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يلبثوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ } [الأحقاف : 35] .

وما هذا التقليل لمدة لُبْثهم في الدنيا إلا لإفلاسهم وقِلَّة الخير الذي قدَّموه فيها ، لقد غفلوا فيها ، فخرجوا منها بلا ثمرة؛ لذلك يلتمسون لأنفسهم عُذْراً في انخفاض الظرف الزمني الذي يسَع الأحداث ، كأنه لم يكُنْ لديهم وقت لعمل الخير؟؟

ثم يقول الحق سبحانه : { نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ }

نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (104)

الحق تبارك وتعالى يقصُّ على رسوله صلى الله عليه وسلم في الدنيا ما سيكون من أمر هؤلاء المجرمين في الآخرة ، فإذا ما وقعتْ القيامة جاءت الصورة كما حكاها الله لرسوله هي هي؛ ذلك لأن الله تعالى وسع كل شيء علماً .

وهذا القول الذي حكاه القرآن عنهم أمر في اخيتارهم ، وقد سمعوا ذلك من رسول الله ، وبوسعهم ألاَّ يقولوا ، لكن إذا جاءت القيامة فسوف يقولونه بالحرف الواحد لا يُغيِّرون منه شيئاً .

وقوله : { أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً } [طه : 104] يعني : أحسنهم حُكْماً .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجبال }

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (105)

تكلمنا عن (يسألونك) في قوله تعالى : { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخمر والميسر } [البقرة : 219] .

والسؤال استفهام يعني : طلب فَهْم يحتاج إلى جواب ، والسؤال إما أن يكون من جاهل لعالم ، كالتلميذ يسأل أستاذه ليعلم الجواب ، أو : من عالم لجاهل ، كالأستاذ يسأل تلميذه ليعرف مكانته من العلم وإقراره بما يعلم .

وهذه المسألة حَلَّتْ لنا إشكالاً كان المستشرقون يُوغلون فيه ، يقولون : بينما الحق تبارك وتعالى يقول : { فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَآنٌّ } [الرحمن : 39] يقول في آية أخرى : { وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَّسْئُولُونَ } [الصافات : 24] فالأولى تنفي السؤال ، والثانية تُثبته؛ لذلك اتهموا القرآن بالتضارب بين آياته .

وهؤلاء معذورون ، فليست لديهم المَلَكة العربية لفَهْم الأداء القرآني ، وبيان هذه الإشكال أن السؤال يردُ في اللغة إمَّا لتعلمَ ما جهلتَ ، وإما لتقرير المجيب بما تعلم أنت ليكون حجة عليه .

فالحق سبحانه حين يقول : { وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَّسْئُولُونَ } [الصافات : 24] أي : سؤالَ إقرار ،

لا سؤالَ استفهام ، فحين ينفي السؤال ينفي سؤال العلم من جهة المتكلم ، وحين يثبت السؤال فهو سؤال التقرير .

والحدث مرة يُنفَى ، ومرة يُثبت ، لكن جهة النفي مُنفكَّة عن جهة الإثبات ، فمثلاً الحق سبحانه يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : { وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ } [الأنفال : 17] .

فنفى الرمي في الأولى ، وأثبته في الثانية ، والحدث واحد ، المثبَت له والمنفيّ عنه واحد هو محمد صلى الله عليه وسلم . فكيف نخرج من هذا الإشكال؟ أرمَى الرسول أم لم يَرْمِ؟

ولتوضيح هذه المسألة ضربنا مثلاً بالأب الذي جلس بجوار ولده كي يذاكر دروسه ، فأخذ الولد يذاكر ، ويُقلِّب صفحات الكتاب ، وحين أراد الأب اختبار مدى ما حصَّل من معلومات لم يجد عنده شيئاً ، فقال للولد : ذاكرت وما ذاكرت . ذاكرت يعني : فعلت فِعْل المذاكر ، وما ذاكرت لأنك لم تُحصِّل شيئاً .

فرسول الله صلى الله عليه وسلم حينما رمى ، أيمكنه أنْ يُوصل هذه الرمية إلى أعين الجيش كله؟

إذن : فرسول الله أخذ قبضة من التراب ورمى بها ناحية الجيش ، إنما قدرة الله هي التي أوصلتْ حفنة التراب هذه وذَرَّتْها في أعيُنِ الأعداء جميعاً .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : { ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ } [الجاثية : 26] فنفتْ عنهم العلم ، وفي آية أخرى : { يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الحياة الدنيا } [الروم : 7] فأثبتتْ لهم عِلْماً .

نعود إلى قوله تعالى : { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجبال } [طه : 105] وحينما استعرضنا (يَسْأَلُونَكَ) في القرآن الكريم وجدنا جوابها مسبوقاً ب (قُلْ) كما في قوله تعالى : { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخمر والميسر قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ } [البقرة : 219] .

وقوله تعالى { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهلة قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ والحج } [البقرة : 189] وهكذا في كل الآيات ، ما عدا قوله تعالى هنا { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجبال فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً } [طه : 105] فاقترن الفعل (قُلْ) بالفاء ، لماذا؟

قالوا : لأن السؤال في كُلِّ هذه الآيات سؤال عن شيء وقع بالفعل ، فكان الجواب بقُلْ .

مثل : { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ المحيض قُلْ هُوَ أَذًى } [البقرة : 222] أما { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجبال } [طه : 105] قال في الجواب { فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً } [طه : 105] ؛ لأنه حَدَثٌ لم يقع بَعْد .

والحق سبحانه وتعالى يُخبر رسوله صلى الله عليه وسلم أنه سيُسَأل هذا السؤال ، فكأن الفاء هنا دَلَّتْ على شرط مُقدّر ، بمعنى : إنْ سألوك بالفعل فقُلْ : كذا وكذا .

إذن : السؤال عن الجبال لم يكُنْ وقت نزول الآية ، أمَّا الأسئلة الأخرى فكانت موجودة ، وسُئِلت لرسول الله قبل نزول آياتها .

وقد تأتي إجابة السؤال بدون (قُلْ) كما في قوله تعالى : { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ } [البقرة : 186] ولم يقُلْ هنا (قُلْ أو فقُلْ) لأنها تدُّل على الواسطة بين الله تعالى وبين عباده ، وكأن الحق سبحانه يُوضّح أنه قريب من عباده حتى عن الجواب بقُلْ .

وقد تتعجب : كيف تأتي في القرآن كل هذه الأسئلة لرسول الله مع أن القرآن كتاب منهج جاء بتكاليف قد تشقُّ على الناس؛ لأنه يلزمهم بأمور تخالف ما يشتهون ، فكان المفروض ألاَّ يسألوا عن الأمور التي لم ينزل فيها حكم .

نقول : دَلَّتْ أسئلتهم هذه على عِشْقهم لأحكام الله وتكاليفه ، فالأشياء التي كانت عاداتٍ لهم في الجاهلية يريدون الآن أنْ يُؤدُّوها على طريقة الإسلام على أنها عبادة ، لا مجرد عادة جاهلية .

مع أن النبي صلى الله عليه وسلم نهاهم عن السؤال فقال : « دعوني ما تركتكم ، إنما أهلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم » .

ومع ذلك سألوا وأرادوا أنْ تُبنَى حياتهم على منهج القرآن من الله ، لا على أنه إلْف عادة كانت له في الجاهلية ، إذن : هذه الأسئلة ترسيمُ للأمر من جانب الحق سبحانه وتعالى .

وقوله تعالى : { فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً } [طه : 105] تكلمنا عن هذا المعنى في قوله تعالى : { لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي اليم نَسْفاً } [طه : 97] فالمراد : نُفتِّتها ونذروها في الهواء ، وأكَّد النسف ، فقال { نَسْفاً } [طه : 97] ليؤكد أن الجبل سيتفتت إلى ذرات صغيرة يذروها الهواء .

فقد يتصوَّر البعض أنْ الجبال تُهَدُّ ، وتتحول إلى كُتَل صخرية كما نُفجِّر نحن الصخور الآن إلى قطع كبيرة؛ لذلك أكّد على النسف ، وأن الجبال ستكون ذرات تتطاير؛ لذلك قال في آية أخرى : { وَتَكُونُ الجبال كالعهن المنفوش } [القارعة : 5] أي : كالصوف المندوف .

لكن ، لماذا ذكر الجبال بالذات؟

قالوا : لأن الإنسان يرى أنه ابْنُ أغيار في ذاته ، وابن أغيار فيما حوله مِمَّا يخدمه من حيوان أو نبات ، فيرى الحيوان يموت أو يُذبَح ، ويرى النبات يذبل ثم يجفّ ويتفتَّت ، والإنسان نفسه يموت وينتهي .

إذن : كل ما يراه حوله بيّن فيه التغيير والانتهاء ، إلا الجبال يراها راسية ثابتة ، لا يلحقها تغيير ظاهر على مرِّ العصور .

لذلك يُضرب بها المثل في الثبات ، كما في قوله الحق سبحانه وتعالى : { وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ الله مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الجبال } [إبراهيم : 46] .

فالجبال مظهر للثبات ، فقد يتساءل الإنسان عن هذا الخلْق الثابت المستقر ، ماذا سيفعل الله به؟

ثم يقول الحق سبحانه : { فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً }

فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (106)

{ قَاعاً صَفْصَفاً } [طه : 106] : أرضاً مستوية مَلْساء لا نباتَ فيها ولا بناء ، والضمير في { فَيَذَرُهَا } [طه : 106] يعود على الأرض لا على الجبال؛ لأن الجبال لا تكون قاعاً صفصفاً ، أمّا الأرض مكان الجبال فتصير ملساء مستوية ، لا بناءَ فيها ولا جبال ، فالأرض شيءٌ والجبال فوقها شيء آخر .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : { قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بالذي خَلَقَ الأرض فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ العالمين * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ } [فصلت : 910] .

فالضمير في { وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا } [فصلت : 10] لا يعود على الأرض ، إنما على الجبال . لأن الجبال في الحقيقة هي مخازن القُوت ومصدر الخِصْب للأرض ، التي هي مصدر القوت ، فالإنسان مخلوق من الأرض ، واستبقاء حياته من الأرض ، فالنبات قوت الإنسان وللحيوان ، والنبات والحيوان قوت للإنسان .

إذن : لا بُدَّ للأرض من خُصُوبة تساعدها وتُمدّها بعناصر الغذاء ، ولو أن الخالق عز وجل جعل الأرض هكذا طبقةً واحدة بها المخصّبات لانتهتْ هذه الطبقة بعد عدة سنوات ، ولأجدبتْ الأرض بعد ذلك .

إذن : خلق اللهُ الجبالَ لحكمة ، وجعلها مصدراً للخصب الذي يمد الأرض مَدَداً دائماً ومستمراً ما بقيتْ الحياة على الأرض ، ومن هذا تتضح لنا حكمة الخالق سبحانه في أن تكون الجبال صَخْراً أصمّ ، فإذا ما تعرضت لعوامل التعرية على مَرَّ السنين تتفتتْ منها الطبقة الخارجية نتيجة لتغيُّر الظروف المناخية من حرارة وبرودة .

ثم تأتي الأمطار وتعمل في الصخر عمل المِبْرَد ، وتُكوّن ما يسمى بالغِرْيَن ، فتحمل هذا الفتات إلى الوِدْيان ومجاري الأنهار ، وتُوزّعه على طبقة الأرض ، فتزيدها خِصْباً تدريجياً كل عام ، وإلاَّ لو كانت الجبال هَشَّة غير متماسكة لانهالتْ في عدة أعوام ، ولم تُؤَدِّ هذا الغرض . لذلك نقول : إن الجبال هي مصدر القوت ، وليست الأرض .

ألاَ ترى أن خصوبة الوادي والدلتا جاءت من طمي النيل ، والغِرْين الذي يحمله الماء من أعالى أفريقيا . وهذا الغِرْيَن الذي يُنحَتُ من الجبال هو الذي يُسبب الزيادة في رقعة اليابسة ، وتستطيع أن تلاحظ هذه الظاهرة في المدن المطِلَّة على البحر ، فبعد أن كانت على شاطئه أصبحت الآن داخل الياسبة .

وقد مثَّلْنَا سابقاً للجبل بأنه مُثلث قاعدته إلى أسفل ، والوادي مُثلث قاعدته إلى أعلى ، فكل نَحْتٍ في الجبل زيادة في الوادي ، وكأن الخالق عز وجل جعل هذه الظاهرة لتتناسبَ مع زيادة

السكان في الأرض .
وقد حُذِف العائد في { فَيَذَرُهَا } [طه : 106] اعتماداً على ذِهْن السامع ونباهته إلى أنه لا يكون إلا ذلك ، كما في قوله تعالى : { قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ } [الإخلاص : 1] فلم يذكر عائد الضمير (هو) لأنه إذا قيل لا ينصرف إلا إلى الحق سبحانه وتعالى ، وإنْ لم يتقدم اسمه .
وكما في قوله تعالى : { حتى تَوَارَتْ بالحجاب } [ص : 32] والمراد : الشمس التي غابت ، ففاتتْ سليمان عليه السلام الصلاة ، ولم تذكر الآية شيئاً عن الشمس .
كذلك في : { مَا تَرَكَ على ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ } [فاطر : 45] أي : على الأرض ولم تذكرها الآية ، كذلك هنا (فَيَذَرُهَا) أي الأرض .

لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (107)

أي : كأنها مُسْتوية على « ميزان الماء » لا ترى فيها اعوجاجاً ولا (أَمْتاً) يعني : منخفض ومرتفع ، فهي مستوية استواءً تاماً ، كما نفعل نحن في الجدار ، ونحرص على استوائه .
لذلك نرى المهندس إذا أراد استلام مبنى من المقاول يعتمد إما على شعاع الضوء؛ لأنه مستقيم ويكشف له أدنى عَيْب في الجدار أو على ذرات التراب؛ لأنها تسقط على استقامتها ، وبعد عدة أيام تستطيع أن تلاحظ من ذرات التراب ما في الجدار من التواءات أو نتوءات .
ثم يقول الحق سبحانه : { يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الداعي }

يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (108)

الداعي : المنادي ، كالمؤذِّن الذي كثيراً ما دعا الناس إلى حضرة الله تعالى في الصلاة ، فمنهم مَنْ أجاب النداء ، ومنهم مَنْ تأبَّى وأعرض ، أما الداعي في الآخرة ، وهو الذي ينفخ في الصور فلن يتأبَّى عليه أحد ، ولن يمتنع عن إجابته أحد .
وقوله : { لاَ عِوَجَ لَهُ } [طه : 108] لأننا نرى داعي الدنيا حين يُنادِي في جَمْع الناس ، يتجه يميناً ويتجه يساراً ، ويدور ليُسمع في كُلِّ الاتجاهات ، فإذا لم يَصِلْ صوته إلى كل الآذان استيعاباً يستعمل مُكبِّر الصوت مثلاً ، أما الداعي في الآخرة فليس له عوج هنا أو هناك؛ لأنه يُسمِع الجميع ، ويصل صوته إلى كل الآذان ، دون انحراف أو ميْل .
ثم يقول تعالى : { وَخَشَعَتِ الأصوات للرحمن فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً } [طه : 108] هذا الهمْسُ الذي قال عنه في الآيات السابقة : { يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ } [طه : 103] .
ونعرف أن كل تجمُّع كبير لا تستطيع أنْ تضبط فيه جَلبة الصوت ، فما بالك بجَمْع القيامة من لَدُنْ آدم عليه السلام حتى قيام الساعة ، ومع ذلك : { وَخَشَعَتِ الأصوات للرحمن فَلاَ تَسْمَعُ

إِلاَّ هَمْساً } [طه : 108] فلماذا كتمت هذه الأصوات التي طالما قالتْ ما تحب ، وطالما كان لها جلبة وضجيج؟

الموقف الآن مختلف ، والهَوْل عظيم ، لا يجرؤ أحد من الهَوْل على رَفْع صوته ، والجميع كُلٌّ منشغل بحاله ، مُفكّر فيما هو قادم عليه ، فإنْ تحدّثوا تحدّثوا سِرّاً ومخافتة : ماذا حدث؟ ماذا جرى؟

وكذلك نحن في أوقات الشدائد لا نستطيع الجهر بها ، كما حدث لما مات سعد زغلول رحمه الله وكان أحمد شوقي وقتها في لبنان ، فسمع الناسَ يتخافتون ، ويهمس بعضهم إلى بعض بأن سعداً قد مات ، ولا يجرؤ أحد أن يجهر بها لِهَوْل هذا الحادث على النفوس ، فقال شوقي :

يَطأُ الآذَانَ هَمْساَ والشِّفَاهَا ... قُلْتُ يا قَوْم اجمعُوا أحْلامكُمْ ... كُلُّ نَفْسٍ في وَرِيدِيْها رَدَاهَا

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : { يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشفاعة }

يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (109)

والشفاعة تقتضي مشفوعاً له وهو الإنسان . وشافعاً وهو الأعلى منزلةً ، ومشفوعاً عنده : والمشفوع عنده لا يسمح بالشفاعة هكذا ترتجلها من نفسك ، إنما لا بُدَّ أنْ يأذنَ لك بها ، وأنْ يضعَك في مقام ومرتبة الشفاعة ، وهذا شَرْط في الشافع .

وقوله تعالى : { وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً } [طه : 109] هذه للمشفوع له ، أن يقول قولاً يرضى الله عنه وإنْ قصَّر في جهة أخرى وخَيْر ما يقوله العبد ويرضى عنه الله أن يقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فهذه مَقُولة مَرْضيَّة عند الله ، وهي الأمل الذي يُتعلق به ، والبُشْرى لأهل المعاصي؛ لأنها كفيلة أن تُدخِلهم في شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم .

فإذا كان لديك خَصْلة سيئة ، أو نقطة ضعف في تاريخك تراها عقبةً فلا تيأس ، وانظر إلى زاوية أخرى في نفسك تكون أقوى ، فأكثِرْ بها الحسنات ، لأن الحسنات يُذهِبْن السيئات .

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (110)

معنى { مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ } [طه : 110] ما أمامهم ، ويعلم ما خلفهم ، أما أنت فلا تحيط به عِلْماً ، ولا تعرف إلا ما يُخبرك به ، إلا أن تكون هناك مقدمات تستنبط منها ، لأن ما ستره الحق في الكون كثير ، منه ما جعل له مقدمات ، فمَنْ ألمَّ بهذه المقدمات يصل إليها .

ومع ذلك لا يقال له : عَلِم غيباً . إنما اكتشف غيباً بمقدمات أعطاها له الحق سبحانه وتعالى ، كما نعطي التلميذ تمريناً هندسياً ، ونذكر له المعطيات ، فيستدل بالمعطيات على المطلوب .

والكون مليء بالأشياء والظواهر التي إنْ تأملناها وبحثْناها ولم نُعرِض عنها وجدنا فيها كثيراً من

الأسرار ، فبالنظر في ظواهر الكون اكتشفوا عصر البخار ويسَّروا الحركة على الناس ، وبالنظر في ظواهر الكون اكتشف أرشميدس قانون الأجسام الطافية ، واكتشفوا البنسلين . . إلخ .

هذه كلها ظواهر موجودة في كون الله ، كانت تنتظر مَنْ يُنقِّب عنها ويكتشفها؛ لذلك ينعى علينا الحق تبارك وتعالى : { وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ } [يوسف : 105] .

فلو التفتوا إليها الالتفات الحق لانتفعوا بها .

لكن هناك أشياء استأثر الله تعالى بعلمها ، وقد يعطيها لمن أحبَّ من عباده ، ويُطلِعهم عليها ، أو تظل في علم الله لا يعرفها أحد .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَعَنَتِ الوجوه لِلْحَيِّ القيوم }

وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (111)

الوجه أشرف وأكرم شيء في تكوين الإنسان ، وهو الذي يُعطِي الشخص سِمَته المميزة؛ لذلك يحميه الإنسان ويحفظه ، ألاَ ترى لو أصاب وجهك غُبَار أو تراب أو طين مثلاً تمسحه بيدك ، لم تزِدْ على أنك جعلْتَ ما في وجهك في يدك لماذا؟ لأنه أشرف شيء فيك .

لذلك ، كان السجود لله تعالى في الصلاة علامة الخضوع والخشوع والذلَّة والانكسار له عز وجل ، ورضيتَ أن تضع أشرف جزءٍ فيك على الأرض وتباشر به التراب ، والإنسان لا يعنُو بوجهه إلا لِمَنْ يعتقد اعتقاداً جازماً بأنه يستحقُّ هذا السجود ، وأن السجود له وحده يحميه من السجود لغيره ، كما قال الشاعر :

والسُّجُودُ الذِي تَجْتَوِيه ... مِن أُلُوفِ السُّجُودِ فيهِ نَجَاةُ

فاسْجُدْ لواحد يكْفك السجود لسواه ، واعمل لوجه واحد يكْفك كل الأوْجُه .

وقوله : { وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً } [طه : 111] حمل : يعني أخذه عبئاً ثقيلاً عليه .

والظلم في أصله أنْ تأخذَ خيراً ليس لك لتنتفع به وتزيد ما عندك ، فأنت في الظاهر تزداد كما تظن ، إنما الحقيقة أنك تُحمِّل نفسك وِزْراً وحملاً ثقيلاً ، سوف تنوء به ، وازددْتَ إثْماً لا خيراً .

والظلم مراتب ودرجات ، أدناها أنْ تأخذ ما ليس لك وإن كان حقيراً لا قيمة له ، أو تظلم غيرك بأنْ تتناوله في عِرْضه ، ثم ترقى الظلم إلى أنْ تصلَ به إلى القمة ، وهو الشرك بالله ، كما قال سبحانه : { إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان : 13] .

وهو عظيم؛ لأنك أخذتَ حقّاً لله تعالى ، وأعطيته لغيره .

إذن : فحاول أن تَسْلَم من هذه الآفة؛ لأن الله قال فيها : { إِنَّ الله لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ } [النساء : 48] .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصالحات }

وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (112)

الصالحات : هي الأعمال التي تعود بالخير عليك أو على غيرك ، وأضعفُ الإيمان في عمل الصالح أن تترك الصالح في ذاته على صلاحه فلا تفسده ، كأن تجد بئراً يشرب منه الناس فلا تطمسه ولا تلوثه . فإنْ رقيت العمل الصالح فيمكنك أن تزيد من صلاحه ، فتبنى حوله جداراً يحميه أو تجعل له غطاءً . . إلخ .

ومن رحمة الله بنا أنه سبحانه حينما حثَّنا على العمل الصالح قال : { مِنَ الصالحات } [طه : 112] ومن هنا للتبعيض ، فيكفي أنْ تفعل بعض الصالحات؛ لأن طاقة الإنسان لا تسع كل الصالحات ولا تقوى عليها ، فحسْبُك أن تأخذ منها طرفاً ، وآخر يأخذ طرفاً ، فإذا ما تجمعتْ كل هذه الأطراف من العمل الصالح من الخلق كوَّنَتْ لنا الصلاح الكامل .

كما سبق أن ذكرنا أن ليس بوسع أحد منا أن يجمع الكمال المحمدي في أخلاقه ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « الخير فيَّ حقاً وفي أمتي إلى يوم القيامة » .

ففي كل فرد من أفراد الأمة خصلة من خصال الخير ، بحيث إذا تجمعت خصال الكمال في الخلق أعطتنا الكمال المحمدي .

وقوله : { وَهُوَ مُؤْمِنٌ } [طه : 112] لأن الإيمان شرط في قبول العمل الصالح ، فإنْ جاء العمل الصالح من غير المؤمن أخذ أجره في الدنيا ذِكْراً وشُهْرة وتخليداً لذكراه ، فقد عمل ليقال وقد قيل ، وانتهتْ المسألة .

ثم يقول تعالى : { فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً وَلاَ هَضْماً } [طه : 112] والظلم هنا غير الظلم في قوله تعالى : { وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً } [طه : 111] فالظلم هنا من الإنسان لنفسه أو لغيره ، إنما { فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً وَلاَ هَضْماً } [طه : 112] أي : ظُلْماً يقع عليه ، بألاَّ يأخذ حقه على عمله ، بمعنى أننا لا نعاقبه على سيئة لم يعملها ، ولا نضيع عليه ثواب حسنة عملها؛ لأن الحق سبحانه لا يظلم الناس مثقال ذرة .

{ وَلاَ هَضْماً } [طه : 112] الهَضْم يعني النقصان ، فلا ننقصه أجره وثوابه ، ومنه هضم الطعام ، فكمية الطعام التي نأكلها تُهضَم ثم تُمتصّ ، وتتحول إلى سائل دموي ، فتأخذ حَيِّزاً أقل ، ومنه نقول : فلان مهضوم الحق . يعني : كان له حق فلم يأخذه .

لكن ، ما فائدة عطف (هَضْماً) على (ظُلْماً) فنَفْي الظلم نَفْي للهضم؟ نقول : لأنه مرة يُبطل الثواب نهائياً ، ومرة يُقلِّل الجزاء على الثواب .

ثم يقول الحق سبحانه : { وكذلك أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً }

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (113)

(كَذَلِكَ) أي : كالإنزال الذي أنزلناه إلى الأمم السابقة ، فكما أرسلنا إليهم رُسُلاً أرسلنا إلى الأمم المعاصرة لك رسلاً ، إلا أنْ فارق الرسالات أنهم بُعِثُوا لزمان محدود ، في مكان محدود ، وبُعثْتَ للناس كافّة ، وللزمان كافة إلى أنْ تقوم الساعة .

ونفهم من كلمة { أَنزَلْنَاهُ } [طه : 113] أن المُنزَّل أعلى من المُنزَّل عليه ، فالإنزال من شيء عالٍ ، وكأن الحق تبارك وتعالى يلفت أنظارنا ويُصعِّد هممنا ، فيقول : لا تهبطوا إلى مستوى تشريع الأرض؛ لأنه يُقنِّن للحاضر ويجهل المستقبل ، ويتحكم فيه الهوى فتغيب عنه أشياء فيحتاج إلى استدراك .

لذلك ، حين ينادينا إلى منهجه العلوي يقول : { قُلْ تَعَالَوْاْ } [الأنعام : 151] يعني : اعلوا وخُذُوا منهجكم من أعلى ، لا من الأرض .

{ قُرْآناً } [طه : 113] يعني : مقروء ، كما قال { كِتَاباً } [الأنبياء : 10] يعني : مكتوب ، ليُحفظ في الصدور وفي السطور . وقال { قُرْآناً عَرَبِيّاً } [طه : 113] مع أن النبي صلى الله عليه وسلم مُرْسَل إلى الناس كافة في امتداد الزمان والمكان ، والقرآن نزل معجزة للجميع .

قالوا : لأنه صلى الله عليه وسلم هو المباشر لهذه الأمة العربية التي ستستقبل أول دعوة له ، فلا بُدَّ أنْ تأتي المعجزة بلسانها ، كما أن معجزة القرآن ليستْ للعرب وحدهم ، إنما تحدٍّ للإنس والجن على امتداد الزمان المكان .

كما قال سبحانه : { قُل لَّئِنِ اجتمعت الإنس والجن على أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هذا القرآن لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ } [الإسراء : 88] .

فالقرآن تحدٍّ لكل الأجناس : الروسي ، والأمريكي ، والياباني ، والدنيا كلها ، ومعهم الجن أيضاً . لكن لماذا والجن أيضاً داخل في مجال التحدي؟

قالوا : لأن العرب قديماً كانوا يعتقدون أن لكل شاعر أو خطيب مفوه شيطاناً يمُدُّه ويُوحِي إليه؛ لذلك أدخل الجن أيضاً في هذا المجال .

وقد يقول قائل : وكيف نتحدّى بالقرآن غير العرب وهو بلسان عربي ، فهو حجة على العرب دون غيرهم؟

نقول : وهل إعجاز القرآن من حيث أسلوبه العربي وأدائه البياني فقط؟ لا ، فجوانب الإعجاز في القرآن كثيرة لا تختلف فيها اللغات ، فهل تختلف اللغات في التقنين لخير المجتمع؟ ألم يأْتِ القرآن بمنهج في أمة بدوية أمية يغزو أكبر حضارتين معاصرتين له ، هما حضارة فارس في الشرق ، وحضارة الروم في الغرب؟ ألم تكُنْ هذه الظاهرة جديرةً بالتأمل والبحث؟

ثم الكونيات التي تحدَّث القرآن عنها منذ ما يزيد على أربعة عشر قرناً ، وما زال العلم الحديث يكتشفها الآن .

إذن : طبيعي أن يأتي القرآن عربياً؛ لأنه نزل على رسول عربي ، وفي أمة عربية ، والحق سبحانه

يقول : { وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ } [إبراهيم : 4] .
فهم الذين يستقبلون الدعوة ، وينفعلون لها ، ويقتنعون بها ، ثم ينساحون بها في شتَّى بقاع الأرض ، ومن العجيب أنهم بدعوة القرآن أقنعوا الدنيا التي لا تعرف العربية ، أقنعوها بالمبادىء والمناهج التي جاء بها القرآن؛ لأنها مبادىء ومناهج لا تختلف عليها اللغات .

ثم يقول تعالى : { وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الوعيد } [طه : 113] أي : حينما ينذر القرآن بشيء يُصرف هذا الإنذار على أوجه مختلفة ، ويُكرَّر الإنذار لينبه أهل الغفلة .
يعني : لوَّنا فيه كل أساليب الوعد والوعيد ، فكل أسلوب يصادف هوى في نفس أحد المستقبلين ، فخطابنا الأهواء كلها بكل مستوياتها ، فالعالم والجاهل ومتوسط الفكر ، الكل يجد في القرآن مَا يناسبه؛ لأنه يُشرِّع للجميع ، للفيلسوف وللعامي ، فلا بُدَّ أنْ يكون في القرآن تصريفٌ لكل ألوان الملكات ليقنع الجميع .
وفي القرآن وَعْد ووعيد ، فلكل منهما أهْل ، ومَنْ لم يَأْتِ بالإغراء بالخير يأتي بأن ينزعه بالقوة والجبروت ، كما قال الشاعر :
أَنَاةٌ فَإِنْ لم تُغْنِ عَقَّبَ بعدَها وَعِيداً ... فَإِنْ لم يُغْن أغنَتْ عَزَائمهُ
وفي الأثر : « إن الله ليزع بالسلطان ما لايزع بالقرآن » .
والإنذار والتخويف نعمة من الله ، كما ورد في سورة الرحمن ، حيث يقول تعالى : { مَرَجَ البحرين يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ } [الرحمن : 1921] فهذه نعم من الله .
أما قوله : { يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنتَصِرَانِ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ } [الرحمن : 3536] فما النعمة في النار والشُّواظ؟
النعمة أن ينذرك الله بها ويحذرك منها ، قبل أنْ تقعَ فيها ، ويعظك بها وأنت ما زلتَ في فترة المهلة والتدارك ، فلا يأخذك على غِرَّة ولا يتركك على غفلتك . كما تُحذِّر ولدك : إنْ أهملتَ دروسك فسوف تفشل في الامتحان فيحتقرك زملائك ، ويحدث لك كيت وكيت ، فلم يترك ولده على غَفْلته وإهماله ، إلى أنْ يداهمه الامتحان ويُفاجِئه الفشل ، أليستْ هذه نعمة؟ أليستْ نصيحة مهمة؟
والتصريف : يعني التحويل والتغيير بأساليب شتَّى لتناسب استقبال الأمزجة المختلفة عند نزول القرآن لعلها تصادف وَعْياً واهتماماً { لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً } [طه : 113] .
{ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } [طه : 113] الاتقاء عادة يكون للشر والمعاصي المهلكة ، أو يُحدِث لهم الذكْر والشرف والرفعة بفعل الخيرات ، وهذا من ارتقاءات الطاعة .
ذلك لأن التكليف قسمان : قسم ينهاك عن معصية ، وقسم يأمرك بطاعة ، فينهاك عن شُرْب

الخمر ، ويأمرك بالصلاة ، فهم يتقون الأول ، ويُحدِث لهم ذِكْراً يوصيهم بعمل الثاني . وما دام القرآن نازلاً من أعلى فلا بُدَّ أن يقول بعدها : { فتعالى الله الملك الحق }

فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا (114)

{ تعالى } [طه : 114] تنزّه وارتفع عن كل ما يُشبه الحادث ، تعالى ذاتاً ، فليستْ هناك ذاتٌ كذاته ، وتعالى صفاتاً فليست هناك صفة كصفته ، فإنْ وُجِدَتْ صفة في الخَلْق تشبه صفة في الخالق سبحانه ، فخُذْها في ضوء { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } [الشورى : 11] .

فالحق سبحانه لا يضنُّ على عبده أنْ يُسميه خالقاً إنْ أوجد شيئاً من عدم ، إنما لما تكلم عن خَلْقه سبحانه ، قال : { فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الخالقين } [المؤمنين : 14] .

فأنت خالق ، لكن ربَّك أحسَنُ الخالقين ، فأنت خلقتَ من موجود أمّا ربك عز وجل فقد خلق من العدم ، أنت خلقتَ شيئاً جامداً على حالة واحدة ، والله خلق خَلْقاً حياً نامياً ، يُحسُّ ويتحرك ويتكاثر ، وسبق أنْ مثَّلنا لذلك ولله المثل الأعلى بصانع الأكواب الزجاجية من الرمال ، وأوضحنا الفرق بين خَلْق وخَلْق .

وقوله تعالى : { فتعالى الله الملك الحق } [طه : 114] تلفتنا إلى ضرورة التطلع إلى أعلى في التشريع . فما الذي يُجبرك أنْ تأخذ تشريعاً من عبد مثلك؟ ولماذا يأخذ هو تشريعك؟ إذن : لا بُدَّ أن يكون المشرِّع أعلى من المشرَّع له .

ومن ألفاظ تنزيه الله التي لا تُقال إلا له سبحانه كلمة (سبحان الله) أسمعتَ بشراً يقولها لبشر؟ وهناك كفرة وملاحدة ومنكرون للألوهية ومعاندون ، ومع ذلك لم يقُلْها أحد مَدْحاً في أحد .

كذلك كلمة (تعالى وتبارك) لا تُقال إلا لله ، فنقول : (تباركت ربنا وتعاليت) أي : وحدك لا شريك لك .

فقوله : { فتعالى الله } [طه : 114] علا قَدْره وارتفع التنزيه ارتفاعاً لا يوصل إليه ، أمّا التعالي في البشر فيما بينهم فأمْر ممقوتٌ؛ أما تعالى الحق سبحانه فمن مصلحة الخلق ، وهذه اللفتة يُعَبِّر عنها أهل الريف ، يقولون (اللي ملوش كبير يشتري له كبير) ؛ لأن الكبير هو الذي سيأخذ بيد الضعيف ويدكّ طغيان القوى ، فإذا لم يكُنْ لنا كبير نختلف ونضيع .

إذن : من مصلحة الكون كله أنْ يكونَ الله متعالياً ، والحق ليس متعالياً علينا ، بل متعالٍ من أجلنا ولصالحنا ، فأيُّ مُتعالٍ أو جبار من البشر عندما يعلم أن الله أعلى منه يندكّ جبروته وتعاليه ، وأيّ ضعيف يعلم أن له سنداً أعلى لا يناله أحد ، فيطمئن ويعيش آمناً وبذلك يحدث التوازن الاجتماعي بين الناس .

ونحن نحب عبوديتنا لله عز وجل ، وإنْ كانت العبودية كلمة بغيضة مكروهة حين تكون عبودية

الخَلْق للخَلْق فيأخذ السيد خَيْر عبده ، إلا أن العبودية لله شرف وكرامة؛ لأن العبد لله هو الذي يأخذ خَيْر سيده ، فأنا عبد لله وعبوديتي له لصالحي أنا ، ولن أزيد في مُلْكه شيئاً ، ولن ينتفع من ورائي بشيء؛ لأنه سبحانه زوال مُلْكه وزوال سلطانه في الكون قبل أن يخلق الخَلْق ، فبقدرته وعظمته خلق ، وقبل أنْ توجد أنت أيها الإنسان الطاغي المتمرد أوجد لك الكون كله بما فيه .

فأنت بإيمانك لن تزيد شيئاً في مُلْك الله ، كما جاء في الحديث القدسي : « يا عبادي إنكم لن تملكوا نفعي فتنفعوني ، ولن تملكوا ضري فتضروني . . » فأنا إنْ تصرَّفْتُ فيكم فلمصلحتكم ، لا يعود عليَّ من ذلك شيء .

وقوله تعالى : { الملك الحق } [طه : 114] لأن هناك ملوكاً كثيرين ، أثبتَ الله لهم المُلْك وسمَّاهم مُلُوكاً ، كما قال سبحانه : { وَقَالَ الملك ائتوني بِهِ } [يوسف : 50] وقال : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الذي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ الله الملك } [البقرة : 258] .

إذن : في الدنيا ملوك ، لكنهم ليسوا مُلوكاً بحق ، الملك بحق هو الله؛ لأن ملوك الدنيا ملوك في مُلْك موهوب لهم من الله ، فيمكن أن يفوت مُلْكَه ، أو يفوته المُلْكُ ، وأيُّ مُلْك هذا الذي لا يملكه صاحبه؟ أيّ مُلْك هذا الذي يُسلب منك بانقلاب أو بطلقة رصاص؟

إذن : المِلك الحق هو الله ، وإن ملَّك بعض الخلق شئون بعض لمصلحتهم ، فهو سبحانه الذي يهَب المُلْك ، وهو الذي ينزعه إن أراد : { تُؤْتِي الملك مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الملك مِمَّنْ تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ } [آل عمران : 26] .

فالحق سبحانه له المُلْك الحق ، ويهَبُ من مُلْكه لمَنْ يشاء ، لكن يظل المَلِك وما مَلَكه في قبضة الله؛ لأنه سبحانه قيُّوم على خَلْقه لا يخرج أحد عن قيوميته .

وقد نسمع مَنْ يسبُّ الملوك والرؤساء ، ومَنْ يخوض في حقهم ، وهو لا يدري أن مُلْكهم من الله ، فهو سبحانه الذي ملّكهم وفوَّضهم ، ولم يأخذ أحد منه مُلْكاً رَغْماً عن الله ، فلا تعترض على اختيار الله واحترم مَنْ فوَّضه الله في أمرك ، واعلم أن في ذلك مصلحة البلاد والعباد ، ومَنْ يدريك لعلَّ الطاغية منهم يصبح غَداً واحداً من الرعية .

إذن : الحق سبحانه ملَّك بعض الناس أمْر بعض : هذا يتصرف في هذا ، وهذا يملك هذا لتسير حركة الكون ، فإذا كانت القيامة ، قال عز وجل : { لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار } [غافر : 16] هذا هو المُلْك الحق .

ومن عظمته في التعالى أنه يريحك هو سبحانه بعمله لك ، فيقول لك : نَمْ مِلْءَ جفونك ، فأنا لا تأخذني سِنَة ولا نوم ، نَمْ فلكَ رب قيوم قائم على أمرك يرعاك ويحرسك .

ومن معاني { الملك الحق } [طه : 114] أي : الثابت الذي لا يتغير ، وكُلُّ ظاهرة من ظواهر القوة في الكون تتغير إلا قوة الحق تبارك وتعالى لذلك يُلقِي سبحانه أوامره وهو واثق أنها ستُنفذ؛

لأنه سبحانه مِلكٌ حقّ ، بيده ناصية الأمور كلها ، فلو لم يكُنْ سبحانه كذلك ، فكيف يقول للشيء : كُنْ فيكون؟ فلا يعصاه أحد ، ولا يخرج عن طَوْعه مخلوق ، فيقول له : كُنْ فلا يكون . فالحق تبارك وتعالى أنزل القرآن عربياً ، وصرَّف فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً؛ لأنه من حقه أن يكون له ذلك؛ لأنه مَلِك حق ليس له هوى فيما شرع؛ لذلك يجب أن تقبل تشريعه ، فلا يطعن في القوانين إلا أن تصدر عن هوى ، فإنْ قنَّن رأسمالي أعطَى الامتياز للرأسماليين ، وإنْ قنَّن فقير أعطى الامتياز للفقراء ، والله عز وجل لا ينحاز لأحد على حساب أحد .

وأيضاً يجب في المقنِّن أن يكون عالماً بمستجدَّات الأمور في المستقبل ، حتى لا يستدرك أحد على قانون فيُغيِّره كما يحدث معنا الآن ، وتضطرنا الأحداث إلى تغيير القانون؛ لأننا ساعة شرعناه غابتْ عنا هذه الأحداث ، ولم نحتط لها؛ لذلك لا استدراكَ على قانون السماء أبداً .

وطالما أن الحق سبحانه وتعالى هو { الملك الحق } [طه : 114] فلا بُدَّ أنْ يضمن للخلق أنْ يصلهم الكتاب والمنهج كما قاله سبحانه ، لا تغيير فيه؛ لذلك قال عز وجل : { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [الحجر : 9] .

نحن الذين سنحفظه؛ لأن البشر جُرِّبوا في حِفْظ مناهج السماء ، ولم يكونوا أمناء عليها ، فغيَّروا في التوراة وفي الإنجيل وفي الكتب المقدَّسة ، إما بأن يكتموا بعض ما أنزل الله ، وإما أنْ ينسُوا بعضه ، والذي ذكروه لم يتركوه على حاله بل حرَّفوه . وإنْ قُبِل منهم هذا كله فلا يُقبَل منهم أنْ يفتَرُوا على الله فيُؤلِّفون من عندهم ، ويقولون : { هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ الله } [آل عمران : 78] .

ذلك لأن الحفْظ للمنهج كان موكولاً للبشر تكليفاً ، والتكليف عُرْضَة لأنْ يُطَاع ، ولأن يُعْصَى ، كما قال تعالى : { إِنَّا أَنزَلْنَا التوراة فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النبيون الذين أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ والربانيون والأحبار بِمَا استحفظوا مِن كِتَابِ الله } [المائدة : 44] .

أي : طلب منهم أن يحفظوها بهذا الأمر التكليفي ، فعَصَوْه نسياناً ، وكتماناً ، وتحريفاً ، وزيادة؛ لذلك تولّى الحق تبارك وتعالى حفْظ القرآن؛ لأنه الكتاب الخاتم الذي لا استدراكَ عليه ، وضمن سبحانه للقرآن ألاَّ يُحرَّف بأيّ وجه من أَوْجُه التحريف .

فاطمئنوا إلى أن القرآن كتاب الله الذي بين أيديكم هو كلام الله الذي جاء من علمه تعالى في اللوح المحفوظ الذي قال عنه : { فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ المطهرون } [الواقعة : 7879] .

ثم نزل به الروح الأمين ، وهو مُؤتَمن عليه لم يتصرَّف فيه ، ثم نزل على قلب سيد المرسلين الذي قال الله عنه : { وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأقاويل * لأَخَذْنَا مِنْهُ باليمين } [الحاقة : 4445] .

إذن : حُفِظ القرآن عِلْماً في اللوح المحفوظ ، وحُفِظ في أمانة مَنْ نزل به من السماء ، وحُفِظ في مَنْ استقبله وهو النبي صلى الله عليه وسلم ، فلا حجةَ لنا بعد أن جمع الحق سبحانه وتعالى للقرآن كُلَّ ألوان الحفظ .

لذلك كان ولا بُدَّ حين يُنزِل الله القرآن على رسوله أن يقول له : { فتعالى الله الملك الحق } [طه : 114] فليست هناك حقيقة بعد هذا أبداً ، وليس هناك شيء ثابت ثبوتَ الحق سبحانه وتعالى .

ثم يقول تعالى { وَلاَ تَعْجَلْ بالقرآن مِن قَبْلِ أَن يقضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ } [طه : 114] وهذه مُقدِّمات ليطمئن رسول الله على حِفْظ القرآن؛ لأنه صلى الله عليه وسلم كان ينزل عليه الوحي ، فيحاول إعادته كلمة كلمة . فإذا قال الوحي مثلاً : { قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ } [الجن : 1] فيأخذ الرسول من تكرارها في سِرَّه ويُردِّدها خلف جبريل عليه السلام مخافة أنْ ينساها لشدة حِرْصه على القرآن .

فنهاه الله عن هذه العجلة { وَلاَ تَعْجَلْ بالقرآن } [طه : 114] أي : لا تتعجل ، ولا تنشغل بالتكرار والترديد ، فسوف يأتيك نُضْجها حين تكتمل ، فلا تَخْشَ أنْ يفوتك شيءٌ منه طالما أنني تكفَّلْتُ بحِفْظه؛ لذلك يقول له في موضع آخر : { سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى } [الأعلى : 6] .

فاطمئن ولا تقلق على هذه المسألة؛ لأن شغلك بحفظ كلمة قد يُفوِّت عليك أخرى .

والعَجَلة أنْ تُخرِج الحدث قبل نُضْجه ، كأن تقطف الثمرة قبل نُضْجها وقبل أوانها ، وعند الأكل تُفَاجأ بأنها لم تَسْتَوِ بعد ، أو تتعجل قَطْفها وهي صغيرة لا تكفي شخصاً واحداً ، ولو تركتها لأوانها لكانت كافية لعدة أشخاص .

والقرآن كلام في مستوى عَالٍ من البلاغة ، وليس كلاماً مألوفاً له يسهُل عليه حِفْظه؛ لذلك كان حريصاً على الحِفْظ والتثبيت .

وفي آية أخرى يُوضِّح الحق سبحانه هذه المسألة : { لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فاتبع قُرْآنَهُ } [القيامة : 1618] أي : لما تكتمل الآيات فلكَ أنْ تقرأها كما تحب .

وهذه الظاهرة من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم ، نبي ينزل عليه عدة أرباع من القرآن ، أو السورة كاملة ، ثم حيث يُسري عنه الوحي يعيدها كما أُنزِلتْ عليه ، ولك أن تأتي بأكثر الناس قدرة على الحفظ ، واقرأ عليه المدة عشر دقائق مثلاً من أي كتاب أو أي كلام ، ثم اطلب منه إعادة ما سمع فلن يستطيع .

أما النبي صلى الله عليه وسلم فكان يأمر الكَتبة بكتابة القرآن ، ثم يمليه عليهم كما سمعه ، لا يُغير منه حرفاً واحداً ، بل ويُملي الآيات في موضعها من السور المختلفة فيقول : « ضعوا هذه في

سورة كذا ، وهذه في سورة كذا » .
ولو أن السورة نزلت كاملة مرة واحدة لكان الأمر إلى حَدٍّ ما سهلاً ، إنما تنزل الآيات متفرقة ، فإذا ما قرأ صلى الله عليه وسلم في الصلاة مثلاً قرأ بسورة واحدة نزلتْ آياتها متفرقة ، هذه نزلت اليوم ، وهذه نزلت بالأمس ، وهكذا ، ومع ذلك يقرؤها مُرتَّبة آية آية .
وقوله تعالى بعدها : { ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ } [القيامة : 19] وخاطب النبي في آية أخرى : { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذكر لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ } [النحل : 44] فالبيان من الله تعالى والتبيين من النبي صلى الله عليه وسلم .

ومعنى : { مِن قَبْلِ أَن يقضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ } [طه : 114] أي : انتظر حتى يسري عنك ، لكن كيف يعرف الرسول ذلك؟ كيف يعرف أن الحالة التي تعتريه عند نزول الوحي قد زالتْ؟ والصحابة يصفون حال النبي صلى الله عليه وسلم عند نزول الوحي عليه فيقولون : كنا نسمع حول رأسه كغطيط النحل ، وكان جبينه يتفصد عرقاً ، ويبلغ منه الجهد مبلغاً ، وإن نزل الوحي وهو على دابة كانت تنخ برسول الله؛ لأن الله تعالى قال : { إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً } [المزمل : 5] .
إذن : هناك آيات مادية تعرض لرسول الله عند نزول الوحي؛ لأن الوَحْي من مَلَك له طبيعته التكوينية التي تختلف وطبيعة النبي البشرية ، فلكي يتم اللقاء بينهما مباشرة لا بُدَّ أنْ يحدث بينهما نوعٌ من التقارب في الطبيعة ، فإمّا أن يتحول المَلَك من صورته الملائكية إلى صورة بشرية ، أو ينتقل رسول الله من حالته البشرية إلى حالة ملائكية ارتقائية حتى يتلقّى عن الملك .
لذلك ، كانت تحدث لرسول الله تغييرات كيماوية في طبيعته ، هذه التغييرات هي التي تجعله يتصبَّبُ عَرَقاً حتى يقول : « زملوني زملوني » أو « دثروني دثروني » لما حدث في تكوينه من تفاعل .
فكان الوحي شاقاً على رسول الله خاصة في أوله ، فأراد الحق سبحانه أنْ يُخفِّف عن رسوله هذه المشقة ، وأنْ يُريحه فترة من نزول الوحي ليريحه من ناحية وليُشوِّقه للوحي من ناحية أخرى ، فقال تعالى : { أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الذي أَنقَضَ ظَهْرَكَ } [الشرح : 13] والوِزْر هو الحِمْل الثقيل الذي كان يحمله رسول الله في نزول الوحي عليه .
فلما فتر الوحي عن رسول الله شمتَ به الأعداء ، وقالوا : إن ربَّ محمد قد قلاه . سبحان الله ، أفي الجَفْوة تذكرون أن لمحمد رباً؟ ألستم القائلين له : كذاب وساحر؟ والآن أصبح له رب لأنه قلاه؟
وما فهم الكفار أن فتور الوحي لحكمة عالية ، أرادها ربُّ محمد ، هي أنْ يرتاح نفسياً من مشقة هذه التغيرات الكيماوية في تكوينه ، وأنْ تتجدد طاقته ، ويزداد شوقه للقاء جبريل من جديد ،

والشَّوْق إلى الشيء يُهوِّن الصعاب في سبيله . كما يسير المحب إلى حبيبه ، لا تمنعه مشاقّ الطريق .

فردَّ الله على الكافر : { والضحى * والليل إِذَا سجى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى * وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأولى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى } [الضحى : 15] .

فنفى عن رسوله ما قاله الكفار ، ثم عدَّل عبارتهم : إن ربَّ محمد قد قلاه فقال : { مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى } [الضحى : 3] هكذا بكاف الخطاب؛ لأن التوديع قد يكون للحبيب .

أمَّا في قوله : { وَمَا قلى } [الضحى : 3] فلم يأْتِ هنا بكاف الخطاب حتى مع النفي ، فلم يقُلْ (وما قلاك) ؛ لأن النفي مع ضمير المخاطب يُشْعِر بإمكانية حدوث الكُره لرسول الله .

كما لو قلت : أنا لم أرَ شيخ الأزهر يشرب الخمر ، أمدحتَ شيخ الأزهر بهذا القول أم ذَمَمْته؟ الحقيقة أنك ذممته؛ لأنك جعلته مظنة أن يحدث منه ذلك .

فهذا التعبير القرآني يعطي لرسول الله منزلته العالية ومكانته عند ربه عز وجل .

لكن ، ما الحكمة في أن الحق تبارك وتعالى أقسم في هذه المسألة بالضحى وبالليل إذا سَجَى؟ وما صلتهما بموضوع غياب الوحي عن رسول الله؟

الله عز وجل يريد بقوله : { والضحى * والليل إِذَا سجى } [الضحى : 12] أن يرد هؤلاء إلى ظاهرة كونية مُشَاهدة ومُعْتَرَف بها عند الجميع ، وهي أن الله خلق النهار وجعله مَحلاً للحركة والنشاط والسعي ، وخلق الليل وجعله مَحَلاً للراحة والسكون ، فيرتاح الإنسان في الليل ليعاود نشاطه في الصباح من جديد .

وهكذا أمر الوحي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما أجهده الوحي احتاج إلى وقت يرتاح فيه ، لا لتنتهي المسألة بلا عودة ، بل ليُجدِّد نشاط النبي ، ويُشوِّقه للوحي من جديد؛ لذلك بشَّره بقوله : { وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأولى } [الضحى : 4] أي : انتظر يا محمد ، فسوف يأتيك خير كثير .

فالحق سبحانه يُرجِعهم إلى ظواهر الكون ، وإلى الطبيعة التي يعيشون عليها ، فأنتم ترتاحون من عَناء النهار بسكون الليل ، فلماذا تنكرون على محمد أن يرتاح من عناء الوحي ومشقته؟ وهل راحتكم في سكون الليل تعني دوام الليل وعدم عودة النهار؟

وقوله تعالى : { وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً } [طه : 114] هذا توجيه للنبي صلى الله عليه وسلم للاستزادة من العلم ، فما دُمْتَ أنت يا رب الحافظ فزِدْني منه ، ذلك لأن رسول الله سيحتاج إلى علم تقوم عليه حركة الحياة من لَدُنْه إلى أن تقوم الساعة ، عِلْمٌ يشمل الأزمنة والأمكنة ، فلا بُدَّ له أنْ يُعَدَّ الإعدادَ اللازم لهذه المهمة .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إلى ءَادَمَ }

وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (115)

كأن الحق تبارك وتعالى يُعزّي رسوله صلى الله عليه وسلم ويُخفِّف عنه ما يعانيه من كفر القوم وعنادهم بقوله له : اقبلهم على عِلاَّتهم ، فهُمْ أولاد آدم ، والعصيان أمر وارد فيهم ، وسبق أن عهدنا إلى أبيهم فنسى ، فإذا نسى هؤلاء فاقبل منهم فهم أولاد « نسَّاي » .

لذلك ، إذا أوصيتَ أحداً بعمل شيء فلم يَقُمْ به ، فلا تغضب ، وارجع الأمر إلى هذه المسألة ، والتمس له عُذْراً .

وقوله : { عَهِدْنَآ إلى ءَادَمَ } [طه : 115] أي : أمرنا ووصَّيْنا ووعظنا ، وقلنا كل شيء .

{ مِن قَبْلُ } [طه : 115] هذه الكلمة لها دَوْر في القرآن ، وقد حسمتْ لنا مواقف عدة ، منها قوله هنا عن آدم والمراد : خُذْ لهم أُسْوة من أبيهم الذي كلّفه الله مباشرة ، ليس بواسطة رسول الله ، وكلّفه بأمر واحد ، ثم نهاه أيضاً عن أمر واحد : كُل من كُلِّ الجنة إلا هذه بأمر واحد ، ثم نهاه أيضاً عن أمر واحد : كُل من كُلِّ الجنة إلا هذه الشجرة ، هذا هو التكليف ، ومع ذلك نسي آدم ما أُمِر به .

إذن : حينما يأتي التكليف بواسطة رسول ، وبأمور كثيرة ، فمَنْ نسي من ولد آدم فيجب أنْ نعذره ونلتمس له عذراً ، ولكثرة النيسان في ذرية آدم قال تعالى : { وَإِنِّي لَغَفَّارٌ } [طه : 82] بالمبالغة؛ لأن الجميع عُرْضَة للنسيان وعُرْضة للخطأ ، فالأمر إذن يحتاج إلى مغفرة كثيرة .

كذلك جاءتْ (من قبل) في قوله تعالى : { فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَآءَ الله مِن قَبْلُ } [البقرة : 91] .

فكان لها دور ومَغْزى ، فلو قال الحق سبحانه : فَلِمَ تقتلون أنبياء الله؟ فحسْب ، فربما جرَّأهم على الاعتداء على رسول الله أنْ يقتلوه ، أو يفهم منها رسول الله أنه عُرْضة للقتل كما حدث مع سابقيه من الأنبياء . لذلك قيَّدها الحق تبارك وتعالى وجعلها شيئاً من الماضي الذي لن يكون ، فهذا شيء حدث من قبل ، وليس هذا زمانه .

وقوله : { فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً } [طه : 115] أي : نسي العَهْد ، هذه واحدة . { وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً } [طه : 115] ليس عنده عزيمة قوية تُعينه على المضيّ والثبات في الأمر .

فالحق تبارك وتعالى يريد أن يعطينا فكرة بأنه سبحانه حين يأمر بأمْر فيه نفع لك تتهافت عليه ، أمّا إذا أمر بشيء يُقيِّد شهواتك تأبَّيْتَ وخالفتَ ، ومن هنا احتاج التكليف إلى عزيمة قوية تعينك على المضيّ فيه والثبات عليه ، فإنْ أقبلتَ على الأمر الذي يخالف شهوتك نظرتَ فيه وتأملتَ : كيف أنه يعطيك شهوة عاجلة زائلة لكن يعقبها ذلٌّ آجل مستمر ، فالعَزْم هنا ألاَّ تغريك الشهوة .

ألا ترى أن الله تعالى سمَّى الرسل أصحاب الدعوات والرسالات الهامة في تاريخ البشرية { أُوْلُواْ

العزم } [الأحقاف : 35] لأنهم سيتحملون مشاقَ ومهامَ صعبة تحتاج إلى ثبات وصبر على التكليف .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : { خُذُواْ مَآ ءاتيناكم بِقُوَّةٍ } [البقرة : 63] أي : عزيمة تدفع إلى الطاعات ، وتمنع من المعاصي .

ومسألة نسيان العبد للمنهيات التي يترتب عليها عقاب وعذاب أثارتْ عند الناس مشكلة في القضاء والقدر ، فتسمع البعض يقول : ما دام أن الله تعالى كتب عليَّ هذا الفعل فَلِمَ يعاقبني عليه؟

ونعجب لهذه المقولة ، ولماذا لم تَقُلْ أيضاً : لماذا يثيبني على هذا الفعل ، ما دام قد كتبه عليَّ؟ لماذا توقفتَ في الأولى و (بلعْت) الأخرى ، بالطبع؛ لأن الأولى ليست في صالحك . إذن ، عليك أن تتعامل مع ربك معاملة واحدة ، وتقيس الأمور بمقياس واحد .

والعهد الذي أخذه الله على آدم أنْ يأكل رَغَداً من كل نعيم الجنة كما يشاء إلا شجرة واحدة حذَّره من مجرد الاقتراب منها هو وزوجه : { وَلاَ تَقْرَبَا هذه الشجرة فَتَكُونَا مِنَ الظالمين } [البقرة : 35] .

وهذه المسألة تلفتنا إلى أن المحللات كثيرة لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى أمّا المحرمات فقليلة معدودة محصورة؛ لذلك حينما يُحدِّثنا الحق سبحانه عن التكليف يقول : { قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ } [الأنعام : 151] فالمحرَّمات هي التي يمكن حصرها ، أما المحللات فخارجة عن نطاق الحَصْر .

ونلحظ أن الله تعالى حينما يُحذِّرنا من المحرمات لا يُحذِّرنا من مباشرتها ، بلْ مِن مجرد الاقتراب منها { وَلاَ تَقْرَبَا هذه الشجرة } [البقرة : 35] ولم يقُلْ : لا تأكلا منها؛ ليظل الإنسان بعيداً عن منطقة الخطر ومظنّة الفِعْل .

وحينما يُحدِّثنا ربُّنا عن حدوده التي حدَّهَا لنا يقول في الحدّ المحلَّل : { تِلْكَ حُدُودُ الله فَلاَ تَعْتَدُوهَا } [البقرة : 229] وفي الحدِّ المحّرم يقول : { تِلْكَ حُدُودُ الله فَلاَ تَقْرَبُوهَا } [البقرة : 187] ذلك لأن مَنْ حامَ حول الحِمَى يوشك أنْ يقع فيه .

وقد كان للعلماء كلام طويل حول ما نسيه آدم عليه السلام ، فمنهم مَنْ قال : نسى (كُل من هذه ولا تقرب هذه) ، وعلى هذا الرأي لم يَنْسَ آدم لأنه نفَّذ الأمر فأكل مِمّا أحله الله له ، أما كونه أكل من الشجرة التي نهاه الله عنها فليس في هذه أيضاً نسيان؛ لأن إبليس ذكّره بهذا النهي فقال : { مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هذه الشجرة إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخالدين } [الأعراف : 20] .

فحينما أكل آدم من الشجرة لم يكُنْ ناسياً ما نهاه الله عنه . إذن : ما المقصود بالنسيان هنا؟ المقصود أن آدم عليه السلام نسى ما أخبره الله به من عداوة إبليس لعنه الله حين قال له : { إِنَّ

هذا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجنة فتشقى } [طه : 117] .
والفكر البشري لا بُدَّ أن تفوتَهُ بعض المسائل ، ولو كان عند الإنسان يقظه وحَذَر ما انطلى عليه تغفيل إبليس ، فتراه يُذكِّر آدمَ بالنهي ولم يَدَعْهُ في غفلته ثم يحاول إقناعه : إنْ أكلتُما من هذه الشجرة فسوف تكونَا ملَكين ، أو تكونَا من الخالدين .

وما دُمْتَ أنت يا أبليس بهذا الذكاء ، فلماذا لم تأكل أنت من الشجرة وتكون مَلَكاً أو تكون من الخالدين؟ لماذا تضاءلت فصْرتَ أرنباً تقول : { أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ } [الأعراف : 14] .
إذن : هذا نموذج من تغفيل إبليس لآدم وذريته من بعده ، يلفتنا الله تعالى إليه يقول : تيقظوا واحذروا ، فعداوته لكم مُسْبقة منذ سجد الجميع لآدم تكريماً ، وأَبَى هو أن يسجد .
فكان على آدم أنْ يُحذِّر عدوه ، وأنْ يتحصَّن له بسوء الظن فيه ، فينظر في قوله ويفكر في كلامه ويفتش في اقتراحه .
والبعض يقول : إن خطأ آدم ناتج عن نسيان ، فهو خطأ غير مُتعَمَّد ، والنسيان مرفوع ، كما جاء في الحديث الشريف : « إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .
فهل كان النسيان قديماً لا يُرْفَع ، ورُفِع لهذه الأمة إكْراماً لها؟ فأصحاب هذا القول يلتمسون العُذْر لآدم عليه السلام ، لكن كيف وقد كلَّفه ربُّه مباشرة ، وكلَّفه بأمر واحد ، فالمسألة لا تحتمل نسياناً ، فإذا نسي آدم مع وحدة التكليف وكَوْنه من الله مباشرة ، فهذا على آية حال جريمة .
ثم يقص الحق سبحانه علينا قصة آدم مع إبليس : { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسجدوا لأَدَمَ }

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (116)

الحق تبارك وتعالى يقصُّ علينا قصة آدم عليه السلام ، لكن نلاحظ أنه سبحانه أعطانا مُجْمل القصة ومُوجزها في قوله تعالى : { وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إلى ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً } [طه : 115] وأصلُ القصة وترتيبها الطبيعي أنه سبحانه يقول : خلقْتُ آدم بيدي وصوَّرته ، وكذا وكذا ، ثم أمرْتُ الملائكة بالسجود له ثم قلت له : كذا . . . .
وعَرْض القصة بهذه الطريقة أسلوبٌ من أساليب التشويق يصنعه الآن المؤلفون والكُتَّاب في قصصهم ، فيعطوننا في بداية القصة لقطة لنهايتها؛ لإثارة الرغبة في تتبُّع أحداثها ، ثم يعود فيعرض لك القصة من بدايتها تفصيلاً ، إذن : هذا لوْنٌ من ألوان الإثارة والتشويق والتنبيه .
ومن ذلك أسلوب القرآن في قصة أهل الكهف ، حيث ذكر القصة مُوجَزة فقال : { أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الكهف والرقيم كَانُواْ مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً * إِذْ أَوَى الفتية إِلَى الكهف فَقَالُواْ رَبَّنَآ آتِنَا

مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّىءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً * فَضَرَبْنَا على آذَانِهِمْ فِي الكهف سِنِينَ عَدَداً * ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الحِزْبَيْنِ أحصى لِمَا لَبِثُواْ أَمَداً } [الكهف : 912] .

ثم أخذ في عَرْضها تفصيلاً : { نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نبَأَهُم بالحق } [الكهف : 13] .

وقد جاء هذا الأسلوب كثيراً في قَصَص القرآن ، ففي قصة لوط عليه السلام يبدأ بنهاية القصة وما حاق بهم من العذاب : {كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بالنذر * إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ } [القمر : 3334] .

ثم يعود إلى تفصيل الأحداث : { وَلَقَدْ أَنذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْاْ بالنذر * وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ } [القمر : 3637] .

ومن أبرز هذه المواضع قوله تعالى في قصة موسى وفرعون : { ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم موسى بِآيَاتِنَآ إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُواْ بِهَا فانظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المفسدين } [الأعراف : 103] أي : من بعد موكب الرسالات إلى فرعون وملَئِه فظلموا بها ، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ، هذا مُجمل القصة ، ثم يأخذ في قَصِّ الأحداث بالتفصيل : { وَقَالَ موسى يافرعون إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ العالمين } [الأعراف : 104] .

وهكذا أسلوب القرآن في قصة آدم عليه السلام ، يعطينا مُجْمل القصة ، ثم يُفصِّلها : { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسجدوا لأَدَمَ فسجدوا } [طه : 116] يعني : إذكر إذ قُلْنا للملائكة { اسجدوا لأَدَمَ } [البقرة : 34] .

وقبل أن نخوضَ في قصة أبينا آدم عليه السلام يجب أن نشير إلى أنها تكررتْ كثيراً في القرآن ، لكن هذا التكرار مقصود لحكمة ، ولا يعني إعادة الأحداث ، بل هي لقطاتٌ لجوانب مختلفة من الحدَث الواحد تتجمع في النهاية لتعطيك القصة الكاملة من جميع زواياها .

كما أن الهدف من قَصَص القرآن تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه سيمرُّ بكثير من الأحداث والشدائد ، سيحتاج في كل منها إلى تثبيت ، وهذا الغرض لا يتأتَّى إذا سردنا القصة مرة واحدة ، كما في قصة يوسف عليه السلام مثلاً .

قوله تعالى : { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسجدوا لأَدَمَ فسجدوا } [طه : 116] البعض يعترض يقول : كيف تسجد الملائكة لبشر؟ نعم ، هم سجدوا لآدم ، لكن ما سجدوا من عند أنفسهم ، بل بأمر الله لهم ، فالمسألة ليستْ سجوداً لآدم ، بقدر ما هي إطاعة لأمر الله . ولقائل هذا الكلام : أأنت مَلِكيٌّ أكثر من الملك؟ يعني : أأنت ربانيّ أكثر من الربّ؟

وما معنى السجود؟ السجود معناه : الخضوع ، كما جاء في قوله تعالى : { وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى العرش وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدَاً } [يوسف : 100] أي : سجودَ تعظيم وخضوع ، لا سجودَ عبادة .

وآدم عليه السلام هو خليفة الله في الأرض ، لكنه ليس الوحيد عليها ، فعلى الأرض مخلوقات

كثيرة منها المحسّ ، كالشمس والقمر والنجوم والهواء والماء والأرض والجبال ، وكُلّ ما فيه مصلحة لهذا الخليفة ، ومنها ما هو خفيّ كالملائكة التي تدير خفى هذا الكون ، فمنهم الحفظة والكتبة ، ومنهم المكلَّفون بالريح وبالمطر . . إلخ من الأمور التي تخدم الخَلْق . فلا بُدَّ إذن أن يخضع الجميع لهذا المخدوم الآتي .

وقد يحلو للبعض أن يقول : لقد ظَلَمنا آدمُ حين عصى ربه ، فأنزلنا من الجنة إلى الأرض . نقول : يجب أن نفهم عن الله تعالى ، فالحق تبارك وتعالى لم يخلق آدم للجنة التي هي دار الخُلْد ، إنما خلقه ليكون خليفة له في الأرض ، كما قال سبحانه : { إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأرض خَلِيفَةً } [البقرة : 30] .

فأوّل بلاغ من الله عن آدم أنه خالقه للأرض لا للجنة . والجنة ، وإن كانت تُطلَق على دار الخُلْد ودار النعيم الأُخْروي فهي تُطلَق أيضاً على حدائق وبساتين الدنيا ، كما جاء في قول الحق سبحانه :

{ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَابَ الجنة إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ } [القلم : 17] .

وقوله : { واضرب لهُمْ مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ } [الكهف : 32] .

إذن : تُطلَق الجنة على شيء في الدنيا يضمُّ كل ما تطلبه النفس وسمَّوْها الجنة؛ لأنها تستر بشجرها وكثافتها مَنْ يدخل فيها ، أو جنة لأنها تكفي الإنسان ولا تُحوجه إلى شيء غيرها .

فلا تظلموا آدم بأنه أخرجكم من الجنة؛ لأنه لم يكُنْ في جنة الخُلْد ، إنما في مكان أعدَّه الله له ، وأراد أنْ يُعطيه في هذا المكان درساً ، ويُدرّبه على القيام بمهمته في الحياة وخلافته في الأرض .

أرأيتَ ما نفعله الآن من إقامة معسكرات للتدريب في شتى مجالات الحياة ، وفيها نتكفّل بمعيشة المتدرب وإقامته ورعايته .

إنها أماكن مُعدَّة للتدريب على المهام المختلفة : رياضية ، أو علمية ، أو عسكرية . . الخ .

هكذا كانت جنة آدم مكاناً لتدريبه قبل أنْ يباشر مهمته كخليفة لله في الأرض ، فأدخله الله في هذه التجربة العملية التطبيقية ، وأعطاه فيها نموذجاً للتكليف بالأمر والنهي ، وحذَّره من عدوه الذي سيتربص به وبذريته من بعده ، وكشف له بعض أساليبه في الإضلال والإغواء .

وهذه هي خلاصة منهج الله في الأرض ، وما من رسول إلا وجاء بمثل هذا المنهج : أمر ، ونهي ، وتكليف ، وتحذير من الشيطان ووسوسته حتى يُخرِجنا عن أمر الله ونَهْيه .

وبعد هذا (الكورس) التدريبي في الجنة عَلِم آدم بالتطبيق العملي أن الشيطان عدوه ، وأنه سيُغريه ويخدعه ، ثم بعد هذه التجربة أنزله الله ليباشر مهمته في الأرض ، فيكون من عدوه على ذِكْر وحذر .

والبعض يقف طويلاً عند مسألة عصيان آدم : كيف يعصي الله وهو نبي؟ ويذكرون قوله تعالى :

{ وعصى ءَادَمُ رَبَّهُ فغوى } [طه : 121] .

نقول : ما دام أن آدم عليه السلام هو خليفة الله في أرضه ، ومنه أَنْسَالُ الناس جميعاً إلى أنْ تقوم الساعة ، ومن نَسله الأنبياء وغير الأنبياء ، من نسله الرسل والمرسل إليهم . إذن : فهو بذاته يمثل الخَلْق الآتي كله بجميع أنواعه المعصومين وغير المعصومين .

كما أن آدم عليه السلام مرَّ بهذه التجربة قبل أن يُنبأ ، ومَرَّ بها بعد أن نُبيء ، بدليل قوله تعالى : { وعصى ءَادَمُ رَبَّهُ فغوى * ثُمَّ اجتباه رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وهدى } [طه : 121122] .

فكان الاجتباء والعصمة بعد التجريب ، ثم لما أُهبِط آدم وعدوه إلى الأرض خاطبه ربه : { فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ } [البقرة : 38] .

وهكذا بدأت مرحلة جديدة في حياة آدم عليه السلام ، ومثَّل آدم الدَّوْرِيْن : دَوْر العصمة والنبوة بعدما اجتباه ربه ، ودَوْر البشر العادي غير المعصوم والمعرَّض للنسيان وللمخالفة كأيِّ إنسان من أناس الأرض .

ينبغي إذن أن نفهم أن آدم خُلِق للأرض وعمارتها ، وقد هيَّأها الله لآدم وذريته من بعده ، وأعدَّها بكُلِّ مقوِّمات الحياة ومُقوِّمات بقاء النوع ، فمَنْ أراد ترف الحياة فليُعمل عقله في هذه المقوّمات وليستنبط منها ما يريد .

لقد ذكرنا أن في الكون مُلكاً وملكوتاً : المُلْك هو الظاهر الذي نراه ونشاهده ، والملكوت ما خفي عنّا وراء هذا المُلْك ، ومن الملكوت أشياء تؤدي مهمتها في حياتنا دون أنْ نراها ، فمثلاً ظاهرة الجاذبية الأرضية التي تتدخل في أمور كثيرة في حياتنا ، كانت في حجاب الملكوت لا نراها ولا نعرف عنها شيئاً ، ثم لما اهتدتْ إليها العقول و اكتشفتْها عرفنا أن هناك ما يسمى بالجاذبية .

ومن الملكوت الملائكة الموكّلون ، كما قال تعالى : { لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ الله } [الرعد : 11] .

ومنهم الكَتَبة : { مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ } [ق : 18] .

فلما خلق الله آدم ، وخلق الملائكة الموكلين بمصالحه في الأرض أمرهم بالسجود له؛ لأنهم سيكونون في خدمته ، فالسجود طاعة لأمر الله ، وخضوع للخليفة الذي سيعمر الأرض .

وقوله تعالى : { إِلاَّ إِبْلِيسَ أبى } [طه : 116] وفي آية أخرى : { إِلاَّ إِبْلِيسَ استكبر } [ص : 74] .

وقد أوضح الحق سبحانه سبب رَفْض إبليس للسجود لآدم بقوله : { أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ العالين } [ص : 75]

أي : لا سبب لامتناعك إلا الاستكبار على السجود ، أو تكون من العالين . أي : الملائكة

الذين لم يشملهم الأمر بالسجود ، فكأن الأمر كان للملائكة خاصة هم الموكّلون بخدمة آدم ، أمّا العالون فهم الملائكة المهيّمون ، ولا علاقة لهم بآدم ، وربما لا يدرُون به .

ومن الأساليب التي أثارتْ جَدَلاً حول بلاغة القرآن لدى المستشرقون قوله تعالى : { مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ } [ص : 75] وقوله في موضع آخر : { مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ } [الأعراف : 12] فأيُّ التعبيريْن بليغ؟ وإنْ كان أحدهما بليغاً فالآخر غير بليغ .

وهذا كله ناتج عن قصور في فَهْم لغة القرآن ، وعدم وجود الملَكة العربية عند هؤلاء ، فهناك فَرْق بين أنك تريد أن تسجدَ ويأتي مَنْ يقول لك : لا تسجد ، وبين أنْ يُقنعك شخص بألاَّ تسجد . فقوله : { مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ } [ص : 75] كنت تريد السجود وواحد منعك ، وقوله : { مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ } [الأعراف : 12] يعني : أمرك ألاَّ تسجد ، وأقنعك وأنت اقتنعتَ .

ومن المسائل التي أثيرتْ حول هذه القصة : أكان إبليس من الملائكة فشمله الأمر بالسجود؟ وكيف يكون من الملائكة وهم لا يعصُون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون؟ وإذا لم يكُنْ مَلَكاً فماذا أدخله في الأمر؟

ولتوضيح هذه المسألة نقول : خلق الله الثَّقلَيْن : الجن والإنس ، وجعلهم مختارين في كثير من الأمور ، ومقهورين في بعض الأمور ، ليثبت طلاقة قدرته تعالى في خَلْقه ، فإنْ كنتَ مختاراً في أمور التكليف وفي استطاعتك أنْ تطيع أو أنْ تعصي ، فليس من اختيارك أنْ تكون صحيحاً أو مريضاً ، طويلاً أو قصيراً ، فقيراً أو غنياً ، ليس في اختيارك أنْ تحيا أو تموت .

والحق تبارك وتعالى لا يُكلِّفك بافعل كذا ولا تفعل كذا ، إلا إذا خلقك صالحاً للفعل ولعدم الفعل ، هذا في أمور التكليف وما عداه أمور قَهْرية لا اختيارَ لك فيها هي القدريات .

لذلك نقول للذين أَلِفُوا التمرد وتعوَّدوا الخروج على أحكام الله في التكليفات : لماذا لا تتَمردوا أيضاً على القدريات ما دُمْتم قد أَلِفْتم المخالفة؟ إذن : أنت مقهور وعَبْد رَغماً عنك .

لذلك ، إذا كان المختار طائعاً يلزم نفسه بمنهج ربه ، بل ويتنازل عن اختياره لاختيار الله ، فمنزلته عند الله كبيرة ، وهي أفضل من المَلَك ، لأن المَلك يطيع وهو مرغم . ومن هنا يأتي الفرْق بين عباد وعبيد ، فالكل في القهر عبيد ، لكن العباد هم الذين تركوا اختيارهم لاختيار ربهم .

ومن هنا نقول : إن إبليس من الجن ، وليس من الملائكة؛ لأنه أُمِر فامتنع فعُوقِب ، وإنْ كان الأمر في الأصل للملائكة .

وقد حسم القرآن هذه القضية حين قال : { إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجن فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ } [الكهف : 50] وهذا نصٌّ صريح لا جدالَ حوله .

فإنْ قُلْتَ : فلماذا شمله الأمر بالسجود ، وهو ليس مَلَكاً؟

نقول : لأن إبليس قبل هذا الأمر كان طائعاً ، وقد شهد عملية خَلْق آدم ، وكان يُدْعَي « طاووس الملائكة » لأنه ألزم نفسه في الأمور الاختيارية ففاق بذلك الملائكة ، وصار يزهو عليهم ويجلس في مجلسهم ، فلما جاء الأمر للملائكة بالسجود لآدم شمله الأمر ولزمه من ناحيتين :
الأولى : إنْ كان أعلى منهم منزلةً وهو طاووسهم الذي ألزم نفسه الطاعة رغم اختياره فهو أَوْلَى بطاعة الأمر منهم ، ولماذا يعصي هذا الأمر بالذات؟
الأخرى : إنْ كان أقلّ منهم ، فالأمر للأعلى لا بُدَّ أنْ يشمل الأدنى ، كما لو أمرتَ الوزراء مثلاً بالقيام لرئيس الجمهورية ، وبينهم وكلاء ومديرون ، فطبيعيٌّ أنْ يشملهم الامر .

ثم يقول الحق : { فَقُلْنَا يآءَادَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَّكَ }

فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (117)

قوله تعالى : { وَلِزَوْجِكَ } [طه : 117] كلمة الزوج لا تعني اثنين كما يظن البعض ، الزوج فرد واحد معه مثله ، فليس صحيحاً أن نقول : توأم إنما توأمان ، فكل منهما توأم للآخر؛ لذلك يقول تعالى : { وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ } [الذاريات : 49] .
مَلْحَظ آخر في قوله تعالى : { فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجنة } [طه : 117] الخطاب لآدم وزوجه يُحذِّرهما من إغواء إبليس وكَيْده ، ثم يقول { فتشقى } [طه : 117] بصيغة الإفراد ، ولم يقُل : فتشقيَا . لماذا؟ لأن مسئولية الكَدْح والحركة للرجل أمَّا المرأة فهي السكن المريح المنشِّط لصاحب الحركة ، على خلاف ما نرى في مجتمعنا من الحرص على عمل المرأة بحجة المساعدة في تبعات الحياة .

إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (118)

فقد أعددْتُ لك الجنة ، وجعلتُ لك فيها كل ما تحتاجه ، وأبَحْتُ لك كل نعيمها ونهيتُك عن شيء واحد منها ، ولك علينا { أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تعرى } [طه : 118] فلن تجوع فيها؛ لأن فيها كل الثمرات { وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا } [البقرة : 35] .
ونلحظ هنا أن الله تعالى تكفَّل لهما بشيء ظاهر يُلبِّي غريزة ظاهرة هي اللباس والتستُّر ، وغريزة باطنة هي غريزة الطعام .
ثم يقول الحق سبحانه : { وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا }

وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى (119)

(تظمأ) يعني : تعطش ، و (تضحى) : أي : لا تتعرض لحرارة الشمس اللافحة ، فتكفّل لهما ربهما أيضاً بغريزة باطنة هي العطش ، وغريزة ظاهرة هي ألاَّ تلفحك حرارة الشمس .
ثم يقول الحق تبارك وتعالى : { فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشيطان }

فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى (120)

نلحظ أن الحق سبحانه اختار لعمل الشيطان اسماً يناسب الإغراء بالشيء ، وهي كلمة (الوَسْوَسة) هي في الأصل صوت الحليّ أي : الذهب الذي تتحلَّى به النساء ، كما نقول : نقيق الضفادع ، وصهيل الخيل ، وخُوار البقر ، ونهيق الحمير ، وثغاء الشاة ، وخرير الماء ، وحفيف الشجر .
وكذلك الوسوسة اسم لصوت الحليّ الذي يجذب الأسماع ، ويُغرِي بالتطلع إليه ، وكأن الحق سبحانه يُحذِّرنا أن الشيطان سيدخل لنا من طريق الإغراء والتزيين .
فما الذي وَسوس به إلى آدم؟
{ قَالَ ياآدم هَلْ أَدُلُّكَ على شَجَرَةِ الخلد وَمُلْكٍ لاَّ يبلى } [طه : 120] .
ونعجب لإبليس : ما دُمْت تعرف شجرة الخُلْد والمُلْك الذي لا يبلى ، لماذا لم تأكل أنت منها وتحوز هذه الميزة؟

فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (121)

أي : بعد أن أكلا من هذه الشجرة ظهرتْ لهما سوءآتهما ، والسَّوْأة هي العورة أي : المكان الذي يستحي الإنسان أن ينكشف منه ، والمراد القُبُل والدُّبُر في الرجل والمرأة . ولكل من القُبل والدُّبر مهمة ، وبهما يتخلص الجسم من الفضلات ، الماء من ناحية الكُلى والحالب والمثانة عن طريق القُبل ، وبقايا وفضلات الطعام الناتجة عن حركة الهَضْم وعملية الأَيْض ، وهذه تخرج عن طريق الدُّبُر .
لكن ، متى أحسَّ آدم وزوجه بسوءاتهما ، أبعد الأكل عموماً من شجر الجنة ، أم بعد الأكل من هذه الشجرة بالذات؟
الحق تبارك وتعالى رتَّب ظهور العورة على الأكل من الشجرة التي نهاهما عنها { فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا } [طه : 121] فقبْل الأكل من هذه الشجرة لم يعرفا عورتيهما ، ولم يعرفا عملية الإخراج هذه؛ لأن الغذاء كان طاهيه ربُّه ، فيعطي القدرة والحياة دون أن يخلف في الجسم أيَّ فضلات .

لكن ، لما خالفوا وأكلوا من الشجرة بدأ الطعام يختمر وتحدث له عملية الهضم التي نعرفها ، فكانت المرة الأولى التي يلاحظ فيها آدم وزوجه مسألة الفضلات ، ويلتفتان إلى عورتيهما : ما هذا الذي يخرج منها؟

وهنا مسألة رمزية ينبغي الالتفات إليها ، فحين ترى عورة في المجتمع فاعلم أن منهجاً من مناهج الله قد عُطل .

إذن : لم يعرف آدم وزوجه فضلات الطعام وما ينتج عنه من ريح وأشياء مُنفِّرة قذرة إلا بعد المخالفة ، وهنا تحيَّرا ، ماذا يفعلان؟ ولم يكن أمامهما إلا ورق الشجر { وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الجنة } [طه : 121] .

أي : أخذا يلصقان الورق على عورتيهما لسترها هكذا بالفطرة ، وإلا ما الذي جعل هاتين الفتحتين عورة دون غيرهما من فتحات الجسم كالأنف والفم مثلاً؟

قالوا : لأن فَتْحتيْ القُبُل والدُّبُر يخرج منهما شيء قذر كريه يحرص المرء على سَتْره ، ومن العجيب أن الإنسان وهو حيوان ناطق فضَّله الله ، وحين يأكل يأكل باختيار ، أمّا الحيوان فيأكل بغريزته ، ومع ذلك يتجاوز الإنسان الحد في مأكله ومشربه ، فيأكل أنواعاً مختلفة ، ويأكل أكثر من حاجته ويأكل بعدما شبع ، على خلاف الحيوان المحكوم بالغريزة .

ولذلك ترى رائحة الفضلات في الإنسان قذرة مُنفّرة ، ولا فائدة منها في شيء ، أما فضلات الحيوان فلا تكاد تشمُّ لها رائحة ، ويمكن الاستفادة منها فيجعلونها وقوداً أو سماداً طبيعياً . وبعد ذلك نتهم الحيوان ونقول : إنه بهيم . . إلخ .

وقوله تعالى : { وعصى ءَادَمُ رَبَّهُ فغوى } [طه : 121] أي : فيما قبل النبوة ، وفي مرحلة التدريب ، والإنسان في هذه المرحلة عُرْضة لأنْ يصيب ، ولأنْ يخطىء ، فإنْ أخطأ في هذه المرحلة لا تضربه بل تُصوِّب له الخطأ . كالتلميذ في فترة الدراسة ، إنْ أخطأ صوَّب له المعلم ، أما في الامتحان فيحاسبه .

ومعنى : { فغوى } [طه : 121] يعني : لم يُصِبْ الحقيقة ، كما يقولون لمن تاه في الصحراء غاوٍ أي : تائه . ثم تأتي المرحلة الأخرى : مرحلة العِصْمة .

ثم يقول الحق سبحانه : { ثُمَّ اجتباه رَبُّهُ }

ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (122)

إذن : مثَّل آدم دَوْر الإنسان العادي الذي يطيع ويعصي ، ويسمع كلام الشيطان ، لكن ربه شرعَ له التوبة كما قال سبحانه : { فتلقى ءَادَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ } [البقرة : 37] .

إذن : عصى آدم وهو إنسان عادي وليس وهو نبي كما يقول البعض .

فقوله : { ثُمَّ اجتباه } [طه : 122] هذه بداية لمرحلة النبوة في حياة آدم عليه السلام ، و (

ثُمَّ) تعني الترتيب مع التراخي { اجتباه } [طه : 122] اصطفاه ربه .
ولم يقل الحق سبحانه : ثم اجتباه الله ، إنما { اجتباه رَبُّهُ } [طه : 122] لأن الرب المتولي للتربية والرعاية ، ومن تمام التربية الإعداد للمهمة ، ومن ضمن إعداد آدم لمهمته أنْ يمرَّ بهذه التجربة ، وهذا التدريب في الجنة .
{ وهدى } [طه : 122] المراد بالهداية قوله : { قَالَ اهبطا مِنْهَا جَمِيعاً }

قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123)

أي : اهبطا إلى الأرض وامضوا فيها على ضوء التجربة الماضية ، واعلما أن هناك أمراً ونهياً وعدواً يوسوس ويُزيِّن ويُغوِي حتى يظهر عوراتكم ، وكأنه عز وجل يعطي آدم المناعة الكافية له ولذريته من بعده لتستقيم لهم حركة الحياة في ظل التكاليف؛ لأن التكاليف إما أمر وإما نهي ، والشيطان هو الذي يفسد علينا هذه التكاليف .
ومع ذلك لا ننسى طَرَفاً آخر هو النفس الأمَّارة التي تُحرِّكك نحو المعصية والمخالفة . إذن : ليس عدوك الشيطان فحسب فتجعله شماعة تُعلّق عليها كل معاصيك ، فهناك مَعَاصٍ لا يدخل عليك الشيطان بها إلا عن طريق النفس ، وإلا إبليس لما غوى؟ مَنْ أغواه؟ ومَنْ وسوس له؟
وقوله : { اهبطا } [طه : 123] بصيغة التثنية أمر لاثنين : آدم مطمور فيه ذريته ، وإبليس مطمور فيه ذريته ، فقوله : { اهبطا } [طه : 123] إشارة إلى الأصل ، وقوله في موضع آخر : { اهبطوا } [البقرة : 38] إشارة إلى ما يتفرّع عن هذا الأصل .
وقوله : { بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ } [البقرة : 36] أي : بعض عدو للبعض الآخر ، وكلمة (بعض) لها دَوْر كبير في القرآن ، والمراد : أنت عدو الشيطان إنْ كنتَ طائعاً ، والشيطان عدوك إنْ كنتَ طائعاً . فإنْ كنتَ عاصياً فلا عداوة إذن؛ لأن الشيطان يريدك عاصياً . وحين لا يُعيِّن البعض تكون العداوة متبادلة ، فالبعض شائع في الجميع .
كما في قوله تعالى : { أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الحياة الدنيا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ } [الزخرف : 32] فمَن المرفوع؟ ومَنْ المرفوع عليه؟
أصحاب النظرة السطحية يفهمون أن الغنيَّ مرفوع على الفقير .
والمعنى أوسع من هذا بكثير ، فكُلُّ الخَلْق بالنسبة للحق سبحانه سواء ، ومهمات الحياة تحتاج قدرات كثيرة ومواهب متعددة؛ لذلك لا تتجمع المواهب في شخص ، ويُحرم منها آخر ، بل ينشر الخالق عز وجل المواهب بين خَلْقه ، فهذا ماهر في شيء ، وذاك ماهر في شيء آخر ، وهكذا ليحتاج الناس بعضهم لبعض ، ويتم الربْط بين أفراد المجتمع ، ويحدث بينهما الانسجام اللازم لحركة الحياة .

إذن : كُلُّ بعض في الوجود مرفوع في شيء ، ومرفوع عليه في شيء آخر ، فليكُنْ الإنسان مُؤدَّباً في حركة حياته لا يتعالى على غيره لأنه نبغ في شيء ، ولينظر إلى ما نبغ فيه الآخرون ، وإلى ما تميَّزوا به حتى لا يسخَر قوم من قوم ، عسى أن يكونوا خيراً منهم ، وربما لديهم من المواهب ما لم يتوفّر لك .

لكن ما دام بعضكم لبعض عدواً أي : آدم مطمور فيه ذريته ، وإبليس مطمور فيه ذريته ، فَمنْ سيكون . الحَكَم؟ الحَكَم بينهما منهج الله : { فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى } [طه : 123] فإياكم أنْ تجعلوا الهدى من عندكم؛ لأن الهدى إنْ كان من عندكم فلن ينفع ولن يفلح .

{ فَمَنِ اتبع هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يشقى } [طه : 123] فكأن هدى الله ومنهجه هو (كتالوج) سلامة الإنسان وقانون صيانته . ألاَ ترى الصانع من البشر حين يرفق بصنعته (كتالوجاً) يضم تعليمات عن تشغيلها وصيانتها ، فإن اتبعتَ هذه التعليمات خدمتْك هذه الآلة وأدَّتْ لك مهمتها دون تعطّل .

وكما أن هذا (الكتالوج) لا يضعه إلا صانع الآلة ، فكذلك الخالق عز وجل لا يضع لخَلْقه قانونهم وهَدْيَهم إلا هو سبحانه ، فإنْ وضعه آخر فهذا افتئات على الله عز وجل ، وكما لو ذهبتَ إلى الجزار تقول له : ضَعْ لي التعليمات اللازمة لصيانة (الميكروفون) !!

إذن : الفساد في الكون يحدث حينما نخرج عن منهج الله ، ونعتدى على قانونه وتشريعه ، ونرتضي بَهَدْي غير هَدْيه؛ لذلك يقول تعالى بعدها : { فَمَنِ اتبع هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يشقى } [طه : 123] فإنْ كانت هذه نتيجة مَنِ اتبع هدى الله وعاقبة السير على منهجه تعالى ، فما عاقبة مَنْ أعرض عنه؟ { وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي }

وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124)

والإعراض : هو الانصراف ، وأن تعطيه عَرْض أكتافك كما ذكرنا من قبل .

وقوله : { مَعِيشَةً ضَنكاً } [طه : 124] الضنْك هو الضيق الشديد الذي تحاول أنْ تُفلتَ منه هنا أو هناك فلا تستطيع ، والمعيشة الضَّنْك هذه تأتي مَنْ أعرض عن الله ، لأن مَنْ آمن بإله إنْ عَزَّتْ عليه الأسباب لا تضيق به الحياة أبداً؛ لأنه يعلم أن له ربّاً يُخرِجه مما هو فيه .

أما غير المؤمن فحينما تضيف به الأسباب وتُعجِزه لا يجد مَنْ يلجأ إليه فينتحر . المؤمن يقول : لي ربٌّ يرزقني ويُفرّج كَرْبي ، كما يقول عز وجل : { الذين آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ الله أَلاَ بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ القلوب } [الرعد : 28] .

لذلك يقولون : لا كَرْب وأنت رَبٌّ ، وإذا كان الولد لا يحمل هَمّاً في وجود أبيه فله أبٌ يكفيه متاعب الحياة ومشاقها ، فلا يدري بأزمات ولا غلاء أسعار ، ولا يحمل هَمَّ شيء ، فما بالُكَ بمَنْ

له رَبٌّ؟

وسبق أنْ ضربنا مثلاً ولله المثل الأعلى ، قلنا : هَبْ أن معك جنيهاً ثم سقط من جيبك ، أو ضاع منك فسوف تحزن عليه إنْ لم يكُنْ معك غيره ، فإنْ كان معك غيره فلن تحزن عليه ، فإن كان لديك حساب في البنك فكأن شيئاً لم يحدث . وهكذا المؤمن لديه في إيمانه بربه الرصيد الأعلى الذي يُعوِّضه عن كل شيء .

والحق تبارك وتعالى أعطانا مثالاً لهذا الرصيد الإيماني في قصة موسى عليه السلام مع فرعون ، حينما حُوصِر موسى وقومه بين البحر من أمامهم وفرعون بجنوده من خلفهم ، وأيقن القوم أنهم مُدْركون ، ماذا قال نبي الله موسى؟

قال : { كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ } [الشعراء : 62] هكذا بملْء فيه يقولها قَوْلةَ الواثق مع أنها قَوْلة يمكن أن تكذب بعد لحظات ، لكنه الإيمان الذي تطمئن به القلوب ، والرصيد الذي يثِقُ فيه كُلُّ مؤمن .

إذن : مَنْ آمن بالله واتبع هُدَاه فلن يكون أبداً في ضَنْكٍ أو شِدَّة ، فإنْ نزلت به شِدَّة فلن تُخرِج عَزْمه عن الرضى ، واللجوء إلى ربه .

ومن آيات الإعجاز القرآني في مسألة الضيق ، قوله تعالى : { فَمَن يُرِدِ الله أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السمآء } [الأنعام : 125] .

فمن أين عرف محمد صلى الله عليه وسلم أن مَنْ يصعِّد في السماء يضيق صدره؟ وهل صَعَد أحد إلى السماء في هذا الوقت وجَرَّب هذه المسألة؟ ومعنى ضيق الصدر أن حيِّز الرئة التي هي آلة التنفس يضيق بمرض أو مجهود زائد أو غيره ، ألاَ ترى أنك لو صعدتَ سُلَّماً مرتفعاً تنهج ، معنى ذلك أن الرئة وهي خزينة الهواء لا تجد الهواء الكافي الذي يتناسب والحركة المبذولة ، وعندها تزداد حركة التنفس لتُعوِّض نَقْص الهواء .

والآن وبعد غزو الفضاء عرفنا مسألة ضيق التنفّس في طبقات الجو العليا مما يضطرهم إلى أخذ أنابيب الأكسجين وغيرها من آلات التنفس .

قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (125)

وكلمة { أعمى } [طه : 125] جاءت في قوله تعالى : { وَمَن كَانَ فِي هذه أعمى فَهُوَ فِي الآخرة أعمى وَأَضَلُّ سَبِيلاً } [الإسراء : 72] .

والمراد بالعَمَى ألاَّ تُدرِكَ المبصَرات ، وقد توجد المبصَرات ولا تتجه لها بالرؤية ، فكأنك أعمى لا ترى ، وكذلك المعرِض عن الآيات الذي لا يتأملها ، فهو أعمى لا يراها .

لذلك في الآخرة يقول تعالى : { وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القيامة على وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً } [

الإسراء : 97] فساعةَ يُبعَث الكافرون يُفزَّعون بالبعث الذي كانوا ينكرونه ويضطربون اضطراباً ، يحاول كل منهم أن يرى منفذاً وطريقاً للنجاة ، ولكن هيهات ، فقد سلبهم الله منافذ الإدراك كلها ، وسَدَّ في وجوههم كل طرق النجاة ، والإنسان يهتدي إلى طريقه بذاته وبعيونه ، فإنْ كان أعمى أمكنه أنْ ينادي على مَنْ يأخذ بيده ، فإنْ كان أيضاً أبكم ، فلربما سمع مَنْ يناديه ويُحذره ويُدِله ، فإنْ كان أصمَّ لا يسمع؟

إذن : سُدَّتْ أمامه كل وسائل النجاة ، فهو أعمى لا يبصر النجاة بذاته ، وأبكم لا يستطيع أنْ يستغيث بمَنْ ينقذه ، وهو أيضاً أصمّ لا يسمع مَنْ يتطوع بإرشاده أو تحذيره .

وقد وجد كثير من المشككين في هذه الآية شيئاً ظاهرياً يطعنون به على أسلوب القرآن ، حيث يقول هنا : { قَالَ رَبِّ لِمَ حشرتني أعمى } [طه : 125] وفي موضع آخر يقول : { وَرَأَى المجرمون النار فظنوا أَنَّهُمْ مُّوَاقِعُوهَا } [الكهف : 53] فنفى عنهم الرؤية في آية ، وأثبتها لهم في آية أخرى .

وفاتَ هؤلاء المتمحّكين أَن الإنسانَ بعد البعث يمرُّ بمراحل عِدَّة : فساعةَ يُحشرون من قبورهم يكونون عُمْياً حتى لا يهتدوا إلى طريق النجاة ، لكن بعد ذلك يُريهم الله بإيلام آخر ما يتعذبون به من النار .

وهذا الذي حآق بهم كِفَاءٌ لما صنعوه ، فقد قدَّموا هم العمى والصمم والبكم في الدنيا ، فلما دعاهم الرسول إلى الله صَمُّوا آذانهم ، واستغشوا ثيابهم .

قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (126)

أي : نعاملك كما عاملتنا ، فننساك كما نسيت آياتنا .

والآيات جمع آية ، وهي الأمر العجيب ، وتُطلق على الآيات الكونية التي تلفت إلى المكوِّن سبحانه ، وتُطلَق على المعجزات التي تؤيد الرسل ، وتثبت صِدْق بلاغهم عن الله ، وإنْ كانت الآيات الكونية تُلفِت إلى قدرة الخالق عز وجل وحكمته ، فالرسول هو الذي يدلُّ الناس على هذه القوة ، وعلى صاحب هذه الحكمة والقدرة التي يبحث عنها العقل .

أيها المؤمنون هذه القوة هي الله ، والله يريد منك كذا وكذا ، فإنْ أطعتَه فَلَك من الأجر كذا وكذا ، وإنْ عصيتَه فعقابك كذا وكذا ، ثم يؤيد الرسول بالمعجزات التي تدلُّ على صِدْقه في البلاغ عن ربه .

وتُطلَق الآيات على آيات الكتاب الحاملة للأحكام وللمنهج .

وأنت كذَّبْتَ بكل هذه الآيات ولم تلتفت إليها ، فلما نسيت آيات الله كان جزاءَك النسيان جزاءً وفَاقاً . والنسيان هنا يعني الترك ، وإلا فالنسيان الذي يقابله الذكر مُعْفىً عنه ومعذور صاحبه .

أما قوله : { وكذلك اليوم تنسى } [طه : 126] أي تُنسَى في النعيم وفي الجنة ، لكنك لا تُنسى في العقاب والجزاء .

ثم يقول الحق سبحانه : { وكذلك نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ }

وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (127)

قوله تعالى : {كذلك } [طه : 127] أي : مثل هذا الجزاء { نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ } [طه : 127] والإسراف : تجاوز الحدِّ في الأمر الذي له حَدٌّ معقول ، فالأكْل مثلاً جعله الله لاستبقاء الحياة ، فإنْ زاد عن هذا الحدِّ فهو إسراف .

دَخْلك الذي يسَّره الله لك يجب أن تنفق منه في حدود ، ثم تدَّخر الباقي لترقى به في الحياة ، فإنْ أنفقتَه كله فقد أسرفْتَ ، ولن تتمكن من أن تُرقِّي نفسك في ترف الحياة .

ولذلك يقول الحق سبحانه : { إِنَّ المبذرين كانوا إِخْوَانَ الشياطين } [الإسراء : 27] .

وللإسلام نظرته الواعية في الاقتصاديات ، فالحق يريد منك أنْ تنفق ، ويريد منك ألاَّ تُسرِف وبين هذين الحدَّيْن تسير دَفّة المجتمع ، ويدور دولاب الحياة ، فإنْ بالغتَ في حَدٍّ منهما تعطلتْ حركة الحياة ، وارتبك المجتمع وبارت السلع .

وقد أوضح الحق سبحانه هذه النظرة في قوله : { والذين إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً } [الفرقان : 67] .

فربُّك يريد منك أنْ تجمع بين الأمرين؛ لأن التقتير والإمساك يُعطِّل حركة الحياة ، والإسراف يُجمِّد الحياة ويحرمك من الترقي ، والأخذ بأسباب الترف؛ لذلك قال تعالى : { فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً } [الإسراء : 29] .

وقد يكون الإسراف من ناحية أخرى : فربُّك عز وجل خلقك ، وخلق لك مُقوِّمات حياتك ، وحدَّد لك الحلال والحرام ، فإذا حاولتَ أنت أنْ تزيد في جانب الحلال مما حرمه الله عليك ، فهذا إسراف منك ، وتجاوز للحدِّ الذي حَدَّه لك ربك ، وتجاوزتَ فيما أحلَّ لك ، وفيما حرَّم عليك .

وقد يأتي الإسراف من ناحية أخرى : فالشيء في ذاته قد يكون حلالاً ، لكن أنت تأخذه من غير حِلّة .

فإذا نقلنا المسألة إلى التكاليف وجدنا أن الله تعالى أحلَّ أشياء وحرَّم أشياء ، فلا تنقل شيئاً مما حُرِّم إلى شيء أحلَّ ، ولا شيئاً مما أُحلَّ إلى شيء حُرِّم ، كما قال سبحانه : { قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ الله التي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرزق } [الأعراف : 32] .

وخاطب نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله : { ياأيها النبي لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ الله لَكَ } [التحريم : 1] .

إذن : فربّك لا يُضيّق عليك ، وينهاك أنْ تُضيّق على نفسك وتُحرّم عليها ما أحلَّ لها ، كما يلومك على أنْ تُحلّل ما حرّم عليك لأن ذلك في صالحك .

وكما يكون الإسراف في الطعام والشراب وهما من مُقوّمات استبقاء الحياة ، يكون كذلك في استبقاء النوع بالزواج والتناسل ، إلى أنْ تقوم الساعة ، فجعل الحق سبحانه للممارسة الجنسية حدوداً تضمن النسل والاستمتاع الحلال ، فمَنْ تعدَّى هذه الحدود فقد أسرف .

ومن رحمته تعالى أنه يغفر لِمنْ أسرف على نفسه شريطةَ أن يكون مؤمناً : { قُلْ ياعبادي الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ الله } [الزمر : 53] .

وقوله تعالى : { وكذلك نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ } [طه : 127] فأنزل الإسراف منزلةَ تالية لعدم الإيمان؛ لذلك قال بعدها : { وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّه } [طه : 127] لأنه حين ينقل الحلال إلى الحرام ، أو الحرام إلى الحلال ، فكأنه عطّل آيات الله .

ثم يقول تعالى : { وَلَعَذَابُ الآخرة أَشَدُّ وأبقى } [طه : 127] إذن : فالكلام هنا عن الدنيا ، فلا تظن أن الله يُؤخِّر للكافر كُلَّ العذاب ، فهناك أشياء تُعجِّل له في الدنيا لا تُؤخِّر .

وأول مَا لا يُؤخِّر ويُعجل الله به في الدنيا عقوبة الظلم ، فلا يمكن أنْ يموتَ الظالم قبل أن يرى المظلوم ما صنعه الله به ، وإلاّ فالذين لا يؤمنون بالقيامة ولا بالجزاء كانوا فجروا في الخَلْق وَعاثُوا في الأرض ، فمن حكمة الله أن نرى لكل ظالم مصرعاً حتى تستقيم حركة الحياة ، ولو لم يكُنْ الإنسان مؤمناً .

والحق سبحانه حين يريد أنْ يُعذِّب يتناسب تعذيبه مع قدرته تعالى ، كما أن ضربة الطفل غير ضربة الشاب القوي . إذن : مَا يناله من عذاب في الحياة هين لأنه من الناس ، أمّا عذاب الآخرة فشيء آخر؛ لأنه عذاب من الله يتناسب مع قدرته تعالى .

{ وَلَعَذَابُ الآخرة أَشَدُّ وأبقى } [طه : 127] أبْقَى؛ لأن عذاب الدنيا ينتهي بالموت ، أو بأن يرضى عنك المعذَّب ويرحمك ، وقد يتوسط لك أحد فيزيل عنك العذاب ، أمّا في الآخرة فلا شيء من ذلك ، ولا مفرَّ من العذاب ولا مَلْجأ .

ثم يقول الحق سبحانه : { أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ }

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (128)

الهداية : الدلالة والبيان ، وتهديه أي : تدلّه على طريق الخير . والاستفهام في { أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ } [طه : 128] والاستفهام يَرِد مرة لتعلم ما تجهل ، أو يرد للتقرير بما فعلتَ .

فالمراد : أفلم ينظروا إلى الأمم السابقة وما نزل بهم لما كَذَّبوا رسُل الله؟ كما قال في آية أخرى :

{ وَإِنَّكُمْ لَّتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ } [الصافات : 137] .

وقال سبحانه : { والفجر * وَلَيالٍ عَشْرٍ * والشفع والوتر * والليل إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ * أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ العماد * التي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البلاد * وَثَمُودَ الذين جَابُواْ الصخر بالواد * وَفِرْعَوْنَ ذِى الأوتاد } [الفجر : 110] .

أَلاَ تروْنَ كل هذه الآيات في المكذبين؟ ألاَ ترون أن الله ناصرُ رسُلَه؟ ولم يكُنْ سبحانه ليبعثهم ، ثم يتخلى عنهم ، ويُسلمهم ، كما قال سبحانه : { وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون } [الصافات : 173] وقال : { وَلَيَنصُرَنَّ الله مَن يَنصُرُهُ } [الحج : 40] .

وبعد هذا كله يُعرِض المكذبون ، وكأنهم لم يروا شيئاً من هذه الآيات .

وساعة ترى (كَمْ) فاعلم أنها للشيء الكثير الذي يفوق الحصر ، كما تقول لصاحبك : كم أعطيتُك ، وكم ساعدتُك . أي : مرات كثيرة ، فكأنك وكلته ليجيب هو بنفسه ، ولا تستفهم منه إلا إذا كان الجواب في صالحك قطعاً .

فمعنى { أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ } [طه : 128] يعني : يُبيّن لهم ويدُّلهم على القرى الكثيرة التي كذَّبت رسلها ، وماذا حدث لها وحاق بها من العذاب ، وكان عليهم أنْ يتنبهوا ويأخذوا منهم عِبرة ولا ينصرفوا عنها .

وقوله تعالى : { يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ } [طه : 128] كقوله : { وَإِنَّكُمْ لَّتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ } [الصافات : 137] فليس تاريخاً يُحكَى إنما واقع ماثل تروْنَه بأعينكم ، وتسيرون بين أطلاله { إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النهى } [طه : 128] أي : عجائب لمَنْ له عقل يفكر .

وكلمة (النُّهَى) جمع نُهية ، وهي العقل ، وهذه الكلمة تحلُّ لنا إشكالات كثيرة في الكفر ، فالبعض يظن أن الله تعالى خلق لنا العقل لنرتع به في مجالات الفكر كما نشاء ، وننفلت من كل القيود .

إنما العقل من العقال الذي يُعقَل به البعير حتى لا ينفلتَ منك ، وكذلك عقلُك يعقِلك ، ويُنظِّم حركتك حتى لا تسير في الكون على هَواك ، عقلك لتعقل به الأمور فتقول : هذا صواب ، وهذا خطأ . قبل أن تُقدِم عليه .

فالسارق لو عقل ما يفعل ما أقدمَ على سرقة الناس ، وما رأيك لو أبحنا للناس جميعاً أنْ يسرقوك ، وأنت فرد ، وهم جماعة؟

الحق ساعةَ يعقل بصرك أنْ يمتدَّ لما حرم عليك فلا تقُلْ : ضيق عليَّ ، لأنه أمر الآخرين أنْ يغضُّوا أبصارهم عن محارمك ، والغير أكثر منك ، إذن : فأنت المستفيد . فإنْ أردتَ أن تُعربد في أعراض الناس ، فأبِح لهم أن يُعربِدوا في أعراضك .

« والنبي صلى الله عليه وسلم لما جاءه شاب يشكو عدم صبره على غريزة الجنس ، يريد أن يبيح له الزنا والعياذ بالله ، فأراد صلى الله عليه وسلم أن يُلقِّنه درساً يصرفه عن هذه الجريمة ، فماذا قال له؟

قال : » يا أخا العرب ، أتحب هذا لأمك؟ أتحب هذا لأختك؟ أتحب هذا لزوجتك؟ « والشاب يقول في كل مرة : لا يا رسول الله جُعِلْتُ فداك . ولك أنْ تتصوَّر ماذا ينتاب الواحد منّا إنْ سمع سيرة أمه وأخته وزوجته في هذا الموقف .

ثم يقول صلى الله عليه وسلم للشاب بعد أن هزَّه هذه الهزة العنيفة : » كذلك الناس لا يحبون لذلك لأمهاتهم ، ولا لزوجاتهم ، ولا لأخواتهم ، ولا لبناتهم .

وهنا قال الشاب : « فو الله ما همَّتْ نفسي لشيء من هذا إلا وذكرتُ أمي وزوجتي وأختي وابنتي » .

إذن : فالعقل هو الميزان ، وهو الذي يُجري المعادلة ، ويُوازِن بين الأشياء ، وكذلك إنْ جاء بمعنى النُّهى أو اللُّب فإنها تؤدي نفس المعنى : فالنُّهي من النهي عن الشيء ، واللب أي : حقيقة الشيء وأصله ، لا أنْ يكون سطحيّ التفكير يشرد منك هنا وهناك .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ }

وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى (129)

الكلام عن آيات الله في المكذبين للرسل وما حاق بهم من العذاب وقد مَرَّ عليها القوم دون أن يعتبروا بها ، أو يرتدعوا ، أو يخافوا أن تكون نهايتهم كنهاية سابقيهم ، وربما قال هؤلاء القوم : ها نحن على ما نحن عليه دون أن يصيبنا شيء من العذاب : لا صَعْق ولا مَسْخ ولا ريح ، فبماذا تهددنا؟

لذلك يوضح لهم الحق سبحانه وتعالى هذه المسألة : ما منعنا أنْ نفعل بكم ما فعلنا بسابقيكم من المكذبين بالرسل ، ما منعنا من إذلالكم وتدميركم إلا شيء واحد هو كلمة سبقتْ من الله .

{ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى } [طه : 129] .

فما هذه الكلمة التي سبقتْ من الله ، ومنعتْ عنهم العذاب؟

المراد بالكلمة قوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : { وَمَا كَانَ الله لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ الله مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ } [الأنفال : 33] .

فهذه الكلمة التي سبقت مني هي التي منعتْ عنكم عذابي ، والرسول صلى الله عليه وسلم يوضح هذه المسألة فيقول : « بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم مَنْ يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً » .

فإنْ قال قائل : الله يهدد الذين كذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم بأنْ يُنزل بهم ما أنزل بالمكذِّبين

من الأمم السابقة ، وها هم كفار مكة يُكذّبون رسول الله دون أن يحدث لهم شيء .
نقول : لأن لهم أمانين من العذاب ، الكلمة التي سبقتْ ، والأجل المسمّى عند الله { وَأَجَلٌ مُّسَمًّى } [طه : 129] فلكل واحد أَجَلٌ معلوم .
معنى : { لَكَانَ لِزَاماً } [طه : 129] أي : لزم لزاماً أنْ يحيق بهم ما حاقَ بالأمم السابقة .
ثم يقول الحق سبحانه : { فاصبر على مَا يَقُولُونَ }

فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (130)

فما دام أن القوم يُكذِّبون رسول الله ، وهم في مأمن من العذاب ، فلابُدَّ أن يتمادوا في تكذيبهم ، ويستمروا في عنادهم لرسول الله؛ لذلك يتوجه الحق سبحانه وتعالى إلى الناحية الأخرى فيعطي رسوله صلى الله عليه وسلم المناعة اللازمة لمواجهة هذا الموقف { فاصبر على مَا يَقُولُونَ } [طه : 130] لأن لك بكل صبر أجراً يتناسب مع ما تصبر عليه .
والصبر قد يكون مَيْسوراً سهلاً في بعض المواقف ، وقد يكون شديداً وصَعْباً ويحتاج إلى مجاهدة ، فمرَّة يقول الحق لرسوله : اصبر . ومرة يقول : اصطبر .
فما الأقوال التي يصبر عليها رسول الله؟ قولهم له : ساحر . وقولهم : شاعر وقولهم : مجنون وكاهن ، كما قالوا عن القرآن : أضغاث أحلام . وقالوا : أساطير الأولين . فاصبر يا محمد على هذا كله؛ لأن كلَّ قوله من أقوالهم تحمل معها دليل كذبهم .
فقولهم عن رسول الله : ساحر ، فمَن الذي سَحَره رسول الله؟ سحر المؤمنين به ، فلماذا إذن لم يسحرْكم أنتم أيضاً ، وتنتهي المسألة . إذن : بقاؤكم على عناده والكفر به دليل براءته من هذه التهمة .
وقولهم : شاعر ، كيف وهم أمة صناعتها الكلام ، وفنون القول شعره ونثره ، فكيف يَخْفي عليهم أسلوب القرآن؟ والشعر عندهم كلام موزون ومُقفَى ، فهل القرآن كذلك؟ ولو جاء هذا الاتهام من غيركم لكان مقبولاً ، أما أنْ يأتيَ منكم أنتم يا مَنْ تجعلون للكلام أسواقاً ومعارض كمعارض الصناعات الآن ، فهذا غير مقبول منكم .
وسبق أنْ قلنا : إنك إذا قرأتَ مقالاً مثلاً ، ومَرَّ بك بيت من الشعر تشعر به وتحسُّ أذنك أنك انتقلتَ من نثر إلى شعر ، أو من شعر إلى نثر . فخُذْ مثلاً قول ابن زيدون :
« هذا العَذْل محمود عواقبه ، وهذه النَّبْوة غمرة ثم تنجلي ، ولن يريبني من سيدي أنْ أبطأ سَيْبه ، أو تأخر غير ضنين غناؤه ، فأبطأ الدِّلاء فَيْضا أملؤها ، وأثقل السحائب مشياً أحفلها . ومع اليوم غد ، ولكل أجل كتاب ، له العتب في احتباله ، ولا عتبَ عليه في اغتفاله .
فَإنْ يكُنِ الفعلُ الذي سَاءَ واحِداً ... فَأفْعالُه اللائي سَرَرْنَ أُلُوفُ »

على الفور تحس أذنك أنك انتقلتَ من نثر إلى شعر .

فإذا ما قرأتَ في القرآن مثلاً قوله تعالى : { وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي المدينة امرأة العزيز تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ * فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئاً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخرج عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ للَّهِ مَا هذا بَشَراً إِنْ هاذآ إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ * قَالَتْ فذلكن الذي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فاستعصم } [يوسف : 3032] .

فهل أحسستَ بانتقال الأسلوب من نثر إلى شعر ، أو من شعر إلى نثر؟ ومع ذلك لو وزنتَ

{ فذلكن الذي لُمْتُنَّنِي فِيهِ } [يوسف : 32] لوجدتَ لها وزناً شِعْرياً .

وقوله تعالى : { نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّيۤ أَنَا الغفور الرحيم } [الحجر : 49] .

لو أردتها بيتاً شعرياً تقول (نبىء عبادي إني أنا الغفور الرحيم) . ومع ذلك تقرأها في سياقها ، فلا تشعر أنها شعر؛ لأن الأسلوب فريد من نوعه ، وهذه من عظمة القرآن الكريم ، كلام فَذٌّ لوحده غير كلام البشر .

أما قولهم « مجنون » فالمجنون لا يدري ما يفعل ، ولا يعقل تصرفاته ولا يسأل عنها ، ولا نستطيع أنْ نتهمه بشيء فنقول عنه مثلاً؛ كذاب أو قبيح؛ لأن آلة الاختيار عنده مُعطّلة ، وليس لديه انسجام في التصرفات ، فيمكن أن يضحك في وجهك ، ثم يضربك في نفس الوقت ، يمكن أن يعطيك شيئاً ثم يتفل في وجهك .

والمجنون ليس له خُلق ، والحق سبحانه يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم : { ن والقلم وَمَا يَسْطُرُونَ * مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ } [القلم : 14] .

والخُلق هو المَلَكة المستقرة للخير ، فكيف يكون محمد مجنوناً ، وهو على خلق عظيم؟ ثم هل جرَّبْتُم عليه شيئاً مما يفعله المجانين .

أما قولهم : إن رسول الله افترى هذا القرآن ، كيف وأنتم لم تسمعوا منه قبل البعثة شِعْراً أو خطباً ولم يسبق أن قال شيئاً مثل هذا؟ كيف يفتري مثل هذا الأسلوب المعجز ، وليس عنده صنعة الكلام؟ وإن كان محمد قد افترى القرآن فلماذا لا تفترون أنتم مثله وتعارضونه؟

{ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ } [يونس : 38] .

وهكذا تقوم من نفس أقوالهم الأدلة على كذبهم وادعائهم على رسول الله .

ثم يقول تعالى { وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس وَقَبْلَ غُرُوبِهَا } [طه : 130] .

والتسبيح هو التنزيه لله تعالى ، وهو صفة لله قبل أنْ يخلق مَنْ يُسبِّحه ويُنزِّهه؛ لذلك يقول تعالى في استهلال سورة الإسراء : { سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ } [الإسراء : 1] ؛ لأن العملية

مخالفة لمنطق القوانين ، فقال : نزّه فعل الله عن أفعالك .

إذن : فسبحان معناها أن التنزيه ثابت لله ، ولو لم يوجد المنزَّه ، فلما خلق الله الكون سَبَّحتْ السموات والأرض وما فيهن لله .

فإذا كان التسبيح ثابتاً لله قبل أن يوجد المسبّح ، ثم سبح لله أول خلقه ، ولا يزالون يُسبِّحون ، فأنت أيضاً سبِّح باسم ربك الأعلى . أي : نزّهه سبحانه ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً وأقوالاً عَمَّا تراه من المخلوقات .

ومعنى { بِحَمْدِ رَبِّكَ } [طه : 130] لأن من لوازم الخلق أن يكون مختلفاً في الأهواء والأغراض والمصالح ، يتشاكلون ويتحاربون على عَرَضٍ زائل ، فمنهم الظالم والمظلوم ، والقوي والضعيف .

إذن : لا بُدَّ من وجود واحد لا توجد فيه صفة من هذه الصفات ، ليضع القانون والقسطاس المستقيم الذي يُنظِّم حياة الخَلْق ، فهذا التنزُّه عن مشابهة الأحداث كلها ، وعن هذه النقائص نعمة يجب أن نشكر الله ونحمده على وجودها فيه ، نحمده على أنه ليس كمثله شيء .

فذلك يجعل الكون كله طائعاً ، إنما لو مثله شيء فلربما تأبَّى على الطاعة في « كُنْ فيكون » .

والتسبيح والتنزيه يعني المقياس الذي يضبط العالم ليس كمقياس العالم ، إنما أصلح وأقوى ، وهذا في صالح أنت ، فساعةَ أن تُسبِّح الله اذكر أن التسبيح نعمة ، فاحمد الله على أنه لا شيءَ مثلُه .

سبِّح تسبيحاً مصحوباً بحمْدِ ربك؛ لأن تنزيهه إنما يعود بالخير على مَنْ خلق ، وهذه نعمة تستحق أن تحمدَ الله عليها .

ومثال ذلك ولله المثل الأعلى ربّ الأسرة ، هذا الرجل الكبير العاقل صاحب كلمة الحق والعدل بين أفرادها ، وصاحب المهابة بينهم تراهم جميعاً يحمدون الله على وجوده بينهم؛ لأنه يحفظ توازن الأسرة ، ويُنظِّم العلاقات بين أفرادها . ألم نَقُلْ في الأمثال (اللي ملوش كبير يشتري له كبير) ؟ حتى وإن كان هذا الكبير متعالياً؛ لأن تعاليه لصالح أفراد أسرته ، حيث سليزم كل واحد منهم حدوده .

لذلك من أسماء الله تعالى : المتعال المتكبر ، وهذه الصفة وإنْ كانت ممقوتة بين البشر لأنها بلا رصيد ، فهي محبوبة لله تعالى؛ لأنها تجعل الجميع دونه سبحانه عبداً له ، فتَكبُّره سبحانه وتعاليه بحقٍّ : { إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ } [يس : 82] .

إذن : لا يحفظ التوازن في الكون إلا قوة مغايرة للخَلْق .

وقوله : { قَبْلَ طُلُوعِ الشمس وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَآءِ الليل فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النهار لَعَلَّكَ ترضى } [طه : 130] .

أي : تسبيحاً دائماً مُتوالياً ، كما أن نعم الله عليك متوالية لا تنتهي ، فكلُّ حركة من حركاتك نعمة ، النوم نعمة ، والاستيقاظ نعمة ، الأكل نعمة ، والشرب نعمة ، البصر والسمع ، كل

حركة من حركات الأحداث نعمة تستحق الحمد ، وكل نعمة من هذه ينطوي تحتها نِعَم .
خُذْ مثلاً حركة اليد التي تبطش بها ، وتأمّل كم هي مرِنة مِطْواعة لك كما شئت دون تفكير منك ، أصابعك تتجمع وتمسك الأشياء دون أن تشعر أنت بحركة العضلات وتوافقها ، وربما لا يلتفت الإنسان إلى قدرة الله في حركة يده ، إلا إذا أصابها شلل والعياذ بالله ، ساعتها يعرف أنها عملية صعبة ، ولا يقدر عليها إلا الخالق عز وجل .
لذلك؛ فالحق سبحانه وتعالى يعطينا زمن التسبيح ، فيعيشه في كل الوقت { قَبْلَ طُلُوعِ الشمس وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَآءِ الليل فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النهار } [طه : 130] .
وآناء : جمع إنْ ، وهو الجزء من الزمن ، وهذا الجزء يترقَّى حسْب تنبهك لتسبيح التحميد ، فمعنى التسبيح آناء الليل ، يعني أجزاء الليل كله ، فهل يعني هذا أن يظل الإنسانُ لا عملَ له إلا التسبيح؟
المناطقة يقولون عن الجزء من الوقت : مقول بالتشكيك ، فيمكن أن تُجزّىء الليل إلى ساعات ، فتُسبِّح كل ساعة ، أو تترقّى فتسبح كل دقيقة ، أو تترقّى فتُسبِّح كل ثانية ، وهكذا حسْب مقامات المسبّح الحامد وأحواله .

فهناك من عباد الله مَنْ لا يفتر عن تسبيحه لحظة واحدة ، فتراه يُسبِّح الله في كل حركة من حركاته؛ لأنه يعلم أنه لا يؤديها بذاته بدليل أنها قد تُسْلَب منه في أي وقت .
إذن : فأجزاء الوقت تختلف باختلاف المقامات والأحوال ، أَلاَ تراهم في وحدة القياس يقيسون بالمتر ، ثم بالسنتيمتر ، ثم بالمللي متر ، وفي قياس الوقت توصّل اليابانيون إلى أجهزة تُحدِّد جزءاً من سبعة آلاف جزء من الثانية .
ثم يقول : { وَأَطْرَافَ النهار } [طه : 130] ليستوعب الزمن كله ليله ونهاره ، والمقامات والأحوال كلها؛ لذلك يقول بعض العارفين في نصائحه التي تضمن سلامة حركة الحياة :
(اجعل مراقبتك لمن لا تخلو عن نظره إليك) فهذا الذي يستحق المراقبة ، وعلى المرء أنْ يتنبه لهذه المسألة ، فلا تُكنْ مراقبته لمن يغفل عنه ، أو ينصرف ، أو ينام عنه .
{ واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك) فإذا شربتَ كوب ماءٍ فقُلْ : الحمد لله أن أرواك ، فساعةَ تشعر بنشاطها في نفسك قل : الحمد لله . وساعةَ أنْ تُخرجها عرقاً أو بولاً قل : الحمد لله ، وهكذا تكون موالاة حمد الله ، والمداومة على شُكْره .
(واجعل طاعتك لمن لا تستغني عنه) فطالما أنك لا تستغني عنه ، فهو الأَوْلَى بطاعتك .
(واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن مُلْكه وسلطانه) وإلاَّ فأين يمكنك أن تذهب؟
لكن ، لماذا أطلق زمن التسبيح بالليل ، فقال { آنَآءِ الليل } [طه : 130] وحدده في النهار فقال { وَأَطْرَافَ النهار } [طه : 130] ؟

قالوا : لأن النهار عادة يكون محلاً للعمل والسَّعْي ، فربما شغلك التسبيح عن عملك ، وربنا يأمرك أن نضربَ في الأرض ونُسهِم في حركة الحياة ، والعمل يُعين على التسبيح ، ويُعين على الطاعة ، ويُعينك أنْ تلبي نداء : الله أكبر .

ألاَ تقرأ قول الله عز وجل في سورة الجمعة : { ياأيها الذين آمنوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الجمعة فاسعوا إلى ذِكْرِ الله وَذَرُواْ البيع ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاة فانتشروا فِي الأرض وابتغوا مِن فَضْلِ الله واذكروا الله كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [الجمعة : 910] .

ذلك لأن حركة الحياة هي التي تُعينك على أداء فَرْض ربك عليك ، فأنت مثلاً تحتاج في الصلاة إلى سَِتْر العورة ، فانظر إلى هذا الثواب الذي تستر به عورتك : كم يَدٌ ساهمتْ فيه؟ وكم حركة من حركات الحياة تضافرتْ في إخراجه على هذه الصورة؟

أمّا في الليل فأنتم مستريح ، يمكنك التفرغ فيه لتسبيح الله في أيّ وقت من أوقاته .

ويلفتنا قوله تعالى : { قَبْلَ طُلُوعِ الشمس وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَآءِ الليل فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النهار } [طه : 130] فأيّ طلوع؟ وأيّ غروب؟ وأيُّ ليل؟ وأيّ نهار؟ أهي لمصر أم للجزائر أم للهند أم لليابان؟ إنها ظواهر متعددة وممتدة بامتداد الزمان والمكان لا تنتهي ، فالشمس في كل أوقاتها طالعة غاربة ، ففي هذا إشارة إلى أن ذِكْر الله وتسبيح الله دائمٌ لا ينقطع .

ثم يذكر سبحانه الغاية من التسبيح ، فيقول { لَعَلَّكَ ترضى } [طه : 130] ونلحظ أن الحق سبحانه يحثُّ على العمل بالنفعية ، فلم يقُل : لعلّي أرضى ، قال : لعلك أنت ترضى ، فكأن المسألة عائدة عليك ولمصلحتك .

والرضا : أنْ تصلَ فيما تحب إلى ما تؤمّل ، والإنسان لا يرضى إلا إذا بلغ ما يريد ، وحقّق ما يرجو ، كما تقول لصاحبك : أأنت سعيد الآن؟ يقول : يعني : يقصد أنه لم يصل بعد إلى حَدِّ الرضا ، فإنْ تحقَّق له ما يريد يقول لك : سعيد والحمد لله .

فإنْ أحسنتَ إليه إحساناً يفوق ما يتوقعه منك يأخذك بالأحضان ويقول : ربنا يُديم عمرك ، جزاك الله خيراً .

إذن : رضا الإنسان له مراحل؛ لذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول في الحديث القدسي كما روى النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله يتجلى على خَلْقه في الجنة : يا عبادي هل رضيتم؟ فيقولون : وكيف لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحداً من العالمين ، قال : أعطيكم أفضل من ذلك ، قالوا : يا رب ، وهل يوجد أفضل من ذلك؟ قال : نعم ، أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط بعده عليكم أبداً » .

وهكذا يكون الرضى في أعلى مستوياته . الغاية من التسبيح إذن الذي كلّفك ربك به أنْ ترضى

أنت ، وأن يعودَ عليك بالنفع ، وإلا فالحق سبحانه مُسبَّح قبل أن يخلق ، أنت مُسبّح قبل أن يخلق الكون كله ، ولا يزيد تسبيح في ملكه تعالى شيئاً . ويتم لك هذا الرضا حين تُرضِي الله فيرضيك .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى مَا مَتَّعْنَا }

وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (131)

بعد أن قال الحق سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم : { فاصبر على مَا يَقُولُونَ } [طه : 130] حذره أن ينظر إلى هؤلاء الجبابرة والمعاندين على أنهم في نعمة تمتد عينه إليها . ومعنى مَدِّ العين ألاَّ تقتصر على مجرد النظر على قَدَر طاقتها ، إنما يُوجهها باستزادة ويوسعها لترى أكثر مما ينبغي ، ومَدُّ العين يأتي دائماً بعد شغل النفس بالنعمة وتطلّعها إليها ، فكأن الله يقول : لا تشغل نفسك بما هم فيه من نعيم؛ لأنه زهرة الدنيا التي سرعان ما تفنى .

وقوله : { إلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ } [طه : 131] الأزواج لا يُراد بها هنا الرجل والمرأة ، إنما تعني الأصناف المقترنة ، كما في قوله تعالى : { وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ } [فصلت : 25] .

كل واحد له شيطان يلازمه لا يفارقه . هذه هي الزوجية المرادة ، كذلك في قوله تعالى : { قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ } [الصافات : 51] .

والزَّهْرة إشارة إلى سرعة النهاية والحياة القصيرة ، وهي زَهْرة لحياة دنيا ، وأيّ وصف لها أقل من كَوْنها دنيا؟ وهذا الذي أعطيناهم من متاع الدنيا الزائل فأخذوا يزهُون به ، ما هو إلا فتنة واختبار { لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ } [طه : 131] .

والاختبار يكون بالخير كما يكون بالشر ، يقول تعالى : { وَنَبْلُوكُم بالشر والخير فِتْنَةً } [الأنبياء : 35] .

ويقول تعالى : { فَأَمَّا الإنسان إِذَا مَا ابتلاه رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ ربي أَكْرَمَنِ } [الفجر : 15] .

ويشكر أنه عرفها لله { وَأَمَّآ إِذَا مَا ابتلاه فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ ربي أَهَانَنِ } [الفجر : 16] .

وهنا يُصحِّح لهم الحق سبحانه هذه الفكرة ، يقول : كلاكما كاذب في هذا القول ، فلا النعمةَ دليلُ الإكرام ، ولا سلبها دليلُ الإهانة : { كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ اليتيم * وَلاَ تَحَآضُّونَ على طَعَامِ المسكين * وَتَأْكُلُونَ التراث أَكْلاً لَّمّاً } [الفجر : 1719] .

فهَبْ أن الله أعطاك نعمة ولم تُؤَدِّ شكْرها وحقَّها ، فأيُّ إكرام فيها؟

ثم يقول تعالى : { وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وأبقى } [طه : 131] أي : لا تشغل بالك بما أعطاهم الله؛ لأنه سبحانه سيعطيك أعظم من هذا ، ورِزْق ربك خير من هذا النعيم الزائل وأبْقى وأخلد؛ لأنه دائم لا ينقطع في دار البقاء التي لا تفوتها ولا تفوتك ، أما هؤلاء فنعيمهم موقوت ، إمّا أنْ يفوتهم بالفقر ، أو يفوتوه هم بالموت .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصلاة }